Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات

تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى

تأليف

الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

كلية الآداب-جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت:٤٨٣٩٤٧٢- الاسكندرية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات

تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى

تأليف

الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

كلية الأداب-جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت:٤٨٣٩٤٧٢- الاسكندرية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يقتصر" تاريخ مصر الإسلامية " مقرر هذا العام على دراسة تاريخ مصر منذ الفتح العربى حتى نهاية الدولة الفاطمية، وهى فترة تاريخية طويلة تمتد ما يقرب من خمسة قرون ونصف القرن، شهدت مصر خلالها عهودا من التبعية المباشرة للخلافة الراشدة فالأموية العباسية، كما شهدت عهودا من الاستقلال كما حدث فى عهود الطولونيين والاخشيديين والفاطميين.

والواقع إن فتح العرب لمصر لم يكن بداية الإحتكاك السياسى والحضارى بين العرب والمصريين فقد سبقت ذلك صلات قديمة الغاية يرجع تاريخها الى عصر الدولة القديمة فى تاريخ مصر الفرعونية وبالذات الى عهد الملك سحورع عندما وصلت السفن المصرية الى سواحل اليمن وحضر موت (بلاد بونت) بحثا عن أشجار البخور والورس واللادن مما تنتجه أرض اليمن فى ذلك العصر وما تتطلبه المعابد المصرية وعملية التحنيط.واستمرت العلاقات قائمة بين مصر وبلاد اليمن فى عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة وأشهر الحملات التجارية التى سيرتها مصر فى عصر الدولة الحديثة الحملة البحرية فى عهد الملكة حتشبسوت التى سجلت أخبارها فى نقوش معبد الدير البحرى.

ومما لاشك فيه ان صلات تجارية ظلت قائمة بين مصر الفرعونية وبلاد اليمن فى عصر الدولة المعينية (١)، وان هذه الصلات تجارية كانت قائمة فى العصر البطليمى تشهد بذلك الكتابات المعينية التى عثر عليها فى الجيز

---

(١) الدولة المعينية هى أقدم الدول العربية التى قامت فى اليمن ،ودامت من ١٣٠٠ ق.م الى ٦٣٠ ق.م، وكانت دولتهم تمتد فى الجوف اى فى المنطقة السهلة الواقعة بين نجران وحضر موت. والدولة المعينية دولة تجارية من الطراز الأول سيطرت على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب(راجع: عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، الاسكندرية ١٩٧٣)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى منطقة أدفو ويرجع تاريخها الى سنة ٢٦١ ق .م، وتشير الى وجود جالية معينية فى مصر. ومن المعروف أيضا أن الرومان تمكنوا من إخضاع الانباط (١) لسلطانهم وارغموا ملكهم مالك الأول (٤٧-٣٠ ق .م) على ان يشترك بفرقة من الفرسان فى حملة يوليوس قيصر على الأسكندرية فى سنة ٤٧ ق .م ، كما أرغموهم فى عهد الملك عبادة الثالث النبطى (٣٠ ق . م) على الاشتراك بفرقة من فرسان الانباط فى الحملة الرومانية التى سيرها اغسطس بقيادة ايليوس جالوس لغزو اليمن، كما شارك الانباط فى عهد مالك الثانى (٤٠ - ٧١م) فى الجملة التى سيرها الإمبراطور طيطس سنة٦٧ م لمهاجمة القدس. وكان الأنباط أبان هذه المرحلة التاريخية يحتكرون التجارة البحرية عبر البحر الأحمر مع مصر وبلاد الشرق القديم. وكانت كورة الجفار (٢) أو جفار العريش المعبر الرئيسى القديم للموجات السامية والعربية التى تدفقت على مصر عبر تاريخها القديم سواء اتخذت هذه الهجرات شكل هجرات إقتصادية استهدفت الإستقرار حول خليج العقبة كالمدينيين، أو عبور سيناء كلها كالكنعانيين، أو إتخذت شكل غزوات إستهدفت السيطره على مصر كالهكسوس والعرب. وكان هذا الطريق فى نفس الوقت معبرا مقدسا إجتازه الرسل والأنبياء من أرض فلسطين ومدين وأرض مصر، منهم على سبيل المثال إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام، كما سلكته مريم العذراء وطفلها المبارك عيسى المسيح عند خروجها الى مصر وعند عودتها الى فلسطين. وكان الطريق بالإضافة الى ذلك كله

---

(١) سكن الأنباط ما بين جنوبى سورية وشمالى الحجاز وشبة جزيرة سيناء وكانت بلادهم جبلية قفراء تكثر فيها المرتفعات الوعرة ولهذا عرفت بلادهم عند اليونان ببلاد العرب الصخرية وسميت عاصمتهم البتراء Petraea أى الصخرة وإزدهرت البتراء فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد وظلت زهاء أربعة قرون تشغل مكانا هاما على طريق القوافل الذى يمتد ما بين اليمن والشام ومصر.

(٢) أعتبر جغرافيو العرب الجفار إحدى كور مصر السبع، وقصبة الجفار فى العصر الإسلامى وهى مدينة الفرما كانت مفتاح مصر من الشرق. وإسم الفرما محرف من التسمية القبطية برمون المشتقة من المصرية برا آمون أى بيت آمون.

في جميع الأوقات والعصور طريق التجار والحجاج تتردد عليه القوافل بين آسيا وإفريقيا.

وظلت أرض الجفار تحتفظ بأهميتها الإستراتيجيةكمنفذ رئيسي بين القارتين الأسيوية والإفريقية ومناطق الإستقرار لاسيما بالنسبة للقبائل العربية التي كانت تستقر في أرض مدين كالأنباط ثم الغساسنة حتى الفتح العربي لمصر، فمن المعروف أن طائفة من متنصرة العرب نزلت هذه المنطقة بعد ان امتدت الفتوح الإسلامية الى شمال الشام، فنزل فريق منهم بأرض الجفار مابين مصر وفلسطين، وأسهموا في مدافعة المسلمين عندما أتوا الى مصر فاتحين . ويشير الواقدي الى ان المدد الذي سيره عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص إجتازوا وسط سيناء، فقابلوا " جمعا هائلا يقرب من ثلاثة آلاف سألوهم فإذا هم من عرب غسان ولخم وعاملة كانوا ببلاد الشام، فلما ملك العرب وهزموا هرقل وطلبوا أرض مدين خوفا من العرب وأقاموا بها"(١). وذكر المقريزي نقلا عن جامع تاريخ دمياط أنه كان على تنيس " رجل يقال له بوثور(بن عامر بن صعصعة) من العرب المتنصرة ، فلما فتحت دمياط سار اليها المسلمون، فبرز اليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم، فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع ابي ثور في أيدي المسلمين وإنهزام أصحابه، فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعا "(٢).

ويذكر الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب أن "مساكن لخم متفرقة وأكثرها بين الرمله ومصر في الجفار " كما يذكر أن من جذام بطناً يقال لهم بنوجري ينزلون بالرمل "رمل العزابي" ولكن الوجود العربي في مصر بعد الفتوحات العربية شجع القبائل العربية التي كانت تنزل بشمال الحجاز وشرقي سيناء على النزوح الى وادي النيل، إذا لم يعد لها حاجة الى

---

(١) الواقدي، فتوح مصر والإسكندرية، ليدن ص ١٩، ٦٣ - ٦٦، ١٣٣، ١٣٤.

(٢) المقريزي، الخطط، ح (طبعة الشياح، بيروت، ص ٣١١.

استيطان المناطق الجبلية والصحراوية فى سيناء.

ومما لا شك فيه أن العلاقات بين العرب والمصريين كانت وثيقة عبر حقب التاريخ، وكان عمرو بن العاص نفسه تاجرا ويذكر المؤرخون إنه كان يختلف عليها بتجارته من الادم والعطر وإنه إن يشهد أعياد أهل الإسكندرية وألعابهم (راجع الكندى، ص ٧ - المقريزى، الخطط ج ٢٠ ص ٦٦).

وكان عرب الشمال يستشعرون صلة الرحم التى تربطهم بأهل مصر وتتمثل فى أمومة هاجر المصرية أم إسماعيل، كما كانوا يستشعرون خئولة المصريين لإبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية، ولعل ذلك كان السبب الذى حمل رسول الله على أن يوصى بقبط مصر خيرا، ويأتى المؤرخ ابن عبد الحكم بأحاديث متعددة إستوصى فيها رسول الله قومه خيرا بقبط مصر، وانه قال : "أستوصوا بالأدم الجعد" فسأله القوم : من الأدم الجعد، فقال : قبط مصر فإنهم إخوال وإصهار، وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم "وذكر أيضا نقلا عن ابن لهيعة عن عمر مولى غفرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الله ... الله فى اهل الذمة، اهل المدرة السوداء».

وهكذا لم يكن فتح العرب لمصر مفاجأة للمصريين اذ ان العرب يعرفون المصريين وكان المصريون يعرفون العرب. لقد كانت بين العرب والمصريين صلات قديمة كما كان بين العرب المسلمين وعرب الشام صلات قديمة، وكان ذلك بلا شك من العوامل الرئيسية التى يسرت علي العرب فتح مصر، وأعانت على النقلة.

وتبع فتح العربى توافد موجات متتالية من القبائل العربية الي مصر ونزولها بريفها وتنقلها مرتبعة فى مواسم معينة بداخلها على شكل هجرات داخلية، وقيام جماعات منهم بالمرابطة علي الثغور وكان ذلك في حد ذاته من وسائل الاحتكاك المباشرة بين العرب والمصريين والخطوة الأولى فى عملية تعريب مصر وتفاعل العرب مع مجتمعها واندمجوا فى أهل مصر. وبذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شهدت مصر بالفتح العربى مرحلة جديدة فى تاريخها ، واستعادت شخصيتها فى العهد الجديد على الرغم من تبعيتها للخلافة، فشاركت في الفتوحات والوقائع، ولعبت دورا هاما فى الأحداث الخطيرة التى هزت كيان الدولة العربية، واسهمت في قيام الحضارة العربية الاسلامية مساهمة فعالة. وفى نفس الوقت لعبت دورا اساسيا هاما فى المنطقة واصبحت على هذا مركز النقل فى احداث التاريخ الاسلامى

وقد حاولت فى الصفحات المقبلة ان اعرض صورة واضحة المعالم لتاريخ مصر الاسلامى مستوفية فى ذلك كل من التاريخيين السياسى والحضارى

أسأل الله التوفيق،،،،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصادر العربية

ابن الاثير: الكامل فى « التاريخ، مطبعة مصر، ١٣٥٦ هـ.

البلاذرى : (احمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ١٣ جزءا ، القاهرة ١٩٥٧.

البلوى : (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني) : سيرة احمد بن طولون، تحقيق الأستاذ محمد كرد على، دمشق، ١٣٥٨هـ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزءا ، مطبعة دار الكتب المصرية.

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جزء ٤ ، ٥ مطبعة بولاق ١٣٠٩هـ .

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي) :فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١.

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن) : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة، جزآن طبعة مصر ١٣٢١ هـ.

الطبرى : (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك، طبع ليدن، ١٨٨٣م .

الكندى : (أبو عمر محمد) : كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق الأستاذ روفن جست بيروت ١٩٠٨.

المقريزى(تقى الدين احمد) : كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ اجزاء، طبعة لبنان ١٩٥٩.
المقريزي :اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا، الجزء الأول، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٧ - والثاني والثالث، تحقيق الدكتور محمد حلمي احمد.
المقريزي: البيان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الاعراب، القاهرة ١٣٣٤هـ.
ابن منجب إلصيرفي :الإشارة الى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤.
ناصر خسرو: سفرنامة، تحقيق الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.

المراجع الحديثة.

بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٥٨.
بل آيدرس: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة الدكتور محمد عواد حسين، والدكتور عبد اللطيف أحمد على، القاهرة ١٩٥٤.

البري: (د . عبدالله خورشيد): القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، القاهرة ١٩٦٧٨.
عبد الرحمن زكي: عواصم مصر الإسلامية، فصل من كتاب فى مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٤٧.
سرور: (دكتور محمد جمال الدين): مصر فى عصر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٠.
الشيال: (الدكتور جمال الدين): تاريخ مصر الإسلامية، جزآن الإسكندرية ١٩٦٧.
عبد العزيز سالم (الدكتور السيد): تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى

العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٧.
عبدالله عنان (الأستاذ محمد): مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة ١٩٣٦.
علي إبراهيم حسن (دكتور): مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧.
كاشف (دكتورةسيدة) : مصر في عصر الولاة منذ الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية، القاهرة ١٩٥٩.
كاشف (دكتورة سيدة) : مصر في عصر الإخشدين، القاهرة ١٩٥٠.
،، ،، والدكتور حسن محمود: مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين، القاهرة.
محمد حسن (دكتور زكي) : كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٤٥.
ماجد (دكتور عبدالمنعم) : ظهور خلافة الفاطمين وسقوطها ، الإسكندرية ١٩٦٩.
المناوي (دكتور محمد حمدي) : مصر في ظل الإسلام، الجزء الأول الإسكندرية ١٩٧٠.
- Lane Poole, a history of Egypt in the middle ages,London, 1925.
- Marcel, L'Egypte depuis La conquete des Arabes Jusqu a la domination Fransaise, Paris,1848.
- Wiet, L'Egypte musulmane, se'rie Pre'cis de L' histoire d'Egypte, t.II.
- Zaki Hassan: Lés Tulunides, Paris, 1933.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

مصر قبيل الفتح العربي

منذ النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، أخذت المسيحية تنتشر فى مصر لقربها من فلسطين مهد المسيحية، وازداد هذا الإنتشار بوجة خاص فى الإسكندرية ابان القرن الثانى، وأصبح لها كنيسة فى هذه المدينة. ويرجع سبب هذا الإنتشار فيما يظهر الى إستعداد العقلية المصرية لتقبل الأديان السماوية منذ أن أعلن إخناتون الوحدانية المطلقة أو إلى عوامل إقتصادية وسياسية وإجتماعية وفكرية ونفسية حملت المصريين على أن يقبلوا على هذا الدين الجديد. وكانت هذة العوامل نفسها هى التى جعلت المصريين يودعون العقيدة الجديدة كل تصوراتهم الدينية ونظرياتهم الفلسفية ومشاعرهم القومية وامانيهم السياسية، ولم تلبث المسيحية إن إقترنت عند المصريين بالشخصية المصرية إقترانا وثيقا.

وأثار انتشار المسيحية فى مصر مخاوف الرومان، وأعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين عنصرا خطيرا فى المجتمع، فعمدوا إلى إضطهاد دعاة المسيحية ومعتنقيها منذ النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى، خاصة فى عهد الأمبراطور سبتميوس سفروس (١٩٣ - ٢١١م). وبلغ هذا الإضطهاد ذروته فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) الذى اصطدمت رغبته فى توحيد النظام الادارى فى الامبراطورية الرومانية عن طريق العقائد الوثنية التى رفض المسيحيون المشاركة فيها الى حد ان الكنيسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء منذ ان اعتلى دقلديانوس العرش الامبراطورى فى سنة ٢٨٤. وفى عهده إشتعلت نيران الثورة فى الإسكندرية ضد الأمبراطور، فأضطر هذا الى القدوم اليها بنفسه، وحاصرها مدة ثمانية أشهر حتى سقطت فتخرب الكثير من مبانيها بسبب ذلك. ثم أتت بعد ذلك فترة ازداد فيها اضطهاد الاباطرة لكنيسة الإسكندرية، ولكن هذا الإضطهاد لم يثن الاقباط عن التمسك بدينهم، ثم جاء اعتراف الأمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ - ٣٣٧) بهذا الدين رسميا فى سنة ٣١٣ كدين من اديان الدولة الرومانية انتصاراً حاسما للمسيحية. وما لبث الأمبراطور تيود وسيوس (٢٧٩ - ٣٩٥) ان أعتنق المسيحية وفردها قصرا على رعايا الأمبراطورية. وفى عهده قام البطريق ثيوفيلوس بهدم المعابد الوثنية في الإسكندرية وتدميرها. وفى سنة ٣٨٩ تهدم معبد سرابيس بقرب كانوب شرقى هذه المدينة.

وكان لإنتصار المسيحية السكندرية على الوثنية أثر كبير فى إرتفاع مكانة الكنيسة المصرية، ولكن بيزنطة لم تقبل هذا الوضع، وهنا نشأ نزاع مذهبى كبير بين بيزنطة والإسكندرية من أجل الزعامة الدينية، ويستتر هذا النزاع وراء الجدل المذهبى حول طبيعة المسيح، ولم يلبث هذا النزاع أن احتدم بين الفريقين وتدخل فيه الأباطرة. ثم عقد الأمبراطور مرقيان مجمعا دينيا فى خلقدونية فى عام ٤٥١ اقر فيه مذهب الملكائيين أو الدوفيزيت وهو مذهب الكنيسة البيزنطية وقرر اعتبار كل من الطبيعتين كاملة ومنفصلة عن الاخرى، كما قرر المجمع أن مذهب الوحدانية البحتة أو الطبيعة الواحدة الألهية والبشرية فى آن واحد وهو مذهب المونوفيزيت الذين يتبعون كنيسة الإسكندرية الحاد وخروج عن الدين الصحيح. وبعد أن أدان مجمع خلقدونية المذهب المونوفيزيتي قرر طرد ريسقورس بطربرك الإسكندرية من الكنيسة ونفيه. ولكن المصريين لم يقبلوا هذه القرارات وأعلنوا عصيانهم لها، ولم يلبث النزاع القائم بين كنيستى القسطنطينية والإسكندرية أن تحول إلى تحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجيد من جانب المصريين، فتسمى هؤلاء بالأرثوذكس أو أصحاب الدين الصحيح، وأمعن الأباطرة فى سياستهم التعسفية وادت سياسة بعضهم إلى مزيد من الانقسامات فى صفوف المسيحيين، وامتدت الحركة الأرثوذكسية إلى خارج الاسكندرية وكان من أكبر زعمائها الانبا شنودة والبطريرك بنيامين. وكان لإسراف البيزطيين فى إضطهاد المصريين أعظم الآثر فى معاداة المصريين لهم مما مهد السبيل للفتح العربى لمصر.

وفى سنة٦٠٢ سقط الأمبراطور موريق صريعا أثر ثورة قام بها الجيش بزعامة فوقاس الذى إعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية، ولكن هذا الأمبراطور كان مولعا بسفك الدماء واعمال الإرهاب، فسخط عليه اقرب الأقربين إليه، وأخذوا يدبرون المؤامرات لخلعه. وفى سنة ٦٠٨ أعلن هرقل بطريق قرطاجنة وحاكم إفريقية الثورة على فوقاس، غير أنه كان شيخا طاعنا فى السن لايحتمل أعباء الامبراطورية فرشح لهذا المنصب أبنه الشاب هرقل فأعد جيشا من البربر بقيادة نيقيتاس لغزو مصر بينما زحف هو على سالونيك تمهيدا للسيطرة على القسطنطينية. ونجح نيقيتاس فى الاستيلاء على الاسكندرية فيما بين عامى ٦٠٨، ٦٠٩، ثم الإنقلاب فى العاصمة البزنطية بفضل وزراء فوقاس الذين أسلموه إلى الشعب ليقتص منه، وإنتهى الأمر بقتل فوقاس فى ١٥ أكتوبر سنة ٦١٠ وأعتلى هرقل العرش الأمبراطورى فى نفس هذا العام، ثم أرسل هرقل الى نيقيتاس يثبته فى حكم الاسكندرية ويجعله نائبا عنه فى حكم مصر منها. وكان الخطر الفارسى على املاك الدولة البيزنطية قد ازداد زيادة تهدد باقتطاع أجزاء كبيرة منها، وساعد على ذلك النزاع المذهبى القائم بين المونوفيزيين والملكانيين وتفوق قواد الفرس على قادة بيزنطة وخلو خزائن الامبراطورية من المال. وعندما إشتبك البيزنطيون والفرس فى معركة أمام سور انطاكية فى سنة ٦١٣ إنهزم البيزنطيون وولوا الأدبار إلى مداخل آسيا الصغرى وتمكن الفرس من إحتلال طرسوس ثم تابعوا زحفهم بقيادة شهربراز إلى بيت

المقدس سنة ٦١٤، وتمكنوا من الإستيلاء عليها في مايو ٦١٥. وتبع سقوط القدس أيدى الفرس مذبحة رهيبة سقط فيها ألوف هائلة من السكان وأحترقت الكنائس ودمرت الأسوار والأديرة.

وفي هذه الأونة تلقت الإسكندرية مزيد من اللاجئين الوافدين اليها من الشام. ولم يمضي عام واحد على بيت المقدس حتى وصل الفرس زحفهم نحو الإسكندرية فسقطت العريش وبيلوز وحصن بابليون وأتجهت قواتهم بعد ذلك نحو الإسكندرية فحاصروها في سنة ٦١٧، وخربوا ما حولها من العمران، وفر نيقيتاس في احدى السفن إلى القسطنطينية عندما إشتد حصار الفرس إلى الاسكندرية، وإضطر أهل المدينة إلى فتح أبوابها إلى الفرس، فدخلتها حشودهم، على أن مقام الفرس في مصر كان موقوتا فلم يلبثوا أن خرجوا عنها بعد أن اتم عقد الصلح بين ملكهم شيرويه وهرقل في سنة ٦٢٨ وبمقتضاه أستردت بيزنطة جميع ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس. وعمد هرقل إلى تدعيم أركان دولته وإزالة أسباب النزاع والفتن فيما بعد جاء الفرس عن البلاد، فعمل على التوفيق بين كنيستي القسطنطينية والإسكندرية، وأيد مذهبا جديدا يقول بالإرادة الواحدة وهو مذهب المونوثيلية، وتفسيره أن للمسيح طبيعتين ولكن له إرادة واحدة، زعما منه أن هذا المذهب من شأنه أن يقرب بين أصحاب مذاهب الطبيعة الواحدة وأصحاب مذهب الطبيعتين. وأرسل لهذا الغرض حاكما على مصر اختاره دون غيره في سنة ٦٣٤ لتعصبه للمذهب الإمبراطوري ليسمى قيرس(هونفس المقوقس في المصادر العربية). ولكن قيرس عجز عن إستمالة المصريين الى المذهب الجديد.. فأصطنع معهم العنف وأخذ يتضطهد الاقباط اضطهاداً لم يشهد له نظير من قبل. وأمام هذا الاضطهاد إضطر بنيامين بطريرك الإسكندرية إلى الفرار من بابها الغربي نحو الصحراء، ولاذ في نهاية الأمر بدير صغير لا يبعد كثيرا عن مدينة قوص. وحذا حذوه عدد كبير من أهل مصر فروا إلى أديرة وادي النطرون، كما هجر كثير من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلاحين مزارعهم وقراهم مما أدى إلى إنتشار الفوضى فى البلد وإضطراب جميع مرافقها وتعرض المصريين فى ديارهم لصنوف العذاب والتنكيل. وعلى مثل هذه الحالة السيئة من الفوضى لقى العرب أهل هذه البلاد عند افتتاحهم لها. ورحب المصريون بالفتح العربى لأنه جاء مخرجا لهم من عسف كانوا يئنون تحته وإضطهاد طالما رزحوا تحت ثقله، وكان ذلك من العوامل التى هونت مشكلة الفتح العربى لمصر. وتشير المصادر العربية للفتح إلى أن فريقا من أقباط مصر ساعد الجيوش العربية فى عملياتها الحربية ضد البيزنطيين فابن عبد الحكم يؤيد ان جماعة من رؤساء القبط خرجوا مع المسلمين إلى الإسكندرية وقد اصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أردوا من قتال الروم (١).

وبدخول الإسلام مصر فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) شهدت البلاد حضارة جديدة قريبة من منف حضارة مصر القديمة، وأصبحت الفسطاط مركز الإشعاع للحضارة العربية الإسلامية. وأخذت مصر تغير لغتها ودينها تدريجيا، وتم ذلك بطريقة طبيعية قوامها التفاعل بين العرب الفاتحين وأهل مصر، وما تترتب على ذلك من عومل سياسية وحضارية بعيدة المدى.

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٠٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول

مصر في عصر الولاة

(الفصل الأول)

مصر في عصر الخلفاء الراشدين

(١)
فتح العرب لمصر

ذكر الطبرى أن ارطبون بطريق الروم على بيت المقدس فر من هذه المدينة قبل ان يسلمها صفرونيوس الى العرب ولاذ بمصر، فانتهز عمرو بن العاص فرصة وفود عمر ابن الخطاب الى الشام فى سنة ١٧ هـ للمرة الثالثة، وقدم الجابية، فخلا به، وإستأذنه فى السير إلى مصر لفتحها. ويشير مؤرخو العرب إلى أن فكرة فتح مصر كانت من وحى عمرو بن العاص الذى كان زارها فى الجاهلية عندما كان يتردد عليها بتجارته وهى الادم والعطر، وانه حاول إقناع الخليفة عمر بضرورة فتحها وحرصه عليها، وقال: "أنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم، وهى أكثر الارض أموالا، وأعجزها من القتال والحرب"، وكان عمر متخوفاً من الدخول فى مغامرة جديدة قد تنتهى بكارثة، وكان كارها لغزوها إشفاقا على المسلمين، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويهون عليه فتحها حتى إستجاب له عمر، فعقدعلى أربعة آلاف رجل وقيل على ثلاثة آلاف وخمسمائة، واتفق معه الخليفة على ان يشرع فى السير ثم يرسل إليه عمر كتابا برأيه النهائى، فإذا وصله كتاب الخليفة يأمره فيه بالقفول عن مصر قبل ان يدخلها فعلية بالإنصراف، أما إذا كان قد دخلها قبل أن يصله كتاب الخليفة فليمضى فى خطته. فسار عمرو بن العاص بجسشه نحومصر ويبدو ان عمرعدل عن موافقته فكتب إلى عمرو على الفور يأمره بالقفول، وأدرك الكتاب عمرا وهو برفح، فخاف

عمرو، أن هو أخذ الكتاب وفتحه وجاء ما يدعوة الى العوده فلم يأخذه من الرسول وواصل سيره حتى دخل حدود مصر، فأمر بالكتاب فقرأه على المسلمين. ويزعم بعض المؤرخين أن عمرا سار الى مصر بغير إذن، ثم كتب الى الخليفة يستأذنه وهو فى طريقه الى مصر وجاء رد عمر وهو دون العريش، فلم يقرأ الكتاب حتى بلغ العريش، ثم طالع فيه أمر عمر بأن ينصرف إذا لم يكن قد تجاوز حدود مصر. وذكر البعض انه مضى الى مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسمائة، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويأمره بالرجوع الى موضعة من فلسطين ان وافاه كتابه دون مصر، فورد كتاب الخليفة عليه وهو بالعريش.

وهناك فريق آخر من الرواة يراجعون الفكرة الى عمر بن الخطاب ويذكرون ان عمر وهو بالجابية كتب الى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص الى مصر، فوافاه كتابه وهو بقيسارية، وذكروا أن عمر كتب الى عمرو يأمره بندب الناس الى المسير معه الى مصر، فندبهم عمرو، فأسرعوا بالسير معه الى وجهته، فلما علم عثمان بن عفان بذلك أفصح عن مخاوفه، وقال: "يا أمير المؤمنين، ان عمرا لمجرأ وافيه أقدام وحب للإمارة، وأخشى ان يخرج فى غير ثقة ولاجماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لايدرى تقوم أم لا"، فندم عمر على كتابه الى عمر إشفاقا مما قال عثمان، فكتب إليه" ان أدرك كتابى قبل ان تدخل مصر فارجع إلى موضعك وأن كنت دخلت فامضى لوجهك".

والظاهر أن فكرة فتح مصر أثيرت لاول مرة عندما قدم عمربن الخطاب الى الجابية فى سنة ١٧هـ (٦٣٨) م للإشراف على آخر ماوصت اليه الفتوحات الإسلامية، ومن المعتقد أستناد الى نصوص السابقة أن عمرا – وكان قائدا قديرا وسياسيا بعيد النظر لما أدرك ضرورة فتح مصر من الوجهة العسكرية أولا للإقلال من تطويق الروم للمسلمين من جهة الجنوب والغرب خاصة وإن أرطبون أحد كبار القادة البيزنطيين قد لاذ بها، وبالإضافة الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا العامل كان العرب على علم تام بعظم ثروة مصر وأهمية موقعها الجغرافى فقد وفد إليها فى العصر الجاهلى عدد كبير من العرب للتجارة كعمرو بن العاص وعثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة، ويضاف إلى هذا العامل الإقتصادى عامل آخر سياسى، ذلك أن الشام ومصر كانتا وما زالتا تربطهما معالم سياسية وحربية وتجارية واحدة، وكثيرا ما إرتبط الشام ومصر معا فى وحدة تاريخية وثيقة، وكان مصيرهما واحدا خلال فترات طويلة من التاريخ القديم والوسيط، ولا شك ان الموقع الجغرافى لكل من مصر والشام هو الذى حتم عليهما هذا التعاون والإلتقاء إلى أبعد مدى. وما زال عمرو يلح على الخليفة، والخليفة منصرف عن الإستجابة لرغبته خوفا من فتح جبهة حربية جديدة فى وقت كانت جيوش العرب موزعة من جبهات متعددة، إلى أن أنثنى أمام الحاجة الشديدة. وأذن له. ولعل موافقة عمر كانت مشروطة حتى يترك لنفسه فرصة لإستخارة الله والتفكير فى الأمر وقد يكون قد إتفق مع عمرو على ان يكتب اليه بما إستقر عليه رأيه. وسواء وصل كتاب عمر قبل ان يدخل عمرو أرض مصر ولم يصل، فإن عمرا سار بجيشه فى ١٨ هـ فى الطريق المحاذى لساحل البحر المتوسط فوصل الى العريش وكانت تعرف قبل الفتح العربى باسم رينو قورورا ومنها إلى الفرما أهم معاقل مصر الشرقية وكانت تعرف قديما بحصن بيلوز، وكانت تقع شرقى بورسعيد الحالية وكان بها قوم من الروم مستعدون للقتال، فاشتبك المسلمون مع الحامية البيزنطية، وإستمر حصار المسلمين لها ما يقرب من شهر الى أن سقطت فى أيدى المسلمين ومنذ ذلك الحين أصبحت الفرما معقلا يؤمن العرب الطريق المؤدية الى بلاد الشام والحجاز ويضمن لهم، خطة الرجعة. وذكروا ان بنيامين بطريك بالاسكندرية (١) عندما بلغه

---

(١) يسميه مؤرخو العرب أبو بنيامين، وكان على المذهب المونوفيزيتى، وقد تعرض بنيامين لإضطهاد قيرس حاكم مصر من قبل هرقل، الذى لجأ إلى سياسة تقوم على الشدة والتعسف، إضطرت البطريرك القبطى بنيامين إلى الفرار من الاسكندرية إلى الصحراء (بتلر، فتح العرب مصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣، ص ١٣٣). وعندما إفتتح عمرو الإسكندرية دعاه إلى الحضور آمنامطمئنا، فلما حضر الى كرسيه البطريركى احتفل به عمرو بن العاص وأطلق يده فى الإشراف على شئون القبط (شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية ص ١٢١).

دخول العرب أرض مصر، كتب الى الإقباط سكان البلاد بأن ملك الروم قد إنقطع، ويأمرهم بتلقى عمرو.-والظاهر أن فريقا من الاقباط اطاع بنيامين، وإنضموا إلى جانب المسلمين، وكانوا لهم أعوانا.

موقعة حصن بابليون:

واصل عمرو زحفة نحو حصن بابليون دون أن يلقى مقاومة تذكر فاجتازوا السبخة المحيطة بالفرما، وعبروا الرمال التى تسلطها الأصداف البيضاء جنوبا حتى بلغوا مجدول القديمة الواقعة من الجنوب الغربى من الفرما ومنها تقدموا إلى موقع يقع فى نفس المكان الذى تشغله حاليا مدينة القنطرة لا يدافعوا إلا بالأمر الخفيف الى أن نزلوا القواصر (١)، فدخلها عمرو، ثم سار إلى حصن بلبيس، فقاتل البيزنطيين نحو شهر حتى إفتتحها، ثم مضى فى طريقه حتى أتى أم دنين وهى قرية تقع الى شمال حصن بابليون (٢)، وهناك اشتبك عمرو مع البيزنطيين فى قتال عنيف، انتهى بهزيمة الروم فتحصنوا داخل الحصن فحاصرهم، وقاتلهم قتالا شديدا، وكان حصن بابليون من المناعة و الحصانة بحيث لا يمكن إقتحام اسواره او تخريب ابراجه، فلما تعذر على عمرو فتح الحصن، وطال امد الحصار كتب عمرو الى عمر يستمده، فأمده عمر بأربعة الآف رجل وكتب الى عمرو: " انى قد امددتك بأربعة آلاف رجل على كل الف منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، ولما طال الحصار على قيرس حاكم مصر اخذ يفاوض عمرا فى شروط الصلح، وأرسل قيرس هذه الشروط الى هرقل، فغضب وأرسل الى قيرس وقواد الروم يعنقهم على

---

(٢) بلدة قديمة من أعمال مركز التل الكبير تعرف اليوم بالقصاصين، وحددها ياقوت بين الفرما والفسطاط(معجم البلدان، مجلد ٤ من ٤١٠).

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٩١. وقيل ان عمرا أرسل إليه الزبير فى إثنى عشر ألفا (عبد الحكم من ٩٢ - البلاذرى، ص ٢٥١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تخاذلهم أمام العرب، ورفض الروم الصلح وإستؤنف القتال من جديد. .وفى هذه الأثناء عمد الزبير الى إصطناع الحيلة، فوضع سلما إلى جانب الحصن، ثم صعد وأصعد معه جماعة، وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا. فكبر الزبير وكبر من معه، فأجابهم المسلمون من خارج، فلما سمع البيزنطيون التكبير لم يشكوا قط فى أن العرب قد إقتحموا الحصن، ففر الحراس - والمدافعون عن تلك الجهة، فنزل الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه، فتدفق المسلمون فى الحصن، ولما فتحه بعد ما يقرب من سبعة أشهر، وعقد العرب مع المصريين معاهدة تعرف بمعاهدة حصن بابليون الأولى فى سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م). وكان لسقوط حصن بابليون أهمية عظمى للفاتحين لأنه كان يعنى سقوط مركز الدفاع الأول فى مصر، وتفتيح الطريق للزحف إلى الإسكندرية، ويبدو ان قيرس سافر الى بيزنطة لينقل إلى هرقل شروط المعاهدة، ولكن الإمبراطور رفض هذه الشروط وطلب من البيزنطيين أستئناف القتال. وكان عمرو قد أستغل فرصة غياب قيرس فى بيزنطة، فأستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونين واخميم وقرى الصعيد وتنيس ودمياط ودميرة وغيرها، ثم عبر المسلمون نهر النيل متوجهين الى الإسكندرية حاضرة مصر.

فتح الاسكندرية :

بمقتضى الصلح مع الاقباط فرض عمر عليهم دينارين عن كل شخص بلغ الحلم"ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا النساء شيء" وإشترط عمرو على الأقباط أن يكون للمسلمين الحق فى النزول عليهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وفى مقابل ذلك لا يتعرض المسلمين لإراضيهم وأموالهم، وتعهد القبط بإقامة النزل للمسلمين والضيافة وإقامه الجسور وإصلاح الطريق ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية. وسار

عمرو إلى الإسكندرية فى ربيع الأول سنة ٢٠ هـ (٦٤٢ م) بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم، وإشتبك عمرو مع الروم فى نقيوس الواقعة على الشاطىء الشرقى لفرع النيل الغربى بالقرب من منوف الحالية، ثم فى سلطيس (وصحتها، سنطيس) الواقعة على بعد أميال جنوبى دمنهور الحالية، وإنهزم البيزنطيون فى كل من هذين الحصنين. ثم إلتقى عمرو بالبيزنطيين فى حصن الكريون، وكان أهم معقل بيزنطى أمام الإسكندرية، وكانت الكريون تشرف على ترعة الاسكندرية التى يعتمد عليها أهل الإسكندرية فى السقيا ونقل المؤن، وهناك قامت معركة حامية إستمرت عدة أيام إنتهت بانتصار عمرو على تيودور قائد القوات البيزنطية إنتصارا حاسما تراجع البيزنطيون على أثره بعد أن قتل منهم عدد كبير، وتحصنت فلول الجيش البيزنطى فى الاسكندرية. وكانت الاسكندريه مدينة حصينه لها أسوار محكمة البناء، ولها حصن منيع كان الفرس أقاموه فى فترة إحتلالهم للإسكندرية فى شرق المدينة من جهة الميناء الشرقية. وأدرك عمرو إسحالة إستيلائه على الإسكندرية لمناعتها، فآثر أن يترك عليها فرقة للرباط مابين حلوة وهو موقع بشرق الاسكندرية الى قصر فارس، ويسير هو على رأس جيشة لفتح بقية الوجه البحرى.

وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو حاصر الإسكندرية ثلاثة اشهر حتي صالحه المقوقس (قيرس) عن أهلها، وأن هذا هو الفتح الأول، وذكر أيضا أن عمرا قام على حصار الاسكندرية بضعة أشهر، فلما بلغ ذلك عمربن الخطاب قال: "ما أبطأوا بفتحها الالما أحدثوا" وذكر أيضا أن عمرو فتح الإسكندرية صلحا يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين، وخلف بها الف رجل من أصحابه، ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم، وبلغ ذلك عمرا فكر راجعا. ففتحها وأقام بها. والمتفق علية أن عمرو بن العاص حاصرها المدة ١٤شهرا: منها تسعة اشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وأن فتحها ثم فى أول المحرم سنة ٢١هـ (٦٤٢).

وساعد على فتح العرب للإسكندرية موت الإمبرطور هرقل وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته فى ٢٣صفر سنة ٢٠هـ (١١فبراير سنة٦٤١م)، وقيام المنازعات فى القسطنطينية من أجل العرش، مما إضطر البيزنطين إلى العمل على انهاء حالة الحرب، وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية وذكر حنا النقيوسى أن البطريق قيرس الذى عاد من بيزنطة وبيده تفويض من الامبراطور يخولة عقد الصلح مع عمرو ذهب إلى عمرو فى بابليون ليفاوضه فى الصلح، وتم الاتفاق بينهما على ان يدفع اهل الإسكندرية للعرب جزية شهرية وأن يقدموا لعمرو، ١٥٠ جنديا و٥٠ مدنيا بمثابة رهائن، وفى مقابل ذلك يتعهد المسلمون بعدم التدخل فى شئون المسيحين وكنائسهم، والسماح لليهود بالبقاء فى الإسكندرية، وأن يبقى المسلمون مدة ١١شهرا خارج المدينة حتى يبحر عنها الروم. ووقعت المعاهدة بين الطرفين فى طليعة نوفمبر سنة ٦٤١، وتم إبحار الروم فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م.

وما أن أتم عمرو بن العاص فتح الإسكندرية حتى بعث معاوية بن حديج رسولا من قبله إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بالفتح فلما قدم معاوية على عمر بن الخطاب ويشره بفتح الإسكندرية خر عمر ساجدا وحمد الله. ثم مضى إلى المسجد وطلب من المؤذن ان يؤذن فى الناس للصفة، فاجتمعوا، ثم أبلغهم ابن حديج بما أفاء الله على المسلمين ثم صلى عمر وعاد الى داره.

ثم أردف عمرو بن العاص رسوله برسول آخر يحمل كتابا إلى الخلفة جاء فيه: "اما بعد فانى فتحت مدبنة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين الف يهودى عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك، وأثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر"وعلى الرغم من المبالغة الواضحة فى الأرقام المذكورة، فانها تعبر عن عظمة عمران الاسكندرية عند الفتح العربى وما أحدثة فتحها من آثار فى نفوس الفاتحين.

(٢)

أسباب عدول العرب عن اتخاذ الاسكندرية حاضرة لمصر الإسلامية

بهت العرب عند إفتتاحهم الإسكندرية لما شاهدوه فيها من حسن العمارة وروعة التخطيط وجليل العمران وكثرة الدور التى هجرها أصحابها، وأصبحت أخائذ للفاتحين، كما اعجبوا ببياض دورها المتخذة من الرخام الأبيض الناصع، وبحصانة أسوارها وروعة آثارها، وكثرة مرافقها وليس غريبا ان تكون لفتح الاسكندرية هذة الأهمية، كما أنه ليس غريبا أن يذهل العرب من مشاهدة آثارها الجليلة، فمنار الاسكندرية كان يعد إحدى عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم. ولذلك حظى هذا المنار بنصيب وافر من وصف المؤرخين والرحالة على السواء، وعمود دقلديانوس الذى عرف خطئا باسم عمود بومبى، كان موضع إعجاب الرحالة العرب، فافاضوا فى وصفه، وأسبغوا عليه كثيرا من القصص، وسموه عمود السوارى لضخامته وإرتفاعه الهائل بين الأعمدة الأخرى التى كانت تحيط به فى معبد السرابيوم او القصر حسب تسمية الرحالة العرب، ثم اطلقوا على باب المدينة القبلى اسم باب العمود نسبة إليه. ويضاف الى هذين الأثرين أثار أخرى جليلة كانت تزهو بها الإسكندرية كالمكتبة المشهورة التى زعموا ظلما وإفتراء أن العرب أحرقوا محتوياتها من الكتب بأمر عمرو ابن العاص إستنادا على رواية كاتب متأخر هو ابن العبرى من القرن السابع الهجرى. ومن آثار الإسكندرية أيضا التى أثارت إعجاب الفاتحين العرب الملعب المعروف بالجمنازيوم الذى يزعم مؤرخو العرب أن عمرو ابن العاص نزل به مع صاحبه الشماس لمشاهدة احتفالات القوم فيه وذلك قبل ظهور الاسلام أو على الاقل قبل أن تبدأ حركة الفتوحات الإسلامية، ومنها المسلتان اللتان كانتا فى صدر كنيسة القيصر يوم، وقد ظلتا قائمتين حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، كذلك كان تخطيط الإسكندرية الرائع عاملامن العوامل التى

أثارت إعجاب الفاتحين،فشوارعها المستقيمة التى تتقاطع فيما بينها عموديا على شكل رقعة شطرنج، كانت مقنطرة من الجانبين، وميادينها كانت واسعة تزدان بالتماثيل والأعمدة، صهاريجها الجوفية كانت فسيحة بحيث تتيح للفارس ان يسير تحتها وبيده رمح، وأسوارها كانت منيعة مزوده بالحصون والأبراج، تكفل المسلمون مقاومة الغزاة والمغيرين، وبيوتها المهجورة تغنى المسلمين عن بناء مساكن جديدة ويذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص عندما رأى بيوتها خالية من أصحابها هم بسكناها وإتخاذها قاعدة لمصر، إذ أن ذلك يكفيه بناء مدينة جديدة لايمكن للعرب فى تلك الاونة وفى ظروف الفتح أن يقيموا مساكن تضاهيها فى العظمة والمظهر الجمالى مهما بذلوا من جهود ونفقات، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، وكتب اليه يبرر ما رآه بقوله: "مساكن قد كفيناها" ولا شك أن تفكيرعمرو فى إختيار الإسكندرية حاضرة للمسلمين فى مصر كان أمرا طبيعيا فى الوقت الذى لم يكن العرب على أستعداد بعد لتأسيس مدينة جديدة. ثم أن الاسكندرية كانت تعتبر المدينة الاولى فى مصر منذ أن أسسها الإسكندر حتى إفتتحها العرب، وكانت من الوجهة العمرانية والمعمارية مدينة حصينة عامرة بالأسواق، كثيرة الخيرات، بهرت الفاتحين العرب بآثارها العظيمة، وبطيب هوائها وبموقعها الجغرافى والإستراتيجى الهام الذى هيأ لها أن تتوسط طرق التجارة بين الشرق والغرب. كل هذة المميزات كانت كفيلة باختيارها حاضرة لمصر الإسلامية ولكن ابن عبد الحكم يذكر أن عمرو أرسل يستشير عمر بن الخطاب فى اتخاذ الاسكندرية حاضرة للبلاد فى العصر الإسلامى، فسأل عمر رسول عمرو اليه:" هل يحول بينى وبين المسلمين ماء" فلماأجابه الرسول بالايجاب كتب إليه عمر يأمره باختيار مكان آخر لا يفصله عنه ماء فى شتاء ولا صيف، كما كتب بهذا المعنى إلى سعد بن أبى وقاص فى مدائن كسرى، وإلى عامله بالبصرة فتحول عمرو بن العاص من الاسكندية الى الفسطاط،

وأغلب الظن أن عمر بن الخطاب كان يهدف من وراء قوله أن تكون عاصمة البلاد فى موضع مأمون لا يطل على بحر أو على نهر، بل فى موضع يسهل الوصول إليه دون إجتياز مياه عذبة أو مالحة ويبدوا أيضا من قوله انه كان يشترط فى اختيار الحاضرة الأ تكون ميناء بحريا ورأى - عمر على هذا النحو رأى سليم يشف عن بعد نظره وحكمته، فالإسكندرية ميناء بحرى لابد لمن يتخذه قاعدة له من التفوق فى الشئون البحرية. وكان البطالمة والرومان والبيزنطيين عارفين بأمور البحر ملمين بأصول الملاحة فيه وكانت لهم من الأساطيل التجارية والحربية تجوب مياهه ولذلك لم تكن هذه الشعوب تخشى من إتخاذ قواعد بحرية لها على السواحل، بل ان هذة القواعد كانت ضرورات أملتها ظروف هذة الشعوب. أما العرب فقد كانوا قد فقدوا كل إتصال لهم بالبحر وأهملوا شئونهم وفقدوا الدرايه على ركوبه وخوض أهواله وإقتصروا فى تجارتهم قبل ظهور الإسلام على الطرق البرية بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية: الحبشية والفارسية، فالفرس بضمهم اليمن والبحرين وما يليهما قضوا على تجارة العرب فى الخليج الفارسى وأصبحت تجارة الهند فى أيديهم. والاحباش منذ أن فتحوا اليمن إحتكروا الطريق التجارى عبر البحر الأحمر. ويعلل بن خلدون تخلف العرب فى ثقافة البحر وركوبه ببداوتهم بينما يعزو تفوق الروم والأفرنجة الى "ممارستهم أحواله ومرباهم فى التغلب على أعواده" فالقضيه كما نرى لم تكن رهبة من البحر كما يزعم الرواة، ولكنها كانت مسألة بعد نظر وإدراك ووعى لحقيقة الأمور: فالعرب كانوا حديثى عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط والخليج الفارسى، والعدو الذى يواجهونه سواء كان فارسيا أو روميا خصم عنيد متمرس فى شئون البحر وثقافته، متدرب على ركوبه، ولاشك أن عمر ابن الخطاب أدرك أن العرب فى هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم لقلة خبرتهم البحرية بخلاف الفرس الذين كانت صلاتهم بالبحر أقل كثير من الروم، ولذلك نجح العرب فى امد قصير فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقويض الإمبراطورية الساسانية، بينما استمر نضالهم مع الروم فى الشام وفي جزر البحر المتوسط وفي الغرب قرونا طويلة. وهذا الوعى من جانب خليفة المسلمين يفسر قيامه بتأديب العلاء بن الحضرمى واليه على البحرين لتغريره بالمسلمين فى الخليج الفارسي وتعريضهم للهلاك فى سنة ١٧ هـ، ولومه عرفجة بن هرثمة الأزدى سيد بجيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه فى البحر. وقد يكون إدراك عمر بن الخطاب لتخلف المسلمين البحرى نتيجة لاخفاق حملة علقمة بن مجزز المدلجى البحرية إلى الحبشة فى سنة ٢٠ هـ اذ غرقت سفنه في البحر فكان لذلك أثر عميق في نفسه لذلك كله عمد عمر بن الخطاب إلى تأسيس الحواضر الإسلامية فى داخل البلاد وإهتمامه بتحصين السواحل بالمحارس والمسالح وشحنها بالمقاتلة لمراقبة النواحى التى يقبل منها الروم فى البحر والأنذار باقترابهم ليلا عن طريق المواقيد.

ونستطيع أن نخرج من ذلك بأن عمر بن الخطاب أدرك أن الإسكندرية بوقوعها على البحر كانت سهلة المنال على العدو وهى لهذا السبب لم تكون جديرة بالاختيار حاضرة لمصر ولعل وقوعها على الساحل كان سببا فى أن يهتم خليفة المسلمين بتحصينها والدفاع عنها.

ويصف الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد تفسيرا آخر لعدول عمر ابن الخطاب عن اتخاذ الإسكندرية حاضرة لمصرالإسلامية، وإختيار عمرو بن العاص موضع الفسطاط لهذا الغرض، إن هذا الموضع الذى وقع قريبا من عواصم مصر التقليدية (عين شمس ومنف) وأصلح المواضع لحكم الوجهين القبلى والبحرى، وأن إختيار عمرو له تسجيل لعودة مصر الى السياسة الوطنية الأصلية التى تواجة أهتمامها الى داخل البلاد ونحو المشرق العربى وذلك ما لم يكن يتحقق فى الإسكندرية التى تتطلع الى البحر والشواطىء الأوروبية. وهكذا كان رأى عمر بن الخطاب فيما يختص بأمر الماء الذى يفصل بينه وبين المسلمين، منطقيا يعبر عن حسن بصيرته وبعد نظره، وليس أدل على ذلك من محاولة الروم بفتحها بحرا فى أوائل سنة ٢٥ هـ

(أواخر عام ١٤٥ م) ولم يكن قد مضى بعد على فتحها أربع سنوات، فقد فوجيء المسلمون بنزول الروم فى الاسكندرية، فأسلمت لهم المدينة بدون مقاومة. وزحفت جيوش الروم بقيادة مانويل قائد الحملة الى الجنوب الشرقى متجهة إلى الفسطاط وإشتبكوا مع المسلمين بقيادة عمرو بن العاص وشريك ابن سمى فى نقيوس فى قتال عنيف إنتهى بهزيمة الروم، فتراجعوا إلى الإسكندرية وتحصنوا بأسوارها، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب المجانيق ودمر جانبا من السور وإقتحم المسلمون المدينة واستعادوها بعد صعوبات كثيرة وأعمل السيف فى حامية الروم ولم يرفع السيف عنهم إلا بعد أن إستأصلهم وقتل قائدهم.

ومن ذلك نعلم أن موقع الإسكندرية على البحر المتوسط كان من شأنه أن يعرضها لخطر الغزو البحرى، وهكذا جاء رأى عمر الحصيف باتخاذ حاضرة أخرى غيرها، واهتدى عمرو بن العاص إلى موقع الفسطاط، وهو موقع متوسط بين الدلتا والصعيد ويستطيع منه الإشراف على مصر العليا ومصر السفلى.

(٣)
تأسيس الفسطاط

اتيح لمصر بعد أن إمتدت اليها أشعة الإسلام أن تشهد حاضرة جديدة تعتبر أولى حواضر مصر الاسلامية وأعنى بها الفسطاط. وكان موقع الفسطاط جديرا بالاختيار من الواجهة الإستراتيجية والجغرافية عند رأس دلتا النيل و[illegible] سرقيع له من الوجهتين الحربية والادارية ما يجعله فى مأمن من الغزوات سيما وإن [illegible] المقطم الذى يحمى الفسطاط من الجهة الشرقية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يقوم مقام الدرع الواقى لها ضد العدو (١) من جهة وضد فيضان النيل من جهة ثانيةثم إن هذا الموقع يسهل مهمة وصول الأقوات الى الفسطاط فى الوقت المناسب لقربه من المناطق المزروعة. كان أول بناء إقامة عمرو فى الفسطاط المسجد الجامع المرسوم باسمه وهو أول جامع أقيم بمصر وسمى لذلك جامع الفتح أو تاج الجوامع. وقد اختار عمرو موضعه إلى المكان الذى كان فيه لواؤه وعرف لهذا السبب أيضا بمسجد أهل الراية (٢) وهم جماعة من المهاجرين والانصار كان يتشكل منهم عسكر المسلمين. وكان هذا الجامع أساس لتنظيم العمرانى للفسطاط والمركز الدينى الهام الذى إلتفت حوله بقية مراكزها العمرانية والقلب الذى كان ينبض بحياتها. وكان تشييد المساجد الجامعة فى الإسلام أساس العمران فى المدن الإسلامية أو المدن المفتوحه التى يراد صبغها بالصبغة الإسلامية البحتة، وكان هذا المسجد يسيطر على حياة المدينة إجتماعيا وإقتصاديا لوقوعة على النيل مباشرة وإحاطتة بالأسواق والدور والقصور والحمامات والفنادق والقيسارات كما كانت له أهميته فى الحياة السياسية ففيه كانت تعقد الإجتماعات السياسية وتوزع ألوية الجيش وتقرأ المنشورات السياسية. وهكذا أسس عمرو المركز الدينى، والإقتصادى والسياسى للفسطاط واقام بجوار هذا

---

(١) كذلك كان وجود حصن بابليون أو قصر الشمع والمعلقة فى الموقع وأثره فى تدعيم الدفاع عن موقع الفسطاط فقد ذكر المقريزى أن موضع الفسطاط كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم وأنه ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه فى زمن المقريزى بقصر الشمع وبالمعلقة كان ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية ويقيم فيه ما شاء ثم يعود إلى الأمارة وينزل الملك من الإسكندرية (المقريزى، الخطط، ج، ص ٤٢) وإسم بابليون أطلق على المنطقة التى أقيم عليها الحصن المذكر نسبة إلى البابليين الذين أتخذوا لهم فى هذا الموضع معسكرا حربيا فى القرن السادس ق.م .فلما أقام تراجان القلعة الواقعة على النيل فى موضع المعلقة سمى بحصن بابليون أو حصن مدينة بابليون وسمى أيضا بقلعة مصر Castle of Khemi وحرفها العرب إلى قصر الشمع (راجع: جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ج ١ ص ٣٥) على النحو الذى حرف به العرب لفظة الخورنق التى أطلقوها على معبد الكرنك إلى كرنك وسموا المدينة بالأقصر (جمع قصر).

(٢) ياقوت، معجم البلدان، مادة الفسطاط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسجد من الشرق دار كبيرة له ثم وأقام غربيها دار أخرى لإبنه عبد
لصق الدار الأولى كانت أقل منها في المساحة. ثم قدمت القبائل العر
التي اشتركت في الفتح وتنافست على المواضع المحيطة بالمسجد ورأى ع
إزاء ذلك ان يعين على هذة الخطط أربع من رؤساء جندة هم معاوية بن حد
وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وجبريل بن نا
المعافري فانزلوا الناس منازلهم وجعلوا لكل قبيلة خطة في حارة تقيم
وسميت هذه الخطط والحارات بأسماء هذه القبائل فكانت خطة أ هل الر
وخطة مهرة وخطة تجيب وخطة لخم وخطة يحصب وخطة بني وائل و
خولان وخطة مذحج وخطة وعلان. . .الخ. وقد وصف المؤرخ ابن عبد الح
هذه الخطط في شيء من التفصيل. وتألفت من الخطط أحياء الحاض
الجديدة لمصر الإسلامية، وأطلق عليها مدينة الفسطاط وأختط عم
للخليفة عمر بن الخطاب دار وكتب اليه بذلك فأمره بأن يجعلها أسوا
للمسلمين وأول من بنى في الفسطاط غرقة عليا خارجة بن حذافة فبلغ ذ
عمر فكتب إلى عمرو يقول: " اما بعد فانه بلغني أن خارجة بن حنافة ب
غرفة وأراد أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابي هذا فأهدمها
شاء الله والسلام " وذكر ابن عبد الحكم ان عمرو إختط حماما صغيرا يق
له الغار لصغر حجمه بالقياس إلى ديماسات الروم. وقد اختلفت المؤرخون
سبب هذه التسمية ويعتقد بتلر Butler في كتابه فتح العرب لمصر ان لف
الفسطاط مأخوذ من اليونانية Fassatum وتعني المدينة المحصنة وعلل ه
التسميه بأن العرب اخذوا هذا اللفظ عن الروم أثناء حروبهم في الشام. و
كان رأى بتلر هذا هو الرأي السائد حتى عهد قريب اذا أسم الفسطاط بمع
الاعجمي اطلقه عليه المسلمون معربا بسبب حصانة موقعها وتشييدها لم
حصن المنيع، ويؤيد ذلك أن العرب أخذوا كثيرا من الألفاظ اليونان
واللآتينية وأستعملوها. غير ان هذا الرأى مالبث أن أنهار أمام الرأى الا
القائل بأن الفسطاط لفظ عربي يعني الخيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أوالمدينة (١) وان الفسطاط سميت بهذا نسبة لمعسكر عمرو بن العاص الذى ضربه فى موضع المدينة وقت حصاره للحصن (٢). ولسنا نشك فى صدق هذا الرأى الاخير بل أننا نرجحه على رأى بتلر ونأخذه به لان العرب حرصوا دائما على تسمية مدنهم باسماء عربيه بحته. فالقطائع تعنى الأرض التى اقتطعت لسكنى الطوائف المهنيه المختلفة والقاهرة تعنى المدينة التى تقهر الدنيا ومادامت الفسطاط كلمة عربية فلا مبرر أذن للبحث عن أصل لها باللأتينيه.

ظلت الفسطاط مقرا للولاة فى عهد الخلفاء الراشدين ودولة بنى أمية، فأقيمت فيها قصور كثيرة منها الذهب الذى بناه والى مصر عبد العزيز بن مروان(٦٥-٦٨هـ) وقد زينت قباب هذا القصر بالذهب كما أقيمت فيها كثيرمن المنشأت مثل الحمامات والخانات والمتاجر والمتنزهات. فلما سقطت الخلافة الأموية سنة ١٣١هـ وخضعت مصر للدولة العباسية أنشأ والى مصر صالح بن على العباسى سنة ١٣٣ هـ مدينة جديدة فى الشمال الشرقى من الفسطاط لانزال عسكره الذين ضاقت بهم الفسطاط وكان موضعها يعرف بالحمراء القصوى. وأقام صالح بن على العباسى دار الإمارة وثكنات جنده وسط هذه الحاضره الجديدة ثم اقام الفضل بن صالح على مسجدا جامعا لهذه المدينه سنه ١٦٩هـ سمى بجامع العسكر لصق دار الامارة فأحيط بالاسواق وكثرت العمائر حول الجامع واتسعت المدينة حتى اتصلت مبانيها بمبانى الفسطاط. فلما استقل احمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ، كانت مدينة العسكر قد ضاقت بجنده من الروم والسودانيين فاقام مدينة جديدة على جبل يشكر بالقرب من دار الامارة بالمعسكر وقسمها الى قطائع وزعها على التجار وأرباب الحرف والصناعات وكانت كل قطعة تسمى باسم الطائفة التى كانت

---

(١) يذكر ابن دقماق نقلا عن ابن قتيبة ان الفسطاط المدينة (الانتصار بواسطة عقد الامصار، ص٢).

(٢) يذكر المؤرخون العرب أنه لما عاد عمرو من الاسكندرية سأل عسكرة أين ينزلون فقالوا :الفسطاط، يعنون فسطاطه الذى كان مضروبا.

تسكنها فسميت المدينة كلها بالقطائع وعمرت المدينة وكثرت فيها الابنية وإتصلت عمائرها بعمائر العسكر والفسطاط. وازدهرت الفسطاط فى عهد الدولة الطولونية ونمت عمارتها وكثرت مرافقها فلما مات خمارويه سنة ٢٨٢ هـ ضعفت الدولة الطولونية وتولى على مصر أبوالعساكر جيش بن خمارويه ولكنه لم يلبث أن عزل بعد عام واحد من ولايته وتولى بعده أخوه أبو موسى هارون وكان حدثا فى الرابعة عشر من عمره لا يصلح للولاية، ووضح ضعف الدولة الطولونية لدى العباسيين، وبعث الخليفة العباسي المكتفي بالله محمد قائده محمدبن سليمان الكاتب للقضاء على الطولونيين وإسترجاع مصر. وإستولى محمد بن سليمان على تنيس ودمياط وتراجع هارون بن خمارويه إلى العباسية فوثب عليه عماه شيبان وعدى وقتلاه وهو ثمل فى سفر سنة ٢٩٢ هـ وتولى شيبان بن أحمد بن طولون. وكان محمد ابن سليمان قد استولى على الفسطاط وسار منها الى القطائع واضرم فيها النيران فأتت على الدور والمساجد والحمامات والأسواق ولم تنج الفسطاط نفسها من عبث جيشه فسلبت روائعها ونهبت نفائسها. وأمر سليمان بهدم آثار الطولونيين وتخريبها فذهبت معالم ونهبت القطائع ولم يبقى منها سوى الجامع.

وأستعادت الفسطاط مكانتها القديمه واصبحت دارا للإمارة ومقرا للإدارة ومركزا للجند فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها وأطلق على الفسطاط والعسكر وما تبقى من عمائر القطائع إسم مصر. وظلت كذلك حتى اختط جوهر الصقلى مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ وما لبثت القاهرة ان أصبحت تضم قصور الخلفاء ودور الجند والقواد بينما أصبحت مصر الفسطاط مدينة التجارة والصناع وأرباب الحرف، ولكن الفسطاط ما لبثت ان ضعفت منذ ان بنيت القاهرة وفى ذلك يقول ابن سعيد المغربى " ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط فى الاعتناء بها بعض الافراط" ومع ذلك فقد ازدهرت مصر الفسطاط فى أوائل عهد الدولة الفاطمية أى فى النصف

الثاني من القرن الرابع الهجري وبلغت ابنيتها درجة عظيمة من الروعة والبهاء وقد وصف بن حوقل الفسطاط في هذا الوقت بانها مدينة عامرة بالاسواق والمتاجر والبساتين وأن معظم ابنيتها من الأجر، فيقول: "الفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها وهي مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها فرسخ على غاية العمارة والطيبة واللذة، ذات رحاب في مجلسها وأسواق عظام ومتاجر فخام، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات على ممر الأيام خضرة"ويذكر إبن دقماق من اسواقها سوق الكتب المقابل للجانب الشرقي للجامع العتيق بجوار دارعمرو وسوق بربر وسويقه دار فروج وسويقة كنائس ابي شنودة وسوق الرقيق وقيسارية ابي مرة نسبة إلى تمثال على هيئة إمرأة كان قائما على باب حمام زبان ابن عبد العزيز بن مروان. وكانت دور الفسطاط تتألف من دار واحدة في أول الامر ثم اخذت تقام فوقه الدور غرفا عليا .ثم أخذت الدوار بعد ذلك تزداد في الإتساع والإرتقاء حتى أصبح إرتفاع أغلب الدور خمس طبقات وستا وسبعا وفي كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها وسطحه مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة. وكانت معظم أبنية فسطاط من الطوب ثم زاد عدد سكان الفسطاط زيادة كبيرة فأصبح الدار الواحدة يسكنها نحو ٢٠٠ شخص، وقد وصف ناصرخسروغلوى (رحالة فارسي زار مصر الفسطاط بين عامي ٤٣٧، ٤٤٤ هـ)

فقال:"وبمصر بيوت مكونة من أربع عشر طبقة وبيوت من سبع طبقات، وسمعت ثقات ان شخصا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى كبر ونصب فيها ساقيه كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء الى الحديقة من البئر وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرها وقد أثمرت كلها كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى. ثم وصف ثروات الفسطاط فقال: "ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقني الناس في فارس فإني لا أستطيع أن أحدد اموالهم أو حصرها"..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظلت الفسطاط مدينة زاهرة فى العصر الفاطمى ولكنها اخذت فى التضاؤل كلما إتسعت القاهرة. وقاست الفسطاط منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بسبب الشدة العظمى ومع ذلك فقد كانت مركزا تجاريا وصناعيا هاما. فلما كان الصراع بين شاور وضرغام وإقتربت جيوش الصليبيين بقيادة عمورى ملك بيت المقدس من مصر الفسطاط إضطر شاور وزير الخليفة العاضد إزاء تقدم الصليبيين إلى أخلاء الفسطاط من أهلها وأمرهم بالنزوح إلى القاهرة وعمدَ الى اضرام النيران فى ابنيتها حتى يشغلهم عن التقدم إلى القاهرة وفى ذلك يقول المقريزى: "فنادى شاور بمصر.إلا يقيم بها احد وازعج الناس فى النقلة منها وتركوا أموالهم واثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد ماج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر. وبعث شاور إلى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة الآف مشعل نار فرقت فيها فإرتفع لهب النار ودخان الحريق إلى المساء فصار منظراً مهولا فاستمرت النار تأتى على مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام اربعة وخمسين يوما. . . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الأن بكيمان مصر". وهكذا التهمت النيران دور المدينة وأبنيتها مدة ٥٤ يوما. الإ ان النيران لم تقض تماماعلى المدينة فقد عمرت مرة أخرى فى عهد الدولة الأيوبية وعاش الناس بين خرائبها واطلالها. وقد زارها فى هذا العصر الرحالة الأندلسى ابن سعيد المغربى ووصفها قائلا: "ولما أقبلت علىٰ الفسطاط أدبرت على المسرة وتأملت أسواراً مثلمة سودا ء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة. . .

وظلت الفسطاط رغم ما ألم بها من محن وما أصابها من نكبات مدينة عامرة فى العصر الأيوبى وحاول صلاح الدين أنهاضها من عثرتها فأحاطها بسور من الحجر يمتد من القلعة ويتجه نحو الجنوب الغربى محيطا بالفسطاط حتى يلتقى بالنيل عند رباط آ ثر النبى. وقد بقيت من سور الفسطاط آثار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى يومنا هذا. فلما بنيت قلعة صلاح الدين أخذت الفسطاط الإضمحلال، وقد وصف الرحالة ابن جبير الفسطاط في القرن السادس الهجرى فقال: " وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند إنتساخ دولة العبيد بين وذلك سنة أربع وستين وخمسمائة واكثرها الأن مستجد. . ." ثم اخذت الفسطاط تنحدر سريعا نحو القبر ووصفها القلقشندى في صبح الأعشى وذكر ان الخراب تزيد بها وكثر الخلو منها. فلما كانت دولة الظاهر بيبرس صرف الناس همهم الى هدم ماخلا من أخطاطها وتزايد الهدم وأستمر حتى شهد القلقشندى (أى فى القرن الثامن الهجرى) حتى لم يبق من عمارتها سوى الجزء الموازى لساحل النيل وماجاوره إلى الجامع العتيق، ودثرت أكثر الخطط القديمة وعفا إسمها وإضمحل ما بقى منها وتغيرت معالمه وهكذا تحولت الفسطاط الى أطلال، وأخذ سكان القاهرة والروضة يلقون على أنقاضها ما تخلف من أنقاض وفضلات وقاذورات تجمعت على مر السنين وأصبحت تلالا. ثم تحولت هذه التلال إلى كثبان من السماد إستغلت أسوا إستغلال وأمتدت الأيدى تعبث وتبعثر أطلال المدينة حتى تنبه على بهجت امين متحف الآثار الإسلامية إلى أهمية الفسطاط ونادى بضرورة المحافظة على أطلالها، وأجرى فيها عدة حفائر أثرية منذ سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩١٩، وإستمرت مصلحة الآثار تقوم بعمليات الحفر بعد وفاة على بهجت فعهدت إلى الأستاذ حسن الهوارى بذلك ونجح فى كشف آثار دور الإسلامية بالفسطاط وعن كميات هائلة من قطع الخزف والزجاج وأوراق البردى، المكتوبة بالعربية وتيجان الأعمدة الرخامية وقطع من المنسوجات والتحف المعدنية.

ولم يبق من جامع عمرو سوى البقع التى شيد عليها لأنه أضيف إليه إضافات عديدة غيرت معالمه الأولى تغيرا تاما.

لم تقتصر أعمال عمرو الإصلاحية على بناء الفسطاط وجامعها العتيق وإنما أعاد سنة ٢٢ هـ حفر قناة نخلو التى كانت تصل بين النيل

والبحرالأحمر وأطلق عليها إسم خليج أمير المؤمنين لتصل الأقوات والقمح إلى الحجاز وكان سبب حفر ما أصاب أهل المدينة من جهد في عام الرمادة. وقد ظل خليج أمير المؤمنين طريقا للإتصال البحرى بين مصر والحجاز الى أن غلب عليه الرمال بعد خلافه عمر بن عبد العزيز وصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية طحا القلزم، كما أقام مقاييس للنيل في مواقع مختلفة يستطيع عن طريقها أن يحدد مقدار الخراج، وراعى عمرو بن العاص مقدرة أهل مصر في دفع الضرائب وكانت موارد الخراج تقوم على ضرائب الأطيان والضرائب الشخصية وهي جزية الرؤس التى فرضت على أهل الذمة من القبط واليهود والروم (دينارين في السنة) مقابل تأمينهم على أموالهم وكنائسهم والدفاع عنهم، وأعفي من الضريبة النساء والأطفال والشيوخ وإقتطع عمرو بن العاص جزءا من خراج مصر للإنفاق على مشروعاته في التنمية الإقتصادية والمنشآت المعمارية والعمرانية ولصرف مرتبات الموظفين والجند لذلك قل خراج مصرفي ولاية عمرو عما كان قبل الفتح الإسلامي إذ وصل في السنة الأولى إلى عشرة ملايين دينار في السنة الثانية من الفتح لم يتجاوز إثنى عشر مليوناً من الدنانير بينما كان يعمل في عهد المقوقس الى عشرين مليوناً وفي عهد الفراعنة الى ٢٤ مليونا. لذلك عجب عمر بن الخطاب لنقص الخراج وشك في ذمة عمه وحدث بينه وبين عمرو خلاف كبير وجرت بينهما مكاتبات طويلة في إحدها يقول عمر: (سلام عليك فإننى احمد الله اليك الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإني فكرت في أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك، وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كان تؤدية من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولاجدب".

ورد عليه عمر بن العاص فقال:" بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص. سلام عليك فإني أحمد الله لا اله إلا هو أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر

فيه من عمل الفراعنة قبلى، وأعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض اعمر،... فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ولقد كان من الصواب من القول رضين صارم بليغ صادق، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده، فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من ائتمننا...".

ومنهاكتاب عمر يقول:" . . .أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج وفى كتابك الى ببينات الطرق، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم اقدمك الى مصر لأجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لمارجوته من توفيرك الخراج وحسن سياستك....".

(٤)

الفسطاط في اقوال الرحالة والمؤرخين العرب

١ - ناصر خسرو:

زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوى (ت ٤٥٣ هـ١٠٦١/م) القاهرة والفسطاط فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، وسجل لنا مشاهداته فى كتابه سفرنامة، وتعبر ملاحظاته عن فهم عميق بحياة الشعوب وإدراك كامل المظاهر لحياة فيها ووعى واضح بنظم الحكم والعادات والتقاليد ولهذا السبب يعتبر كتابه سفرنامه مصدرا هاما للحياة الإجتماعية والإقتصادية والعلمية فى مصر فى العصر الفاطمي. وقد وصف ناصر خسرو الفسطاط وصفاً شاملا، فما ذكره.."ومدينة مصر(أى الفسطاط) مشيدة على ربوة خشية، فيضان الماء عليها، وهذه الربوة كانت مغطاة فى وقت ما بأحجار كبيرة جداً. فكسرت وسويت، ويقال للأماكن التى لم تسو"عقبة" وتبدو مصر كأنها جبل حين ينظر إليها من بعيد. وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة وبيوت من سبع طبقات وسمعت من ثقات أن شخصا غرس حديقة من سبع أدوار وحمل إليها عجلا رباه فيها حتى كبر، ونصب فيها ساقيه كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر، ووزع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرها. وقد أثمرت كلها كما زرع بها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى. جسمت من تاجر ثقه ان بمصر دورا كبيرة فيها حجرات للأستغلال ومساحتها ثلاثون ذراعا فى ثلاثين وتسع ثلاثمائة وخمسين شخصا، وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما لأن الضوء لايصل إلى أرضها، ويسير فيها الناس. وفى مصر سبعة جوامع غير جوامع القاهرة والمدينتان متصلتان وفيهما معا خمسة عشر جامعا وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حى منهما. وفى وسط سوق مصر من قبل عمر بن الخطاب وهذا المسجد قائم على اربعمائة عمود من الرخام والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بالواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل، ويحيط بالمسجد من جهاته الاربع الاسواق وعليها تفتح أبوابه، يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولايقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها....

ويوقدون فى ليالى المواسم اكثر من سبعمائة قنديل ويقال ان وزن هذا الثريا خمسة وعشرون قنطارا فضية كل قنطار مائة رطل واربعة واربعون ومائة درهم. ويقال انه عندما تم صنعها لم يتسع لها باب من ابواب المسجد لكبرها. فخلعوا باب وادخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه، ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصر الجميل الملون بعضها فوق بعض ويضاء كل ليلة باكثر من مائة قنديل. وفى هذا المسجد يجلس قاضى القضاة.

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى سوق القناديل لا يعرف سوق مثلة فى أى بلد، وفيه كل ما فى العالم من طرائف. ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالاوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها

ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال، وهم يحضرونه من المغرب، وقيل أنه ظهر حديثا عند بحر القلزم بلور ألطف أكثر شفافية من بلور المغرب، ورأيت أنياب الفيل احضرت من زنجبار، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى صهر، كما احضر جلد بقر من الحبشة يشبة جلد النمر ويعملون منه النعال. وقد جلبوا من الحبشة طائرا اليفا كبيرا به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس. وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا، ورأيت في يوم واحد هذة الفواكة والرياحين الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والتفاح والياسمين والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر. وكل من يذكر كيف تجتمع هده الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لا يصدق هذا...

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث زذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل وتصنع منه الكئوس والاقداح والاطباق وغيرها وهم يلونونها بحيث تشبه اليوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها. ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد في الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن...

ومدينة مصر ممتدة على شاطىء النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة بحيث اذا أحتاجوا الى الماء رفعوه بالحبال من النيل. أما ماء المدينة فيحضرة السقاءون من النيل أيضا ويحملة بعضهم على الأبل وبعضهم على كتفه ورأيت قدورا من النحاس الدمشقى كل واحد منها يسع ثلاثين منا وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب...

ويعطى التجار في مصر من بقالين وعطارين وبزازين الاوعية اللازمة لما

يبيعون من زجاج أو خزف أو ورق حتى لا يحتاج المشترى ان يحمل معه وعاء".

ابن سعيد المغربي(ت ٦٥٨ هـ) :

ينتسب ابو الحسن على بن موسى بن محمد عبد الملك بن سعيد الى بنى عمار بن ياسر الصحابى، ولد فى قلعة يحصب من أعمال غرناطة فى الأندلس سنة ٦١٠ هـ ونشا" فى بيت من أعظم بيوتات العرب فى الأندلس وأشرفها. قد صحب أبو الحسن على أباه فى رحلته الى مصر سنة ٦٣٩ هـ وتردد على مصر عدة مرات. وأكمل كتاب المغرب فى حلى المغرب الذى شرع فيه جده الأول عبد الملك سنة ٥٣٠ وتتميز كتابه ابن سعيد بالمبالغة فى وصف مساوىء العمران المصرى فى الفسطاط والتحامل على عادات المصريين ويتجلى ذلك فى قوله:"كان خبرها قد ملأ سمعى من الكتب وما أتلقاه من الحجاج الصادرين، وأنا واقف من شأنها بين إختلاف لقلة إتفاق الأغراض وتشتت الأهواء فلما وصلت إلى الإسكندرية من إفريقية ركبت فى الخليج الى النيل الأعظم، ثم سرت فيه إلى أن وصلت إلى منية السيرج فى شمال القاهرة، فركبت منها فى البر إلى القاهرة وعاينت ما سأذكره أن شاء الله فى كتاب القاهرة. ولما استقررت بالقاهرة.تشوقت الى معاينة الفسطاط، فسار معى اليها احد أصحاب العزمة، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لاعهد لى بمثلها فى البلاد ، فركب منها حمارا وأشار الى ان أركب حمارا آخر، فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فأعلمنى انه غير معيب على أعيان مصر. وعاينت الفقهاء وأصحب البذة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت، فعندما أستويت راكبا اشار المكارى على الحمار فطار بى وآثار من الغبار الأسود مما أعمى عينى ودنس ثيابى، وعاينت ما كرهته، ولقلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكارى وقعت فى تلك الظلمة

المثارة من ذلك العجاج وقلت:

لقيت بمصر أشد البوار	ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح	لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى	الى أن سجدت سجود العثار
وقدمى فوقى رواق الثرى	والخد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته وقلت له: أحسانك إلى ان تتركنى أمشى على رجلي. ومشيت إلى أن بلغتها، وقدرت فى الطريق بين القاهرة والفسطاط وحققته بعد ذلك نحو الميلين ولما اقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة، وتأملت أسوار مثلمه سوداء وأفاقا مغبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق، يفضى إلى خراب مغمور ببيبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع، وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل، طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغض ظرف الظريف، فسرت وأنا معاين للإستصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من إزدحام الناس فيها بجوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا يفى به إلامشاهدته ومقاساته إلى أن إنتهيت الى المسجد الجامع، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع أشبيلية وجامع مراكش، ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البنية غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه، وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم، يحوزون فيه من بابا الى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف

المكسرات والكعك وما جرى ذلك، والناس يأكلون منه فى أماكن عدة غير متحشمين لجرى العادة عندهم بذلك، وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل، وقد جعلوا ما يحصل لهم فيه رزقا، وفضلات مأكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه، والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان، والصبيان يلعبون فى صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة مختلة من كتب فقراء العوام. إلا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وإنبساط النفس لا تجده فى جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه وما يتبع ذلك مما ذكر هناك، ولقد تأملت ما وجدته فيه من الإرتياح والانس دون منظر يوجب ذلك، فعلمت انه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه، واستحسنت ما ابصرته فيه من حلق المصدرين لاقراء القرآن والفقة والنحو فى عدة أماكن سألت عن موارد أرزاقهم فاخبرت أنها من فروض فى الزكاه وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن إقتنائها يصعب إلا بالجاه والتعب، فنغص عندى تلك القاعدة التى وجدته من إجتماع العلماء على أرزاق تفرغ المعلم التعليم، وتنشط المتعلم للاستفاده.

ثم إنفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلا كدر التربه غير نظيف، ولا يتسع المساحة، ولا مستقيم الإستطالة، ولا عليه سور ابيض يبهج العيون بلونه، وحُسن إستقامته، إلا إنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب والاصناف التى تصل من جميع إنهار النيل، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقاً...

ولم أرى فى أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين.. وجملة الحال ان أهل الفسطاط فى النهاية من اللطافة واللين فى الكلام وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدر الصحبة، وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

ابن حوقل (ت في ٣٨٠ هـ):

ابن حوقل احد كبار الجغرافيين العرب قام برحلة طويله بدأها في سنة ٢٣١ هـ من بغداد طلبا لدراسة الممالك والبلدان ورغبته في الإرتزاق عن طريق التجارة، وانتهى منها بعدما يقرب من ثلاثين عاما زار خلالها ديار الإسلام من الشرق الى الغرب وقد زار ابن حوقل مصر الفسطاط فوصفها وصفا مقتضباً في كتابه صورة الأرض جاء فيه:"ومن صفات مدينها وبقاعها أن مدينتها العظمى تسمى الفسطاط، وهي على شمال النيل لأنه يجري في نحوها بين الشرق والجنوب، وهي مدينة حسنة ينقسم لديها النيل قسمين، فبعدى من الفسطاط الى عودة أولى (الروضة) فيها أبنيه حسنه ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة، ويعبر إليها بجسر فيه ثلاثين سفينة، ويعبر من هذة الجزيرة على جسر آخر الى القسم الثاني كالجسر الأول إلى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة.

والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذه ذات رحاب على محالها واسواق عظام ومتاجر وممالك جسام الى ظاهر أنقن وهواء رقيق وبساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام نضرة، وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب تنتسب اليها محالهم بالكوفة والبصرة، إلا انها أقل من ذلك في وقتنا هذا وقد باد أ كثرها بظاهر المسافر وهي سبخة الارض غير نقية التربة. والدار تكون بهاطبقات سبعا وستا وخمس طبقات، وربما سكن في الدار المائتان من الناس. وبالفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز بن مروان، وكان يسكنها ويصب فيها لمن فيها في كل يوم عهدنا هذا أربع مائة زاوية ماء، وفيها خمسة مساجد وحمامان وغير فرن لخبز عجين أهلها. ومعظم بنيانهم بالطوب واكثرها سفل دورهم غير مسكون. وبها مسجد ان لصلاة الجمعة: بنى احداهما عمرو بن العاص في وسط الاسواق والاخر باعلى الموقف بناه ابو العباس أحمد بن طولون . . "

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥)

مصر في عهد عثمان بن عفان وثورة الامصار

بعد أن قتل عمربن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة في سنة ٢٤هـ (٦٤٤م) امر بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن ابى السرح اخا عثمان في الرضاع. واصطنع عبدالله سياسة تقوم على التشدد مع المصريين وهى سياسة اتبعها ولاة عثمان فى سائر الامصار الاسلامية. واشتد عبد الله مع المصريين فى جباية الضرائب وبالغ فى عقوباتّ الى حد القتل مما ادى الى تذمر المصريين عليه. وقيل أن الخراج على يديه اربعة عشر مليون دينار، وقد عيّر عثمان عمرو بن العاص على وقال له: " أن اللقاح بعدك قد درت البانها" (اللقاح أى الابل ويقصد بذلك ان الخراج زاد عما كان عليه) . وقد رد عليه عمرو رده المشهور قائلا:" نعم ولكنها اعجفت فصيلها" اى اهزلت صغارها).

حنق المصريون على عبد الله بن ابى السرح وقد ادى ذلك الى أعلان ثورتهم الكبرى التى تعرف فى التاريخ بإسم الأمصار وانتهت هذه الثوره بمقتل عثمان بن عفان. وأشعل نيران هذه الفتنه فى مصر رجل يهودى من أهل صنعاء باليمن اسلم زمن عثمان اسمه عبد الله بن سبأ ويعرف بأبن السوداء لسواد أمه وهو صاحب مذهب السبأيه فى التشيع لعلى بن ابى طالب يغلب على الظن ان عبدالله هذا كان من المنافقين الذين أسلموا فى الظاهر للكيد للإسلام والتفريق بين المسلمين وأخذ ينتقل فى البلاد الإسلامية محاولا نشر بذور التفرقة والفتنة بين المسلمين واثارتهم على عثمان. وبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة فالشام، ولكن دعوته باءت بالفشل خاصة فى الشام إذا أن أهل هذه البلاد يناصرون عثمان ويميلون إليه

ولم يجد عبد الله سبأ له هناك من أتباع سوى اباذر الغفاري الصحابى الذى كان يكره عثمان مما حمل عثمان الى نفى ابى ذر الى الربذة بالقرب من المدينة وظل بها حتى مات سنة ٣١هـ. ولم يضعف موت ابى ذر من قوة عبد الله بن سبأ الذى جاء الى مصر ووجد الطريق ممهداً أمامه للثورة ضد عثمان فاخذ ينشر تعاليمه التى تقوم على مذهب الرجعة اى رجوع الرسول مرة اخرى ومذهب تناسخ الأرواح ومذهب الوصاية أى أن عليا كان وصى محمد ولما كان محمد خاتم الأنبياء فعلى فى اعتقاده، خاتم الاوصياء، وكان يقصد بذلك أن عثمان أغتصب الخلافة من على وصى الرسول. وهكذا هيأ ابن سبأ عقول المصريين على الثورة على عثمان وحرضهم على ذلك. وجد ابن سبأ آذانا صاغية له فى مصر، فقد خرج عدد كبير من المهاجرين والأنصار الى الأقاليم النائية عن الحجاز كمصر والعراق وانشأوا لأنفسهم ارستقراطية دينية، فأثروا ثراء فاحشا وبنوا القصور وتوزعوا الأراضى والخطط بينما كانت هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين إستقرت فى الأمصار بعد الفتح، وكانت تقوم على أخبار الحكومة المركزية وتتناولها بالنقد، وحقدت على قريش بإعتبارها مغتصبة لحقوقهم مما آثار المعارضة السياسة والحكومة، فبدأ الناس يطعنون فى عثمان، وأنكروا عليه أمور منها الدور الفخمة التى شيدها لأهله، وبنائه بالمدينة القصور وتوليته أهله وبنى عمه ومن بنى أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم، ونفر المسلمون من تبذير عثمان وأسرافه فى أموال المسلمين ومع ذلك فليست هذه العيوب التى ألصقوها بعثمان صحيحة، وكل ما فى الأمر انه كان دمثالينا. وذكر ابن خلدون أن المسألة لا تعد ان تكون عودة الى الجاهلية والنزاع بين القبائل على السيادة. وهكذا وجد عبد الله بن سبأ أتباعا له فأخذ يتصل بالثائرين فى سائر أنحاء الولايات الإسلامية بواسطة الرسل والكتب وبث دعاتة فى سائر الأمصار يؤلبون المسلمين على عثمان، وكان عثمان نفسة يجهل هذه الحركة إلا انها وصلت الى مسامع الصحابة بالمدينة فأبلغوها لعثمان

ونصحوه بأن يرسل رجالا من أهل الثقة الى الأمصار لتحقيق ذلك وإرضاء هذة الأنصار، ففعل وأرسل محمد بن مسلمه الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى مصر، أما عمار هذا فقد إستماله ثوار مصر من أتباع ابن سبأ فبقى بها وإنضم الى الثوار. وتذكر الدكتورة سيدة الكاشف أن السبب فى نجاح الثورة فى مصر قبل غيرها هو إنشغال عبد الله بن أبى السرح فى الحروب الخارجية وغزواته المتتابعة فى بلاد النوبة وإفريقية سنة ٢٧هـ وحربه الروم فى وقعة ذات الصوارى فى ٣٤ هـ. ولم يعلم بن ابى السرح بهذة المؤامرات إلا بعد عودته سنة ٣٥ هـ من غزوته ذات الصوارى. فغادر مصر الى المدينة فى سنة ٣٥ هـ تلبية لرغبة عثمان بعد أن إستخلف على ولاياتها عقبة بن عامر الجهنى وفى هذه الأثناء تمكن ثوار مصر من طرد واليها عقبة من الفسطاط بإيعاز من محمدبن ابى حذيفة، وبعثت الأمصار الفسطاط والكوفة والبصرة وفودها الى المدينة ويبلغ عددهم نحوامن ستمائة رجل يطالبون عثمان أول الأمر بالإصلاح، وكان هذا تدخلا صريحا منها فى أمور السياسة العليا. وكان من بين رجال وفد مصر محمد بن أبى بكر فحاول عثمان ترضية الثوار ووعدهم بانه سيعمل على عزل عبد الله بن سعد بن ابى السرح وتوليته ابن ابى بكر، وكتب بذلك، فقفل وفد مصر عائدا وفى الطريق شاهد القوم رسولا إرتابوا فى أمره فتشوه فإذا معه كتاب من عثمان الى عبد الله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن ابى بكر ومن معه فعادوا إلى المدينة وقرأوا الخطاب على الصحابة، وأنكر عثمان انه كاتبه فطلبوا منه أن يسلم مروان بن الحكم كاتب الخليفة وابن عمه فلم يرضى بذلك فطلبوا اليه ان يعتزل الخلافة فأبى فحاصروا داره وإنتهى الأمر بقتله فى ذى الحجة سنة ٣٥ هـ. وتولية على بن أبى طالب الخلافة. وهكذا أصبح الحزب المعارض هو حزب الحكومة الجديدة إلا أن والى الشام أمتنع عن المبايعة لعلى متهماً إياه بالتهاون فى أمر عثمان وتستره على قتله وعدم القصاص ممن قتله، وبايعه أهل الشام على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المطالبة بدم عثمان ومحاربة على مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل الشام وأهل العراق. وفى أثناء ذلك وثب محمد بن أبى حذيفة على عقبة بن عامر نائب عبد الله بن سعد فى مصر فأخرجه من الفسطاط في شوال ٣٥ هـ أثناء وجود عبد الله بن سعد بالمدينه فى إجتماع عقده الخليفة عثمان لعماله على الأمصار. ودعا ابن ابى حذيفة إلى خلع عثمان والثورة عليه فأيد شيعة عثمان فى مصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطأة ومسلمة بن مخلد، وبعثوا إلى عثمان بامر ابن أبى حذيفة، فسير عثمان سعد بن ابى وقاص ليصلح أمرهم فخرج إليه جماعة من الثوار اعترضوا طريقه وردوه ثم أقبل عبد الله بن سعد فمنعوه من دخول مصر فإنصرف الى عسقلان حيث قتل عقب إستشهاد عثمان بن عفان.

(٦)
مصر في خلافة بن ابي طالب

آثار مقتل عثمان حفيظة أنصاره فى مصر وبايعوا معاوية بن حديج ويكنى بأبى عبد الرحمن المطالبة بدم عثمان فسار بأنصاره إلى صعيد مصر فأرسل إليه محمد بن ابى حذيفة والى مصر من قبل على جيشا.وإلتقى الجيشان قرب الفيوم وإنهزم جيش ابن ابى حذيفة وسار بن حديج الى برقة ثم عاد إلى الإسكندرية فأرسل إليه ابن ابى حذيفة جيشا آخر على رأسه قيس ابن حرمل اللخمى فقتل ابن حرمل وهزم جيشه في خربتا فى أول رمضان سنة ٣٦ هـ وهكذا انتصر حزب العثمانيين مرتين مما دعا معاوية على العمل على انتزاع مصر من على.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى ذلك الوقت كان عليّ يزحف على رأس جيش من المدينة فى جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ .(أكتوبر سنة ٦٥٧ م) متجها الى الكوفه ومنها زحف الى البصرة وتقابل مع قوات طلحة والزبير والسيدة عائشة أم المؤمنين فى موضع يقال له الخريبة بظاهر البصرة والتحم الجيشان وكان النصرحليف على وانتهت المعركة بمقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة وإعادتها مكرمة الى مكة. وقد سميت هذة الموقعة بموقعة الجمل، ذلك لأن أغلب القتال كان يدور حول الجمل الذى كانت تركبه أم المؤمنين. ورفض معاوية أن يتنازل عن ولايته أو يذعن لأوامر الخليفة على وكان لابد من إشتباك جيوش معاوية مْع جيوش على وسار عليّ على رأس جيشه متجهاً الى الشام وإلتقى مع الجيوش الشامية بقيادة عمرو بن العاص قرب صفين على نهر الفرات فى أواخر سنة ٣٦ هـ (٦٥٧ م) وكاد النصر أن يتم لعلى ولأهل العراق لولا إلتجاء عمرو إلى دهائه ومكره إذ أشار على الجنود الشامية برفع المصاحف على أسنة الرماح والمناداة بالتحكيم. ولم يرحب على بالتحكيم لإن فى ذلك إضعاف لمركزه ولكن اتباع على وأكثرهم من القراء أو حفظة القرآن أجبروا عليا على قبول الهدنة. وإضطرعلى إلى الاستجابة لهم وبذلك إنتهت موقعة صفين وحل محلها التحكيم. وإتفق الطرفان على قبول نتيجة التحكيم ووقع إختيار أهل الشام على عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وتذكر دكتورة سيدة الكاشف إنه بهذة الطريقة كسب معاوية نصراً معنوياً إذا أنزل على فى الواقع من مركز خليفة وحاكم المسلمين إلى مطالب بالخلافة. وقد نجح الأمويون فى تفريق أنصار على بن أبى طالب، إذا تسبب التحكيم فى إثارة بعض اتباع عليّ ممن لم يرضوا عن قبول على للتحكيم وعرف هؤلاء إسم الخوارج أى الذين خرجوا على الجماعة. أصبح الخوارج من ألد أعداء على.

وأجتمع الحكمان بين العراق والشام فى دومة الجندل وفى أذرع، وكتبت صحيفة أقرها الحكمان تنص على أن عثمان قتل مظلوما وأن لمعاوية الحق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى المطالبة بدمه، ثم أتفق الحكمان سنة ٣٨هـ على خلع كل من على ومعاوية وجعل الامر شورى بين المسلمين ليختاروا من احبوا. وقيل أن أبا موسى الأشعرى تقدم وخلع عليا ومعاوية، أما عمرو فثبت معاوية بعد ان خلع عليا، ومعنى ذلك ان معاوية هو الذى كسب الجولة اذ خسر على مكانه كخليفه بمظهر المطالب بالخلافة مثل معاوية.

وبطبيعة الحال لم يقبل على نتيجة التحكيم وضعف مركزه لإنهيار الروح المعنوية لدى اتباعه وخروج الخوارج عليه. أما اتباع معاوية فقد أيدوه وبايعوه بالخلافة سنة ٣٧هـ وشجعه ذلك على ضم مصر.

وكان معاويه قد سار على رأس جيشه فى ٣٦هـ الى مصر ووصل الى سلمنت من كورة شمس. وإتفق محمد بن ابى حذيفة والى مصر من قبل على مع معاوية على تفادى الحرب نظير رهائن يقدمها إلى معاوية. ومبالغة منه حسن نيته قدم نفسه بين الرهائن وجعل من بينهم ابن عديس واستخلف أبن ابى حذيفه على مصر الحكم بن الصلت وخرج فى الرهائن إلى الشام حيث قتلوه بأمر معاوية فى ذى الحجة سنة ٣٦هـ. ثم أرسل على بدلا عنه قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى واليا على مصر من قبله فدخلها فى أوائل سنة ٣٧هـ، وكان قيس هذا معروفا بحسن الإدارة والمقدرة السياسية فعمل على إخراجه من مصر بالدهاء والمكائد ونجح معاوية فى بث بذور الشك فى أخلاص قيس بن سعد لعلى ووصلت الشائعات بذلك إلى العراق فاضطرا علىّ إلى عزل قيس بعد أربعة أشهر من ولايته على مصروآثر أن يولى مصر احد قواده الكبار الذين أبلوا بلاء حسنا فى موقعتى الجمل وصفين وهو الأشتربن مالك بن الحارث النخعى، ولكن ماكاد الاشتربن مالك يصل الى القلزم (السويس) فى اول رجب سنة ٣٧هـ حتى مات مسموما بشربة عسل دسها اليه معاوية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولك تكن نتيجة التحكم قد ظهرت بعد، فأراد معاوية ان ينتهز الفرصة ويستخلص مصر من على بن ابن طالب خاصة وأن أهل الشام كانوا قد بايعوه بالخلافة. وكان والى مصر بعد الاشتر ابن مالك شاب أهوج هو محمد ابى بكر،كان جاهلا بالسياسة وادارة البلاد وكانت تغلب عليه روح الفوضى والطيش فأساء إلى انصار عثمان فى مصر بدلا من اصطناعهم وإستمالتهم إليه وهدم دورهم ونهب اموالهم وسجن ذراريهم فأرسل معاوية جيشا الى مصر بقيادة عمرو بن العاص وتقابل جيش عمرو مع جيش مصر فى المسناة وهى قرية تقع شمالى الفسطاط، وحدثت بين الفريقين موقعة شديدة انتهت بانتصار جيش الشام ودخوله الفسطاط، وفر محمد بن ابى بكر بين الفارين ولكن معاوية بن حديج قام بالبحث عنه فدلته على مكانه امرأه، فقبض عليه بن حديج وقطع رأسه وضع جثته فى جيفة حمار وأحراقها بالنار. كان ذلك فى صفر ٣٨هـ (٦٥٩م) وبذلك أنتهت تبعية مصر لعلى واصبحت منذ ذلك الحين ولاية أموية، على الرغم من أن عليًا ظل فى الخلافة حتى مقتله سنة ٤٠هـ (٦٦١م). واصبح ولاه مصر يتولون منذ ذلك العهد من دمشق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

مصر ولاية امويه ثم عباسية

(١)
مصر في عصر الدولة الاموية

أ - ولاة مصر في العصر الاموي:

منح معاوية بن ابى سفيان عمرو بن العاص ولاية مصر فى ربيع الأول سنة ٣٨هـ مكافأة له على ماقدمه له من خدمات، أو ثمنا لدوره فى لتحكيم، وجعلها له طعمه أو ولاية مطلقه يتصرف فيها كما يشاء بمعنى ان يدفع أرزاق الجند وموظفى الدولة ويقوم هو بالإنفاق على أعمال الاصلاح، وما بقى بعد ذلك يدخل فى خزانته الخاصة. ولكن عمرو لم يتمتع طويلا بولايته، إذ توفى فى أول شوال ٤٣هـ (٦٦٤م) وتولى مصر بعده من قبل الدولة الأموية عدد كبير من الولاة يصل الى ٢٣واليا، ولم تستفد مصر شيئا ذا قيمة طوال هذا العهد نظرا لقصر عهد كل وال منهم بإستثناء عبد العزيز بن مروان الذى حكم مصر مايقرب من ٢١عام ومسلمة بن مخلد الذى حكمها ١٨ سنة.

وأشهر هؤلاء الولاة:

(١) **عتبه بن أبي سفيان** بن حرب بن أمية (٤٣ -٤٤): هو أخو معاوية ابن أبى سفيان ولى مصر فى ذى القعدة سنة ٤٣ هـ. وقد اهتم عتبه بالجهاد البحرى فإتخذ من الاسكندرية رباطا وعقد عتبه لعلقمة بن يزيد الغطيفى على الإسكندرية فى ١٣ الفا من أهل الديوان يرابطون بها جريا على عادة ولاة الإسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص لتعرضها للغزو من البحر. وكان عمرو بن العاص يقسم أجناده قسمين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متساويين: قسم يبقيه معه في الفسطاط وقسم يوزعه على الروابط الساحلية وخص من هذا القسم نصفه لرباط الإسكندرية وحدها والنصف الثاني لسائر السواحل. كذلك أهتم عبد الله بن سعد بتحصين الاسكندرية إمتثالا لرأى عثمان بن عفان. ويذكر النويرى أن عمرأرسل إلى الإسكندرية بعد فتح قبائل العرب من لخم وجزام وكندة والازد وحضر موت وخزاعة لسكناها بقصد حراستها وحراسة الميناوين الشرقية والغربية بوجه خاص، فنزلت لخم فى الموضع المعروف بكوم الدكة ونزلت جذام فى بركة جذام ونزلت كندة بالبراكل والأزد بحارة الأزدى وحضرموت بشارع الحضارمة، فى حين نزلت خزاعة والمزاغنة بناحية أبى قير يحرسون مينتها.

وهكذا أصبحت الإسكندرية منذ الفتح دار رباط، وقرن المسلمون إسم الإسكندرية بالثواب والجهاد والجنة حتى عمرت بمن وفد إليها من المرابطة.

وكان يتولى مرابطة الإسكندرية فى ولاية علقمة بن زيد الغطيفى، فكتب علقمة إلى عتبة يشكو قلة من لديه من الجند ويبدى تخوفه على نفسه وعليهم، فخرج عتبة نفسه إلى الإسكندرية مرابطا فى ذى الحجه سنة ٤٤هـ فابتنى دارا للامارة بحصنها القديم. . وذكر ابن عبد الحكم أن معاوية بن ابى سفيان امد علقمة الغطيفى بعشرة الآف من أهل الشام ثم أمده بخمسة الاف من أهل المدنية كما أمر معن بن زيد الأسلمى ان يكون بالرملة اى برمل الإسكندرية فى أربعة الآف على أهبه الأستعداد لنجدته إذا ماطلب علقمة منه ذلك. وقد توفى عتبه بالإسكندرية فى نفس السنة:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢) **مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ - ٦٢هـ)**: ويعتبر مسلمة بن مخلد من أشهر ولاه مصر فى العصر الأموى، فقد وليها من قبل معاوية بن ابى سفيان الذى جمع له صلاتها وخراجها وأضاف إلى ولايته لمصر ولاية افريقية، وقد أستطاع مسلمة خلال امارته ان يحقق الكثير من الإصلاحات فقد اقام للنيل مقياسا بجزيرة الروضة كما بنى داراً لصناعة السفن فى جزيرة الروضه وإليه يرجع الفضل فى أعادة بناء جامع عمرو بن العاص من جديد بالاجر بعد ان كان مبنيا باللبن وتمت أعمال البناء فى الجامع فى سنة ٥٣ هـ. كذلك يرجع الى مسلمة الفضل الاول فى أنشاء المأذن فى مصر الإسلامية، فأقام لجامع عمرو أربع صوامع أو ومأذن فى الأركان. وقد طبق مسلمة فى حكمه سياسة تقوم على التسامح الدينى وعامل القبط بروح من العطف وسمح لهم ببناء كنيسة بالفسطاط وهى أول كنيسه مبنية بالفسطاط فى العصر الإسلامى، فأنكر ذلك عليه بعض الجند، فأجتمع عليهم مسلمة يومئذ وقال:" انها ليست فى قيروانكم وأنما هى خارجة فى أرضهم " فسكتوا عند ذلك.

(٣) **عبد العزيز بن مروان الحكم (٦٥ - ٨٦هـ)**: هو اعظم ولاة مصر على الإطلاق فقد كان مصلحاً من كبار المصلحين وأهتم بالانشاء والتعمير فبنى مقياسا للنيل فى حلوان التى اتخذها منزلا له، وكان هذا المقياس صغير الذرع بخلاف مقياس الروضة الذى وضعه اسامة بن زيد التنوخى فى جزيرة الروضة فى خلافة الوليد بن عبد الملك. وهو الذى أمر ببنيان الدار المذهبة فى سنة ٦٧هـ (١) وكانت تقع غربى

---

(١) سميت بدلك بسبب قبتها المذهبة التى كانت طلعت عليها الشمس إنعكست اشعتها فبهرت الناظرين وكانت هذة الدار تعرف بالمدينة لسعتها وامتداد ساحتها وكانت تستهلك من الماء فى اليوم الواحد ٤٠٠ راوية ماء وقد امر مروان بن محمد بحرق دار الذهب فاحرقت فى سنة ١٣٢هـ فأحتج لدلك عليه زيان بن عبد العزيز بن مروان أنها دار بنى عبد العزيز وقد أعطمت فيها النفقة" فقال مروان أن ابق فابنها لبنة من ذهب ولبنه من فضه والا فما تصاب به من سـ[illegible]ـك اعظم"

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسجد الجامع وأتخذها مقرا له الى ان وقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين هـ فخرج منها عبد العزيز ونزل حلوان وأتخذها دار مقر لحكمه وبنى بها الدور والمساجد وعمرها بالمبانى الفاخرة وغرس نخلها وكرمها ونقل اليها الشرطة والحرس والاعوان. واقام عبد العزيز قنطرة على خليج امير المؤمنين بالقرب من الفسطاط فى سنة ٦٩هـ، وزاد فى جامع عمرو زيادة كبيرة من جهة الغرب كما ادخل فيه الرحبه التى كانت تقع فى شماله وقيل انه زاد فى الجامع من جميع نواحيه فى سنة ٧٧ هـ. ويذكر ابن دقماق أن عبد العزيز اقام بالفسطاط دارا للأضياف فى منطقة الخشابين وجعلها لضيوفه ينزلون بها ويذكر ايضا ان عبد العزيز أشترى القيسارية المعروفة بابى مرة وهى سوق تجارتة جديدة كبرى تضم حماما يعرف بحمام أبى مرة، فجعله عبد العزيز حماما لأبنه زبان، وكان بالحمام تمثال من البلور لامرأة منصوبا على بابه فأطلق إسم أبى مرة على الحمام لهذا السبب.

(٤) **عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ - ٨٩ هـ)**: ويرجع إليه الفضل فى تعريب الدواوين بمصر، فقد أمر اخوه الوليد بن عبد الملك بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص. وتم تعريب ديوان الخراج والأموال بمصر في سنة ٨٧هـ.

(٥) **قرة بن شريك** (٩٠ - ٩٦هـ) ينتسب اليه اعمال الزيادة فى جامع عمرو بالفسطاط فقد آمره الوليد بن عبد الملك بالزيادة فية، فإبتدأ قرة فى هدم زيادة عبد العزيز بن مروان فى مستهل سنة ٩٢ هـ (٧١٠ م) وعهد بمهمة البناء إلى يحيى بن حنظلة العامرى ففرغ من هذة الزيادة فى رمضان سنة ٩٣ هـ (٧١٢) ووسعه من الجهة القبلية والجهة الشرقية، وأحدث فيه محراباً مجوفا هو أول محراب فى مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلامية كما نصب بالجامع منبراً خشبيا جديد فى سنة ٩٤ هـ (٧١٣) [١] وأدخل بالجامع مقصورة على نحو مقصورة جامع دمشق.

وعمل قرة بن شريك على تجميل الفسطاط فاستنبط بركة الحبش من الموات، وأحياها وغرس فيها القصب، فسميت بإصطبل قرة، وقدر لهذه البركة أن تصبح فى العصور التالية من أبرز معالم الفسطاط ومصر إذ كانت متنزها يقصده الناس وللنزهة.

(٦) **حنظلة بن صفوان الكلبي (١٠٢ - ١٠٥ هـ)** : فى عهده صدر أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بكسر التماثيل فى جميع أنحاء مصر. فكسرت التماثيل ودمرت ومن جملتها تمثال حمام زبان بن عبد العزيز الذى يقال له حمام ابى مرة الذى سبق أن أشرنا اليه.

(٧) **الحربن يوسف بن يحيي بن الحكم (١٠٥ - ١٠٨ هـ)**: فى عهده كان أول إنتفاض للقبط فى مصر سنة ١٠٧ وسبب ذلك أن الحر زاد الخراج على أهل مصر على كل دينار قيراطا فأثار غضب أهل البلد، فإنتفضت كورة تنو وتمى وقيريميط وطرابية وعامة الحرف الشرقى(القسم الشرقى من دلتا النيل) فأرسل الحر اليهم العسكر أهل الديوان فحاربوهم وأخمدوا حركتهم.

---

(١) يذكر ابن دقماق أن المنبر القديم هو منبر عبد العزيز بن مروان، وقيل أن زكريا بن رقنى ملك النوبة أهداه الى عبد الله بن سعد بن ابى السرح وبعث معه نجاره حتى ركبه، فلم يزل هذا المنبر قائما فى موضعه من المساجد حتى نصب قرة بن شريك المنبر الجديد. ومنبر قرة هوأقدم منبر إسلامى بعد منبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقدر لهذا المنبر أن يبقى فى موضعه الى أن كسر فى أيام العزيز بالله الفاطمى الذى جعل مكانه منبراً مذهبا. وحمل منبر قرة الى الإسكندرية فجعل بجامع عمرو المعروف بالجامع الغربى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٨) الوليد بن رفاعة بن خالد الفهمي (١٠٩ - ١١٧٠هـ) : في عهده نقلت قبيلة قيس الى مصر في سنة ١٠٩ هـ وكان سبب إنتقالها الى مصر أن ابن الحبحاب وفد على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتا، فأذن له هشام في نقل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر بشرط إلا ينزلوا الفسطاط، فقدم بهم ابن الحبحاب وأنزلهم الحوف الشرقي وفرقهم فيه، فنزل معظمهم مدينة بلبيس وأمرهم بالزرع ومنحهم مال الصدقة من العشور فإشتروا ابلاً ثم أمرهم بشراء الخيول، فجعل الرجل منهم يشتري المهر فلا يمكث إلا شهرا حتى يركب دون أن يتكلف مؤن أعلافه ويرجع السبب في ذلك الى جودة مرعاهم.

(٩) حنظلة بن صفوان (الولاية الثانية) (١١٩ - ١٢٤) في عهده إنتقض القبط بالصعيد في سنة ١٢١ فبعث اليهم حنظلة بجند الديوان فحاربوهم وأخمدوا حركتهم.

(١٠) عبد الملك بن مروان بن موسي بن نصير(جمادي الآخرة سنة ١٣٢ - المحرم ١٣٣ هـ) هو حفيد موسى بن نصير فاتح الأندلس، ولي مصر من قبل مروان بن محمد، ويتميز عهده بثلاث أحداث الأول أنه أمر بإتخاد المنابر في الكور ولم تكن المنابر معروفة إلا في جامع عمرو بالفسطاط وكان ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة.

والحدث الثاني أن رجلا من القبط يقال له يحنس إنتفض في سمنود وثار معه عدد من القبط فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري فقضى على حركته وقتله.

والحدث الثالث تسويد أهل الحوف الشرقي، وقد مهدوا لذلك بحركة تزعمها الرماحس بن عبد العزيز الكناني في جمع من القيسية وتفصيل ذلك أن عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان أعلن خروجه على مروان بن محمد وتابعه في ذلك الرماحس، فنزلوا الحوف الشرقي

وعاثوا هناك فساداً، فسير اليهم عبد الملك قائده موسى بن المهند بن داوود بن نصير في عسكر الديوان، فتراجع الثوار الى .بلبيس في سبعة آلاف، فلما التقى الفريقان جنح الثوار الي الصلح علي أن يسهلوا على عمروبن سهيل والرماحس سبيل الخروج الى أى أرض شا ءا قصدها فأجابهم موسى بن المهند الي الصلح، ونجح الرماحس في الفرار الى الأندلس حيث لعب دوراً سياسيا خطيراً مناهضا للأمير الأموى عبد الرحمن الداخل، إذ أعلن الثورة عليه في سنة ١٤٦ هـ بعد أن كان الأمير الأموى قد ولاه على الجزيرة الخضراء ولكن الأمير لم يمهله فسير اليه جيشا بقيادة أبو عبد الله ابن خالد، فاجأ الرماحس في الجزيرة، ففر الرماحس في مركب حمله الى المشرق.

وأما عمرو بن سهيل فقد ظفر به عبد الملك بن مروان وحبسه بالفسطاط وفي إمارة عبد الملك قدم مروان بن محمد الى مصر، فسود أهل الحوف الشرقي، وأول من سود هناك شرحبيل بن مذيلفة الكلبي، كما سود الأسود ابن نافع بن ابى عبيده بن عقبة الفهرى بالإسكندرية، وعبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله بصعيد مصر، ويحيى بن مسلم بن الأشج مولى بنى زهرة بأسوان، وكان ذلك سببا في إقدام مروان بن الحكم على تدمير بعض المنشآت المصرية من بينها دار الذهب التى تنسب الى عبد العزيز بن مروان، ومنها الجسران المؤديان الى بر الجيزة، وبعث جيشا الى الإسكندرية بقيادة الكوثر ابن الأسود الغنوى تمكن من دخول الإسكندرية، وفى نفس الوقت حاول القبط برشيد الخروج على طاعة الأمويين فتصدى لهم أحد قادة مروان بن محمد فاستنزلهم. ولكن جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على العباسى لم تلبث أن تغلبت على إتباع مروان في الفسطاط وقضت عليه في بوصير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب - سياسة الولاة نحو الأهالي :

لم تستفد مصر شيئا طوال عهد الولاة الأمويين نظراً لقصر عهد كل وال وتفانيه من أجل الحصول على المال بكافة السبل[1] ، كذلك لم يتحقق للبلاد ما كان يرجوه أهلها من تقدم وكان بقاء الوالى فى الحكم يتوقف الى حد كبير على مدى تنفيذه لمطالب الخليفة وتطبيق سياسته التى كانت تهدف الى الحصول على أكبر قدر من الخراج مهما إشتد بالناس البؤس، لهذا قامت كثير من الثورات بإيعاز من القبط والمسلمين على السواء، وكان الولاة يتفاوتون شدة ولينا تبعا لميولهم ووفقا لأهوائهم وعلى الرغم من قسوة بعض الولاة وتعسفهم مع الرعية وإضطهاد البعض منهم للقبط لم تعدم مصر ولاة عرفوا بحسن السياسة والتسامح عملوا على نشر العدل وإصلاح البلاد.
ولقد ترك العرب القبط أحرارا فى دينهم وفى ثقافتهم وجعلوا لهم نصيبا وافراً فى إدارة بلادهم. ومن مظاهر ذلك إنه كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط زمن عبد العزيز بن مروان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا والسفلى وهما إثنا سيوس وإسحاق، وفى، نهاية عهد عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطياً إسمه بطرس، وكان حاكم مريوط قبطياً إسمه تاوفانوس. كذلك عمل الفتح العربى على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية وكان لوالى مصر الحق فى الإشراف على إنتخاب البطاركة.
وبنيت عدة كنائس فى عهد الأمويين: ففى أيام البطريرك اغاتون (٦١١م - ٦٧٧) عمرت كنيسة ابى مقار، كذلك بنيت كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية وبنيت أيضا أول كنيسة فى الفسطاط فى ولاية مسلمة بن مخلد، وبنيت كنيسة مارى جرجس وكنيسة ابى قير داخل قصر الشمع

---

(١) من هؤلاء الولاة عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذى زعموا أنه إرتشى. (راجع الكندى، ص ٥٩).

وعدة كنائس فى عهد عبد العزيز بن مروان. ويذكرأبو صالح الأرمنى بناء كنائس عديدة فى مصر فى خلافة هشام بن عبد الملك (١). ومن دلائل تسامح العرب مع المسيحيين أن عبد العزيز بن مروان إتخذ دير القبط فى مدينة طنوية الواقعة على النيل قرب حلوان مقراً لإقامته ودفع للرهبان ٢٠ ألف ديناراً. وكان المسلمون يشتركون مع الأقباط فى الصلاة من أجل النيل إذا جاء النيل منخفضا وكانت هذه الصلاة تعرف بصلاة الإستسقاء.ومع ذلك فقد أدت سياسة بعض الولاة الى أثارة القبط لتشددهم فى جباية الضرائب وإقصائهم عن مناصب الدولة بعد تعريب الدواوين زمن عبد الملك بن مروان وبصفة خاصة فى عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى ٩٩ - ١٠١ هـ (٧١٧ - ٧٢٠ م) الذى عمل على إحلال المسلمين فى الوظائف الكبرى والصغرى بدلا من الأقباط. وأمر الخليفة يزيد عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤) سنة ١٠٤ هـ بكسر الصلبان فى كل مكان وبمحو الصور والتماثيل بالكنائس ويبدو أن هذه الحركة أساءت إلى الأقباط وأثارتهم ومما زاد من سخطهم أن الولاة فرضوا على أهل الذمة إتباع أمور شتى من حيث الملبس والسكنى والدواب التى كانوا يركبونها وطريقة بناء الكنائس وإشترطوا عليهم أن تختم رقابهم وقت جباية جزية الرؤوس وإلا يبتاعوا خمرا ولا خنزيرا ولا يسمح لهم بلبس العمائم والطيلسان، ويحرم عليهم إقامة أبنية تعلو على هذه أبنية المسلمين بل تكون مساوية لها فى الإرتفاع على الأكثر. وهكذا أدت الأعمال إلى قيام الأقباط بالثورة فى الحوف سنة ١٠٧ هـ (بين بلبيس ودمياط). وبالرغم من تمكن العرب من قمع هذه الثورة فقد عادت للنشوب مرة أخرى بعد سنوات قليلة.

---

(١) منها كنيسة ذكر الكندى أنها بنيت بإذن والى مصر الوليد بن رفاعة فى سنة ١١٧ هـ فى منطقة الحمراء كانت تعرف زمن الكندى بإسم أبى ميا وظلت قائمة فى عصر المقريزى الذى يذكر أنها كانت قائمة ما بين القاهرة والفسطاط فى خط قناطر السباع. وقد هدمت هذه الكنيسة فى سنة ٧٢١هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج - فضل مصر على البحرية الإسلامية فى العصر الأموى

أحجم العرب بادئ ذى بدء عن الحروب البحرية وأعتمدوا فى الدفاع البحرى على القلاع والمحارس والمناظر التى توزعت على سواحل الشام ومصر. ثم إضطر العرب فى المرحلة التالية وعلى الأخص فى خلافة عثمان ابن عفان الى إصطناع سياسة بحرية بعد أن ثبتت أقدامهم فى هذين القطرين. وبينما كان معاوية فى الشام يهتم بتأسيس إسطول عربى شامى كان عبد الله بن سعد فى مصر يقوم بإنشاء أسطول عربى مصرى فى الإسكندرية، وقد إشترك الإسطول المصرى مع الشامى فى غزوة قبرص، كما إشترك الإسطولأن معا فى غزوة ذات الصوارى التى إنتهت بإنتصار الإسطول العربى إنتصارا حاسما. كذلك إشتركت قطع من الأسطول المصرى فى حصار القسطنطينية سنة ٩٨ زمن سليمان بن عبد الملك.ولكن معاوية بن ابى سفيان لم يستفد من الإنتصار العربى فى ذات الصوراى لكى يتابع الغزو البحرى لجزر البحر المتوسط الشرقى، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥هـ، ومناداة على بن طالب من أجل الخلافة عن مواجهة البيزنطين الذين إغتنموا هذه الفرصه لتدعيم جبهتهم الداخليه وإعادة بناء قوتهم البحرية، ثم وجهوا فى سنة ٤٩هـ، هجموا عاتياً على سواحل الشام، كما هاجموا الساحل الشرقى لمصرونزلوا بالبرلس فى سنة ٥٣ هـ وقتلوا جماعة من المسلمين ويبدو أن الخسائر التى سببها الروم بهجومهم على الشام ومصر كانت فادحه مما حمل معاوية على أعادة انشاء دار لصناعة الاسطول فى عكا لتنتج له سفناً محلية بدلاً من إعتماد الشام فى الإنتاج البحرى على دار صناعة الإسكندرية فأمر بجمع الصناع والنجارين، فجمعوا، ورتبهم على السواحل، وكانت الصناعة فى الأردن بعكا وظلت عكا القاعدة البحرية فى الشام الى أن نقلت زمن بنى مروان بن الحكم الى صور. ومنذ أن قامت دار الصناعة بعكا ودار صناعة الإسكندرية بصناعة السفن حتى اصبح العرب يشكلون خطرا متزايداً على البيزنطيين، وأحرزوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليهم إنتصارات لم تكن فى حسبان الروم حملت الإمبراطور قنسطانز الثانى على تحويل نشاطه البحرى من نصف البحر المتوسط الشرقى إلى نصفه الغربى حيث كانت جيوش العرب تهاجم إفريقية البيزنطيه وتشن الغارات البحرية من قاعدة الاسكندرية على صقلية وسردانية وقوصرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى، فأن الروايات المتعلقة بغزو صقلية تدل على أن إسطول مصر الذى ترابط وحداته فى الإسكندرية هو الذى كان يتولى مهمة غزو تلك الجزيرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربى حتى بدايه القرن الثانى الهجرى عندما بدأت دار الصناعة بتونس تنتج لحسابها سفنا إسلامية. وكان أمراء البحر يخرجون منها للغزو كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهنى فى سنة ٤٧ هـ فى البحر إلى رودس بعد أن عزله معاوية عن إمارة مصر وولاه أمره البحر. وقد إعتمد العرب بادىء ذى بدىء فى صناعة السفن على دار صناعة الإسكندرية وعلى خبرة المشتغلين فى البحر من أهل مصر الأقباط الذين لم يشتركوا مشاركة فعالة فى المعارك البحرية الأولى فحسب، بل ساهموا مع جيش عبد الله بن سعد فى موقعة سبيطلة التى حدثت فى إفريقية سنة ٢٨ هـ، كما سبق أن ساعدوا عمرو بن العاص فى الفرما وكانوا له أعوانا على البيزنطيين. ومما لاشك فيه أن إسطول الإسكندرية هو الذى حمل غنائم عبد الله بن سعد التى كان جيشه ينوء بحملها من ميناء طرابلس الغرب الى الإسكندرية. والإسطول السكندرى أيضا هو الذى غزا بقيادة عبد الله بن قيس جزيرة صقلية سنة ٤٦ هـ فى الوقت الذى كان معاوية بن حديج يقوم بفتح سوسة. وكان من قادة المسلمين الذين غزوا صقلية وقوصرة فى هذة الفترة المبكرة من تاريخ الفتح العربى لإفريقية أبو محمد فضالة ابن عبيد الأنصارى الصحابى المتوفى سنة ٥٣ هـ وكان يتولى القضاء والبحر بمصر فى خلافة معاويه.، ودخل إفريقية غازياً هو ورويفع بن ثابت الأنصارى ومنهم عقبة بن نافع الفهرى الذى غزا فى البحر بأهل مصر فى سنة ٤٩ هـ. والظاهر أن الإسطول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلامى فى المغرب الذى كان يتآلف معظمه من مراكب مصرية إشترك فى العمليات الحربيه ضد البيزنطيين فى ولايه حسان بن النعمان، وقد أحرز هذا الإسطول فى مياة قرطاجنة إنتصاراً ساحقاً على الإسطول البيزنطى بقيادة البطريق جان أعظم قادة ليونتيوس الذى أغار على ساحل تونس فى سنة ٧٩ هـ وقد نجح المسلمون فى إيقاع الهزيمه به وأرغموه على الفرار إلى صقلية. كذلك أسهم الأسطول المصرى فى غزوة جزيرة سردانية فى خلافة عبد الملك بن مروان، فلقد سير عبد العزيز بن مروان والى مصر القائد عطاء بن أبى نافع الهذلى فى مراكب أهل مصر بغزو سردانيه، فوصلت سفن عطاء إلى سوسة للتزود بما يلزمها من أقوات، وكان الوقت فى بداية الشتاء، فنصحه موسى بن نصير والى المغرب إنذاك بالبقاء فترة الشتاء إلى أن يطيب ركوب البحر، ولكن عطاء لم يأخذ بنصيحته، وشحن سفنه ثم رفع مراسيه، فغزا جزيرة صقلية وأصاب منها غنائم كثيرة وتحفا من الذهب والفضة والجواهر، ثم إنصرف قافلا فأصابته عاصفة بحرية عاتية دمرت معظم سفنه، فوجه موسى جماعة من المسلمين إلى الساحل لإنقاذ من نجا من المصريين، وقد أفاد موسى منهم فألحقهم بدار الصناعة بتونس. وفى سنة ٨٩ هـ قام عبد الله بن مره بطالعة أهل مصر على موسى على موسى فعقد له موسى على بحر إفريقيه، فغزا سردانيه وأفتتح مدنها وغنم غنائم كثيرة.

وهكذا إعتمد العرب الفاتحون للمغرب فى غزواتهم البحرية فى الفترة ما بين عامى ٢٨ و ٨٩ هـ على إسطول مصر الذى كانت قطعه ترابط فى مياة الإسكندرية. وكان نشاط هذة السفن فى النصف الغربى من حوض البحر المتوسط يعرض سواحل مصر للغزو البحرى البيزنطى، كما حدث عندما أغار البيزنطيون على البرلس سنة ٥٣ ردا على الغزوة التى أقام بها عبد الله بن قيس الدزقى على صقلية سنة ٤٦ هـ وغزوة عقبة بن نافع فى أهل مصر فى البحر سنة ٤٩، كما أغار البيزنطيون فى سنة ٩٠ هـ على دمياط

وأسروا أمير بحرها خالد بن كيسان ردا على غزو المسلمين لصقلية وسردانية في ٨٩ هـ.

وقد فطن ولاة العرب في إفريقيه إلى أهمية أنشاء دار الصناعة في إحدى مدن الساحل التونسي لتزويد الجيش العربي بأسطول مستقل في عمليات الحربية أن إسطول مصر، يساعد على غزو صقلية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التي كانت تؤلف مراكز إنطلاق لغزوات البيزنطيين على السواحل التونسية وتشكيل خطرا جاثما أمام هذه السواحل.

والي حسان بن نعمان الغساني يرجع الفضل في إنشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. أدرك حسان أن الفتح العربي للمغرب لا يمكن أن يتدعم إلا إذا جارى العرب البيزنطيين في البحر، فأصطنعوا لأنفسهم سياسة بحرية في المغرب وأنشأوا إسطولا إفريقيا يواجهون به إسطول البيزنطيين التي ترابط قطعه على سواحل صقلية وكالا بريا، ولذلك سير حسان الى عبد الملك بن مروان وفد من ٤٠ رجلا من أشراف العرب لإطلاعه على ما يعانيه المسلمون هناك من غزو أساطيل الروم، وكتب إليه رسالة أوضح له فيها أهمية أنشاء درا صناعة بتونس وطلب منه أن يبعث إليه بجماعة من أقباط مصر يتولون إنشاء دار صناعة تونس لشهرة الأقباط في صناعة السفن.

وعظم على عبد الملك ذلك، وعز عليه، وكان رجلا مجاهدا شارك في فتح إفريقيه ان يتعرض المسلمون لهذة الأخطار المتواصلة، فعزم على تحقيق رغبه حسان، فكتب إلى أخيه عبد العزيز بمصر يأمره بأن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده، وأن، يحملهم من مصر، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس، وكتب إلى ابن النعمان يأمره بأن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين وإن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فوفد القبط عليه وهو مرابط بتونس، فجعل معظمهم فى مرسى رادس ووزع الباقى فى مراسى إفريقية، ولم تلبث تونس بأن تحولت الى قاعدة بحرية هامة بفضل جهود المصريين.

(٢)
مصر في عصر الدولة العباسية

(أ) دخول مصر في فلك الدولة العباسية وتأسيس العسكر:

تتبع العباسيون بقيادة عبد الله بن على العباسى مروان بن محمد بالشام حتى فر إلى مصر مار بالأردن وفلسطين، وكان عبد الله بن على قد وجه وهو على نهر ابى فطرس بفلسطين صالح بن على فى طلب مروان، فسار صالح إلى الرملة ومنها إلى ساحل البحر حيث جمع السفن وتجهز مطاردا مروان وهو بالفرما، فسار على الساحل والسفن حذاءه فى البحر حتى نزل العريش، ولكن مروان كان قد فر منها إلى الفسطاط ثم عبر النيل وقطع الجسر المؤدى الى الجيزة بعد ان إجتازه اليها. وفى هذه الأونة بلغه انضواء أهل الإسكندرية بزعامة الأسود بن نافع الفهرى إلى الدعوة العباسية وتسويد أهل الحوف الشرقى ومخالفة القبط الأمويين فى رشيد بسبب عبث جند مروان فى بلادهم ونهبهم لأموالهم أثناء تراجعهم أمام العباسيين او قيامهم بإخماد الحركات المؤيده للعباسيين.

فقد سير مروان الكوثر بن أسود الغنوى وعثمان بن ابى نسعة الخثعمى إلى أهل الإسكندرية فإلتقيا بقائد ثورة الإسكندرية فى الكريون وإشتبكا معه فى قتال عنيف إنتهى بمصرع الأسود بن نافع وعدول الكوثر الاسكندرية. وهكذا وفق مروان بن محمد اثناء فراره أمام الجيوش العباسية من إسترداد الإسكندرية ورشيد وبعض المناطق التى أعلنت خروجها على طاعة الأمويين، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها طويلا اذ قدم الجيش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العباسى بقيادة صالح ابن على وابى عون إلى الفسطاط بعد ما يقرب من شهر من وصول مروان بن محمد، وأضطر مروان إلى الفرار جنوبا إلى بوصير من كورة الأشمونين وبرفقته عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير. ومازال صالح بن على تتبعه إلى أن تمكن من محاصرته في كنيسة ببلدة بوصير، فقتله وإحتز رأسه وارسلها إلى أبي العباس السفاح. ثم دخل صالح بن على الفسطاط فى ٨ من المحرم سنة ١٣٣هـ وعسكرت قواته فى منطقة تقع إلى الشمال الشرقى من الفسطاط عرفت منذ ذلك الحين بالعسكر.

وكان موضع العسكر يعرف في صدر الاسلام بالحمراء القصوى التى كانت خطة لبنى الأزرق وبنى يشكر، ثم دثرت هذه الخطط وأصبحت الحمراء القصوى صحراء، فلما قدمت جيوش العباسيين أنزلها صالح بن على وأبو عون عبد الملك بن يزيد فى هذه الصحراء حتى ملأت الفضاء، ثم أمر صالح بن على أصحابه بالبناء فيه فى سنة ١٣٣ولما تم بناؤها أتخذها مقر لحكم وقاعدة للإدارة ونقلإاليها الشرطه العليا فأتسعت المدينة. ونما عمرانها بحيث أتصلت مبانيها بمباني الفسطاط وصارت مدينة فسيحة متسعة تشتمل على دور عظيمة ومحال وأسواق، ولقد جرى صالح بن على نفس السياسة التى إرتسمها ولاة مصر من قبل الدولة الأموية، فأسس قصرا جديدا للإمارة بمدينة العسكر بدلاً من قصر الذهب الذى دمره مروان بن محمد أثناء فراره أمام الجيوش العباسية. وكان لقصر صالح هذا ابواب منها باب يؤدى إلى حوض، وباب ثان خصص لخاصة القوم، وأصبح القصر مقراً للولاة العباسيين من بعد صالح الى ان تولى أحمد بن طولون مصر نائبا عن باكباك التركي فى سنة ٢٥٤هـ فنزل قصر صالح وقام به حينا إلى أن أنتقل منه إلى قصره الجديد بالقطائع.

وتحول قصر صالح أو دار الأمارة بالعسكر فى عصرخمارويه إلى مقر لديوان الخراج ولكن القصر لم يلبث أن أعد للسكنى، بعد سقوط الدولة الطولونية، فقد نزله محمد بن سليمان الكاتب. ومازال الأمراء ينزلون

بالعسكر ى ان اسست القاهرة.

ن دى الفضل بن صالح قد أسس بالعسكر جامعا فى سنة ١٦٩هـ وعرف هذا الجامع بجامع ساحل الغلة.

(ب) أشهر ولاة العباسيين في مصر حتي قيام الدولة الطولونية :

يبلغ عددهم ٦٩ حتى سنة ٢٥٤هـ أولهم صالح بن على العباسى الذى تولى إمارة مصر فى المحرم سنة ١٣٣هـ، وأول مافعله انه أرسل وفد من أهل مصر إلى ابى العباس السفاح يحملون بيعة أهل مصر للخليفة، أما عبد الملك بن مروان آخر ولاة الأمويين في مصر لقد أسر هو وأخوه معاويه فسجنا إلى أن صحبا صالح بن على عندما خرج من مصر إلى العراق حيث إرتفعت منزلتهما .أما من بادر بأعلان السواد قبل دخول الجيوش العباسية فقد كافأهم صالح بن على قبل أن يغادر مصر على خدماتهم للعباسيين، ومنهم الاسود ابن نافع الفهرى وعبد الرحمن بن عتبه المعافرى وعياض بن جريبه الكلبى ومحمد بن الرحمن ابن معاوية بن حديج فأقطع الإسود بن نافع منية بولاق ومنازل زبان بن عبد العزيز بن مروان بالإسكندرية.

ومن أشهر أعمال صالح بن على قيامه بإضافة ٤ اساطين فى مؤخر المسجد الجامع بالفسطاط. ثم أعيد صالح بن على إلى أمارة مصر فى سنة ١٣٦هـ وفى هذه الولاية الثانية التى لم تطل أكثر من أشهر جهز مراكب الإسكندرية وجيوش العباسيين لغزو المغرب.

ومنهم الليث بن الفضل (١٨٢ - ١٨٦ هـ) من قبل الرشيد وفى عهده خرج عليه أهل الحوف بسبب جور مساح الإراضى فى قياس أراضيهم، فقد بعث الليث إليهم بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم، فأنقصوا من القصبة أصابع، فتظلم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم، فعسكروا، وساروا إلى الفسطاط، فخرج عليهم الليث بن الفضل فى ٤ آلاف من جند مصر فى ١٢رمضان سنة ١٨٦، فإنهزم الجند عن الليث ولم يبق معه سوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مائتان كربهم على أهل الحوف فهزمهم فعادوا إلى ديارهم دون أن يدفعوا الخراج. ومن الجدير بالذكر ان أهل الحوف سبق أن أعلنوا ثورتهم على ولاة العباسيين الذين تشددوا معهم فى الخراج أمثال موسى بن مصعب الخثعمى (١٦٧ - ١٦٨ هـ) الذى زاد على كل فدان ضعف ما تقبل به، كما اصطنع الرشوة فى الأحكام، فأخرج أهل الحوف عماله فى سنة ١٦٨ ونابذوه وعقدت قيس واليمانية حلفا فيما بينهم، كما أتفقوا على حث أهل الفسطاط على خذلان اميرهم - وعند اللقاء، انهزم موسى بن مصعب هزيمة نكراء بعد أن خذله أهل الفسطاط والجند فقتل موسى بن مصعب.

وفى ولاية الحسين بن جميل (١٩١ -١٩٢ هـ) إمتنع أهل الحوف عن أداء الخراج كما خرج أبو الندى البلوى فى نحو ألف رجل ليقطع الطريق بأيلة ومدين وأغار على بعض قرى الشام. فبعث هارون الرشيد جيشا من قبله بقيادة يحيى بن معاذ تمكن من إخضاع الثوار، ونزل يحيى ببلبيس فأذعن أهل الحوف بالخراج.

ثم عاود أهل الحوف ثورتهم فى ولاية حاتم بن هرثمة بن أعين (١٩٤ - ١٩٥) ولكن حاتم خرج إليهم فى حشود كثيفة، فما كاد يصل بلبيس حتى صالحه أهل الحوف على خراجهم.

وفى أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون، كتب المأمون إلى أشراف أهل مصر يدعوهم إلى نصرته فأجابوه سراً وبايعوا له فى ٨ جمادي الآخرة سنة ١٩٦ فولى مصر عباد بن محمد من قبل المأمون فى سنة ١٩٦، وبلغ الأمين ما فعله المصريون من خلعه، فكتب إلى رئيس قيس بالحوف وهو ربيعة بن قيس الجرشى بولاية مصر وطلب منه انقاذ أهل الحوف كلهم معه يمنها وقيسيها لمحاربة أنصار المأمون. فخرج ربيعة وأتباعه إلى الفسطاط لمحاربة أهلها، فخندق عباد على الفسطاط ونشب القتال حول الفندق فى بداية سنة ١٩٧، ولكنه لم يؤد الى نتيجة وعمد عباد إلى مضايقة أهل الحوف فعقد لعبد العزيز الجروى فى قومه من لخم وجذام لمحاربة أهل الحوف،

ولكنه إنهزم. فمضى إلى بلبيس فنزلها ودعا بالإمارة لنفسه وأرسل عماله يجمعون الخراج من شمال الدلتا.

أما أهل الحوف فقد ساروا مرة ثانية إلى الخندق في المحرم سنة ١٩٨ فعقد عباد للسرى بن الحكم على حربهم، فإنهزم أهل الحوف ثم تفرقوا بعد أن بلغهم مقتل الأمين في المحرم سنة ١٩٨ .

وإستمر أهل الحوف في حركتهم طوال عصر الولاة واستفحل خطرهم في الفترة من ١٩٨ - ٢١٤ وعندما حاول عمير بن الوليد (٢٣٤) أن يحاربهم، قتلوه في كمين نصبوه له، وهزموا والى مصر الجديد عيسى بن يزيد الجلودى وأرغموه على الفرار إلى الفسطاط الأمر الذى دعا ابو إسحق المعتصم بن هارون الرشيد إلى القدوم بنفسه إلى مصر في أربعة آلاف من الأتراك، ولما دعاهم الى الطاعة إمتنعوا عليه فقتلهم وهزمهم في داخل الفسطاط، وأمر بضرب أعناق زعماء الثورة وعلى رأسهم عبد الله بن حليس.

ومع ذلك فإن أهل الحوف لم تهدأ ثائرتهم، فقد واصلوا حركتهم بعد عودة أبى إسحق في المحرم سنة ٢١٥ ، وتضامنوا مع القبط وأعلنوا الثورة من جديد سنة ٢١٦ على العمال لسوء سيرتهم فيهم وذلك في ولاية عيسى بن منصور(٢١٥ - ٢١٧) فقدم الأفشين، لإخماد حركتهم، فحاربه أهل تنو وتمى ولكنه هزمهم وتابع زحفه إلى الحوف، ففر الثوار ثم إتجه إلى بنى مدلج في الإسكندرية فهزمهم ثم عاد إلى أهل البشرود في الحوف فطاولوه وأمتنعوا حتى قدم في المحرم سنة ٢١٧ هـ ، فأعلن سخطه على عيسى بن منصور وأمر بحل لوائه، وأمره بلباس البياض وقال: لم يكن هذا الحدث العظيم الإ عن فعلك وفعل عمالك، حملتهم الناس مالا يطيقون، وكتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر وإضطربت البلد وكان لقدوم المأمون إلى مصر أثره في إخماد الفتن، فقد تمكن قائده الإفشين من الإيقاع بالقبط بالبشرود ، فنزلوا على حكم الخليفة فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ومن أشهر ولاة

مصر عنبسة بن إسحق الضبى (٢٣٨ - ٢٤٢ هـ) الذى أخذ عماله برد المظالم ، وأظهر بالحوف من العدل ما لم يسمع فى زمنه وفى ولايته غزا البيزنطيون دمياط يوم عرفة سنه ٢٣٨ هـ فإستولوا عليه وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها وسبوا النساء والأطفال.

وعندما تحرك عنبسة لمطاردتهم لم يتمكن من إدراكهم، إذ إنتقل البيزنطيون إلى تنيس فأقاموا بمينائها ، فتقاعس عنبسة عن ملاحقتهم، وفى هذة الحادثة يخاطب الشاعر يحيى بن الفضل الخليفة المتوكل يحثة على إنجاد دمياط:

أترضى بأن توطأ حريمك عنوة ... وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتى دمياط والروم وثب ... بتنيس منه رأى عين وأقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ... ما أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فلا تنسنا أنا بدار مضيقه ... فى مصر وإن الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل بإنشاء حصن دمياط الذى شرعوا فى بنائه فى رمضان سنة ٢٣٩ ومن أشهر ولاة مصر أيضا يزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ - ٢٥٣هـ) وفى ولايته أمر المتوكل ببناء المقياس الهاشمى للنيل فى الروضة سنة ٢٤٧ وهوالمقياس الكبيرالمعروف بالجديد كما أمره بأن يعزل القائم بقياسه وكان نصرانيا فجعل يزيد بن عبد الله على المقياس أبا الرداد المعلم وأجرى عليه ٧ دنانير كل شهر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)
أحداث الإسكندرية في عصر الولاة العباسيين

فى الوقت الذى كان الحوف الشرقى يحتدم ناراً رست بمياة الإسكندرية مراكب أندلسية قفل أصحابها من غزوهم ونزلوا الإسكندرية لإبتياع ما يلزمهم ، فأغواهم الإضطراب السائد وإستنصار بعض الطامعين من العرب بهم على خصومهم فلم يترددوا فى التدخل عندما وأتتهم الفرصة.

وإعتقد أن الأندلسيين الذين قدموا فى سفنهم الى الإسكندرية فى سنة ١٩٩ كانوا غزاة بحر وملاحين مهمتهم الجهاد البحرى ضد بلاد الفرنجة وسواحل إيطاليا وجزر البحر المتوسط، وأعتقد أيضا أنهم قدموا فى ٤٠ سفينة وكان عددهم لا يزيد عن ٥ آلاف شخص. إستغلت طائفة البحريين الأندلسيين حالة الفوضى الداخلية فى مصر واضطراب العرب المقيمين بالإسكندرية ونواحيها من لخم ومدلج ودخلوا طرفا فى النزاع. فعندما ولى المطلب بن عبد الله والى مصر اخاه الفضل على الإسكندرية سنة ١٩٩ حقد عمر بن هلال الوالى السابق للإسكندرية عليه وتحالف مع ثائر آخر فى ثغرتنيس هو عبد العزيز الجروى كان طامعا فى إمارة الفسطاط. فكتب إليه الجروى يأمره بالوثوب على الإسكندرية والدعاء له بها وإن يخرج الفضل بن عبد الله منها. ولم يكن فى إمكان بن هلال وحده أن يقوم بهذا العمل الجرىء، فرأى أن يستعين بالأندلسيين الذين كانوا يقضون فصل الشتاء فى مراكبهم بمياه الإسكندرية، ولم يتردد الأندلسيون فى بذل المساعدة لابن هلال وبفضل نصرتهم له نجح فى إخراج الفضل من الإسكندرية ودعا فيها لعبد العزيز الجروى، ولكن أهل الإسكندرية إستاءوا من تدخل الأندلسيين فهاجموا عليهم وإشتبكوا معهم فى معركة إنتهت بهزيمة الأندلسيين وعودتهم الى مراكبهم وقتل فى هذه المعركة عدد منهم .

وهكذا إنتصر السكندريون وأعادوا واليهم الشرعى. إلا أن المطلب لم يلبث أن عزل أخاه الفضل وأسند الولاية الى إسحق بن إبرهة بن الصباح، وهنا تحركت مطامع إبن هلال من جديد، فخرج لمقاتلتة فى شهر رمضان ١٩٩ هـ وتجنبا للقتال عزل المطلب إسحق بن إبرهة وولى الإسكندرية لأبى بكر بن جنادة بن عيسى المعافرى وفى نفس الوقت تمكن الجروى بالإتفاق مع السرى ابن الحكم بإجماع الجند عليه فى مستهل رمضان ٢٠٠هـ، وهنا سنحت لإبن هلال الفرصة للتغلب على الاسكندرية فهاجم واليها ابا بكر بن جنادة واخرجه منها ودعا للجروى بها، وهنا تهيأ المجال امام الاندلسيين للنزول بأرض الإسكندرية والإقامة فيها بدلا من المقام فى السفن، والظاهر أنهم إحتكوا بأهل الإسكندرية وافسدوا فيها، فإضطر ابن هلال الى اخراجهم من بر المدينة إرضاء لأهل المدينة، فرضخ الأندلسيون لطلبه - وأن كانوا قد اصطعنوا عليه ذلك انتظاراً لفرصة مواتية ينقلبون فيها عليه. وحدث فى هذه الفترة المضطربة من تاريخ الإسكندرية أن ظهرت طائفة تدعو بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعارض الوالى تسموا بالصوفيه تولى زعامتهم رجل يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى، وكان من الطبيعى أن يتحالف هؤلاء الصوفيه مع الأندلسيين لإشتراكهم معهم فى العداء للوالى، وإجتذب الصوفيه اللخميين واعتضدوا بهم وكان اللخميون قوة هائلة لها وزنها فى نواحى الإسكندرية وكانت لهم أطماعهم الخاصة، وقد عزم الحلفاء على إزاحة ابن هلال، فتجمعت حشودهم حتى بلغت زهاء عشرة ألاف، فحصروا ابن هلال فى قصره، فسلم نفسه إليهم هو وأخوه محمد وابن عمه هبيرة الواحد بعد الآخر، فتلقفتهم سيوف الحلفاء وقتلوهم فى ذى القعدة سنة ٢٠٠. ثم تنازع اللخميون بعد مصرع ابن هلال مع الأندلسيين نزاعا أدى الى قيام الحرب وإشتبك اللخميون مع الأندلسين، فإنهزم اللخميون وإنتهى الأمر بدخول الأندلسيين الإسكندرية عنوة فى ذى الحجه سنة ٢٠٠، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى، وفى عهده ساد الفساد وكثر القتل والنهب، فإضطر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأندلسيون الى عزله، وولى رجلاً منهم يعرف بالكناني. فعند ئذ تدخل بنو مدلج، وكانوا يقيمون بظاهر الإسكندرية، إذا خافوا أن يستقل الأندلسيون بها ، فهاجموا الأندلسيين، ولكنهم منوا بهزيمة نكراء ترتب عليها أن الأندلسيين أصبحوا يتحكمون فى مصير الإسكندرية، فنفوا بنى مدلج عنها، وانفردوا بحكمها. ولم يجد السرى بن الحكم والى الفسطاط بداً من قبول الأمر الواقع، وحمد له الأندلسيون موقفه المتخاذل.

وبلغ الجروى ما حدث من مقتل صاحبه ابن هلال وإستبداد الأندلسيين بالإسكندرية وتقاربهم مع السرى ابن الحكم الذى سبقه فى الظفر بالإمارة على الفسطاط، فجهز جيشا حاصر به الإسكندرية، فخاف السرى أن يتغلب الجروى على الإسكندرية فتتضاعف قوته عليه، فأرسل قوة لمهاجمة تنيس وأرغام الجروى على فك الحصار عن الإسكندرية والعودة الى تنيس بلده لإنقاذها، ونجحت الخطة وإضطر الجروى الى فك الحصار والعودة الى تنيس.

وفى هذة الأثناء وقع إنقلاب عسكرى فى الفسطاط إنتهى بخلع السرى فى ربيع الأول سنة ٢٠١ وأرغموه على التراجع الى الصعيد، غير أنه لم يلبث أن عاد الى ولايته بتقليد من المأمون، فى الوقت الذى زحف فيه الجروى الى الإسكندرية للمرة الثانية، وإتفق مع الأندلسيين على دخولها وتنصيب عامل من قبله، ولكن ما كاد الجروى يمضى بقواته لمواجهة السرى فى الفسطاط حتى قام الأندلسيون بخلع عامله على الإسكندرية ودعوا من جديد للسرى. فلما بلغت الجروى هذه الأنباء زحف الى الإسكندرية للمرة الثالثه فى سنة ٢٠٣ فأغلق الأندلسيون حصن الإسكندرية فحاصرهم الجروى سبعة أشهر وبينما كان جيشه يضرب جدران الحصن بالمنجنيق أصيب الجروى بشظية من الحجر فهلك على الفور وبوفاته إنتهت حركته وإنسحبت قواته الى تنيس.

ولم يطل العمر بالسرى بن الحكم هو الآخر، إذ توفى فى جمادى سنة ٥ ٢ وإنفرد الآندلسيون بحكم الإسكندرية بعد وفاة المتنافسين، فى حين قام صراع عنيف بين أبناء السرى والجروى. وعندئذ صمم المأمون على وضع حد للإضطرابات الداخلية فى مصر، فأسند هذه المهمه الى قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين، وأدرك ابن طاهر أنه للقضاء على هذه الفتن لابد له إستخدام الجيش والإسطول العباسى فى آن واحد، فسير جيشا من الخراسانيين الى مصر، وأقبل هو فى سنة ٢١٠ فتلقاه على بن الجروى بالأموال والإنزال وإنضم اليه، فأسند اليه عبد الله قيادة الاسطول فى تنيس لمعرفته بالحرب فى البحر، ونجح عبد الله بن طاهر فى إخضاع عبيد بن السرى، وآلت اليه ولاية مصر فى ٢ربيع الاول فى سنة ٢١٨ وما أن تم لعبد الله ذلك حتى قر عزمه على السير الى الإسكندرية لإستنزال الأندلسيين، وطردهم منها. فبعث على مقدمته العباس وهاشم من قادة خراسان فى مستهل صفر ٢١٢ هـ ثم ادركها عبد الله بن طاهر فى ربيع الاول، فنزل على حصنها، وحاصر المدينة قرابة أسبوعين فإستسلمت، وخرج اليه أهلها بالأمان، ولم يجد الأندلسيون عندئذ بد من مصالحته، فصالحهم على أن يخرجوا من الإسكندرية الى حيث أرادوا من البلاد غير التابعه للعباسيين بشرط إلا يأخذوا فى مراكبهم أحد من الأهالى ولا عبدا ولا آبقاً، فاذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم.

وهكذا أبحر الأندلسيين من الإسكندرية فى أوائل سنة ٢١٢هـ يقودهم أحد زعمائهم وهو أبو حفص عمرين شعيب البلوطى الذى إختار جزيرة أقريطش وفتحوها حصن بعد حصناً وأسسوا بها دولة أندلسية دامت حتى المحرم سنة ٣٥٠عندما استردها الروم بقيادة نقفور فوقاس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

مصر المستقلة في العصرين الطولوني والإخشيدي

(١)
مصر في عصر الدولة الطولونية

(أ) احمد بن طولون:(٢٥٤ - ٢٧٠ هـ/ ٨٦٨ - ٨٨٣):

كان طولون أبو أحمد بن طولون من الأتراك الذين يقيمون بين تركستان وسيبيريا وحدث أن قام والى بخارى من قبل العباسيين وإسمه نوح ابن أسد السامانى بمحاربة أهالى هذه البلاد فكان طولون من بين الأسرى الأتراك، ثم أختير من بين المماليك الذين أهداهم والى بخارى الى الخليفة المأمون ٢٠٠هـ فأعجب به المأمون لما توسمه فيه من الذكاء فألحقه ببلاطه، وظل يتدرج فى مدارج الرقى حتى تلقب بأمير الستر، وعهد إليه بالمحافظة على حياة الخليفة وهو منصب من أخطر المناصب فى الدولة العباسية فى ذلك الوقت. وظل طولون يقوم بهذه الوظيفة فى حياة المأمون ثم فى حياة ابنه المعتصم من بعده. والمعتصم هو أول الخلفاء العباسيين الذين إستعانوا بالأتراك وأسندوا إليهم المناصب الكبرى فى الدولة وقد أقام المعتصم لمماليكه لأتراك مدينة سامراً ٢٢١هـ وإتخذها قاعدة لخلافته.

وفى ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) ولد أحمد بن طولون فى بغداد أى قبل أن يؤسس المعتصم مدينة سامراً ونشأ فى سامراً نشأة دينية كان لها أثر فى حياته المستقبلة. وعرف بتقوه وورعه منذ صغره وكان أحمد بن طولون يحضر مجالس العلماء والمحدثين ثم أنه أقبل على ممارسة الحروب وإشترك فى الغزوات فإرتفع شأنه وعظمت ومنزلته وأصبح موضع ثقة خلفاء بنى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العباس كالمتوكل (٢٤٢ - ٢٤٧ هـ) والمستعين (٢٤٨ - ٢٥٢) والمعتز (٢٥٢ - ٢٥٥) والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) وخرج أكثر من مره الى طرسوس أحد ثغور الإسلام بإعتبارها واقعة على حدود الدولة البيزنطية وهناك أقبل على تحصيل العلوم الدينية وجالس أهل العلم والتقى فتأدب بآدابهم.

ثم مات طولون سنة ٢٤٠ هـ عهد المتوكل وترك إبنه أحمد فى العشرين من عمره فولاه الخليفه المتوكل فى بعض الأعمال التى كان يتولاها أبوه طولون وأظهر أحمد براعة فى القيام بأعباء هذه المهام حتى نال أعجاب الخليفة وحاز رضاء رجال البلاط وكبار القواد وعندما تولى احمد بن طولون على مصر كان يتولى على الخراج شخص اسمه ابن المدبر الذى شكل له أولى المشاكل التى واجهته فكان من الطبيعى حين قدم ابن طولون بادىء الأمر وقد اقتصر عمله على الإدارة ورئاسه الصلاة أن يحنق عليه ابن المدبر، فأخذ يراقبة عن كثب. وعمل ابن المدبرعلى الكيد لإبن طولون وعزله عن ولاية مصر فكتب الى الخليفة المهتدى ببغداد يقول:" أن أحمد بن طولون قد عزم على التغلب على مصر والعصيان بها". ووصل كتابه هذا الى وزير الخليفة وكان يحب ابن طولون فأعاد الى ابن طولون كتاب ابن المدبر فلما قرأه ابن طولون كتم مابنفسه وطالب الخليفة أن يقيم على خراج مصر شخصاً آخر أسمه أحمد بن هلال، فلما قدم ابن هلال الى مصر سنة ٢٥٦ هـ رفض ابن المدبر أن يسلمه جميع مايبده من الأعمال، وحدث بينهما نزاع كبير فإضطر ابن طولون الى القبض على ابن المدبر وإيداعه السجن ولم يفرج عنه إلا بعد أن تولى المعتمد العباسى الخلافة فأعاد ابن المدبر على الخراج مرة أخرى. وكان نفوذ ابن طولون قد ازداد كثيراً وتوطد سلطانه بمصر وكاد ابن المدبر يتلاشى بجانبه، فرأى هذا الأخيران يبحث له عن ميدان آخر فطلب من الخليفة أن يقلده خراج سورية وفلسطين والأردن فولاه عليه سنة ٢٥٨هـ. وإستمر ابن المدبر بعد ذلك يكيد لابن المدبر وجيء به الى مصر وظل محبوسا حتى مات.

ثانيا : الفتن والثورات : لم يكد ابن طولون يستقر بمصر حتى قامت الثورات خاصة الثورة التى قام بها العلويون وذلك لما كانوا يلقونه من تعسف الأتراك وتضيق السبل عليهم، وقد بدأت هذه الثورة بخرق عبد الله بن طباطبا العلوى على ابن طولون فى موضع يقال له الكنائس بين برقة وإسكندرية سنة ٥٥هـ. وسار عبد الله الى الصعيد حيث كثر أتباعه فأدعى الخلافة فبعث إليه ابن طولون بجيش، هزمه وقتله. ثم ثار إبراهيم بن محمد يحيى العلوى المعروف بأبن الصوفي فى الصعيد ثم إستقر بأسنا سنة ٢٥٥هـ فأرسل إليه ابن طولون جيشا هزمه ابن الصوفى فى سنة ٢٥٦هـ، ثم أرسل إليه ابن طولون جيشا اخر هزمه ففر الى الواحات. كذلك ثار ابو عبد الرحمن العمرى فى الصعيد ببلده القاصية وأخضع أرض البجاة وذاعت شهرته فاضطر ابن طولون إلى محاربته ولكن جيش ابن طولون منى بهزيمة ساحقة. غيرأن أتباع العمرى قتلوه بعد ذلك فأنتهت حركته.

كذلك خرج أحمد ابن عيسى بن الشيخ فى دمشق على ابن طولون وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة واراد ابن الشيخ الإستيلاء على بقية الشام وطمع فى مصر وإنتهى أمره اخيراً بأن عهد الخليفة العباسى إلى أحد قواده بمهمة أخضاعه.

وفى سنة ٢٦٢ هـ شق أهل برقة طاعة على ابن طولون وطردوا نائبه عليها من بلادهم فأرسل إليهم ابن طولون جيشا بقيادة لؤلؤ فعاقب الثائرين وعاد إلى مصر وأمامه عدد كبير من الغنائم والأسرى.

ثالثا : خرق العباس علي أبيه : وكانت أشد الثورات خطرا ثورة أبنه عليه ذلك أن ابن طولون أستخلفه على مصر حين خرج إلى الشام سنة ٢٦٤ هـ وترك معة كاتبه احمد بن محمد الواسطى، والتف حول العباس أثناء غياب أبيه أخوان السؤ، فأخذوا يوغرون صدره على أبيه وعلى الواسطى فأضطر الوسطى إلى الكتابة إلى ابن طولون ذاكرا له

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلتفاف بطانه السوء حول ابنه، فرد عليه ابن طولون بما طمأنه وكان أعداء الواسطى قد أوعزوا إلى العباس بمكاتبات الواسطى إلى ابن طولون فأطلع عليها العباس وإزدادت مخاوفه من الواسطى. وزين له أتباعه الخروج من مصر وإعلان العصيان على أبيه. فحمل العباس معه ما كان موجودا بمصر من السلاح والمال وسار إلى برقة ومعة لفيف من أتباعه وظن أنه يستطيع بنقل أمواله وأسلحتة أن يقيم ملكا له ينأوىء به ملك أبيه، وفى ذلك الوقت عاد ابن طولون إلى مصر سنة ٢٦٥ هـ وأرسل إلى أبنه رسلا ترجوه بالعودة ووعده بمسامحته وعدم مساسه بسوء ولكن العباس لم يسمع لنصح إبيه ورد عليه ردا قبيحا وسار العباس إلى أفريقية (تونس) سنة ٢٦٦ هـ ولكن إبراهيم ابن الأغلب الب عليه البربر فهزموه وعاد العباس إلى برقة وقد نفذت أمواله واضطر ابن طولون أن يسير إليه جيشا سنة ٢٦٧ هـ وقبض على العباس وقتل من أتباعه عددا كبيرا وأحضر ابن طولون ابنه العباس وأراه أعوانه يتعذبون أمام عينيه. ثم أمر به فحبس حتى قتل فى عهد أخيه خمارويه.

رابعا: عداء الموفق أخو المعتمد العباسي لأحمد بن طولون: حدث بين ابن طولون والموفق بالله أخى الخليفة المعتمد العباسى عداء كان سببه أن المعتمد قسم أملاك الدولة بين ابنه المفوض وبين ابن أخيه الموفق، وكانت مصر من نصيب المفوض. فلما إحتاج الموفق إلى الأموال التى تكفل له محاربة صاحب الزنج وأعداء الدولة العباسية كتب إلى ابن طولون يطلب منه أن يبعث اليه بمال يستعين به على هذه الحرب، فأرسل إليه ابن طولون مبلغا ضخما ولكن الموفق طلب المزيد فرفض ابن طولون وكتب إليه بأنه ليس تابعا له، عندئذ عمل الموفق على أقصاء ابن طولون عن ولاية مصر ولكنه فشل فى تدبيره هذا وأن كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد نجح فى عزله عن الثغور الشمالية بالشام. ثم ما لبث ابن طولون أن عاد إلى توليها حين اضطربت أحوال هذه البلاد وقامت الثورات ضد الولاة الذين عينوا عليها. وزاد العداء بينهما حين أعتزم الخليفة المعتمد على المجئ بنفسه إلى مصر تخلصا من تعسف أخيه الموفق، وفى أثناء مجيئه قبض عليه أعوان الموفق وأعادوه الى بغداد حيث قاسى على أيدى أعوان الموفق أشد صنوف العذاب وأمر ابن طولون بعد ذلك بلعن الموفق على منابر مصر والشام وفعل الموفق بالمثل وأمر بلعن ابن طولون على منابر بغداد وظل العداء قائما بينهما حتى وفاة أحمد ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣م).

٢- أعمال ابن طولون فى مصر:

أولا: إنشاء القطائع: لما تولى ابن طولون أمر مصر والفسطاط سنة ٢٥٤ هـ رأى أن العسكر ضاقت بعسكره وخدمه ثم إنه سار على سنة عمرو ابن العاص وصالح بن علىّ فى بناء المدن فأتخذ لنفسه مدينة جديدة سنة ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م تقع فى شمال شرقى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم وسماها القطائع وذلك لأنه قسم منطقتها إلى قطائع مختلفة جعلها للطوائف المختلفة ووزعها بين أرباب الحرف وأصحاب الصنائع والمهن والتجار، وكانت كل قطيعة تتسمى بإسم الطائفة التى تقيم فيها وأقام فيها قصرا للإمارة وبجواره أقام مسجدا جامعا يعتبر ثالث المساجد الجامعة فى مصر. ثم أخذ الناس يقيمون الأبنية حول المسجد فعمرت المدينة وازدهرت خاصة فى عهد خمارويه الذى أقام فيهاكثيراً من المنشآت مثل بيت الذهب وبركة الزئبق والدكه ودارالسباع، ولم تطل حياة القطائع فقد أنتهز الخليفة العباسى المكتفى بالله فرصة ضعف الطولونيون فى أواخر أيامهم وبعث قائده المعروف محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش كبيراً إسترد به الفسطاط وأحرق القطائع سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) فإلتهمت النيران مبانى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدينة ودمرتها تدميرا وجعلتها أثرا بعد عين. وهكذا خربت القطائع وأصبحت تلال من الأطلال ولم ينج الجامع الطولونى نفسه من الحريق فأصابه التخريب.

ثانيا: جامع ابن طولون: بنى ابن طولون مسجده الجامع سنة ٢٦١ هـ (٨٧٨ م) على جبل يشكر من مال وجده فى أحد الكنوز الفرعونية، وجامع ابن طولون من أكبر المساجد الإسلامية ويتألف من بيت للصلاة وصحن ومجنبات وتخطيط الجامع مربع الشكل يميل إلى الأستطالة، ويحيط به من الجهة الشمالية والشرقية والغربية زيادات مكشوفه تكمل شكل إلى المربع اقيمت رغبة فى إبعاد الضوضاء الناشئة من الأسواق المحيطة بالجامع ويتوسط الصحن فوارة عليها قبة عالية اقيمت بدلا من الفوارة الأصلية وكانت الفوارة الأولى محمولة على ١٦ عمودا. ويعتبر جامع ابن طولون من اجمل الاثار الإسلامية عامة إذا أنه أقدم جامع فى مصر يحتفظ بعناصره الأولى ثم هو يحتوى على أغنى مجموعة الزخارف الجصية كما أن نوافذه التى يبلغ عددها نحوا من ١٢٩ نافذة تنوعت أشكالها كما تنوعت زخارفها. وعقود الجامع - لا تحملها أعمدة كما هو الشأن فى مسجد عمرو ولكنها تستند على دعائم أو أكتاف بنيت من الأجر وإرتفعت عليها عقود من نفس المادة واستخدام الدعائم والعقود من الأجر بدلاً من الحجارة يعد ظاهرة جديدة فى تاريخ العمارة المصرية، وقد فسر المؤرخين ذلك بان ابن طولون حين عزم على بناء مسجده هذا قال: أريد بناء أن احترقت مصر بقى، فقيل له يبنى بالجير والرماد والأجر الأحمر القوى على النار إلى السقف ولا يجعل فيه اساطين (اعمدة) من الرخام فانه لاصبر لها على النار، ويقولون أنه قدر للجامع ٣٠٠ عمود من الرخام، وقيل لابن طولون انه لايجدها إلا إذا أرسل إلى الكنائس فى الإرياف والضياع الخراب لتحمل منها، فأنف من ذلك، وجاءه مهندس قال له: انا ابنيه له بلا أعمده وفعل. وفسره علماء الآثار غير ذلك التفسير فذكروا أن إستعمال الأجر بدلاً

من الحجر في بناء المسجد والعقود والدعائم وإتخاذ الدعائم بدلا من العمد الرخاميه من خصائص العمارة العراقية التي تأثر بها ابن طولون نظرا لنشأته الأولى في سامرا الذي إستعمل الأجر في أبنيتها وزخرفتها الجصية. وليس أدل على هذه التقاليد العراقية من دراسة مئذنه الجامع التي تسترعي الأنظار بشكلها العجيب الذي ظل فريدا في العمارة المصرية. وقد شاهد كثير من مؤرخي وجغرافي المسلمين هذة المئذنة وعللوا شكلها تعليلاً أقرب ما يكون إلى الخيال فقد ذكرابن دقماق والمقريزي والسيوطي أن ابن طولون كان لا يعبث بشيء قط، فأتفق انه اخذ درجا ابيض بيده ولفه، ثم فطن إلى نفسه وخشي أن ينتقده وزراؤه ورجال حاشيته اذا شوهد يعبث بهذا الدرج في مجلسه فطلب مهندس الجامع وأمره بأن يبني مئذنة المسجد على هيئة الدرج الذي كان يعبث به، ولا شك أن هذا التفسير الخيالي لا علاقة له بالتفسير العلمي الصحيح فأن المئذنة تتألف من قاعدة مربعة تقوم عليها ساق أسطوانية يلتف حولها من الخارج سلم دائري لولبي عرضه ٩٠ سم له سياج دائري كذلك. ويشبه هذا النظام نظام المئذنة الملوية بجامع سامرا وجامع أبي دلف بنفس المدينة (أنظر مقالي في كتاب مساجد ومعاهد من كتاب الشعب عدد ٧٨) وكلتاهما مبنية على طراز الزيجورات السومرية والبابلية والأتش جاه الساسانية، لاشك أن ابن طولون تأثر أثناء حياته الأولى في سامرا بهذا النوع من البناء فطبقه على مئذنته. كما أن موقع المئذنة في الزيادة الشمالية للمسجد يماثل موقع مئذنة سامرا.

ويعلو الساق الاسطوانية للمئذنة طابقان مثمنان تتوسط بها شرفة بارزة تحملها مقرنصات ويزين كل جانب من جوانب الطابق الأدنى جوفة صماء تتناوب مع الأخرى مفتوحة أما الطابق العلوى فأصغرمن السابق وتعلوه قبة مضلعة. وهذان الطابقان المثمنان من الطراز المعماري الشائع في عصر المماليك مما يجعلنا نعتقد أن هذة المئذنة بنيت من جديد في عصر السلطان حسام الدين لاشين سنة ١٢٩٦ م). أما فكرة السلم الحلزوني فليست إلا صورة من المئذنة القديمة التي بناها ابن طولون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثا: منشآت ابن طولون الاخري: بنى طولون مسجدا آخر على جبل يشكر يعرف إسم مسجد التنور سنة ٢٥٩ هـ وبنى لهذا الجامع مئذنة كانت تستعمل فيها النيران ليلا لهداية الناس ليلا. كذلك أصلح ابن طولون سنة ٢٥٩ مقياس الروضة الذى أقامه أسامة ابن زيد التنوخي سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) لقياس إتفاع النيل. ثم جدد هذا المقياس بأمر الخليفة المأمون العباسى سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) ثم إعيد انشاؤه زمن الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) وقام ابن طولون بإصلاحه بعد ذلك ومازال هذا المقياس موجود على حالته في جزيره الروضة.

وقام ابن طولون كذلك بانشاء قناطر لاحضار المياه من المسافات البعيدة من البساتين الىَ القرافة الكبرى. ثم امر سنة ٢٥٩ هـ باقامة بيمارستان يعالج فيه الناس دون أجر، وهو أول مستشفى يقام فى مصر فى ذلك الوقت وكان يقع بين الفسطاط والقطائع وجعل فيه نظاما خاصا وأنشأ فيه حمامين احدهما للرجال والآخر للنساء. وأخيرا شيد ابن طولون لنفسه حصنا منيعا بجزيرة الروضة ليكون معقلا له فى أوقات الخطر خاصة لان العداء بينه وبين الموفق كان مستحكما للغاية.

ب - ابو الجيش خمارويه بن احمد بن طولون:

(٢٧٠ - ٢٨٢ هـ/٨٨٣ - ٨٩٥ م).

توفى احمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ على آثر مرض الم به أثناء أحدى غزواته بالشام وخلفه ابنه الثانى أبو الجيش خمارويه. وقد إمتد الحكم بخمارويه أثنى عشر عاما وهو حكم طويل نسبيا وقد إستفاد خمارويه من حكم أبيه الذى ترك له عشرة ملايين دينار وبلادا مستقرة منظمة وجيشا قويا محكم نظامه كان خمارويه شابا مترفا ولهذا أنغمس فى الملذات وعكف عى حياة الترف وأزدهرت مصر فى عهده فوسع القطائع وجملها بالأبنية الرائعة وكان لذلك اكبر الآثر على الحضارة والفن وازدهرت العمارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكثرة منشآته وإنتعشت الصناعة وراجت وملأت الأسواق بكل أصنافها وألوانها ولا أدل على ذلك من وصف جهاز إبنته قطر الندى.

ولم يكن خمارويه رجل حرب ولهذا كادت مصر تفقد الشام في أول عهده وتفضيل ذلك أن الموافق انتهز فرصة موت ابن طولون وأرسل ابنه أبا العباس للقضاء على الدولة الطولونية فإستولى على دمشق وإنحدر جنوبا حتى قارب الحدود المصرية، فخرج اليه خمارويه والتقى الجيشان عند مدينة الرملة جنوبي فلسطين سنة ٢٧١ هـ وهزم خمارويه في هذه الموقعة وإنسحب إلى مصر إنسحابا مخزيا غير أن قائده سعد الأعسرأستطاع الثبات والإنتصار على العباسيين وعلم خمارويه بهذا الانتصار فعاد ثانية إلى الشام وإستولى على دمشق والموصل وأعاد حدود الدولة إلى ما كانت علية أيام أبيه من العراق شرقا ألي برقة غربا. ثم عقد خمارويه صلحا مع الموفق والخليفة المعتمد سنة ٢٧٣ وتضمن هذا الصلح أن تترك مصر والشام لخمارويه ولأولاده من بعده مدة ٣٠ سنه. ومنذ ذلك الحين كف خمارويه عن لعن الموفق على المنابر ثم مات الموفق سنة ٢٧٨ هـ ومات المعتمد سنة ٢٧٩هـ وقد ساعد ذلك على توطيد نفوذ خمارويه في مصر والشام وحرص خمارويه على إكتساب رضاء الخليفة الجديد المعتضد بالله، فتحسنت العلاقات بين بغداد والقطائع وأطمئن خماوريه على ملكه. وكان من أثر سياسة حسن التفاهم هذه أن عرض خمارويه زواج إبنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من الأمير المكتفي ابن الخليفة العباسي. ولكن الخليفة المعتضد آثرها لنفسه، فوافق أبوها على ذلك وجهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف ولقد أفرد المؤرخين الصفحات الطوال في وصف هذا الجهاز أشادوا بذكره ويروى أبو المحاسن ابن تغري بردى أن "الخليفة المعتمد أراد بزواج قطر الندى أن يفقر أباها وهكذا وقع". وقد أسرف خمارويه في تجهيز إبنته وغالى في ذلك حتى أشرف بيت المال على الإفلاس وحمل ما لم يرى مثله

ولا سمع به إلا فى وقته وأقام لها على رأس كل مراحل المسافة بين بغداد والقطائع قصر تنزل فيه وأعد هذه القصور بما تحتاج إليه الأميرة فى سفرها إلى بغداد. وقد بلغ موكب العروس بغداد فى محرم سنة ٢٨٢ هـ..

وقد تابع خمارويه سياسة إبيه فى أقامة المبانى الرائعة من قصور ودور فأنشأ قصرا سماه قصر الذهب وهو قصر طليت جدرانه بماء الذهب ورسمت عليها كثير من الصور البارزة على مقدار قائمة ونصف من الخشب تمثل خمارويه ومغنياته، وكانت رؤوس صور النساء مكللة باكاليل الذهب. وأقام خمارويه فى قصره بركه سميت ببركه الزئبق وكان السبب فى اقامتها أنه كان يشكو من الأرق فأشار عليه طبيبه بعمل فسقية مملوءة بالزئبق، وقد جعل خمارويه فى أطرافها طرفا من الفضة وعمل مرتبة تنفخ بالهواء وتلقى فى البركة وتشد بالزنانير المصنوعة من الحرير المتين، وكان خمارويه ينام على هذه الحشية فيتحرك الزئبق بتحرك الحشية فيتألق نور القمر بنور الزئبق. كذلك أقام خمارويه فى قصره قمة سماها الدكة وجعل لها الستائر التى تقى الحر والبرد، وأقام دارا للسباع جعل فيه بيوتا صغيرة كل منها لسبع ولبؤة وكان كل بيت منها بفتح بحركات معينة، وفى كل منها طاق صغير. وكان من بين سباعه سبع أليف أزرق العينان على رقبته طوق من الذهب سمى بزريق. وكان يلازم خمارويه ويحرسه أثناء نومه وأقيمت فى البيوت بيوتا أخرى للنمور والفهود والفيلة والزرافات، فكانت هذه الحديقة التى أقامها خمارويه لا تختلف فى شىء عن حدائق الحيوانات التى تعمل الدول المتحضرة الحديثة على إقامتها.

وقد أفاد هذا الترف مصر فنيا وحضريا وإنتعشت الصناعة وإمتلأت الأسواق فى مصر بمنتجاتها المختلفة. غير أن هذا الترف إستنفذ ثروة مصر وأدى إلى افقارها مما أضعف الحكومة بعد ذلك وكان عاملا من عوامل

سقوطها. ولم يطل العهد بخمارويه إذ قتل سنة ٢٨٢ هـ وهو فى طريقه إلى دمشق بدسيسه من بعض جواريه، وخلفه إبنه الأكبر أبو العساكر جيشا وكان فى الرابعة عشرة من عمره. وكان أرعنا فأنغمس فى الترف عكف على...الملذات وشهوات النفس فخرجت الشام عن طاعته، وزين له بعض أخوان السؤ قتل ثلاثة من اعمامه نذكر منهم نصر بن أحمد بن طولون فغضب عليه قواد الجيش وأفتوا بخلعه فخلعوه وسجنوه وولوا مكانه أخاه الأصغر هارون.

ج - عهد هارون وسقوط الدولة الطولينية:

تولى أبو موسى هارون بن خمارويه بعد وفاة ابو العساكر جيش (٢٨٤ - ٢٩٢ هـ/ ٨٩٧ - ٩٠٥ م) وهو فى الرابعة عشرة من عمره وفى عهده، ظهرت دعوتان جديدتان كانتا خطرا على مصر، أحداهما الدعوة الفاطمية بافريقية والثانية دعوة القرامطة أولاد عم الفاطميين فى المذهب. وقد أغار القرامطة على الشام سنة ٢٩٠ هـ فعجز عن صد هجومهم وإنهزم الطولونيون أمامهم أنهزاما مخزيا. عندئذ تنبهت الخلافة العباسية الى ضعف الطولونيين ووطنت العزم على إسترداد مصر قبل أن تقع فى أيدى القرامطة أو الفواطم. وقد ساعد على ذلك وفاة الخليفة المعتضد زوج قطر الندى سنة ٣٨٩ واعتلاء المكتفى بالله عرش الخلافة العباسية.

ففى سنة ٢٩٢ أرسل الخليفة العباسى المكتفى بالله جيشا ضخما إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب. فنزل بحمص وبعث أسطوله إلى سواحل مصر أما هو فقد سار على رأس جيشه إلى مصر وخرج هارون لمدافعته ومنعه من دخول مصر، كما حدثت موقعة بحرية بين الأسطول العباسى والأسطول المصرى فى تنيس إنهزم فيها إسطول مصر شر هزيمة ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان. وفى نفس الوقت كانت جيوش ابن سليمان تتقدم فى قلب البلاد متجهة إلى الفسطاط، وفر هارون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى العباسية وهناك قتله عماه شيبان وعدى فى صفر سنة ٢٩٢ وولى شيبان بن أحمد بن طولون الأمور بنفسه محاولا إنقاذ الموقف ولكن دون جدوى إذ تفرق عنه أصحابه وأضطر شيبان إلى طلب الأمان من العباسيين فأمنوه ودخل محمد بن سليمان مدينة القطائع فأحرقها ودمرها تدميرا تاما. وبذلك فقدت مصر إستقلالها.

وهكذا سقطت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر زهاء ٣٨ سنة إزدهرت فيها الحضارة المصرية وتألقت تألقا تشهد به أقوال المؤرخين.

د - مصر ولاية عباسية(٢٩٢ - ٣٢٣/ ٩٠٥-٩٣٤ م)

عادت مصر بعد سقوط الطولونيين ولاية عباسية من جديد واستمرت تابعة للعباسيين حتى إستقل بها محمد بن طغج الإخشيد سنه ٣٢٣، هـ غير أن تبعية مصر للخلافة العباسية خلال هذه الفترة كان اسمياً لأن ضعف الخلفاء وإستبداد الأتراك بشئون الخلافة أدى إلى قيام الفوضى والإضطراب في البلاد. وكانت مصر فى هذه الفترة مسرحا للوقائع وميدانا للتنافس والشجار بين الولاة وعمال الخرج واشهر ولاة العباسيين فى هذه الفترة عيسى النوشرى (٢٩٢ - ٢٩٧ هـ) ومع انه كان من احسن ولاتهم إلا أن عهده كان يزخر بالفتن والثورات اهمها الثورة التى قام بها أحد أتباع الطولونيين وهو محمد بن الخليج. وحاول عيسي النوشرى القضاءعليه دون جدوى إذا أرسل إليه جيشا كان مصيره الهزيمة، فاضطر عيسى إلى الإلتجاء إلى الإسكندرية بعد ان إستولى أبن الخليج على الفسطاط. غير أن الخليفة العباسى أرسل إليه جيشا فى محرم سنه ٢٩٣ كان مصيره الهزيمة كذلك فأرسل إليه الخليفة جيشا أخر بقيادة رجل اسمه فاتك وإنهزم ابن الخليج وفر بنفسه ولكن عيسي النوشيرى قبض عليه وضرب عنقه.

ونتج عن ثورة ابن الخليج حدوث مجاعة في مصر وإشتداد الغلاء فيها مما كان له أسوا الآثر فى نفوس المصريين، وقد شجع ذلك الفاطميين على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإستيلاء عليها. فقد حاولوا ذلك سنة ٣٠١ هـ في ولايه ابى منصور تكين (٢٩٧ - ٣٠٢ هـ) . وإستمرت مظاهر الإضطراب تسود مصر حتى إستطاع محمد بن طغج الإخشيد الإستقلال بها سنة ٣٢٣هـ.

(٢)
مصر في عهد الدولة الاخشيدية (٣٢٣ -٣٥٨)

أ - ولاية محمد بن طغج الاخشيد

كان ابو بكر محمد بن طغج بن جف من سلاله ملوك فرغانة ببلاد ما وراء النهر وأن كانت هذه النسبة موضع شك كبير من المؤرخين، وكان محمد هذا يلقب بالإخشيد وهو لقب ملوك فرغانة السابقين منحه له الخليفة الراضى بالله العباسي بناء على رغبة ابن طغج نفسه وهو لقب يماثل لقب كسرى ملك فارس ولقب قيصر ملك الروم ولقب النجاشي ملك الحبشة ولقب فرعون ملك مصر، ويروى المؤرخون ان محمد بن طغج هو الذى التمس من الخليفة العباسى الراضى تشريفه بهذا اللقب وأن الخليفة لم يكن يعرف معناه فسأل فى ذلك فقيل له أنه لقب ملوك فرغانة مثل قيصر وكسرى وفرعون والنجاشي. وتضيف الرواية أن الخليفة الراضى بالله لم يرفض رغبة ابن طغج فى التلقب بهذا اللقب بعد أنتصاره على الفاطميين سنه ٣٢٢ فقال: " لا تبخلوا عليه بهذا واكتبوا له بذلك" ودعى لمحمد بن طغج بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى رمضان سنة ٣٢٧ هـ. وقد عم اللقب على الدولة الحاكمة على مصر فسميت بالدولة الاخشيدية.

وكان جف جد الإخشيد أحد قواد الخليفة المعتصم بالله العباسي بسامرا وظل فى هذا المنصب فى حياة الخليفة المعتصم والواثق فالمتوكل وقتل فى

نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل. وخدم ابنه طغج مدة في جيش احمد بن طولون و خمارويه بنواحي طرسوس وكان له من الأبناء سبعة من الذكور أحدهم محمد الإخشيد. وقد تولى طغج فى عهد خمارويه دمشق وطبرية وقد نقل ابن زولاق رواية عن طغج وأنه نفسه تدل على أنه هو الذى دبر مؤامرة قتل خمارويه لأن خمارويه كان يريد قتل طغج وأنهعبر عن ذلك ليلة سكر فيها فعجل طغج بقتل خمارويه. قبل أن يقتل، وظل طغج على ولاية دمشق فى أيام أبى العساكر جيش ابن خمارويه وأناب طغج عنه على ولاية طبرية ابنه محمد، ويذكر المؤرخون أنه كان لطغج نصيب كبير فى خلع ابى العساكر جيش سنة ٢٨٣ وأنه أعان محمد بن سليمان الكاتب على إزالة الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ. ثم إنتقل طغج وابنائه إلى بغداد بعد سقوط الدولة الطولونية ووقع بينه وبين الوزير العباس بن الحسن نزاع فأوقع به الوزير عند الخليفة فأمر بحبسه هو وابنه الأخر عبد الله. وظلوا الثلاثة في السجن حتى مات طغج فى سجنه سنة ٢٩٤ فأفرج الوزير عن ابنيه وأستخدمهما عنده. وظلا فى خدمته حتى قتل هذا الوزير. فالتجأ محمد بن طغج إلى الشام وظل يخدم واليها ابى العباس أحمد بن بسطام وكان يخرج معه الى الصيد ويحمل له الطير حتى كان يقال له: بازيار ابن بسطام"اى صاحب الباز"

ثم صحب محمد بن طغج ابن بسطام إلى مصر عندما تقلد أمورها وبقى معه حتى وفاة هذا الوالى سنة ٢٩٧ هـ. ثم ألتحق محمد بن طغج فى خدمة الوالي الجديد أبى منصور تكين واشترك معه فى الحرب بين المصريين والجيش الفاطمى بقيادة حباسة بن يوسف سنة ٣٠١ هـ فأبلى بلاء حسنا وتوثقت علاقته بوالى مصر تكين حتى أنه عهد اليه سنة ٣٠٦ هـ - بولاية عمان وجبل الشراة فى الشام. ثم ولاه الإسكندرية (٣٠٧ - ٣٠٩) فنزل بها حتى أغار الفاطميون على مصر فى حملتهم الثانية تحت قيادة عبيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله المهدى، فإشترك ابن طغج فى قتالهم وردهم عن مصر. ثم ولاه الخليفة العباسى المقتدر على الرملة ثم على دمشق وعهد إليه الخليفة الراضى بالله العباسى بولاية مصر سنة ٣٢٣ على أثر إنتصاره على الفاطميين سنة ٣٢١.

وكان محمد بن طغج الإخشيد قد تأثر بشخصية أحمد بن طولون فتشبه به فى بلاطه وفى مواكبه وفى تصرفاته وقد بلغ من شدة تأثره بالطولونيين أن أعتبر بعض المؤرخين الدولة الإخشيدية إستمرار للدولة الطولونية.

أخذ محمد بن طغج يؤكد سلطانه فى مصر ثم فكر فى تأمين حدود مصر الشمالية وذلك بالإستيلاء على الشام، ويبدوا أن الخليفة العباسى كان على علم بنوايا الإخشيد فأسرع بتولية أحد قواده على جنوب الشام ومصر وهو محمد بن رائق الخزرى لأن شمال الشام كان فى حيازة الدولة الحمدانية التى جعلت عاصمتها فى حلب ، وهكذا تبدلت صلة الود التى كانت قائمة بين الإخشيد والخليفة إلى صلة عداء فإضطر الإخشيد إلى أبطال الدعاء للخليفة العباسى فى صلاة الجمع. وفى سنة ٣٢٧ هـ خرج محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد الإستيلاء على مصر وتقابل جيشه مع جيش الإخشيد فى جنوب الشام وإستولى ابن رائق على دمشق ثم أتجه إلى مصر فخرج إليه الإخشيد بنفسه وتقابل الفريقان فى الفرما ولكنهما عقدا صلحاً بينهما وعاد الإخشيد إلى مصرولكن أبن رائق نكث بعهود فخرج إليه الإخشيد مرة ثانية إلى دمشق فهزمه ثم عاد ابن رائق فهزم جيش الإخشيد بقيادة الحسين بن طغج فى موقعة حدثت بالقرب من بلدة اللجون على بحيرة طبرية قتل فيها الحسين بن طغج أخو محمد الإخشيد وعز على أبن رائق أن يرى جثة الحسين بن طغج بين القتلى فغسّله وحنطه وبعث به إلى مصر فى صحبة ابنه مزاحم وكان فى السابعة من عشرة من عمره ومعه كتاب يعزى فيه محمد أبن طغج ويعتذر إليه عما حدث ويخبره أنه أرسل إليه أبنه ليفعل به ما يريد، وكان

لذلك أثر طيب فى نفس الإخشيد فإستقبل مزاحم بن محمد بن رائق بمظاهرالترحيب والتكريم ثم وتوثقت العلاقات بى الاخشيد وبين ابن رائق حتى تزوج مزاحم فاطمه بين الإخشيد ثم عقد صلح بين أبن رائق وبين الإخشيد بمقتضاه يدفع الإخشيد لأبن رائق جزية سنوية قدرها ١٤٠ ألف دينار نظير أن يتولى الإخشيد الأراضى الشامية الواقعة جنوبى الرملة.

ثم قتل أن رائق سنة ٣٣٠ هـ فأنتهز الإخشيد هذه الفرصة وإستولى على ما كان قد تنازل عنه من البلاد وضم إليه كذلك مكة والمدينة.

ثم تحولت العلاقة بين الإخشيد وبين الخليفة العباسى إلى علاقات تقوم على المودة والصفاء فقد وصل الخليفة المتقى بالله العباسى سنة ٣٣٢ هـ إلى درجة كبيرة من الضعف إذا أصبحت السلطة فى بغداد بين أوزون رئيس الشرطة فى بغداد وبين البريدى صاحب الأهواز وهمامن كبار قواد الإتراك فإستنجد الخليفة العباسى بالإخشيد أقوى ولاته فى ذلك الوقت فسار الإخشيد إلى ملاقاتة فى مدينة الرقة (بين الشام والعراق) سنة ٣٣٢ هـ وحمل إلى الخليفة كثيرا من التحف والهدايا وعرض على الخليفة البقاء معه فى الشام أو الذهاب إلى مصر ولعله أراد من هذه المحاولة أن يوطد نفوذه الروحى فى مصر والشام والعالم الإسلامى بنقل الخلافة إلى دولته وهو الأمر الذى حاوله أبن طولون من قبل وفشل فيه ولكن الظاهر بيبرس نجح فى تحقيقه بعد إنتصار المماليك فى عين جالوت. ولكن الخليفة لم يقبل هذا العرض حتى لا يترك بغداد عاصمة ملكة ومقر أسرته فسار الإخشيد بعد ذلك إلى مصر ورجع المتقى إلى بغداد بعد أن تعهد توزون التركى بحمايته إذا عاد إليها الخليفة. ولكن توزون لم يف بوعده فحبس الخليفة وسمل عينيه ثم قتله.

ويبدوا أن إتصال الإخشيد بالخليفة المتقى قد أثار مخاوف الحمدانيين وحسدهم فأخذوا يتحرشون بأملاك الدولة الاخشيدية وأغاروا على الشام للقضاء على نفوذ الإخشيديين فيها وسار سيف الدولة الحمدانى إلى حمص

ميمما شطر دمشق للإستيلاء عليها فأرسل الاخشيد غلاميه فاتك وكافور على رأس جيش كبير إلى الشام للدفاع عنها ولكن جيش الحمدانيين تغلب على جيش الإخشيد فاضطر الاخشيد إلى الخروج بنفسه سنه ٣٣٣ هـ بجيش كثيف إلى الشام إنتصر على جيش الحمدنيين فى حمص وقنسرين ثم إستولى الإخشيد على حلب عاصمة الحمدنيين.وعلى الرغم من إنتصار الإخشيد فقد عقد صلحا مع سيف الدولة الحمدانى تعهد فيه بترك حلب للحمدانيين ودفع جزية سنوية لسيف الدولة نظير إحتفاظه بدمشق وما يليها جنوبا . ومن العجيب أن يدفع الإخشيد جزيه سنوية إلى سيف الدولة رغم إنتصاره ولكن السبب فى ذلك أنه أراد الابقاء على الدولة الإخشيدية لتكون حصنا منيعا يكفيه ميؤونة محاربة الدولة البيزنطية التى تتاخمها شمالا .

وكان الإخشيد رجلا يحب البناء والتشيد فأقام كثيرا من المنشآت إلا أنه لم يبق مما أقامه أى أثر فقد شيد قصرا عرف فيما بعد بالبستان الكافورى وأنشأ ميدانا أطلق عليه ميدان الإخشيد وشيد قصرا فى جزيرة الروضة سمى بالمختار كذلك أهتم الإخشيد بالمساجد فجدد بناء كثير منها وزودها بما تحتاج إليه من الحصر والمصابيح. وكان من أهم دور مصر زمن الإخشيد دار الفيل وتقع على بركة قارون بالقرب من جامع ابن طولون وهى دار بناها الإخشيد وسكن بها سنة ٣٣٦ هـ..

وكان الإخشيد طوال حياته يجنح إلى السلم ولم يحتك بابن رائق وسيف الدولة الحمدانى الإ رغبة فى تأمين مصر ومات الإخشيد فى دمشق ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ وهو فى السادسة والستين من عمره ونقل إلى بيت المقدس حيث دفن هناك. وكان قذ عهد إلى أبنه الأكبر أبى القاسم أنوجور بولاية العهد فخلفه أنوجور له من العمر خمسة عشر سنة وقام بتدبير امره أبو المسك كافور.

ب - ولاية أنوجور (٣٣٤ - ٣٤٩ هـ) :

كان أنوجور عندما تولى حكم مصر طفلا لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فقام بتدبير أمور الدولة أستاذه كافور فإستبد كافور بالسلطة ولم يصبح لأنوجور سوى الإسم. ولقد إعترض كافور أيام قيامه بالوصاية على أنوجور عدة صعاب تغلب عليها جميعا بفضل مهارته فى الإدارة وحسن التصرف وإستطاع بذلك أن يمكن نفوذه فى البلاد وذكر إسمه فى الخطبة ودعى له على المنابر بجانب إسم انوجور، وكان كريما يغدق الأموال والعطايا فأحبه رؤساء جنده وكبار موظفيه ولما كبر انوجور وأحس باستبداد كافور وإغتصابه السلطة بدأ يجاهر بعدائه وساءت العلاقات بينهم وإنقسم الجند إلى فريقين: فريق الإخشيدية وأنصار أنوجور وفريق الكافورية أتباع كافور الذين رقاهم إلى المناصب الكبرى. وما زال أنصار أنوجور يحرضونه على إنتزاع السلطة من كافور فعمل على المسير إلى الرملة سنة٣٤٣ هـ بقصد إعداد جيش هناك يتمكن به من إستعادة نفوذه المسلوب ولكن أم أنوجور سعت إلى مصالحته مع كافور حقنا للدماء وخوفا على ولدها من بطش كافور فتصالحا وظل الحال كذلك حتى مات أنوجور فى ٨ ذى القعدة سنة ٣٤٩ ويتهم بعض المؤرخين كافور بأنه هو الذى سعى إلى موته حين أدرك أن أنوجور يسعى لإزالته. وخلفة فى حكم مصر اخوه أبو الحسن على بن الإخشيد. ومن أبرز الحوادث التى وقعت فى عهد أنوجور إنتصار الإخشيدين على الحمديين فى موقعة حاسمة حدثت بالقرب من حلب والرقه وإستيلاء الإخشيديين على دمشق سنة ٣٣٦ هـ. وقد عقد اناجور مع الحمدانيين معاهدة صلح بنفس الشروط التى تمت بين محمد طغج الإخشيد و بين سيف الدولة فيما عدا أمر واحد هو أن الإخشديين إشترطوا عدم دفع الجزية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج - ولايه أبو الحسن علي : (٣٤٩ - ٣٥٥هـ) :

كان عليا في الثالثة والعشرين من عمره حين تولى أمر مصر ومع كبر سنه بالنسبة لأنوجور حين خلف أبيه فقد كان ضعيفا مسلوب الإرادة وإستطاع كافور أن يقبض على السلطة في يديه وأن يحجر على الأمير فى قصره فأخذ كافور يباشر الإمور بنفسه وبقى أبو الحسن على فى قصره حتى مات سنة ٣٥٥ هـ وقيل ان كافور دس له السم كما فعل مع أنوجور من قبل تخلصاً منه.

ويرى المؤرخون أن حاله أولاد الإخشيد مع كافور تشبه فى كثير من الوجوه حالة الخلفاء العباسيين مع الوالى من الأتراك وملوك الميروفنجيين المتأخرين الذى أصبحوا أشبة شيء بالألاعيب فى أيدى حجاب القصر .

د - ولايه كافور علي مصر :(٣٥٥ - ٣٥٧ هـ) :

كان المفروض أن يتولى إمارة مصر ولد صغير لإبى الحسن على فإعترض كافور على تولبته لصغر سنه وبقيت مصر دون أمير مدة تقرب من الشهر وفى محرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباس بتقليده أمر مصر فنودى به واليا على مصر ودعى له فى المساجد بعد الخليفة. وكان كافور عبدا أسود اللون دميم الخلقة ضخم الجثة مثقوب الشفة السفلى مشقوق القدمين ثقيل البدن اشتراه محمد أبن طغج من زيات إسمه محمود إبن وهب بثمانية عشر دينار وقيل إن الإخشيد لم يشتره بالمال وإنما تلقاة هديه، فتوسم فيه الذكاء وإحتفظ به. وتربى كافور فى قصر أبن طغج تربية عالية وظهرت علية إمارات النبوغ والتفوق فاختصه الأمير من بين عبيده وولاه ثقته وأعتقه وأخذ يرقيه فى بلاطه وجعله من كبار قواده ثم عهد إليه بالوصايه على أولاده من بعده. ودام حكم كافور كوال رسمى على البلاد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنتين وأربعة أشهر وإن كان حكمه يمتد قبل ذلك بكثير حينما تولى الوصايه على انوجور أى أنه حكم ما يقرب من ٢٢ عاما.

وشغل كافور منذ تولى أمر مصر بثلاثة أمور: تأمين حدود بلاده شمالاً وإخضاع بلاد النوبة وقضائه على المجاعة . وقد رأينا كيف حارب الحمدانيين في الشمال وإن هذه الحروب إنتهت بمعاهدة صلح بين الفريقين إحتفظت فيها مصر بجنوب الشام وإن هذه الحروب إنتهت بمعاهدة صلح بين الفريقين إحتفظت فيها مصر بجنوب الشام بينما بقي الحمدانيون في شمالها كذلك حارب كافور القرامطة الذين أغاروا على جنوب سوريا وهددوا القوافل التجارية والحجاج سنة ٣٠٠ وإنتهت هذة الحروب بالصلح كذلك. ثم إنه حارب ملك النوبة الذى كان قد أغار على مصر وعاث فسادا فى المنطقة الواقعة بين الشلال وأخميم وإنتصر عليه فقدم له ملك النوبة الجزية والرقيق ويدل على ذلك كثرة السود فى الجيش الكافورى. وفى عهد كافور حاول المعز لدين الله الفاطمى فتح مصر فسار بجيشه إلى الواحات فجهز إليه كافور جيشا أوقف تقدمه وأخذ يصانع الفاطميين وتودد إليهم ونجح فى تأخيرالغزوالفاطمى ويروى إن دعاه الفاطميين فى عهده كانوا يقولون: "إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الأرض كلها" وفى عهده أصاب مصر مجاعة كبرى كادت أن تقضى على عدد كبير من أهل مصر وندر وجود القمح وفشا الموت حتى ذكر المؤرخين إن عدد الموتى بلغ نحو ٦٠٠ ألف وإستطاع كافور أخيرا أن يقضى على هذه المجاعة وعادت الحياة الى سابق إزدهارها.

وكان كافور كريما يبذل المال على الشعراء والأدباء ومن هؤلاء الشعراء أبو الطيب المتنبى الذى غادر سيف الدولة الحمدانى مغاضبا وقصد كافور وأمتدحه باحسن الأشعار طمعا فى أن يوليه مناصب الدولة فخلع عليه كافور وأنزله فى دار وعين جماعة لخدمتة وحمل إليه كثيرا من المال ولكنه لم يوله عملا.

فمن قصائد المتنبى فى مدح كافور قوله فى قصيدة:

قواصد كافور توارك غيرة ومن قصد البحر أستقل السواقيا

ولما لم ينل ما أرد هجاه بقوله:

لا تشترى العبد إلا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد

كان كافور يحب الغناء والموسيقى ومن ذلك أنه مر بجماعة من السودان كانوا يضربون الطبل فطرب كافور وحرك أكتافه على نغمات الطبل فلما فطن إلى نفسه خجل وأراد أن يصرف انتباه الناس عنه خشية أن ينتقدوه فجعل يهز كتفيه فى أغلب الأوقات حتى يظن الناس أنّها مجرد حركة عصبية أو عادة ملازمة له.

وتوفى كافور سنة ٣٥٧ هـ (فى جمادى الأولى) ودفن بالقدس. وأجتمع: رجال القصر وأختاروا أبا الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد واليا على مصر وكان طفلا لايتجاوز عمره الحادية عشر فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج وصياً عليه فاستبد الحسن بالسلطة وأساء الوصاية فسخط عليه المصريين وإضطر إلى الفرار الى الشام وعانت البلاد كثيراً بعد ذلك إذا أنتشرت الفوضى وأنخفض النيل وكثرت الأوبئة فانتهز المعز لدين الله الفاطمى فرصة اضطراب الأمور فى مصر وعدم قدرة الخلافة العباسية على الدفاع عنها وأرسل جيشه بقيادة جوهر للإستيلاء عليها. وكان واثقا من النصر حتى أنه قال (والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر) وإنتهى الأمر بهزيمة الأخشيديين وأستيلاء الفاطميين على مصر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع
حضارة مصر في عصر الولاة

(١)
الحالة الاقتصادية

أ - النظام المالي: أعتمدت إيرادات مصر على الجزية والخراج، وكلاهما ضرائب فرضها العرب الفاتحين على أهل مصر، أما الجزية فتفرض على الرؤوس فى حين أقتصرت ضريبة الخراج على ماتنتجه الأرض وبينما يتحدد مقدار الجزية فأن الخراج يتوقف تقديره على مدى خصوبة الأرض وعلى مقدر الفيضان السنوى للنيل ونوع المحصول من جهه وعلى الكيفية التى تم بها الفتح صلحا أم عنوة من جهة أخرى. وعلى الرغم من إختلاف مصادر الفتح فى تحديد الصورة التى تم بها الفتح فالأغلب أنها فتحت صلحا وعلى هذا الأساس تصبح أرض مصر ملكية خاصة اى تبقى فى أيدى أصحابها ويفرض عليها الخراج بمثابة الجزية ويسقط باسلام مالكها او اذا منحت كاقطاع أوبيت لمسلم، ومن هنا فان ارض الخراج تتحول تدريجيا فى حالة الإسلام أو الشراء والإقطاع إلى أرض عشرية (١)، وهو ماحدث فى العصر الاموى بالفعل وأثر بالتالى على الوضع المالى، إذ تناقصت الإيرادات المالية بشكل أزعج ولاة بنى أمينة الى حد أن بعضهم فكر فى مواصلة تحصيل الجزية، فى من أسلموا فقد بعث أيوب بن شرحبيل الأصبحى والى مصر فى خلافة عمر بن عبد العزيز إلى الخليفة فى ٩٩هـ يشكو إليه كثرة دخول الناس فى الإسلام وأثر ذلك فى الخراج، ويستأذنه فى فرض الجزية على من أسلم، فرد علية عمر قائلا:" قبح الله رأيك، انما لقب الله محمدا هادياً ولم يبعثه جابيا ، فضع الجزية عمن من أسلم، ولعمرى

---

(١) محمد أمين صالح، دراسات اقتصادية فى تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥ ص ٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه [١] "ويذكر أبن عبد الحكم أن أول من أخذ الجزية ممن إسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف، ثم كتب عبد الله بن مروان إلى أخيه عبد العزيز أن يضع الجزية على من أسلم فقال له ابن حجيرة: أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر فوالله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟، فتركهم عند ذلك"، وذكر أيضا أن عمربن عبد العزيز أمر برفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فى مصر أخذ بقوله تعالى: "فان تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم أن الله غفور رحيم" [٢] .ونلاحظ أن الجزية تفهم أحيانا فى المصادر العربية على أنها ضريبة الرؤوس والأرض فى آن واحد، ومن المعروف أن تقدير الخراج فى مصر كان يرتبط إرتباطا وثيقاً بحال الفيضان السنوى للنيل (ومن هنا كانت مقاييس النيل موضع أهتمام الولاة والقدرة الإنتاجية للأرض ويضاف إلى هذه الجزية ضريبة الطعام وهى ضريبة عينية تؤدى قمحا أو شعيرا ويمكن أبدالها بالعسل وكانت هذه الضريبة تفرض جملة على أهل القرية. وهذا يؤكد قول بن عبد الحكم "أن الجزية جزيتان، جزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية ".

ومن الجدير بالذكر أن إيرادت الجزية أخذت تتناقص فى مصر بالتدريج لكثرة دخول أهلها فى الإسلام، ولتعويض هذا النقص عمل الولاة على فرض الجزية على الرهبان كما حدث لأول مرة فى عهد عبد العزيزبن مروان، ولجأ عبد الله بن عبد الملك بن مروان إلى زيادة الضرائب على القبط فألزمهم بزيادة ثلثى دينار لكل شخص وهذا يفسر قيام القبط بالثورة فى عهود بعض الولاة فى العصرين الأموى والعباسى وعلى الأخص فى عهد الحربن يوسف (١٠٥ - ١٠٨) عندما أقدم عبيد الله بن الحبجاب على زيادة

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ١ص ١٤٠.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخراج على كل دينار قيراطا. أما فى العصر العباسى فلم ينفرد القبط وحدهم بالثورة بل أنضم إليهم العرب المزارعون، بسبب ضغط المتقبلين أو الضامنين المباشر على الفلاحين، وقد أشتد خطر الثورة فى مصر فى زمن المأمون إلى حد أنه قدم لتهدئة الأحوال فيها.

وفى العصر التركى كانت مصر تمنح أقطاعا لبعض القواد فيرسلون عنهم نوابا لحكمها وعلى الرغم مما يقترن بنظام الاقطاعية من إجراءات تعسفية تستهدف فى العادة مضاعفة الخراج فقد رزقت مصر فترة من الوقت ولاة مصلحين عملوا على الرفق بالرعية وإنصافهم منهم على سبيل المثال حاتم بن هرثمة وعنبسة بن أسحق. غير أن تقسيم ولاية مصر فى عصر الضعف الذى أتسم به النصف الثانى من العهد التركى إلى تخصصات أدى إلى اضطراب الأحوال فى البلاد وأقترن إسم بعض ولاة الخراج بالمظالم ومنهم أحمد بن المدبر الذى تولى خراج مصر سنة ٢٥٠ هـ وهو الذى فرض ضرائب جديدة لم يسبقه إليها أحد مثل ضريبة المراعى على الكلأ وضرائب على أشجار النخيل والسنط بالأضافة ألى مصايد الأسماك، وعلى حجر على النطرون بعد أن كان مباحاً جميع الناس. فأنقسم مال مصر إلى خراجى وهلالى، وكان الهلالى يعرف فى زمنه وماتلاه بالمرافق والمعاون فلما تولى أبن طولون إمارة مصر وأضاف إليه المعتمد الخراج أمر بإسقاط المرافق فى جميع أعماله وكانت تبلغ بمصر مائة الف دينار كل سنة وترتب على ذلك إنتعاش العمران فى البلاد وتحسين الأحوال الإقتصادية وشيوع الترف، غير أن ذلك الإنتعاش لم يلبث أن تبدل فى أواخر عهد الطولونيين بتدهور شديد بعد أن اقفرت خزانة البلاد فى عهد خماروية وما تبع سقوط الدولة من نكسات إقتصادية سببها إنتهاب الأموال والذخائر وسلبها من مصر إلى العراق، ولكن الاخشيديين عمدوا إلى النهوض باقتصاديات البلاد، فتحسنت الإحوال الإقتصادية فى عهدهم نوعا ما وأن كانت تخلفت عما كانت عليه زمن الطولونيين نتيجة لانخفاض مياة النيل وأنتشار الأوبئة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت أموال الخراج والجزية لا تدخل جملة إلى خزانة الدولة، وإنما كان يستقطع منها أعطيات الجند وما يتطلبه الأنفاق على الحروب من أنشاءات عسكرية كالحصون والأسوار والقلاع ومن تزويد الجيش بالمعدات اللازمة والأسلحة وما يستلزم شراؤه للأساطيل من أخشاب ومعادن وما إلى ذلك. وبالإضافة إلى ذلك كان الولاة يهتمون بتنفيذ بعض المشروعات المتعلقة بالرى والزراعة كانشاء القناطر والجسور أو حفر الترع والقنوات وإنشاء مقاييس النيل مما تقتضيه المصلحة العامة هذا إلى جانب المرافق العامة التى ترتبط بالعمارة الدينية والمدنية كإنشاء المساجد أو الزيادة فيها ورصف الطرق وحفر الآبار لمياة الشرب وإقامة الحمامات والدور والقصور والبيمارستانات.

وكان الفائض من الأيرادات يرسل سنوياً إلى بيت المال بدمشق أو بغداد.

ب - الزراعة:

كان العرب يعملون قبل فتحهم لمصر مدى ما كانت تنعم به من الثراء والخيرات اذ كانت مصر ارضا تفيض لبنا وعسلا وكانت تطعم الفاتحين، وكانت مصر تصدر القمح إلى المدينة واستمرت ترسل القمح هناك حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز الى الشام ثم الى العراق. وظلت هذة العادة متبعة حتى فى العصر الفاطمى. وكانت مصر أولى البلاد الإسلامية أنتاجا للقمح والخضروات والفواكه.، وكان يزرع فى أرضها الكتان وقصب السكر. وكان أهل مصر يقومون بفلاحة أراضيهم ولكن منذ أوائل القرن الثانى الهجرى سمح بنو أمية لبعض القبائل العربية بالهجرة إلى مصر والإشتغال بالزراعة، ولم يلبث العرب بعد نزولهم بريف مصر أن أختلطوا بالأهالى وأتخذوا الزراعة حرفة لهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولاشك ن العرب لم يغيروا نظام الزراعة فى مصر عما كان عليه قبل الفتح العربى وكل ما فعله العرب عند الفتح هو تعهدهم الفلاحين بالرعاية والإهتمام وذلك بشق الترع وإقامة القناطر والجسور وغيرذلك مما تستلزمه الحياة الزراعية مثل أقامة مقاييس النيل لمعرفة مدى ما يصيبه من زيادة ونقص فى كل فيضان وعلى هذا الأساس كانوا يقدرون الضرائب وقد أهتم عمرو بن العاص ببناء مقايس النيل فأقام مقياساً بحلوان وآخر بأسوان وثالث بدندرة وكانت هذه المقاييس مقسمة إلى أذرع وكل ينقسم بدوره إلى أربعة وعشرين أصبعا. وفى ولاية عبد العزيز بن مروان أقاما مقياسا للنيل بحلوان التى أتخذها عاصمة لمصر. ثم أقام مقياس بجزيرة الروضة سنة ٩٧هـ فى خلافة سليمان بن عبد الملك أقامه أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج على مصر. وقد جدد الخليفة المأمون العباسى هذا المقياس سنة ١٩٩هـ - (٨١٤م) ثم أعيد أنشاءه من جديد فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله سنة ٢٣٧هـ (٨٦١م) ومقياس النيل هذا عبارة عن عمود طويل ومثمن الشكل مثبت بواسطة عارضة من الخشب نقشت بالذهب واللازورد ومقسم الى ١٩ ذراعاً. ونصب هذا العمود وسط بئر مربع طول ضلعة ٦١مترا ونقشت على جدرانه وفوق عقوده آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى تناسب الزرع والماء وتنتهى هذه الكتابة بنص تاريخى نطالع فيه (بسم الله الرحمن الرحيم مقياس يمن وسعادة ونعمة وسلامة أمر ببنائه عبد الله بن جعفر الأمام المتوكل على الله أمير المؤمنين) وكانت مياه النيل تتسرب إلى هذا البئر عن طريق فتحات فى الجدران الشرقى ولهذا البئر درج يوصله إلى القاع وجدرانه من الداخل مكسوة بالرخام والحجر. أما القبة التى تراها اليوم بأعلى البئر فهى من عهد حديث اقيمت على مثال قبة أخرى كانت تعلو المقياس ثم هدمت منذ قرن ونصف من الزمان.

وهكذا فعل العرب ما أمكنهم فعله لزيادة إنتاج الإراضى وكانت الحكومة تحرص على زراعة الأراضى جميعها وعدم إعفاء الأرض جميعا وعدم اعفاء الأرض البور من الخراج مما دعا إلى إستغلال كل شبر منها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالزراعة. وأهتمت الخلافة الأموية منذ عهد هشام بن عبد الملك بتشجيع القبائل العربية على الوفود إلى والإهتمام بالزراعة. وظهر الأقطاع فى منذ بداية الفتح العربى ممثلاً فى منح الأراضى التى هجرها أصحابها من الروم والأخائذ لبعض الشخصيات البارزة أو القواد او للخواص.

ولما أستقل ابن طولون بمصر رأى أن الزراعة أساس رخاء مصر فأصلح الطرق وشق الترع وأقامة المصارف وأهتم بتطهيرها. كذلك أهتم كافور بتنمية الزراعة وزاد خراج مصر زيادة كبيرة فى عهده. إلا أنه فى آواخر عهد كافور انخفض منسوب خراج النيل مدة تسع سنوات (٣٥١ - ٣٦٠هـ) وظل كذلك حتى عهد الفاطميين فأنتشر القحط وأشتد الغلاء وأنتشر الوباء وندر وجود القمح وكثر عدد الموتى وتبع انخفاض النيل إضطراب الأعمال الحكومية والمجاعات والأوبئة فنهبت المحاصيل وعم السلب والنهب.

ج - صيد الاسماك:

أختص جماعة من اهل السواحل بصيد الأسماك، وأول من ادخل نظام المصايد فى الديوان احمد بن المدبر والى خراج مصر سنة ٢٥٠، وجعل لصيد الأسماك ديوانا، فامر أن يكتب فى الديوان.خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك،فأستمر ذلك، وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب إلى عدة جهات مثل خليج الإسكندرية وبحيرة إسكندرية وبحيرة نسترو بالبرلس وثغر دمياط وجنادل ثغر أسوان وغير ذلك من البرك والبحيرات (١) . وكان يصاد من بحيرة الإسكندرية وبحيرة تنيس أسماك البورى نسبة الى قرية بورة من قرى تنيس.

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ص ١٩١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان الصيد فى بحر الإسكندرية يتم وفقا لما ذكره المقريزى بالقرب من تمثال ضخم من النحاس يقال له شراحيل كان قائما على حشفة من حشاف البحر كانت تكثر حوله الحيتان وتصاد عنده، ثم أنقطعت عن هذا الموضع بعد أن اخذ أسامة بن زيد التنوخى عامل الوليد بن عبد الملك على مصر هذا التمثال وضربة فلوسا (١).

وكان صيد الأسماك فى خليج الإسكندرية مطلقا ومباحا للرعية، وكان السمك يطفو فوق الماء بكثرة حتى كان يتصيده الأطفال بالخرق، ولكن والى الإسكندرية فى العصر الفاطمى " زمن الطرطوشى" منع الناس من صيده.

كذلك كان السمك يصاد من بحيرة أدكو المعروفة ببحيرة بوقير، وكان لها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية " وبها من صيد السمك منه مايتحصل منه المال الكثير" (٢). غير ان هذه البحيرة لم تلبث أن جفت واصبحت سبخة طويلة عريضة بعد ان تغلب الرمل على أشتونها الموصل اليها الماء من البحر (المعدية) وانقطع ماكان يصاد منها من السمك البورى وعاد إلى الإسكندرية بسبب ذلك ضرر كبير. وفى خليج أبو قير كان صيادو الاسماك من أهل هذه الضاحية يقومون بصيدها اثناء الليل بحراريقهم فى القوارب. وترتب على حرفة الصيد صناعة تجفيف السمك وتمليحه، إذا تم صيده يوضع على انخاخ ويملح ويوضع فى الأمطار، فاذا أستوى بيع وقيل له الملوحة.

---

(١) نفسه ص ١٩٢ .

(٢) القلشندى، صبح الأعشى، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د - الصناعة

الصناعة : إشتهرت مصر منذ أقدم العصور بصناعاتها الهامة مثل صناعة الورق والزجاج والنسيج والخزف والخشب. ولما فتح العرب مصر لم يوقفوا فيها سلسة التقدم الصناعى بل شجعوا هذه الصناعات وأستخدموا الصناع الاقباط فى أقامة منشأتهم وفى صناعة كل مايلزمهم وهكذا كان الفن المصرى فى فجر الإسلام فنا قائمًا على التقاليد المحلية، ومالبث أن دخلت على هذا الفن بعض العناصر الإسلامية صبغت المنتجات بطابع إسلامى بحت فنشأ الفن الإسلامى.

وأول الصناعات التى تقدمت فى مصر فى العصور الإسلامية هى صناعة المنسوجات والواقع أن مصر كانت مشهورة قبل ظهور الإسلام بصناعاتها للنسيج وكان الاقباط يحملون لواء هذه الصناعة مدة طويلة لدرجة أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية إسم قباطى نسبة إلى اقباط مصر الذين تفوقوا فى هذه الميدان. ولذلك عمد العرب إلى الأستفادة من هذه الشهرة فى كسوة الكعبة ومنح الخلع. وقد أدى إلى ذلك إلى سيرهم بهذه الصناعة إلى الأمام كما يتجلى لنا فى قطع كثيرة وصلت إلينا من هذا العصرأهمها قطعة من الكتان تزادن بزخارف هندسية نسجت بخيوط من حرير وعليها كتابة كوفية تشير إلى أنها صنعت فى طراز العامة بمصر باسم الخليفة العباسى الامين. والطراز كلمة فارسية الأصل (ترازيدان) بمعنى التطريز وعمل المذبح أو الزخرفة التى تزين ثوبا سيما إذا كانت هذه الزينة شريطاً من الكتابه منسوجا فى لحمة الثوب وسداه او مطرزة عليه أو مثبتة فوقه، وكان هذا الثوب خاصا بشخص ذى أهمية. وقد تطورت كلمة الطراز فأصبحت تطلق على المصنع الحكومى الذى تنسج فيه الثياب. ويبدو أن المصنع الذى كانت تصنع فية المنسوجات كان معروفا من قبل فى عصر البطالسة فكان فى العصر الرومانى مصنع حكومى للنسيج يمد الإمبراطور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرومانى بما يحتاجه هو ورجال بلاطه من أقمشة حريرية وقد ظل هذا المصنع قائما حتى الفتح العربى. ولم يحدث العرب تغييراً فى نظام المصانع القديمة وإنما بدلوا أسماءها القديمة بإسم"دار الطراز" وأصبحت تنسج فى دار الطراز ما تحتاج إليه الحكومة من أقمشة مختلفة لكسوة الكعبة وعمل الأعلام والخيام والخلع والهدايا. وللطراز نوعان طراز الخاصة وهو مصنع النسيج الحكومى الذى يمد الخاصة بما هى فى حاجة إليه وطراز العامة وهو المصنع الأهلى للنسيج الذى يمد الشعب بما يحتاج إليه من أقمشة وكان تحت أشراف الحكومة.

وكانت أهم دور الطراز فى مصر فى تنيس ودمياط والإسكندرية واشتهرت تنيس بنسيج القصب الملون والإسكندرية بالمنسوجات الكتانية المسماه(شرب) ودمياط بالقصب الأبيض كذلك أشتهرت شطا ودميرة وتونة بصناعة المنسوجات الرقيقة الكتانية. وأشتهرت البهنسا بصناعة منسوجات الصوف والقطن أما الحرير فقد أشتهرت بنسجه مدينة دبيق.

كذلك أشتهرت مصر بصناعة الورق المصنوع من البردى الذى كان ينمو بكثرة فى مصر وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم وطريقة صناعة الورق منه أن يشق لباب البردى إلى شرائح يوضع بعضها افقى وبعضها عمودى بحيث تكون الألياف الافقية إلى الأمام والألياف العمودية إلى الوراء ثم يجعل من هذه الشرائح صحائف بواسطة الضغط الشديد عليها ثم تصقل بآلة من العاج وتلتصق الصحائف بعضها ببعض. وظل العرب بعد الإسلام يصنعون الورق من البردى ويستعملونه فى مخطوطاتهم وظلت هذه الصناعة قائمة فى مصر حتى القرن الرابع الهجرى وحلت محلها صناعة الورق الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند والصين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك أهتم المسلمون بصناعة الخشب والنجارة وهى صناعة معروفة منذ العصر الفرعونى ولا شك ان المسلمين تأثروا فى هذه الصناعة بالصناع المحليين من الاقباط.

أما صناعة الزجاج فقد كانت مزدهرة فى مصر منذ الفراعنة وكانت مدينة الإسكندرية قبل الإسلام من أعظم مراكز صناعة الزجاج فى العالم فلما جاء

المسلمون اتخذوا من الزجاج الأوانى المختلفة الأشكال كما أتخذوا منه أقراطا مستديرة يثبتوها فوق القنينات للزينة كما صنعوا من الزجاج الصنجات الخاصة بالموازين.

وصناعة الخزف كانت من الصناعات العريقة فى مصر القديمة لإتصالها بحياة الإنسان وكلما تدرج الإنسان فى الرقى إرتفعت هذه الصناعة. وكانت الفسطاط مركزاً هاما من مراكز صناعة الخزف.

هـ - التجارة:

لم يكن تقدم مصر فى الميدان التجارى راجعا الى إزدهار الزراعة والصناعة فحسب وانما يرجع كذلك الى موقعها الممتاز وسط قارات آسيا واوروبا وإفريقيا وقد أستغل العرب بعد فتح مصر هذا الموقع الرائع فى التجارة بين الشرق والغرب فتدفقت المتاجر تجتاز مصر عن طريق القوافل من الفرما حتى القلزم وعن طريق البحر الأحمر من القلزم إلى المحيط الهندى وفى ذلك يقول أبن خرداذبة فى كتابه المسالك والممالك: -

" وكانت مصر مسلك التجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والفرنجية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق يجلبون من المغرب الخدم والجوار والجوارى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والغلمان والفراء والسيوف ويخرجون إلى الفرما ويحلون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهم خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون من القلزم إلى جدة ثم يمضون الى جدة ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور وغير ذلك حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحصلون الفرما ثم يركبون فى البحر) .

والطريق الثانى للتجارة فى مصر هو البحر الأحمر حتى رأس يناس أو القصير على البحر الاحمر ثم تنتقل التجارة بعد ذلك عن طريق وديان الصحراء الشرقية الى قفط على النيل ومن هناك تسلك التجارة الطريق النيلى حتى الإسكندرية أو تسير السفن فى البحر الأحمر حتى القلزم ومن هناك تسير فى قناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة حتى الإسكندرية. هذه القناة هى التى حفرها عمرو بن العاص وكانت تصل البحر الأحمر حتى الفسطاط وسميت بخليج أمير المؤمنين لان عمرو هو الذى أمر بشقها وكانت هذه القناة موجودة أصلاً منذ أيام الفراعنة ثم اهتم بحفرها البطالسة والرومان حتى أهملت قبل الفتح العربى أصبحت غير صالحة للملاحة فى بداية القرن السابع الميلادى ويبدو أن عمر بن الخطاب كان يهدف من اعادة حفرها تسهيل نقل الغلال من مصر إلى الحجاز. وقد ظهرت هذه القناة بعد ذلك فى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ)

يضاف إلى هذين الطريقين طريق ثالث كان يرتاده الحجاج الى مكة هو طريق أيلة وكانت أيلة ملتقى الناس والتجارة.

ويبدو أن مصر كانت على أتصال تجارى ببلاد النوبة جنوبا إذا كان يفد إليها فى عصر الدولة الطولونية بعض التجار يحملون البضائع من السودان كالعاج والابنوس وريش النعام وسن الفيل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢)

الحياة العلمية

كانت إسكندرية عندما فتحها عمرو بن العاص أعظم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية، غير أن مدرسة الإسكندرية لم تلبث ان اضمحلت بعد الفتح العربى لإنصراف اهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية واقبالهم على الثقافات العربية بعد ان نزلها عدد كبير من العرب اليمنية. ومع ذلك فقد ظلت الإسكندرية تحتل مركزها العلمى والثقافى القديم فى الشرق على الرغم من تعربها، ونبغ من رجالها كثيرون فى الطب أو الكيمياء وعلى ايدى علمائها اخذ خالد بن يزيد بن معاوية علم الكيمياء بعد ان امرهم بنقل كتب الكيمياء إلى العربية. وفى الطب نبغ عدد من أهل الإسكندرية منهم طبيب يدعى ابن ابجر كان يتولى التدريس فيها، ومنهم بليطان السكندرى (ت ١٨٦ هـ) الذى بعث الخليفة هارون الرشيد فى طلبه لتطبيب إحدى جارياته وسعيد بن نوفل الذى كان فى خدمة ابن طولون وسعيد بن البطريق(ت ٣٢٨ هـ).

أما الفسطاط فقد كانت المركز الحقيقى للحركة العلمية فى مصر الإسلامية، وكان جامع الفسطاط المدرسة الأولى للعلوم الدينية.

وكان الفتح الإسلامى فتحاً عسكرياً ومعنوياً فى ان واحد لأنه جاء مع الفاتحين العرب فى الشام والعراق ومصر عدد كبير من صحابة الرسول وتفرقوا فى الأمصار وأنضم عدد كبير منهم الجيوش وذلك لنشر الدين الإسلامى واللغة العربية فى البلاد المفتوحة وقد أشترك فى فتح مصر عدد كبير من الصحابة كانوا أساس المدرسة الدينية الأولى فى مصر الإسلامية. وأول من قام بتدريس العلوم الدينية فى مصر بعد الفتح الإسلامى هو عبد الله بن عمرو بن العاص الذى قام بتدريس ماسمعه عن الرسول من أحاديث وقيل أنه درس قرابة مائة حديث. ومات عبد الله بن عمرو فى الفسطاط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة ٦٥هـ عندما قدم مروان بن الحكم الى مصر لأستخلاصها من ابن الزبير.
ولم يكن عبد الله بن عمرو وحده هو الذى قام بهذه المهمة، فقد آخذت مصر دروسا دينية عن غيره من الصحابة الذين قدموا إلى مصر بعد الفتح، امثال حيان ابن أبى جبلة وتتلمذ على أيديهم عدد كبير من المصريين أمثال الليث بن سعد المصرى الذى ولد بقلقشندة سنة ٩٤ هـ وتوفى سنة ١٧٥هـ وقد تتلمذ الليث على يزيد بن أبى حبيب احد علماء ثلاثة أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى مصر. ويعتبر الليث من أعظم علماء مصر وأئمتها ومحدثيها فى صدر الإسلام وكان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر وقد إشتغل بالفتوى، وكان الأمام الشافعى يتأسف عليه فوات لقياه وتذكر الروايات ان الشافعى قال : (كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه).

ومن أقدم علماء الحديث فى مصر عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى المتوفى سنة ١٩٧ هـ وفى هذا الوقت انتشر مذهب مالك بن انس فى الحجاز ومذهب أبى حنيفة فى العراق ومالك وهو مالك بن أنس الأصبحى ولد بالمدينة وتوفى بها سنة ١٧٩ ويمتاز مذهبة على الحديث أكثر من ابى حنيفة ويقال لأصحابه أهل الحديث وكان يتمسك بنصوص القرآن والحديث عند حكمه فى قضية من القضايا. أما مذهب ابى حنيفه النعمان بن ثابت فيقوم على الرأى والإجتهاد ولذا سمى أصحابه باهل الرأى والقياس. وأنتشر مذهب مالك فى الحجاز لملائمة هذه البيئة التى تسودها البساطة والسذاجة بينما ساد مذهب ابى حنيفة فى العراق لانه يلائم هذه البيئة المعقدة. أما فى مصر فقد أشتد النزاع بين أنصار هذين المذهبين حتى قدم الأمام محمد بن أدريس الشافعى القرشى الى مصر، وقد ولد الشافعى بغزة سنة ١٥٠ وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم اتى مصر ١٩٨ والف فيها كتبه الكثيرة ومنها كتاب الأم والأمانى الكبرى والأمل الصغير والسنن وتوفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بها سنة ٢٠٤. وقبره مايزال موجودا إلى يومنا هذا . ومذهبه يأخذ طابعا مصريا بحتا إذ يقوم على الجمع بين المذهبين المالكى والحنفى وهكذا أزدهرت الحركة العلمية الدينية بالفسطاط وشاركت بعض العناصر المصرية فى هذه الحركة فنبع عثمان بن سعد المصرى الذى ينحدر من أصل قبطى وكان مولى لآل الزبير بن العوام وقد لقب بورش لشدة بياضه وتنسب إليه أحدى القراءات السبعة المعروفة بقراءة ورش.وقد توفى فى سنة ١٩٧هـ. وزمن أئمة القراءات فى مصر أيضا أبو يعقوب الأزرق بوسف بن عمرو المصرى وقد أخذ عن ورش وخلفه فى الأقراء بالديار المصرية. وتوفى أبو يعقوب سنة ٢٤٠هـ.

أصبحت مصر مركزاً علميا يفد إليه كثير من الطلبة من سائر أنحاء العالم الإسلامى لتلقى العلم، من هؤلاء يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى الذى أخذ عن الليث بن سعد وكان بمصر نصيب وافر فى الحركة الصوفية فبرز فى هذا الميدان الفيض بن إبراهيم المصرى الملقب بذى النون المصرى. وقد ولد ذى النون فى أخميم وروى عن الأمام مالك والليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة ويعد ذى النون من رواد الحركة الصوفية فى مصر وقد أنكر عليه أهل مصر وقالوا أنه أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة وسعى به بعض أعوانه لدى المتوكل فأستدعاه الخليفة من مصر فلما حضره بكى المتوكل ورده مكرما وعاش ذو النون بقية حياته فى الفسطاط حتى مات فى الجيزة سنة ٢٤٥هـ.

كذلك أزدهرت المدرسة التاريخية وكان المصريون أول من ساهم فى تدوين التاريخ وبرز من المصريين أثنان هما عبد الله بن لهيعة المصرى المتوفى سنة ١٧٤وقد ولى القضاء على مصر عشر سنين (١٥٥ - ١٦٤ هـ) ويمتاز بأنه يمزج التاريخ بالأحاديث والثانى تلميذه عبد الرحمن بن عبد الحكم المصرى صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب (١٨٧ - ٢٥٧ هـ) كما برز من مؤرخى العصر الأخشيدى ابو عمر الكندى صاحب كتاب الولاة والقضاة. ومن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤرخى هذا العصر الحسن بن زولاق صاحب كتاب (العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج) ت (٣٨٧هـ) وله كتاب فى فضائل مصر وذيل على قضاة مصر للكندى ومنهم ابو جعفر احمد بن يوسف المعروف بابن الداية وكان أحد كتاب بنى طولون المقربين إليهم وله كتاب فى سيرة أحمد بن طولون ومنهم البلوى وهو مؤرخ مصرى ينتمى إلى قبيلة بلى العربية عاش فى مصر القرن الرابع وكان عالما فقيها وله كتاب عن سيرة أحمد بن طولون.

وفى مجال الآدب والشعر نذكر الشاعر العذرى جميل بن عبد الله بن معمر العذرى صاحب بثينة أحد عشاق العرب وكان شاعرا إسلاميا من أفصح شعراء عصره قدم إلى مصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان فأكرمه وتوفى بها سنة٨٢هـ. كما وفد إلى عبد العزيز بن مروان - الشاعر الرقيق كثير عزة بن عبد الرحمن الخزاعى (ت ١٥٠) وأقام مصر فى كنف الأمير وزاربها قبر محبوبته عزة بنت جميل بن حفص ومن علماء اللغة البارزين فى مصر زمن الولاة عبد الملك بن هشام بن ايوب المعافرى صاحب السيرة وكان أماما فى اللغة والنحو وعلم العربية، كما كان أديباً نسابة، سكن مصر توفى بها فى سنة ٢١٨ ، ومنهم محمد بن عبد الله بن مسلم النحوى وكان يعلم أبناء الأمراء والملوك علم النحو وكان يدرس فى الجامع العتيق بالفسطاط وتوفى فى سنة ٣٣٠ هـ ومنهم أبو العباس أحمد بن الوليد التميمى المصرى مصنف كتاب الإنتصار لسيبويه وكان شيخ الديار المصرية فى علوم العربية، توفى بمصر فى سنة ٣٣٢هـ. ومنهم ابو جعفر النحاس أحمد بن محمد البردى المصرى النحوى وقد أخذ عن الأخفاش الصغير وروى الحديث عن النسائى وتوفى سنة ٣٣٨ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)

أهم القواعد البحرية في مصر والشام في العصر العباسي

(أ) الاسكندرية:

ذاعت شهرة الإسكندرية بمينا ويها الشرقية والغربية فى العصر البطلمى كقاعدة هامة فى حوض البحر المتوسط الشرقى والمركز الرئيسى للتجارة البحرية،ولهذا السبب حرص البطالمة على إنشاء دار كبرى لصناعة السفن التجارية والحربية، إستخدموا لصناعتها الأخشاب المحلية وأخشاب أخرى مستوردة كأخشاب الأرز الواردة من من الساحل اللبناني، والسرو من جزيرة ميليتوس، والصنوبر من شمال البلقان، والقطران من غابات مقدونيا وهضاب آسيا الصغرى. وقد تجدد بناء دار الصناعة البحرية فى الإسكندرية فى عهد الإمبراطور البيزنطى أنستاسيوس الذى نجح فى تكوين قوة بحرية حقيقية أعتمد عليها جستنيان وخلفاؤه فى إحراز إنتصاراتهم البحرية على الشعوب الجرمانية. وظلت دار صناعة الإسكندرية تنشئ القطائع البحرية بعد ان دخلت مصر فى فلك الإسلام، بفضل خبرات الصناع الأقباط ومهارتهم وقد أشترك الأسطول المصرى الذى أسسه عبد الله بن سعد مع الأسطول الشامي فى غزوة قبرص، كما أشترك الأسطولان معا فى معركة ذات الصواري. وكان أمراء البحر يخرجون من ثغر الإسكندرية للغزو، كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهني في سنة ٤٧ هـ في البحر إلى رودس بعد أن نحاه معاوية عن إمارة مصر وولاه أمرة البحر. وقد تولى الأسطول المصرى السكندرى أيضا عبء غزو جزر البحر المتوسط الغربى إلى أن تمكنت دار صناعة تونس من إنتاج ما يكفيها من السفن، وعليه (أى الأسطول السكندرى) أعتمد الفاتحون العرب للمغرب فى عملياتهم الحربية.

بحذاء الساحل الشمالي لإفريقيا ، كما كانت ترتبط إرتباطا بحريا بثغور الشام وعلى الأخص صيدا. ولم تبرز دمياط كقاعدة هامة منافسة للإسكندرية إلا منذ أن تمكن غزاة البحر الأندلسيون من فتح اقريطش، فقد أصبحت اقريطش، ترتبط مباشرة بدمياط وكانت دمياط تذودها بكل ماتحتاج إليه من أسلحة وعتاد وسفن وقلوع من أنشاء دار الصناعة دمياط أو جزيرة الروضة. وفطن البيزنطيون إلى حقيقة ما تمثله دمياط بالنسبة لجزيرة أقريطش، فوجهوا همهم إلى تأديب دمياط بغارة عنيفة قد تجعل أهلها يفكرون طويلا قبل أن يزودوا أقريطش بالسلاح والعتاد، ففي سنة ٢٣٨ هـ أقبل البيزنطيون في عرفة على دمياط في ثلاثمائة سفينة يقودها ثلاثة من رؤساء البحر البيزنطين هم : عرفا (لعله أوريفوس أمير البحر البيزنطي، وأبن قطونة، ويسمية اليعقوبي قطوناريس، وامرد نافه (ولعله لقب بمعنى أمير البحرية" أمير دنافي Amir cle nave) فهاجم أبن قطونة دمياط بمائة من الشلنديات ودخلوا المدينة في غيبة حاميتها من الجند والجرخية والزراقين، اذ كان قد أستقدمهم عنبسه بن أسحاق والى مصر إلى الفسطاط ليتجمل بهم في حفل أعذار ولديه في يوم العيد. فنزل البيزنطيون في المدينة، وكانوا نحوا من خمسة الآف رجل، فشحنوا سفنهم من المتاع والأموال والقند والكتان ما كان ليحمل إلى العراق، كما احتملوا اسلحة كانت معدة لتحمل إلى إبي حفص صاحب اقريطش وعدتها نحو الف قناة وآلتها. وآثار نزول البيزنطيين في دمياط موجة من الذعر، ففر عدد كبير من الأهالي بأنفسهم في المخاضات الممتدة ما بين المدينة والشط، فغرق معظمهم، وقتل البيزنطيين عددا كبيرا من الرجال في داخل دمياط وسبوا من النساء نحوا من ٦٠٠ أمرأة منهم ١٢٥ أمرأة مسلمة والباقيات من نساء القبط. ثم أضرم البيزنطيون النار في خزانة القلوع وهي شرع السفن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنذ أن دخلت الاسكندرية فى طاعة العباسيين حرص ولاة بنى العباس فى مصر على مواصلة الإهتمام بقاعدة الإسكندرية البحرية التى أصبحت قاعدة رئيسية للعمليات العسكرية فى المغرب المتمرد على العباسيين. ففى سنة ١٣٦ هـ سير ابو العباس السفاح الجيوش العباسية إلى المغرب بقيادة عامر بن إسماعيل، كما أمر بإرسال المثنى بن زياد الخثعمى إلى الإسكندرية ليجهز المراكب منها للإقلاع نحو طرابلس الغرب.

وأحتفظت الإسكندرية فى العصر الطولونى بأهميتها كأكبر قاعدة بحرية فى مصر، وذلك منذ أن أدمجت فى ولاية احمد بن طولون فى سنة ٢٥٦ هـ ومن مظاهر عنايته بثغر الاسكندرية انه زاره عدة مرات، ولم يتوان أثناء هذه الزيارات عن الأهتمام بالمدينة والعناية بدار صناعتها حتى تزيد فى أنتاج السفن لشدة حاجتة إلى أسطول قوى يحمى سواحل بلاده وذلك منذ أن أتضحت نوايا الموقف العدوانية ضده، ويحافظ بفضله على طريق الإتصال البحرى بين الشام ومصر. كما عمل أحمد بن طولون على تعمير الإسكندرية وربطها بالنيل تدعيما لتجارتها البحرية فى الخارج والنهرية فى الداخل، فأمر فى سنة ٢٥٩ هـ بإعادة حفر خليج الإسكندرية. أما خمارويه فقد ورث عن أبيه هذا الأهتمام بقاعدة الإسكندرية، فكان يخرج لزيارتها ويتفقد قطع الأسطول فيها.

(ب) دمياط:

تعتبر دمياط من القواعد البحرية الهامة فى مصر فى العصر الإسلامى لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرقى للنيل الذى سمى بإسمها من جهة ثانية. وكان من مزايا هذا الموقع المزدوج أن أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط. وكانت ترسو بها السفن القادمة من المغرب

فأحرقوها، وأحرقوا جامع دمياط وعدة كنائس، والفاً وخمسمائة بيت. وكان عنبسة قد سجن مقدما من أهل دمياط فى بعض الأبراج، فلما هاجم البيزنطيين دمياط ولم يمنعهم مانع مضى إليه بعض اعوانه، وكسروا قيده وأخرجوه. وأنضم إليه طائفة من أهل المدينة فحاربوا البيزنطيين وهزموهم وأخرجوهم من دمياط. ولما علم عنبسة بخبر هذه الغزو أقبل بجند مصر، ولكنه وصل إلى دمياط بعد خروج البيزنطيين منها إلى أشتوم تنبس، فتقاعس عن مطاردتهم، وفى ذلك يسخر منه الشاعر يحى بن الفضل بابيات من الشعر وجهها إلى المتوكل.

وعلى أثر ذلك أمر المتوكل على الله العباسى ببناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ، وحصن تنيس على البحر، وحصن الفرما، وانشىء من حينئذ الأسطول بمصر، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر. ولم يكد يمضى على هذه الغزوة تسع سنوات حتى اعاد البيزنطيون الكرة على دمياط فى سنة ٢٤٧هـ، فطرقوها فى نحو مائتى مركب، وأقاموا يعيثون في السواحل وعندئذ أمر المتوكل العباسى بترتيب المراكب فى جميع السواحل، وان تشحن جميعا بالمقاتلة.

(ج) عكا:

عكا مدينة تقع على الساحل الجنوبى لبلاد الشام من فلسطين، وكانت من خلافة معاوية حتى عهد هشام بن عبد الملك دار صناعة الشام، والقاعدة الرئيسية فى الساحل الجنوبى إلى أن نقل هشام دار الصناعة منها إلى صور، ولكن المتوكل على الله أمر فى سنة ٢٤٧هـ بترتيب المراكب بها وبغيرها من السواحل. وقد إزدادت اهمية عكا فى العصر الطولونى فاولاها الأمير أحمد بن طولون جانبا كبيرا من عنايته. ويذكر المقدسى أنها مدينة حصينة، وأنها لم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون (يقصد

أحمد بن طولون) وقد كان رأى صور ومنعتها وإستدارة الحائط على ميناها ، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك المينا ، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك، فقيل لا يهتدى أحد إلى البناء فى الماء هذا الزمان. ثم ذكر جدنا أبو بكر البناء (أى جد المقدسى) وقيل أن كان عند أحد علم، هذا فعنده. فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه. فلما صار إليه وذكر له ذلك، قال أمر هين : على بفلق الجميز الغليظة فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البرى، وخيط بعضهما ببعض، وجعل لها بابا من الغرب عظيما ، ثم بنى عليها الحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفلق كما ثقلت نزلت حتى إذا أنها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملا حتى اخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك : كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم، داخله فيه وخيطه به، ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب فى كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسة مثل صور. قال فدفع اليه الف دينار سوى الخلع وغيرها من المراكب واسمة عليه مكتوب. وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب".

وقد شاهد ناصر خسرو السورين الداخلين فى مياة البحر ، وعاين السلسة فى القرن الخامس الهجرى، فقال :"وحائطاها داخلان فى البحر وعلى إمتدادهما مدخل مفتوح، وقد شدت السلاسل بين الحاطين، فاذا أريد أدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسة حتى تغوص فى الماء فتمر السفينة فوقها ، ثم تشيد حتى لا يستطيع عدو قصدها بسؤ".

(د) صيدا وصور:

حظيت المدينتان فى تاريخهما القديم بشهرة بحرية عالمية، وعرف ملاحوها بمهارتهم فى قيادة السفن، وفى فنون القتال البحرى. وقد ظلت صيدا تحتفظ بهذا الشهرة حتى العصر الإسلامى، فإستعان معاوية بملاحين من أهلها فى تسيير سفنه لسابق خبرتهم ودرايتهم فى ممارسة الملاحة فيه،

على الرغم من أنها لم تكن دار صناعة فى العصر الأموى. وقد عنى بها خلفاء بنى امية وعلى الأخص الخليفة الأموى مروان بن محمد الذى نستدل من نقش كتابى أثرى أنه أمر باصلاح ميناء صيدا وترميمه فى سنة ١٣٢ هـ، فتم ذلك على يدى زياد بن إبى الورد. ويشير هذا النص إلى أن ميناء صيدا المذكور أصبح موضع أهتمام الخلفاء بإعتباره قاعدة بحرية هامة للسفن التجارية والحربية.

وحظيت صيدا بعناية الخليفة المتوكل العباسى، وكانت فى جملة مدن الساحل التى أمر الخلفة المذكور بترتيب المراكب بها ، وأسندت الدولة العباسية مهمة الدفاع عن ساحل صيدا إلى أفراد من البيت الإرسلانى او التنوخى أمراء الغرب: ففى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) تولى الأمير النعمان ابن عامر الإرسلانى الذى يرفع بعض النسابة نسبة إلى النعمان بن المنذر ابن ماء السماء اللخمى، إمارة الغرب وتشمل على بيروت وصيدا وجبلهما ، وذلك بأمر أناجور التركى عامل دمشق وأعمالها من قبل الخليفة العباسى المعتمد على الله. وظل الأمير النعمان يتولاها إلى أن توفى أماجور فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٩م) فآلت الى احمد بن طولون فأقر الأمير النعمان على صيدا وبيروت، لما أشتهرت به من الشجاعة.

وأما صور فمدينة حصينة للغاية مشرفة على البحر داخلة فيه على شكل كف فى زند ويحيط بها البحر من ثلاثة جوانب. ويؤكد المقدسى حصانتها ، ويشير إلى سلسلتها الشهيرة التى على نمطها أقام أبن طولون سلسلة عكا ، وكانت بصور دار لصناعة السفن ذكرها اليعقوبى فقال:"وبها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم، وهى حصينة جليلة".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(هـ) طرسوس:

كانت تمتد ما بين الإسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم اخْلاها أهلها وإنتقلوا إلى داخل الدولة البيزنطية خوفا من غزوات المسلمين فى العصر الأموى، فتشعثت هذه الحصون بمرور الزمن، فكان المسلمون إذا غزوا البلاد البيزنطية الفوها خالية مخربة، وكانت طرسوس حصنا من هذة الحصون الخربة التى كان المسلمون يمرون بها عند غزوهم لبلاد الروم. وتقع طرسوس على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى فى خليج إسكندرونة، ويشقها نهر صغير يقال له البردان. وأول من أوصى باعداد بنيانها وتحصينها لتكون قاعدة لجيوش المسلمين القائد الحسن بن قحطبة الطائى، اذ أحس بأهميتها أثناء مروره بها فى سنة ١٦٣ هـ فى عهد الخليفة المهدى العباسى، ولكن تعميرها واعادة تحصينها لم يتما إلا فى سنة ١٧١ هـ على يدى الرشيد. ولما أحكم بناؤها نزلها طائفة من أهل انطاكية فأقطعت لهم الأقطاعات والخطط، وأصبحت طرسوس منذ ذلك الحين مركزا هاما للرباط، وأعظم القواعد البحرية فى الثغور الشامية فى العصر العباسى.

ثم خضعت طرسوس لأحمد بن طولون منذ سنة ٢٦٤ هـ عندما دخلها وعزم على المقام بها وملازمة الغزاة، فولى عليها سيما الطويل ولكنها خرجت عليه بعد ست سنوات، فلما قدم ابن طولون إليها سنة ٢٦٩ هـ لاستنزال يازمان الخادم المنتزى بها استعصت عليه، وأرسل يازمان الماء على عسكر أبن طولون من نهر البردان فغرق معسكره وإضطر ابن طولون إلى الرحيل عنها. وقد تعرضت طرسوس فى العام التالى سنة ٢٧٠ هـ لغزو البيزنطيين ففى هذه السنة هاجم البيزنطبون قلمية التى تبعد نحو ستة أميال من طرطوس فى جيش يتألف من مائة الف فتصدى لهم يا زمان ليلا فقتل منهم فيما يقال سبعين الفا، وقتل مقدمهم، وغنم غنائم كثيرة. وفى سنة ٢٧٤ هـ أوغل يازمان فى بلاد الروم فأوقع بكثير من أهلها وغنم وسبى وأسر أعداد كبيرة منهم. ويذكر المسعودى أن يازمان الخادم أمير طرسوس كان لديه رجال من البحريين لم ير مثلهم ولا أشد منهم، وكان العدو يهابه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتفزع منه النصرانيه فى حصونها.

وكان خماوريه حريصا على كسب ود يازمان مستهدفا ان يدخل فى طاعته، وقد أثمرت هذه السياسة، على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان، ففى ٢٧٧ هـ أنفذ خمارويه إلى يا زمان ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحا كثيرا وكان لهذه الهدية أعظم الأثر فى نفس يازمان، فدعا لخمارويه في طرسوس، ودخل فى طاعته.

ولما توفى يازمان فى أحدى غزواته فى سنة ٢٧٨ هـ خلفه أبن عجيف الذى كتب إلى خمارويه يخبره بوفاة يازمان، فأقره خمارويه على ولاية طرسوس وأمده بالخيل والسلاح والذخائر وغير ذلك. وأشترك غزاه من مصر أرسلهم خمارويه مع العجيفى امير طرسوس فى غزوة بلاد الروم، نذكر منهم أحمد بن أبا، وبدر الحمامى، وطغج بن جف.

ولكن تبعية ثغر طرسوس للطولونيين لم تتجاوز سنة ٢٨٤ هـ، ففى هذه السنة أخرج أهل طرسوس عامل ابن طولون، ودعوا للخليفة العباسى المعتضد، ومنذ ذلك الحين أصبحت طرسوس ثغراً تابعاً للخلفاء العباسيين، وتوجه منه الدولة العباسية السفن والأساطيل لغزو البلاد البيزنطية، ففى سنة ٢٨٥ هـ غزا راغب مولى الموفق في البحر فغنم مراكب كثيرة، وقتل ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب. ويبدو أن الخلافة العباسية جعلت ثغر طرسوس قاعدة لأسطولها فى البحر المتوسط تولاها بعد راغب الذى نكبه الخليفة المعتضد فى سنة ٢٨٦ هـ دميانة البحرى غلام يا زمان، ودميانه هذا هو الذى أشار على المعتضد العباسى فى سنة ٢٨٧ هـ بحرق جميع المراكب البحرية التى كان يستخدمها المسلمون للغزو لشئ فى نفسه على أهل طرسوس، فأحرقت المراكب وجميع الآتها، وكان من بينها خمسون مركبا قديمة من نوع نادر لا يوجد نظيره فى ذلك العصر.فلما أحرقت مراكب طرسوس، أضر ذلك بقوة المسلمين. وقد لعب دميانة هذا دورا هاما فى القضاء على الدولة الطولونية، فعندما أرسل المكتفى العباسى محمد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سليمان الكاتب لمحاربة الطولونيين وأدالة دولتهم - زحف أبن سليمان إلى حمص، ومن هناك كتب إلى دميانة وهو بالثغر يطلب منه السير فى مراكبه إلى سواحل مصر، ودخول النيل وقطع المواد عن مصر. فقدم دميانه بأسطول عدته ١٨ مركبا حربية مشحونة بالرجال والسلاح، فأشتبك فى تنيس مع مراكب الطولونيين بقيادة وصيف القطرميز وخصيب البربرى وحماد بن ما يخشى الفرغانى فإنهزم هؤلاء، وسقطت دمياط وتنيس فى ايدى العباسيين، وهرب وصيف القطرميز قائد البحرية الطولونية.

ثم قدم دميانة من الثغر مرة ثانية فى مراكب الى الفسطاط سنة ٢٩٣ هـ وذلك عندما ثار أبن الخليج من دعاة الطولونيين على عيسى النوشرى الوالى العباسى، وتمكن دميانة من دخول الفسطاط. وبإستعادة العباسيين لمصر فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) أرتفع شأن القوة البحرية فى طرسوس وسواحل الشام

وقد لعبت طرسوس دورا هاما فى العصر العباسى الثانى للدفاع عن سواحل مصر من غارات الفاطميين عليها منذ سنة ٣٠١ هـ (٣١٩ م). فعندما أقبلت من المهدية ثمانون مركبا من مراكب الأسطول الفاطمى بقيادة سليمان الخادم ويعقوب الكتامى فى سنة ٣٠٧ هـ - (٩١٩ م) لتدعيم الحملة البرية، وأرست فى مياة الإسكندرية أرسل الخليفة المقتدر بالله الأسطول العباسى المرابط فى طرسوس، فقدمت منه ٢٥ سفينه مجهزة بالنفط والعدد بقيادة ثمل الخادم فأرست برشيد، ثم إشتبكت مع السفن الفاطمية فى مياه رشيد فى معركة بحرية عنيفة وقعت فى ٢٠ من شوال سنة ٣٠٧ هـ، ظفرت فيها مراكب المقتدر، وأحرقت كثيرا من سفن المغاربة. ويشير الكندى إلى أن ريحاً عاتية عصفت بمراكب الفاطميين فتحطمت وأسر يعقوب وسليمان، وقتل الأهالى البحريين المغاربة وعدتهم سبعمائة، وأبقى ثمل على رؤساء المراكب وعدتهم ١١٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٤)

البحرية في مصر والشام

في العصرين الطولوني والاخشيدي

حرص أحمد بن طولون على أنشاء قوة بحرية يعتمد عليهافى حماية سواحل مصر من جيش الموفق بالله أبى أحمد طلحة أخى الخليفة المعتمد على الله العباسى، الذى سيره إلى مصر بقيادة موسى بن بغا مستهدفاً صرف أبن طولون عن ولايتها، بالإضافة إلى أنه كان يهدف إلى إستخدام هذا الأسطول الحربى لدفع خطر الغارات البحرية التى يوجهها البيزنطيون على سواحل مصر والشام. فعندما بلغ أبن طولون نبأ مسير موسى بن بغا إلى الرقة وعزمه على قصد مصر للإحاطة بامارته، لم يجد بداً من تدعيم الدفاع عن مصر عن طريق اجراءين: الأول بناء حصن بجزيرة الروضة يتخذه معقلا لما له وحرمه، أتم بناءه فى سنة ٢٦٣هـ، والثانى أنشاء أسطول ترابط وحداته على سواحل مصر الشمالية وفى نهر النيل قريبا من الفسطاط، لحماية حاضرته القطائع. فاتخذ" مائة مركب بحرية سوى مايضاف إليها من العلابيات والحمائم العشارية والسنابك وقوارب الخدمة، وعمد الى سد وجه البحر الكبير، وان يمنع مايجىء اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح الى النيل، بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير خوفا مما سيجىء من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعد بأولاده (١). ومن دلائل أهتمام ابن طولون بالأسطول أنه أستقدم ملتزم الصناعة بالروضة ابا كامن شجاع بن أسلم الحاسب، وقال له:" كل ماتعمل لى من العدة فإنه

---

(١) المقريزى، الخطط، ج٣، ص٨٩. وراجع ايضا، البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤٩، ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق الدكتور زكى محمد حسن واخرين، ج١، القاهرة ١٩٥٣ص١٣٢ - السيوطى، حسن المحاضرةج٢ص٢٢٢هـ ، عبد المنعم ماجد . نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ج١، القاهرة ١٩٥٣، ص٢١٩.

يكتفى بالقليل مع تقدم هيبتى فى صدور الناس إلا المراكب، فإن البحر لا يتقينى ولا يخاف سورتى، وليس يعمل فيه إلا وثاقة الصنعة وتقديم الأحتياط، فقدموا الحزم فى المراكب، واستزيدوا من الإنفاق عليها تسلموا بتوفيق الله من معرة البحر (١).

ورث خمارويه عن أبيه هذا الأهتمام بالأساطيل، فأن ابن منكلى يذاكر أن " عدة المراكب المرصدة للجهاد فى أيام أحمد بن طولون مائة شينى، فلما مات وتملك ابنه خمارويه زاد فى عددها وعدتها". (٢). غير أن خلفاء خمارويه لم يولوا البحرية ذلك القدر من الأهتمام فكانت القوة البحرية فى عهدهم لا تتجاوز عددا محدودا من السفن، ولم يقدر لهذه القوة البحرية أن تلعب دورا فى تاريخ الأسرة الطولونية (٣)، بدليل أن الخلافة العباسية لم تستعن للقضاء على الدولة الطولونية الا بقوة صغيرة من الأسطول العباسى الذى كان راسيا بثغر طرسوس قوامها ١٨ مركبا حربيا مشحونة بالرجال والسلاح، يقودها أمير البحر دميانه البحرى (٤). بالإضافة الى الجيش البرى الذى كان ابن سليمان الكاتب يتولى قيادته وبدليل أن السفن التى غنمها

---

(١) ابن سعيد، المغرب فى حلى المعرب، ج١ص ٩٥.

(٢) محمد بن منكلى، كتاب الاحكام الملوكية والصوابط النموسية فى فن القتال فى البحر لوحة ٤١، الباب ٢٩، نسخة مصورة من المحطوطة، محفوظة بكلية الأداب جامعة الإسكندرية رقم٩م.

(٣) يدل على ذلك ماقاله محمد بن دواود لأحمد بن طولون وفية تحامل:

له مراكب فوق النيل راكسدة فما سوى القار للنظار والخشب

ترى عليها لباس الذل مذ بنيت بالشط منزعة من عرة الطلب

فما ساها لغزو الروم محتسبا لكن ساها عداة الروع والعطب

(المقريزى، الخطط، ح ٣ص ٩ – السيوطى، ح٢، ص٢٢٣).

(٤) الكندى، ص٢٤٥ – النحوم الزاهرة ، ج٣ص ١٠٩، ١٣٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العباسيون بعد الطولونيين لم تقو على مواجهة الأسطول الفاطمى الذى قدم إلى مياه الإسكندرية فى ٣٠٧ هـ مما اضطر الخليفة المقتدر إلى إرسال ٢٥ سفينة مزودة بالنفط والعدد من ثغرطرسوس (١).

ولما تقلد الإخشيد إمارة مصر دخل البلاد، وأقبل معه اسطول عباسى يقوده صاعد ابن كلمم إلى تنيس ودمياط، فتصدى له المغاربة وعلى بن بدر فى المراكب لمواجهة سفن ابن طغج فى النيل ومنعه من الوصول إلى الفسطاط وخلع ابن كيغلغ، وأنتهت المعركة بانتصار السفن العباسية فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ، وتمكن صاعد من الوصول الى جزيرة الروضة وإستولى على مافيها من السفن فى رمضان سنة ٣٢٣هـ (٢). ثم سارت مراكب صاعد إلى خليج الفيوم لمطاردة الفرقة المغربية بقيادة الثائر حبشى بن احمد. غير ان صاعد عجز عن الدوران بسفنه فى خليج الفيوم لضيقه، فوقع فى قبضة المغاربة فقتلوه، وظفروا بمراكبه، ثم عادوا بهذه السفن إلى الفسطاط، فأرسلوا بجزيرة الروضة حيث تقوم دار صناعة الروضة، فهاجموها وأحرقوا ماكان بها من السفن، وكان ذلك سببا فى قيام الاخشيد بنقل دار صناعة الروضة سنة ٣٢٥ هـ بين موقعها فى الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان بساحل الفسطاط.

أما عن نشاط البحرية الاخشيدية خارج مصر فللاسف لم تزودنا المصادر التاريخية بتفاصيل تستحق الذكر، وكل مانعرفه فى هذا الصدد نص أورده يحى بن سعيد الأنطاكى يتعلق بأحتفال كافور بإنزال عدد من السفن التى

---

(١) الكندى، ٢٧٦

(٢) الكندى، ص٢٨٦ - ابن سعيد، ص١٥٨

(٣) ابن سعيد، ص ١٦٠

(٤) يحى بن سعيد الانطاكى، صلة كتاب سعيد بن بطريق، الاب لويس شيخو، بيروت ١٩٠٩، ص١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تم صنعها في البحر، فذكر أنه ركب إلى دار الصناعة ليحتفل بطرح مركب حربى كبير في البحر، وحدث ان تجمع حشد كبير من المتفرجين على حافة مركب كان راسيا هناك، فلم يتحمل جانبه ثقل الناس فمال بهم وإنقلب بمن عليه فغرقوا. وتسبب جنح المركب فى غرق عدد من السفن كانت ملاصقة له، فقتل فى ذلك اليوم عدد كبير يصل الى خمسمائة رجل (١). ونستنتج من الموقف المتخاذل الذى وقفه إبو الحسن على بن الاخشيد فى سنة ٣٥٠هـ من أهل أقريطش عندما أستنصروه على البيزنطيين، وتقاعسه عن مساعدتهم باسطوله، وتضليله لأهالى مصر بإرسال بعض مراكبه فى البحر تظاهرا بخروجها لمعاضدة اهل اقريطش (٢)، يدل على أن البحرية الإخشيدية فى مصر على بن الاخشيد لم تكن فى حالة تسمح لها بالدخول فى أى حرب بحرية ولو على نطاق ضيق ضد البيزنطيين خاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن الأمبراطور رومانوس الثانى حشد كل طاقته البحرية وسخرها دفعة واحدة لإسترداد أقريطش، فاعد لهذا الغرض قوة بحريةلم يشهد البحر المتوسط لها مثيلا من قبل، تتألف من ألفى سفينة حربية وألف وثلثمائة وستين سفينة للمؤن والإمدادات (٣).

(١) يحى بن سعيد الانطاكي، صلة كتاب سعيد بن بطريق، الاب لويس شيخو، بيروت ١٩٠٩، ص ١١١

(٢) القاضى النعمان، قصية اقريطش فى عهد المعز لدين الله، ص٣٣.

(٣) Deihl, op.cit P.42 - ارشيبالد لويس، ص ٢٩٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

مصر في عصر الدولة الفاطمية

تمهيد

الدعوة الفاطمية

أستغل بنو العباس إسم الشيعة فى أسقاط الدولة الأموية، فلما ظفروا بالخلافة واستأثروا بالحكم دون العلويين وأقاموا دولتهم عل أنقاض الدولة الأموية. أحس العلويون بأنهم خدعوهم فأخذوا يناصبوهم العداء ولم يعدلوا عن المطالبه بحقهم فى الخلافة فى العصر العباسى الأول والثانى وقاموا بحركات ثورية كان من أثرها إنتشار المذهب الشيعى فى كثير من أطراف الدولة الإسلامية فأنتشر المذهب الإسماعيلى فى الكوفة والبحرين واليمن وشمال العراق وفارس والشام ومصر والمغرب.

وحدث بعد موت جعفر الصادق أنقسام بين الشيعة إلى طائفتين : الأمامية الاثنا عشرية والاسماعيلية.

١ - **الاثنا عشرية:** كان الشيعة عموماً يناصرون الأمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين وكانوا يعتقدون فى أن الأمام يكتسب هحه فى الأمامة بالوراثة عن على بن أبى طالب باعتباره خليفة النبى شرعا، ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبى عن فاطمة وكانوا بشترطون فى إختيار الأمام أن يكون اكبر ابناء أبيه سنا. فلما مات جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ خرجت جماعة من هذة الطائفة عن هذه القاعدة وأنقسم الشيعة إلى الاثنا عشرية والإسماعيلية وكان الأثنا عشرية يعتقدون فى أمامه موسى الكاظم بن جعفر الصادق (الأبن الاصغر) ولذلك سموا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم الذى يعتبر سابع أئمتهم ويسوقون الأمامة بعده إلى أعقابه حتى الإمام الثانى عشر محمد المنتظر بن الحسن العسكرى الأمام الحادى عشر ويقال أن محمدا هذا دخل سردابا فى مدينة سامرا ولم يخرج منه حتى الأن ويعتقد الأثنا عشرية أن محمدا سيظهر ويملأ الأرض عدلا ولذلك سموه محمد المنتظر وصاحب الزمان والقائم بالامر والحجة . ويعتقد اخرون من الأثنا عشرية أن الله قد أخفى الأمام الثانى عشر عن أعين الناس لسر لا يعلمه إلا هو وأن الأمام ما يزال حيا.

٢ - **الاسماعيلية:** هم أنصار الإمام أسماعيل بن جعفر الصادق وكان أكبر أبناء أبيه ومع ان هذا الإمام قد مات فى حياة ابيه سنة ١٤٥ هـ فقد إعتقد أصحاب هذا المذهب بامامه ابنه محمد المستور من بعده ومحمد هذا هو الإمام السابع عندهم ولذلك أطلق على هذة الطائفة إسم السبعية تمييزا عن الاثنا عشرية.

وقد إمتنع الإسماعيلية عن الاعتراف بأحقية موسى الكاظم فى الإمامة لأنه لا يجوز للإمامة أن تنتقل من أخ إلى اخ بل يجب أن تبقى فى إلاعقاب بإستثناء الحسن والحسين ولهذا لم يكن لاخوى إسماعيل عبد الله وموسى الكاظم حق فى الإمامة. ويرى بعض الإسماعيلية ان جعفر الصادق عهد بالإمامة الى موسى الكاظم تقية أى حفاظا لأولاده إسماعيل وهم الائمة الحقيقيون وذلك خوفا من ان يقوم العباسيون بقتلهم وموسى الكاظم فى نظر هؤلاء إمام مستودع أى أنه يتمتع بالإمامة فى حياته ولا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه.

هذا وقد جاء بعد محمد بن اسماعيل أئمة مستورون ظلوا يتداولون الإمامة فى الخفاء واحدا عن الآخر. ويرجع سبب إستتارتهم إلى ما ذهب إلبه الإسماعيلية من أن الإمام يجوز له أن يستتر اذا لم تكن لديه الوسيلة والقوة التى يظهر بها على أعدائه. والواقع أنهم نهجوا هذا السبيل حين

رأوا ما لحق بأتباع طائفة الموسوية أو الأمامية الأثنا عشرية من أضطهاد وقتل على أيدى بنى العباس (١). وفكرة سرية الدعوة فكره قديمة أستحدثها النبى حين دعا إلى الإسلام سراً في دار أبن الأرقم ثم أختفى فى الغار حين هدده أعداؤه لهذا عمد الأئمة الأسماعلية إلى الاستتار، والاختفاء عن الأنظار وسموا لذلك بالأئمة المستورين. وأعتمدوا على دعاة المذهب الإسماعيلى فى نشر الدعوة لهم سرا ليدرأوا عنهم نقمة العباسيين عليهم وأتخذ الدعاة الإسماعيلية دور الهجرة فى البلاد التى قاموا فيها بنشر المذهب الاسماعيلى.

---

(١) أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية فى الحجاز وبأخيه إبراهيم فى العراق سنة ١٤٥ هـ، وقتلوا الحسين بن على بن الحسن فى موقعة فخ بمكة سنة ١٦٩ هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على بن أبى طالب

١. الحسن «قتل مسموماً»

محمد بن الحنفية «الكيسانية»

٢. الحسين «قتل فى كربلاء»

٣. على زين العابدين «الأمامية»

الحسن

الحسن عبد الله

إدريس إبراهيم محمد «النفس الذكية»

زيد «قتل»

٤. محمد الباقر

يحيى «قتل»

٥. جعفر الصادق

٧. موسى الكاظم «الإثنا عشرية»

٨- على الرضا

٩- محمد الجواد

١٠- على الهادى

١١- الحسن العسكرى

١٢- محمد المنتظر

٦- إسماعيل «الاسماعيلية»

٧- محمد

٨- عبد الله الرضا

٩- أحمد

١٠- الحسين «سعيد بن محمد الحبيب»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدعاية الاسلامية في المشرق وإنتقالها الي المغرب:

وهكذا أمعن أنصار محمد بن اسماعيل فى التخفى والأستتارة بعد وفاة جده جعفر الصادق وأدرك محمد أستحالة بقائه فى المدينة بعد أشتهار امره فى عصر الرشيد ففر من المدينة وعرف منذ ذلك الحين بالإمام المستور ففر إلى السرى ومنها الى دماوند وإستقر بنيسابور حيث تزوج وأنجب ولده عبد الله الرضا الذى عهد اليه بالإمامة. ويعتبر محمد أبن إسماعيل أول الأئمة المستورين الذين ينتهون بظهور عبيد الله المهدى وقيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ وكان محمد بن اسماعيل يعتمد فى نشر دعوته على ميمون القداح الفارسي ولما توفى محمد بن إسماعيل خلافه فى الأمامة أبنة عبد الله الرضا فأتخذ عبد الله ميمون القداح داعية له. ويعتبر عبد الله بن ميمون هذا المؤسس الحقيقى للمذهب الإسماعيلى حتى أن بعض المؤرخين أعتقدوا أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه، وقد وصف المقريزى عبد الله فقال أنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب، وأنه أعتنق مذهب الشيعة لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل أبن جعفر الصادق أو أبنه محمد بل كان ذلك حيلة اتخذها ليجمع حوله أنصارا بمعنى أنه أتخذ هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه وهى تأسيس دولة فاطمية، وكان عبد الله ابن ميمون يتخذ الأهواز مركز لنشر الدعوة الإسماعيلية ثم فر إلى البصرة ثم رحل إلى الشام واقام فى سلمية حتى مات بها وخلافه فى رئاسه الدعوة الإسلامية ابنه أحمد وكان يلقب بأبى الشلعلع (سنة ٢٧٠هـ)، واصبح وصيا على سعيد أبن أخيه الحسين الذى يزعم بعض المؤرخين انه عبيد الله المهدى.

يعرف الإمام عبد الله الرضا عند الإسماعيلية بالإمام عبد الله الإكبر ولقد تتبعه العباسيون فى عهد المأمون مما اضطره الى الهرب مع ابنه أحمد ابن عبد الله الرضا ولي عهده فى الامامة فقصد اما زندران والأهواز ثم إتجها إلى سامرا ومنها إلى سلمية من أعمال حمص ولما توفى عبد الله

خلفه أبنه أحمد فى الإمامة وأتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له كما أتخذ ابوه من قبل واصبحت سلمية دار الهجرة الإسماعيلية المركز الرئيسى للدعوة. وظلت كذلك فى عهد الإمام الحسين بن احمد الذى إستطاع أن يقيم فى سليمة امنا مطمئنا دون ان يناله العباسيون بسؤ. وكان لكرم الحسين وبذله الأموال الكثيرة لسليمة وأمعانه فى التخفى أثره فى أنتشار الدعوة الإسلامية فى كثير من بقاع العالم الاسلامى.

ففى الأهواز قام الحسين الأهوازى بنشر الدعوة وسرعان ما أجابه اليها حمدان أبن الإشعث المعروف بقرمط (لقصر قامته) وساعدالحسين على نشرها وما لبث حمدان ان تولى نشر الدعوة فى الأهواز والعراق ولقيت الإسماعيلية على حمدان قرمط الإنتشار كبير بين العرب. وكان يفرض على الإسماعيلية مبلغا من المال لشراء الأسلحة سنة ٢٧٦ هـ وأقام الدعاة فى القرى من ثقانه. وكان عبدان صهر حمدان من أكبر دعاته وكان لبقا فطنا وصادفت الدعوة الإسلامية على يديه نجاحا كبيرا حتى ان أبا سعيد الجنابى مؤسس دولة القرامطة فى البحرين وزكروية بن مهدوية زعيم قرامطة العراق وبادية السادة أخذا عنه الدعوة ثم أختفى حمدان قرمط وقتل عبدان بعد عام ٢٨٠ هـ - كما سنذكر فيما بعد.

وفى اليمن قام رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى بمجهود هائل فى نشر الدعوة الإسماعيلية حتى أن أهل اليمن أعتقدوا فى ظهور المهدى من أولاد على. والواقع ان بعد بلاد اليمن عن مراكز الدولة العباسية ومناعتها وصعوبة الطرق الموصلة اليها بالإضافة الى اتخاذ اليمن وكر للخوارج والشيعة الزيدية كل ذلك كان سببا فى إنتشار الدعوة الإسماعيلية. وتمكن أبن حوشب من تشنيبد حصن بمدينة لاعة (مدينة على جبل نقع جنوبى صنعاء) واتخذ الحسن مركزاً لنشر دعوته واستطاع التغلب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على معظم أنحاء اليمن وأقام الحصون والقلاع فى سائر أرجائها وإنتصر على الوالى العباسى وعلى أمراء اليمن سنة ٢٧٠ هـ وعرف منذ ذلك الحين بمنصور اليمن وأصبحت اليمن مركزا للدعوة الاسماعيلية يمد بقية البلاد الإسلامية بالدعاة، فأرسل من دعاته إلى اليمامة والسند والهند ومصر والمغرب وكان أختيار المغرب موفقا لبعده عن مركز الخلافة العباسية وتذمر البربر من الحكم العباسى وكراهيتهم لولاتهم. وأنفذ أبن حوشب الى المغرب داعيتين هما أبا سفيان والحلوانى وقد أستطاع هذان الداعيتان بفضل جهودهما اثارة حماس البربر وأعجابهم بآل على والمهدى خاصة وكانوا مثقلين بالضرائب التى كان يفرضها عليهم الولاة فرضا مما أعدهم إلى تقبل المذهب الإسماعيلى.

ولما بلغ أبن حوشب داعى دعاة الإسماعيلية في اليمن نبأ وفاة هذين الداعيتين عهد إلى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة إلى هذا المذهب بالمغرب. وأبو عبد الله هذا هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا، واصله من أهل صنعاء وتولى الحسبة وبعض أعمال بغداد ثم سار إلى اليمن وهناك التقى بأبن حوشب وصار من كبار أصحابه وقد اختاره أبن حوشب لمهمته الكبرى لما توسمه فيه من الذكاء وما عاينه من العلم والمكر والدهاء. ويذكر أبن الأثير ان أبن حوشب قال له عند رحيله «ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك».

وأتجه أبو عبد الله إلى مكة وأعتمد على مكره ودهائه للتأثير فى النفوس وعمد إلى الإجتماع بحجاج كتامه من قبائل البربر وأجتمع بهم فأعجبوا بفصاحته وعلمه وصحبهم عند عودتهم عقب الحج إلى مصر ثم دعوه للاقامة ببلادهم لأداء رسالته فى طلب العلم ومازالوا وهو يتظاهر بالرفض حتى أجابهم بالقبول ووصل إلى بلاد كتامة فى ربيع الأول سنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٨٨هـ، وأقبل عليه أهل هذه البلاد ونجح فى كسب مودتهم وإجتذب إليه قبائل البربر، فأنتشرت الدعوة الإسماعيلية بفضله فى بلاد ساد فيها الجهل فصار الناس يتحدثون عن قرب ظهور المهدى وازداد التفاف الناس حوله بسبب ما كان يخبرهم به من أنه البشير بالمهدى. وكانت بلاد المغرب قد خضعت للعرب فى عهد الدولة الأموية وأسلم البربر وصدق إسلامهم وكان لتطرف هذه الأقاليم وبعدها عن مركز الخلافة أثر كبير فى أختيارها مسرحا للاحزاب المعارضة للدولة العباسية فى أول أيامها فأستقل المغرب عن الخلافة العباسية وتألفت فيه أربعة ولايات فى آن واحد، دولة الإدراسة بفاس دولة الرستميين بتاهرت ودولة الإغالبة بالقيروان ودولة بنى مدرار بسجلماسة وينبغى أن نلم بنبذة عن هذه الولايات حتى نستطيع أن نتتبع الحوادث.

دولة الادارسة:

نجح الشريف إدريس عبد الله بن الحسن فى الهروب من العباسيين بعد هزيمتهم للعلويين فى موقعة فخ بمكة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) وهى الموقعة التى قتل فيها الحسين بن على وأكثر أصحابه. هرب إدريس إلى مصر فى صحبة مولاه راشد ومنها تسلل إلى بلاد المغرب بفضل تستر واضح مولى صالح . وكان لتطرف هذه البلاد وبعدها عن مراكز الخلافة العباسية أثر كبير فى تحولها مسرحا للأحزاب المعارضة للحكومة. وأتفق وصول ادريس فى إمارة يزيد بن حاتم على إفريقية وهشام بن عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ونزل بوليلى من أرض طنجة سنة ١٧٢هـ وكانت مدينة قديمة أزدهرت فى العصر الرومانى وأصبحت حاضرة اقليم موريتانيا ومقر الحاكم الرومانى. وأستطاع إدريس بفضل فصاحته وبلاغتة التأثير فى نفوس البربر وكانو يلاقون تعسفا من حكام الخلافة العباسية فأقبلوا على مبادىء الخوارج التى تدعو إلى المساواة يعتنقونها لذلك لا نعجب حين نجدهم يرحبون بادريس

ودخلت في طاعته فعظم قبائل زناته وأوربة ومكناسة فمعظم امره وقويت شوكته وأمتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضى الواقعة غربى القيروان حتى المحيط الإطلسى ومات إدريس سنة ١٧٥ هـ مسموما وخلفه أبنه إدريس الثانى . وظلت هذه الدولة قائمة حتى ضعف أمرها عند ظهور الدولة الفاطمية.

دولة الاغالبة :

منح الرشيد ١٨٤ هـ (٨٠٠م) حاكم المغرب الأدنى (تونس) من قبله وهو إبراهيم أبن الأغلب حق الإمارة والإستقلال به وتوارثوه، نظير جزية سنوية قدرها ٤٠ ألف دينار وقد اتخذ إبراهيم بن الأغلب مدينة القيروان حاضرة له وأسس إلى جوارها مدينة القصر القديم على بعد ٣ أميال من القيروان.ومات إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦ هـ (٨١٢ م) وتولى بعده إبنه أبو العباس عبد الله (١٩٦ - ٢٠١ هـ) ثم أخوه زيادة الله بن إبراهيم سنة (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) وكان رجل بناء وتشييد فأهتم بتحصين البلاد وبنى للقيروان أسوارا وجدد بناء المسجد الجامع بالقيروان وبنى رباط سوسة وأهتم بتقوية الجيش وأرسل حملة بحرية الى صقلية بقيادة اسد بن الفرات الذى نجح فى الإستيلاء على صقليةسنة ٢١٣هـ (٨٣٥) وتولى بعد زيادة الله عده أمراء كان لهم أثر كبير فى نشر بذور الحضارة الإسلامية فى المغرب وقد أسسوا أسطولا عظيما فتحوا به جزر مالطة وسردانية وغزوابه شواطىء فرنسا الجنوبية وشواطئ إيطاليا وحاولوا أن يفتحوا رومه. وسقطت دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ على ايدى الفاطميين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دولة الرستميين:

ظهرت بالمغرب الإوسط (الجزائر) دولة على مبدأ الخوارج الإباضية مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسى الذى أتخذ مدينة تاهرت عاصمة له. وقد دامت دولته من ١٤٣ هـ الى ٢٩٥ هـ، حتى سقطت على إيدى الفاطميين وقتل اخر ولاتها وهو يقظان بن أبى اليقطان وأنقطع به ملك بنى رستم من تاهرت.

دولة بني مدرار:

إسسها عيسى بن الأسود من الصفرية سنة ١٤٠ هـ فى سجلماسة ثم تولى فيهم أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسى حتى مات سنة ١٦٨ هـ وتولى بعده أبنه إلياس وخلفه اليسع بن سيغون سنة ١٧٠ هـ وكان خارجياً على مبادىء الصفرية وأهتم بتعمير سجلماسة وأحاطها بسور من الحجارة والطوب وتوفى اليسع سنة ٢٠٨ هـ وخلفة ابنة مدرارو إليه تنسب دولة بنى مدرار. وقد إنقرضت دولة بنى مدرار بسجلماسة سنة ٢٩٦ هـ على يدى أبى عبد الله الشيعى.

قيام الدولة الفاطمية بالمغرب:

ظل أبو عبد الله الشيعى مواليا لسلمية يرسل رسلة وهداياه إلى الإمام الحسين ابن أحمد الذى كان يعرف ايضا بإسم سعيد بن محمد الحبيب وعبيد الله المهدى فيما بعد ورأى أبو عبد الله الشيعى أن يعمل على بسط نفوذ الفاطميين فى شمال إفريقيا بعد أن تكاثر الداخلون فى طاعته رغبة ورهبة وفوى أمره واستقام له أمر البربر. وعمل إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩) على القضاء على دعوته فبعث إليه بالحملات منذ سنة ٢٨٧هـ وكان إنتصار أبى عبد الله الشيعى فى هذه الحملات سببا فى

إزياد نفـوذه وتوسع سلطانـه الروحى عند البـربر. وفى سنة ٢٩١ بدأ فى مصـادمـاته الحربية مع الإغـالبة فسقط فى يده عدة مدن وساعد على ذلك وفاة إبراهيم الثانى بن الأغلب ووفاة أبنة أبى العباس عـبد الله فى السنة التالية وتولية أبنة زيادة الله الثانى سنة ٢٩٠هـ وكان ضعيفا تافها قضى أيامه فى اللهو والترف وتآمر على قتل أبيه عبد الله وتغافل عن مصالح البلاد إساءة السيرة. وقد ساعدت هذه الأسباب أبا عبد الله الشيعى على مد نفوذه على أكثرا جزاء دولة الأغالبة والمجاهرة بقرب ظهور المهدى. ولم تنقطع الحرب بين جيوش أبى عـبد الله وجيوش زيادة الله ثانى فيما بين عامى ٢٩١هـ و ٢٩٦هـ وتعد موقعة الأربس من المواقع الحاسمة التى أدت إلى زوال دولة الأغالبة بإفريقية وإستقرار نفوذ الفاطميين وأدت إلى فرار زيادة الله ودخول أبى عبيد الله الشيعى مدينة رقادة أستقر ابو عبد الله برقادة وأقام بدار الإمارة وأمر بقطع الخطبة عن الخليفة العباسى، وفى نفس الوقت كانت قد سقطت دولة الرستميين. وهكذا قامت الدعوة الفاطمية فى سائر أنحاء المغرب وكان ابو عبد الله الشيعى قد أنفذ الرسل إلى سعيد بن محمد الحبيب (المعروف بعبيد الله المهدى) فى سلمية يدعوه للحضور الى القيروان. ويذكر المقريزى فى الخطط" وسير أبو عبد الله بن محمد الحبيب الذى يقال أنه الحسين بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له وأنهم ينتظروه فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص.

شرع عبيد الله فى الرحيل إلى شمال إفريقيا مارا بمصر ولم يكد يعلم الخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) بذلك حتى اصدر أمره بالقبض عليه فتخفى عبيد الله فى زى التجار وأستغل الأموال التى حملها معه من سلميه فى رشوة بعض الولاة فى طريقه إلى المغرب. وإستطاع الأفلات من أيدى عمال زيادة الله الثانى الذين وضعهم لترصده والقبض عليه. ونجح فى الذهاب إلى سجلماسة عاصمة دولة بنى مدار بالمغرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأقصى. وظل عبيد الله فى بداية اقامته بالمدينة طليقا بفضل أغداقه الأموال على أصحاب السلطات بها وعلى الأخص أميرها اليسع بن مدرار آخر أمراء هذه الدولة. الا ان معاملة اليسع لعبيد الله مالبثت أن تغيرت بعد إنتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبة فقبض على المهدى وزج به فى السجن هو واتباعه. ولم تجد الرشوة نفعا فى سبيل الإفراج عنه. ومع ذلك فقد كان أبو عبد الله الشيعى يبعث إليه الرسل فى السجن متخفين فى زى القصابين.

فلما تم لأبى عبد الله القضاء على الاغالبة والرستميين تقدم على رأس جيش لإطلاق سراح المهدى من سجنه وما كاد اليسع يسمع بوصوله حتى فر من المدينة هو وأبنائه ليلا وتم أطلاق المهدى فى سجنه على الفور فى ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ وهو أبنه أبى القاسم الذى ولى الخلافة بعد أبيه ويزعم بعض المؤرخين أن أبو عبد الله الشيعى علم بقتل عبيد الله المهدى فى سجنه فسار على رأس جيشه إلى سجلماسة وأتى بيهودى زعم انه المهدى. ويمكننا الرد على هذا الزعم بأن أبا القاسم كان يصطحب أباه فى سجنه فلو كان هؤلاء المؤرخين صادقا لكان قد أعترض على تولية هذا اليهودى خاصة وأنه كان فى سن تتيح له أن يخلفه فى الامامة ويضطلع باعباء الخلافة.

وأتجه المهدى وأتباعه الى القيروان ودخل رقادة ونزل قصر أبن الأغلب ثم دخل القيروان وبويع بالخلافة وذكر أسمه على الخطبة وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين، وأقسم له رؤساء القبائل البربرية وعلى رأسهم كتامة على الطاعة له ثم دون الدواوين وعمل على توطيدأاركان الدولة الجديدة التى سميت بالدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة بنت الرسول وزوجة على وبالدولة العبيدية نسبة إليه.

وعمل عبيد الله المهدي على مد نفوذه شرقا فاعد جيشا سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) من المغاربة بقيادة ابنه ابى القاسم وحباسه بن يوسف احد زعماء كتامة وأستولى هذا الجيش على برقة ثم واصل السير وأستولى على الإسكندرية واتجه نحو الفسطاط ولكن الخليفة العباسى المقتدر بالله بعث مؤنسا الخادم على رأس جيش كبير هزم به جيش الفاطميين وأرغمه على العودة إلى المغرب. وقد أعاد عبيد الله الكرة مرة اخرى عام ٣٠٧هـ ولكنه فشل للمرة الثانية ثم إرسل حملة ثالثة سنة ٣٢١هـ كان نصيبا مثل نصيب الحملتين السابقتين.

ولقد أقام عبيد الله بالقيروان ولكنه رأى أن يقيم مدينة جديدة تكون حاضرة لدولته وهي عادة متبعه منذ الفتح الاسلامى، فقد رأينا كيف أن عمرو بن العاص أسس الفسطاط سنة ٢١هـ وكيف أسس سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة سنة ١٧ وكيف أقام عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ وأقام إدريس مدينة فاس ١٩٢ هـ وإبراهيم بن الأغلب مدينة القصر القديم سنة ١٨٥ هـ وإبراهيم بن أحمد مدينة رقادة سنة٢٦٣ هـ وعبد الرحمن رستم مدينة تاهرت سنة ١٦١هـ.

ففى سنة ٣٠٣ هـ أختط عبيد الله مدينة المهدية وسميت باسمه ويقول ابن عذارى فى ذلك" خرج عبيد الله من مدينة رقادة إلى تونس وقرطاجنة ونواحى البحر يرتاد موضعا ليتخذه دار مملكته، فوقع أختياره على جزيرة جمة فابتدأ بنيانها وهى التى تسمى المهدية".

وتقع المهدية على بعد ٦٠ ميلا من القيروان وقد عمرت المهدية فى أيام المهدي وايام ابنه وحفيده اسماعيل وظلت كذلك حتى انتقل المعز منها الى القاهرة سنة ٣٦٢هـ ثم ضعفت بعد ذلك . واقيمت بالمهدية زمن المهدي دار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للصناعة تصنع السفن والأجفان ومسجد جامع مازال قائما إلى يومنا هذا هو أثار دار الصناعة. وسنعيد الحديث عن المهدية عند الحديث عن حضارة الفاطميين في شمال أفريقيا.

وأخذ عبيد الله يوطد دعائم دولته في شمال المغرب فحارب صدينة وزناتة ثم بدأ المهدى يتنكر لأبى عبد الله الشيعى لما شاهده من تعاظم مكانته وأحس المهدى بطموحه هو وأخيه أبى العباس وعلم بما كانا يحيكانه من مؤامرات ضده، فأوعز إلى حباسة بن يوسف بقتل أبى عبد الله وأخيه أبى العباس وكمن لهما عروبة بموضع برقادة فلما مرا بذلك الموضع خرج عليهما فصاح أبو عبد الله بعروبة" لا تفعل يا ولدى " فقال له عروبه " أمرنى بقتلك من أمرت الناس بطاعته " وقتله ابا العباس فى ١٥ جمادى الثانى سنة ٢٩٨ وهكذا أقتدى عبيد الله المهدى بما فعله أبو جعفر المنصور من قتل أبى مسلم الخراسانى.

نسب الفاطميين:

لم يقطع المؤرخون المحدثون برأى حاسم فى نسب الفاطميين، ومازال هذا الموضوع مشكلة حيرت العلماء والمؤرخين، فذهب فريق من المؤرخين الذين يرون صحة نسبهم إلى على وفاطمة بنت الرسول وانتمائهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. وذهب فريق أخر إلى التشكك فى نسبتهم إلى هذا البيت.

ومن بين المؤرخين السنيين الذين أثبتوا صحة نسب عبيد الله إلى فاطمة، ابن الأثيرو ابن خلدون والمقريزى، ويذكر ابن الأثير أنه قابل بعض العلويين العالمين بالأنساب وناقشهم فى مسألة هذا النسب فلم يرتابوا فى أن الفاطميين من أولاد على. أما ابن خلدون، فقد دحض فى مقدمته أقوال من أكثرنسب الفاطمين إلى على وفاطمة فقال: ومن الأخبار الواهية مايذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات فى العبيد بين خلفاء الشيعة بالقيروان

والقاهرة من عليهم من أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن فى نسبهم إلى إسماعيل الإمام أبن حعفر الصادق، يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم، وتفننا فى الشماته بعدوهم".

ويستدل المقريزى فى كتابه المقفى الكبير على صحة نسب عبيد الله من ميل بعض أمراء المسلمين نحوهم مثل نصربن احمد السامانى أمير خراسان والذى بعثت الى المهدى يقول:" أنا فى خمسين الف مملوك يطيعوننى وليس على المهدى بهم كلفة ولا مؤونة فان أمرونى بالسير سرت إليه ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه وأمتثلت أمره".

وذكر المقريزى أيضا أن يوسف بن ابى الساج أمير الرى فكر فى خلع طاعة الخليفة العباسى المقتدر والدخول فى طاعة الإمام العلوى بالقيروان. ويضيف المقريزى الى ما سبق أن مرداويح بن زياد الديلمى أحد قواد الاصفر أمير قزوين الذى طرد الأصفر وأستولى على بلاده، ثم فتح الرى وأصبهان أنفذ بعض الرسل محملين بالمال الكثير للمهدى بشمال افريقية واعلن عن رغبته فى الدخول فى طاعته. واختتم المقريزى حديثه عن ميل هؤلاء الأمراء إلى المهدى ونذكرأن المهدى ظن أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب معونة هؤلاء الامراء. وقال المقريزى:" فوقع المهدى على ظهر كتبهم" الزموا مراكزكم لكل اجل كتاب.

وهناك فريق من الشعراء قال بصحبة نسب الفاطميين إلى على وفاطمة تخص بالذكر منهم أن هانىء الأندلسى شاعر المعز ومنهم الشاعر الشريف الرضى (المتوفى سنة٤٠٤ هـ) الذى أنشد قصيدة أعتز فيها بنسب الفاطميين وقد أثارت هذه القصيدة عليه حنق الخليفة العباسى القادر لأنه أمتنع عن توقيع محضر طعن فيه المجتمعون فى نسب الفاطميين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويعتقد أغلبية الاسماعيلية أن نسب عبيد الله المهدى إلى على وفاطمة صحيح وأتفق هؤلاء على أن عبيد الله المهدى أبن الأمام المستور الحسين بن أحمد بن عبد الله أبن محمد أبن إسماعيل بن جعفر الصادق، بينما يعتقد فريق أخر أن عبيد الله المهدى يتصل بعلى وفاطمة عن طريق موسى الكاظم فاعتبروه أبنا للحسن العسكرى.

ويميل فريق المؤرخين الأوربيين الي القول بأن نسب الفاطمين الى على وفاطمة صحيح ومن هؤلاء وستنفلد Wustenfeld. كذلك يميل دى ساسى فى كتابه Expose de la religion des Druze (باريس ١٨٣٥) إلى الأخذ بذلك.

أما المؤرخون والكتاب الذين شكروا فى نسب الفاطميين إلى أعلى وفاطمة فمنهم من يذهب الى القول بأن عبيد الله ينتمى الى الدعاة لا الى الأئمة. ويرى عريب ابن سعد صاحب كتاب صلة تاريخ الطبرى أن عبيد الله المهدى ينتمى إلى أحد الزنادقة الذين قتلهم المهدى العباسى أو أنه من سلالة احد الدعاة الذين قاموا بنشر الدعوة لآل البيت وقد ايده ابن النديم فى الفهرست والنويرى فى كتابه نهاية الارب فى فنون الادب، وذكروا أن عبيد الله ينتمى إلى ميمون القداح وانه يعرف باسم سعيد بن الحسين بن احمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوى الاهوازى واصله من المجوس.

ويزعم بعض من يطعن فى نسب الفاطميين أن عبد الله بن ميمون القداح أظهر الزهد والتقشف والعلم والتشيع فحاز ثقة الناس فيه، ونجح حفيده سعيد بن الحسين ابن أحمد في تأسيس الدولة الفاطمية بالمغرب ويحتجون على ذلك بان أبن خلكان ذكر أن جماعة من أهل مصر طعنوا فى نسب المعز وأتصاله بعلى بن أبى طباطبا وأن أبن طباطبا سأله إلى من ينتسب مولانا؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأجابه المعز بأنه سيعقد مجمعاً يضم كافة الاشراف ويسرد عليهم نسبه فلما أنعقد المجلس في القصر سل المعز سيفه وقال هذا نسبي. ثم نثر عليهم الذهب وقال هذا حسبي.

إلا أن دي سلان انكر صحة هذه الرواية محتجا بأن المعز وصل الى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) بينما مات ابن طباطبا سنة ٣٤٨ (٩٥٩ هـ) وذهب فريق من الاسماعيلية إلى القول بأن الحسين أبن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق تنازل عن أمامته طواعيه لسعيد الخيربن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح الذى عرف فيما بعد بعبيد الله المهدى فى نظير ردها لأبنه أبى القاسم إذا بلغ السن التى تؤهله للأمامة. [١]

ولا نعتقد فى هذا الرأى لأن الإمام الحسين بن أحمد كان يحرص على أن تظل الإمامة فى اعقابه ولا يعقل أنه ينزل عن إمامته لاحد دعاته خشية أن يقوم بالدعوة لنفسه، ويغتصب الخلافة فى الوقت الذى نجح فيه دعاة الإسماعيلية فى نشر الدعوة الفاطمية فى كثير من أقطار العالم الإسلامى.
ومن المؤرخين الاوربيين المحدثين ممن ينكرون نسب الفاطميين نيكلسون Nicholson فى كتابه ودوزى Dozy
ويعتقدأن عبد الله أبن ميمون القداح هو مؤسس مذهب القرامطة وأنه جد الخلفاء الفاطميين.

وهكذا أتخذ العلماء والمؤرخون من نسب الفاطميين مادة للنقاش والبحث، وأخذ البعض منهم يؤيد أو يطعن فى هذا النسب وفقا لإهوائه وميوله، وحسبما يتراءى له. ولاشك لدينا فى إنتساب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء، إذا أن العداء بين العباسيين والعلويين قد دفع ببعض الكتاب ومؤرخى المسلمين السنيين إلى الطعن فى نسبهم أرضاء لبنى العباس، ومع

ذلك فقد شهد عدد من المؤرخين السنيين أمثال المقريزى وابن خلدون بصحة نسب الفاطميين، وهو دليل قاطع على أفتراء الطاعنين فى النسب. ثم أن أستتار الائمة الإسماعيلية وعدم جهرهم بالدعوة خشية بطش العباسيين قد حفظ الامامة الإسماعيلية من الإنقراض وحمل بعض الكتاب فى نفس الوقت على اثارة الأقاويل عن عدم صحة نسبهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

مصر في عصر الدولة الفاطمية

أولا

قيام الدولة الفاطيمة في المغرب

كانت قيام الدولة الفاطمية فى المغرب أنقلابا فى التاريخ الإسلامى لأن نجاح الشيعة الإسماعيلية فى اقامة خلافة لهم فى المغرب بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة، وكان هذا الفشل نتيجة لإنقسامهم على انفسهم وتفككهم، وكان لهذا النجاح الذى أحرزه الفاطميون آثار حاسمة فى تقرير مصير بلاد المغرب لأمد بعيد، فأن المغرب الإسلامى رغم إنفصاله عن الدولة العباسية كانت تغلب عليها السنية، ذلك لان المذهب الأباضى وهو مذهب المعتدلين من الخوارج كان لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة حتى عد مذهبا خامسا، وهذا يفسر كيف أن إمارة سجلماسة الصفرية كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية ببغداد، كما أن دولة الأدارسة في فاس، على الرغم من كونها دولة علوية إلا أن الإدارسه كانو معتدلين بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة، مما دعا إلى تسمية هذه الد لة الهاشمية، شأنهم فى ذلك شأن العباسيين، وعلى هذا قامت فاس وتاهرت وسجلماسة بنشر الإسلام فى المغرب الاقصى والاوسط، وبذل حكام هذه العواصم الثلاث جهدا صادقا للقضاء على هرطقات البربر فى المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى وخاصة هراطقة برغواطة. فقيام الدولة الفاطمية فى المغرب هو فى الواقع انقلاب خطير أدى إلى قطع علاقة المغرب بالمشرق وبالخلافة العباسية ببغداد، وقبل أن نتحدث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب لابد أن نذكرأن هناك مرحلتان لنشر دعوة الإسماعيلية فى هذه البلاد : الأولى مرحلة الأعداد للدولة وتكوين الأنصار والمشايعين

للمذهب الإسماعيلي في المغرب. والثانية، مرحلة الصدام المسلح مع الدويلات القائمة في المغرب.

١ - مرحلة الإعداد للدولة :

كانت بلاد اليمن مركزا هاما للدعوة الشيعية، لبعدها عن مركز الخلافة العباسية ومناعتها ووعورة الطرق والمسالك الموصلة اليها، وأقربها من الحجاز مجمع الحجاج ولقد كان القائم بالدعوة الإسماعيلية (١) رجلا من الكوفة أسمه رستم بن الحسين بن فرج أبن حوشب الذى عرف بمنصور اليمن لإنتصاره على الوالي العباسي وعلى أمراء اليمن. وكان أبن حوشب يبعث الدعوة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر المغرب، وجاء اختيار المغرب موفقا لبعده عن مركز الخلافة وتزمر البربر من الحكم العباسي، ولهذا كانت أرض المغرب تربة صالحة لغرس الدعوة الشيعية. وكان الإمام جعفر الصادق قد اتخذ إلى المغرب داعيتين هما: الحلواني وأبو سفيان، فأنتشرت الدعوة الشيعية بفضلهما بين قبائل البربر. ولما بلغ ابن حوشب نبأ وفاة هذين

(١) هم القائمون بامامة إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٨)، وكان أكبر أبناء أبيه ومع أن الإمام إسماعيل مات فى حياة أبيه فقد اعتقد الإسماعيلية بإمامة أبنه محمد المكتوم من بعده ، ومحمد هذا هو الامام السابع عندهم ولذك اطلق على الإسماعيلية أسم السبعية تمييزاً عن الأثنى عشرية،وقد إمتنع الإسماعيلية عن الإقرار باحقية موسى الكاظم فى الإمامة لانه لا يجوز للإمامة أن تنتقل من أخ الى أخ بل يجب ان تبقى فى الاعقاب باستثناء الحسن والحسين - ويرى بعض الإسماعيلية إن الإمام جعفر الصادق عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقية إى حماية لاولاد اسماعيل وهم الائمة الحقيقيون خوفا من ان يتتبعهم العباسيون بالقتل وموسى الكاظم فى رأيهم وهو إمام مستودع أى انه يتمتع بالإمامه فى حياته ولا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه. وجاء بعد محمد بن إسماعيل أئمة مستورون درءاً لنقمة العباسيين، ويستمر دور الستر فى اعقاب محمد المكتوم حتى عبيد الله المهدى. أما الاثنا عشرية فامامهم السابع موسى الكاظم والثامن على الرضا ثم محمد الجواد ثم على الهادى ثم الحسن العسكرى وأخرهم الإمام محمد المنتظر الذى يقال أنه دخل سردابا فى مدينة سامرا ولم يخرج منه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الداعيين عهد إلى أبى عبد الله الشيعى بالدعوة فى الاسماعيلية فى بلاد المغرب، فخرج إلى مكة، والتقى ببعض رؤساء كتامة أيام الحج، فما زال يستدرجهم ويخاطبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم والجدل حتى سلبهم عقولهم، فلما حان موعد عودتهم الى بلادهم دعوه الى بلادهم ليعلم بها، ونزل ببلاد كتامة فى منتصف ربيع الاول سنة ٢٨٨ هـ وأخذ أبو عبد الله الشيعى يضع لاهل كتامة من الأحاديث والتنبؤات بظهور المهدى ويستخدم السحر والطلاسم حتى أستثار حماسهم فالتفوا حوله، ودخلت قبائل كثيرة فى الدعوة، فجعل لهم ديوانا، وقال لهم أنا لا أدعوكم لنفسى وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت"

واستقام أمر أبى عبد الله بكتامة وما والاها وكثر الداخلون فى دعوته من البربر، فقوى أمره واستفحل خطره، واحسن بقوته، وبدأ الامير الاغلبى ابراهيم بن أحمد(٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ) يخاف هذه القوة الجديدة ويعمل لها حسابا كبيرا. فكتب اليه يتهدده فرد عليه الشيعى بقوله: "أما ما ذكرت من التهديد فما أنا من يروع بالابعاد، وأما تخويفك اياى برجال ذولتك ابناء حطام الدنيا، فانى فى أنصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين مع قول اله (كم فئة ضئيلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله مع الصابرين)، وإما ما أطمع به ديناره فلست من أهل الطمعفيما عنده، أنا بعثت رسولا لامر حسم، وتقرب وانحاز وعد من الله سبق والله لا يخلف الميعاد".

٢ ـ مرحلة الصدام المسلح :

وتبدأ من سنة ٢٨٩ هـ وتنتهى باسقاط الاسماعيلية الاغالبة والرسنميين سنة ٢٩٦ هـ. وشرع أبو عبد الله الشيعى فى سنة ٢٨٩ هـ فى مصادقات الحربية مع الاغالبة، وتمكن من ايقاع الهزيمة بجيش الاغالبة فى طبنه. وكان الامير أبو العباس عبد الله قد قتل فى سنة ٢٩٠ هـ بلعاز من ولده زيادة الله: وخلفه هذا الأخير (٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ) وكان لاهيا عابثا فعكف على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذاته ولهوه ومعاشرة المضحكين والملن داخل بشئون دولته. وفي هذه الاثنا ء كانت جيوش ابي عبد الله الشيعي قد أنتشرت في البلاد التونسية وتمكنت هذه الجيوش من سحق قوات زيادة الله في موقعة كيفونة سنة ٢٩٢ هـ، وعلى أثر هذا الانتصار كتب الشيعي إلى عبيدالله المهدي بسلمية من أرض حمص يبشره بما فتح الله عليه ويدعوه للحضور لتسلم دولته، وكان انتصار الشيعي في كينونة فاتحة انتصارات شيعية جديدة فدخل سطيف وهدمها ثم أستولي في سنة ٢٩٣ هـ على بلزمة وطبنه، وفي العام التالي باغاية الامان، ثم افتتح قرطاجة وتبسة وقسنطينة. وفي سنة ٢٩٦ هـ سقطت الاربس في يده، وعلى أثر ذلك فر زيادة الله إلى مصر ،فدخل أبو عبد الله الشيعي مدينة رقادة عاصمة الاغالبة في رجب سنة ٢٩٦ هـ وبسقوط رقاده سقطت دولة الاغالبة

وكان المهدى قد تنكر في زي تاجر وقدم إلى مصر إرتحل إلى القيروان ومنها إلى قسنطينة فسجلماسة، وفي هذه المدينة اكرمه أميرها اليسع: مدرار دون أن يعرف أنه المهدى، فلما أكتشف اليسع إمره زج به في السجن هو وولده أبا القاسم. فلما علم أبو عبد الله الشيعي بذلك سار الى سجلماسة لتخليصها ، ومر في طريقه بتاهرت فأستولي عليها وقضى على الدولة وقضى على الدولة الرستمية وتابع سيره إلى سجلماسة فحاصرها ودخلها وأخرج المهدى وولده من السجن. ويذكر المؤرخون انه عندما ابصر المهدى ترجل وخضع بين يديه من فرحته بهذا اللقاء، ثم أنه مشى أمامه راجلا حتى أنزله بالمخيم وسلم إليه الأمر وقال لمن معه :" هذا مولاى ومولاكم، قد انجز الله وعده، وأعطاه حقه وأظهر لأمره ." وأقام الشيعي مع عبد الله أربعين يوما بسجلماسة ثم رحلا إلى القيروان، فوصلا رقاده في ربيع الأول سنة ٢٩٧، وهناك خرج أهل القيروان من الفقهاء ووجوه المدينة لإستقبال المهدى ، فهنأوه بالوصول وبويع للمهدى في رقادة البيعة العامة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين وإستقام له الإمر وضربت له السكه، وبعث العمال على البلاد وولى القضاة وأسند المناصب إلى رجال ثقاة.

- خلافة عبيد الله المهدي:

استن عبيد الله المهدى سياسة هدفها تركيز السلطات وجمعها فى يده وكف يد أبى عبد الله الشيعى عن الإستبداد به والتحكم فى أمره، فعظم الأمر على أبى عبد الله الشيعى وأخيه، فأخذ يدعو الناس فى السر إلى خلع المهدى ويطعن فى خلافته ، وحاول أن يقنع الناس بأنه ليس الإمام المعصوم وزعم لهم أن للمهدى الصحيح علامة وهى أن بين كتفيه مكتوب (المهدى رسول الله) . وبلغ المهدى أن أبا عبد الله الشيعى وأخاه يتآمران عليه فعزم على قتلهما ، فأمر عروبة بن يوسف وأخاه حباسة بقتلهما ، فترصد بهما فى موضع يمران فيه إلى القصر، فلما مرا بذلك الموضع حملا عليه، لما هم عروبة بقتل أبى عبد الله قال له هذا: لا تفعل ياولدى، فقال له عروبه :" أمرنى بقتلك من امرتنى بطاعته، وانخلعت له من الملك بعد توطئته "ثم اجهز القاتلان عليهما فى أول ذى الحجة سنة ٢٨٩ وظلا صريعين على صف الحفير إلى أن أمر المهدى بدفنهما ، فدفنا فى الجنان ومصرع ابى عبد الله الشيعى على هذا النحو شبيه بمصرع أبى مسلم الخراسانى داعى دعاة العباسيين فى خراسان.وقد أثار قتل أبى عبد الله الشيعى فتنة كبيرة قام بها أتباعه، ويذكر المؤرخون أن من كان حول رقادة من كتامه اظهروا الخلاف على عبيد الله المهدى وقدموا على انفسهم حدثا يعرف بالمارطى وأسمه كادو بن معارك وجعلوه قبلة يصلون اليها ، وكتبوا كتابا فيه شريعه زعموا أنها أنزلت على أبى عبد الله، وزعموا أن هذا الطفل هو المهدى المنتظر ، فأمتدت هذه الحركة فى جميع بلاد الزاب، وقوى أمر هذا المهدى، واشتدت شوكته، فسير عبيد الله عسكرا حاربوهم، ولكن احد قادة الجيش الفاطمى أنضم إلى الثوار مع فرقة من مائتى رجل،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاضطرا المهدى إلى تسيير حملة قوية بقيادة أبنه أبى القاسم إلى بلاد كتامه لمحاربة المارطى وأتباعه فأفتتح قسنطينة وغيرها من أرض كتامة وتمكن أبو القاسم من إيقاع الهزيمة بالكتاميين فى عدة مواقع، وقبض على المارطى وجماعة من شيوخ كتامة، فطوفوا فى القيروان على الجمال وعليهم القلانس الطوال المشهرة بالقرون والمصافح، ثم قتلوا بمدينة رقاده.

وثار أهل طرابلس الاباضية فى سنة ٣٠٠هـ على عامل المهدى واسمه ماقنون الأجابى ففر ماقنون وأمتنع اهل طرابلس داخل مدينتهم، وقدموا على أنفسهم محمد بن أسحق المعروف بابن القيلين، فأرسل عبيد الله أبنه أبا القاسم لإسترجاع طرابلس وأخماد الفتنة، ووجه إليها عبيد الله ١٥ مركبا احرقها أهل طرابلس. اما ابو القاسم فقد هزم أهل هوارة ثم حاصر طرابلس وقطع عنها المؤن والأقوات فإستسلموا لإبى القاسم على الأمان. وأشترط عليهم نظير ذلك ان يسلموا اليه ثلاث من زعماء الثورة حملهم معه إلى رقادة حيث قتلوا، وأغرم أهل طرابلس مبلغا قدره ٣٠٠ ألف دينار.

وكان لقيام الثورات على عبيد الله أثر كبير فى قيامه بتأسيس مدينة يتخذها عند الشدة وملاذاً فى أوقات الفتن. ويذكر أبن خلدون أنه قال: بنيتها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار"إذ أن مدينة رقادة بوقوعها فى وسط سهل فسيح كانت عرضة للغزو من كل جانب، فآثر أن يتخذ عاصمة تقع على البحر حتى تكون قاعدة لمحاولاته المستقبلية لغزو مصر أو الأندلس، والواقع أن أهل المغرب خاب أملهم فى المهدى إذا أتضح لهم أن الوعود التى وعدهم بها أبو عبد الله الشيعى عن إنقطاع الفساد بخلافة المهدى وحلول عهد العدل والإنصاف لم تكن سوى سرابا، فبالإضافة إلى البدع الدينية الجديدة من إعلان عصمة الإمام وتقديسه وتناول بعض الشعائر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير وتجريح كبار الصحابة وأئمة الإسلام. - مما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - كما نهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة على عكس ما بشر به الداعي فى أول الأمر، فأشتطوا فى جمع الضرائب وتفننوا فى تنويعها حتى فرضوا على الحجاج جميعا أن يمروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج. بل أن أقدام المهدى على مكافأة مؤسسى دولته وصاحب الفضل الأعظم فى إمامته بالمغرب بالقتل كان له أسوأ الأثر فى نفوس البربر مما حملهم على الثورة عليه كما رأينا وأصبح المهدى فى نظرهم شبيها بأبى جعفر المنصور الذى قتل أبا مسلم الخراسانى سيف دولته. وعلى الرغم من نجاح قادة المهدى فى أخماد نيران الثورات المشتعلة فى كل مكان، فقد أحس المهدى فى قرارة نفسة بعدم الأطمئنان فى بلاد المغرب وأدرك أنه إذا كان قد نجح هو فى فرض سيادته على المغرب فان خلفاءه سيخفقون أو على الأقل سيواجهون متاعب كثيرة.

وكان المهدي يفكر في أمرين:

الأول: تأسيس مدينة يعتصم بها، وتكون مركزا لعملياتة الحربية المقبلة.

الثاني: محاولة فتح مصر أو الأندلس، ونقل الخلافة الفاطمية لها.

فخرج المهدى يرتاد موضعا لبناء المدينة المذكورة فى سنة٣٠١هـ، فمر بتونس وقرطاجنة، حتى وقف على موضعها بين سفاقس والمنستير، فى جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند، وقد وصفها البكرى بأن البحر يحيط بها من جميع جهاتها إلا الجانب الغربى، وفيه بابها. وللمهدية بابان من حديد لا خشب فيهما، عليهما رسوم حيوانية. وجلب عبيد الله إليها الماء من قناة تمتد ما بين قرية مشانس والمهدية. وأقام لها مرسى للسفن منقور فى صخر صلد، يسع ٣٠ مركبا، وشيد على المرسى برجين بينهما

سلسلة من الحديد يغلق بها بعد دخول السفن، وذلك تحصينا لها حتى لاتتطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها، وشيد بها أيضا دارا للصناعة نقرت في الجبل تسع مائة سفينة حربية كبيرة، وفيها قبوان كبيران لوقاية السفن من الشمس أو المطر، وزود المدينة بالمراجل وصهاريج المياة والأهراء، وبنى بها القصور، فلما أسس المهدية قال: " أمنت اليوم علي الفواطم وقد أكتمل سور المهدية، ونصبت به الأبواب الحديدية في ربيع أول سنة ٣٠٤ هـ. وأنتقل إليها في ٨ شوال سنة ٣٠٨ هـ، وأقام بها، وعمرت المدينة بالأسواق وأصبح لها أرباض كثيرة عامرة مثل ربض زويلة، وكان أقرب أرباضها إلى قصر الخليفة، وربض الحمة، وربط قفصة. ثم أمر المهدي بعد ذلك ببناء مدينة بجوار المهدية سماها زويلة نسبة إلى أحدى قبائل البربر، وجعل بين المهدية وزويلة ميدانا فسيحا، وحوط زويلة بسور وأبواب وحراس، وأسكنها تجار بأسرهم وعائلاتهم، وقال:"انما فعلت لامن غائلتهم، وذلك لأن والهم عندي وأهليتهم هناك، فان أرادوني بكيد، وهم بزويلة كانت والهم عندي، فلا يمكنهم ذلك وان أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك، وبنيت بيني وبينهم سورا أبوابا، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا، لأني افرق بينهم وبين حرمهم نهارا.

أما الأمر الثاني الذى فكر فيه المهدى فهو محاولة فتح مصر والأندلس فقد رأى المهدى بعد أن امتد نفوذه في بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لأن تكون مركزا لدولته، مفضلاً عن ضعف مواردها كان يسودها الأضطراب، وتشتعل فيها الثورات من حين لاخر، فتطلع بنظرة إلى مصر والأندلس لوفرة ثرواتهما، وأخذ المهدى يجس النبض، ويتأهب للهجوم أما شرقا نحو مصرا وشمالا نحو الأندلس. فبدأ توجيه حملاته على مصر منذ عام ٣٠٠ هـ، وقد كشفت الحملة الاولى، على الرغم من فشلها، عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية، بفضل الجهود التي بذلها دعاة الإسماعيلية فيها كأبي على الداعي. وفى نفس الوقت أرسل دعاته وعيونه

إلى الإندلس. أما الدعاة فلنشر الدعوة الفاطمية هناك وتمهيد البلاد قبل فتحها لقبول المذهب الإسماعيلى، وأما العيون فلاستطلاع احوال الاندلس وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها ومن هؤلاء العيون والجواسيس المشارقة الذين دخلوا الاندلس قبل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب، ثم خدموا عبيد الله المهدى بعد ذلك، وزودوه بكثير من المعلومات عن أوضاع الأندلس الإجتماعية وأحوالها السياسية، أبو اليسر الرياضى (ت.سنة ٢٩٨هـ) . وأبن هارون البغدادى الذى تولى الكتابة للمهدى بعد وفاة أبى اليسر الرياضى، بالإضافة إلى منصب رئيس ديوان البريد. ومن الجواسيس الذين قاموا بدور هام فى الأندلس إبن حوقل النصيبى (ت. سنة ٣٦٧هـ)، وقد دخل الأندلس ليستطيع أحوالها. ويسجل ملاحظاته عن أوضاعها الإجتماعية والإقتصادية والعمرانية والعسكرية. ولكن هذه الجهود التى قام بها عبيد الله وخلفاؤه من بعده حتى عهد المعز، لم يكتب لها نجاح كبير، فأن الدعوة الفاطمية التى مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم فى الاندلس، لم تجتذب الا عدداً محدودا من الأنصار والمشايعين من أهل الفكر الاندلسى، نخص بالذكر منهم أبن أبى المنظور الذى ولى القضاء لإسماعيل المنصور (٣٣٤ - ٣٤١هـ)، والشاعر الألبيرى أبن هانىء الأندلسى (ت.سنة ٣٦٢) الذى طرد من الأندلس حين تكشفت ميوله الفاطمية، فإلتحق بخدمة المعز الفاطمى، ومنهم القائد على بن حمدون الجذامى المعروف بأبن الأندلسى الذى قدم الى المغرب، وإتصل بالمهدى وبابنه من بعده، وقد عهد إليه عبيد الله ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣هـ،، وسماها المحمدية فى وسط أرض بنى برزال وبنى كهلان، قريبا من هوارة، وقد عقد له القائم بالله على المحمدية، بعد أختطاطها، فبناها وحصنها وشحنها بالأقوات، فكانت مدداً للمنصور فى حصار صاحب الحمار أبى يزيد بن كيداد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رد الفعل الاموي ضد مطامح الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في تحولهم نحو مصر:

كان عبد الرحمن بن محمد الأموى يتتبع فى تيقظ الخطوات التى يخطوها الفاطميين لبسط سلطانهم مذهبيا وعسكريا على الأندلس، فإضطر إلى الوقوف أمام مطامع الفاطميين في بلاد موقفا صارما، ويدأ يحاربهم ليس بنفس السلاح الذى يحاربونه به فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاء، وبأعمال إيجابية حاسمة، أثبت أنه بحق من أعظم رجال السياسة فى العصور الإسلامية الوسطى.

وتتلخص هذه الأعمال فيما يلي:

(أ) بث العيون والوسطاء فى أنحاء المغرب، قد تمكن هؤلاء العيون من تزويد حكومة قرطبة بمعلومات قيمة عن نوايا الأندلسيين الذين توطنوا المغرب منذ القرن الثالث. وقد كانوا من الحزب المعارض للفاطميين، ولذلك تعرضوا لسخطهم ومنهم أبو جعفر محمد بن خيرون الأندلسى المعارض للفاطميين، صاحب المسجد الشريف الذى أسسه القيروان فى سنة ٢٥٢هـ، وصاحب الفنادق المجاورة للسجن، وقد امر المروزى، قاضى القيروان، بقتله، ومنهم ابو على حسن بن الجعفر بن مفرج الفقيه، ومحمد الشذونى الزاهد، وقد أمر عبد الله المهدى بقتلهما لتفضيلهما الصحابة على على.

(ب) فى سنة ٣٠٢هـ، وصل إلى الجزيرة الخضراء ووزع أساطيله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الأندلس حتى يمنع وصول الإمدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الخارج عليه، خاصة وأن أن ابن حفصون كان قد أرسل بيعته الى المهدى، وأخذ يدعوله فى منطقة نفوذه بالأندلس. وقد أهتم عبد الرحمن ابن محمد بالأساطيل البحرية أهتماماً جدياً، فعمل على أنشاء أسطول قوى يدافع عن الأندلس الأخطار التى يتعرض لها من غارات النورمانديين والغزو

الفاطمي على السواء وينازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط، ويذكر ابن خلدون أن أسطول الأندلس أنتهى في أيامه إلى نحو مائتى مركب. وقد تولى قيادة هذه الأساطيل القائد ابن رماحس، وكان مرفؤها للحط والإقلاع مدينة المرية، القاعدة البحرية الرئيسية للأندلس، وكانت دار الصناعة فيها تقوم بانتاج السفن والعدة والألات اللازمة لها وما ويقوم به الاسطول. ويعتبر الخليفة عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقى للأساطيل فى الأندلس، فقد قام بأنشاء دور الصناعة والأنشاء فى طركونة، والمرية، والجزيرة الخضراء، ومالقة، ميورقة، ولقنت وشلب، وإستخدم لذلك الغرض أخشاب الصنوبر بطرطوشة، وهى أخشاب مشهورة بجودتها وعدم تعرضها للتلف من السوس. وكان لهذا الأسطول الفضل الكبير فى إستيلائه على طنجة ومليلة فى سنة ٣١٤ هـ وعلى سبته فى سنة ٣١٩ هـ.

وزاد إهتمام الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر بالأسطول الأندلسى زيادة كبيرة، فارتفع عدد قطعه من ثلثمائة سفينه إلى ستمائة جفن غزوى وغيره وكان قائده فى البحر عبد الرحمن بن رماحس.

(ج) تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموى فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦ هـ بألقاب الخلافة، ليدعم مركزه فى داخل الأندلس وخارجه، ويفرض هيبته فى نفوس أهل الأندلس حتى لا يتأثروا بالدعوة إلى الإسماعيلية، وقد أصدر الناصر منشورا بذلك، وزعة عماله فى النواحي المختلفة.

(د) وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين، فتحالف مع دى هيوج بروفانس (يسميه العرب اقوه، ملك الفرنجة وراء المغرب.)، Hugees de Province الذى كان يحنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذى كان يرمى إلى إسترجاع صقلية من أيدى الفاطميين. ثم وطد الناصر علاقته بالأخشيديين فى مصر، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربه المذهب الشيعى، ومن أمثال هؤلاء ابو أسحق محمد بن القاسم أبن شعبان المعروف بابن القرطبى الاندلسى .

(هـ) فتحت الاندلس ابوابها لأعداء الفاطميين فى المغرب، ومنهم ابن الخراز المليلى الذى كان قاضيا بمليلة، ذهب إلى قرطبة فى سنة ٣٢٥ هـ خوفا من جنود الشيعة، فسجل له الناصر على قضاء بلده، وحكم ابن محمد القيروانى القرشى، الذى تعرض لسجن عبيد الله المهدى بسبب مهاجمته للفاطميين، وكان يتردد بين قرطبة والقيروان. كما وفد إلى قرطبة أيضاً بنو سعيد بن صالح صاحب نكور بعد ان دخلها مصاله بن حبوس، وقتل أميرها سعيد فى محرم سنة ٣٠٥ هـ. وكان هؤلاء اللاجئون إلى الأندلس ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح، هم: صالح وإدريس، والمعتصم، فعبروا البحر إلى مالقة فقام الناصر بانزالهم. والتوسع عليهم، وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا من المرافق، وخيرهم بين القدوم الى قرطبة او المقام بما لقة، فأختاروا المقام بها، لقربها من بلدهم، وأملهم فى العودة اليه. وكان مصالة قد أستخلف على نكور رجلا يقال له ذلول، وأنصرف الى مقر ولايته بتاهرت، فعبر صالح وأخوته إلى نكور، واسترجعها بعد ان قتل ذلولا.

وقد سجل الناصر باحتفاله ببنى صالح أصحاب نكور أول تدخله فى شئون المغرب، وحمل ذلك المهدى فيما بعد على معاودة غزو مصر فى سنة ٣٠٨ هـ، والواقع أن عبد الرحمن الناصر أعتبر انتصارات بنى صالح المهدى إنتصارا شخصياً له، فعبر عن أغتباطه بذلك الحدث الهام بأن أرسل إلى

صالح الإخبية وآلالات والبنود والطبول ، ورد عليه صالح بهدية من الخيل والجمال. ومنذ ذلك الحين أخذ الناصر يتتبع أحداث المغرب بإهتمام كبير، باحثا عن أنصار له بين القبائل المعادية للفاطميين، وتمكن من إستمالة مغراوة وبنوا أفران الزناتيين، وكان محمد بن خزر يتزعم قبيلة مغراوة، وأدرك المهدى خطورة السياسة التي ينتهجها الناصر ضده، فأمر مصالة بن حبوس صاحب تاهرت بمحاربة الزناتيين سنة ٣١٢ هـ فخرج مصالة من تاهرت إلى قبائل زناتة الضاربة من وادى شلفت حتى تلمسان. وأصطدم بقوات أبن خزر فى معركة عنيفة إنتهت بمقتل مصالة، وإنهزام جيشه فى ٢٠ شعبان ٣١٢ هـ وقد أعتبر الناصر انتصار أبن خزر انتصاراً لسياسته الأفريقية على الفاطميين. وفى سنة ٣١٤ هـ أحرز أبن خزر عدة إنتصارات على قوات الفاطميين فى تاهرت نفسها، وقد أستغل الناصر هذه الفرصة ليرفع القناع عن وجهه، فأنقض على مليلة فى سنة ٣١٤هـ، وإستولى عليها، وحصن أسوارها. واخذت الأحداث تتوالى بعد ذلك التاريخ فى سرعة مذهلة، فقد تمكن أبن خزر سنة ٣١٧ هـ، من التغلب على أقليم الزاب كله، ثم نزلت قوات عبد الرحمن الناصر على ساحل العدوة استولت على مدينة سبتة وشحنها عبد الرحمن بالرجال وأتقنها بالبنيان. وأحدث سقوط سبته صدى عميقا فى المغرب، فقد تهيأ للناصر بإستيلائه على سبتة تكوين قاعدة حربية بحرية على ساحل العدوة تجاه ساحل الجزيرة الخضراء، تمهيدا للسيطرة الفعلية على المغرب الاقصى. فأضطر موسى بن ابى العافية صاحب فاس إلى الخروج على طاعة المهدى وأعلن دخوله فى طاعة الخليفة الأموى، وهكذا اثمرت سياسة الحذر والتدخل التى أتبعها عبد الرحمن الناصر، وأصبح الجزء الأعظم من شمال المغرب الأقصى، ومساحات واسعة من المغرب الأوسط فى حماية عبد الرحمن الناصر، بفضل أنضواء كل من محمد بن خزر المغراوى، وموسى بن أبى العافية المكناسى تحت لوائه. وظل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النفوذ الأموى قائما على المغرب الأقصى وفاس حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، على الرغم مما قام به ميسور الفتى فى أيام القائم بأمر الله من جهود للقضاء على هذا النفوذ عند إستيلائه على فاس سنة ٣٢٣ هـ، وقهره لموسى بن أبى العافية، وعلى الرغم من قيام جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى، باعادة بلاد المغرب وفاس سنة ٣٤٧ هـ. والسبب فى فشل الفاطميين فى القضاء على نفوذ الأمويين يرجع إلى أحتفاظ هؤلاء بقواعدهم العسكرية فى منطقة الريف.

فتح برقة ومحاولة فتح مصر:

حاول عبيد الله المهدى فتح مصر ثلاث مرات، بعد أن تبين له أستحالة فتح الأندلس، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفعل، ولم يتم فتح مصر إلا فى عصر المعز لدين الله الفاطمى، بسبب ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها. ففى سنة ٣٠١ هـ سير المهدى جيشا ضخما من المغاربة بقيادة حباسة بن يوسف، فدخل مدينة سرت بالأمان ، ثم زحف إلى إجدابية واستولى عليها بالأمان، ثم دخل برقة وقتل من أهلها عددا كبيرا بلغ نحو الف رجل، ثم اغرم أهلها مائة الف مثقال. وفى أثناء مقام حباسة ببرقة، قدمت إليه الجيوش العباسية من مصر، فدارت بين الجيشين العباسى والفاطمى عدة معارك انتهت بهزيمة الجيش العباسى. زحف حباسة بعد ذلك متجها نحو الإسكندرية، وتغلب أثناء مسيره إليها على الحصون المتناثرة فى الطريق إليها ، وأدركه أبو القاسم بن عبيد الله بجيش كثيف قبل أن يدخل الإسكندرية، فدخلاها معاً فى سنة ٣٠٢ هـ فألفياها خالية، قد هرب أهلها فى البحر، ثم تقدم جيش الفاطميين بقيادة أبى القاسم إلى الفيوم، ولكن حباسة تخلف فى الطريق بسبب خلاف حدث بينه وبين ابى القاسم، وعاد إلى المغرب فى ثلاثين من فرسانه، فاضطر ابو القاسم إلى الأنسحاب أمام قوات

العباسيين بقيادة مؤنس الفتى، وكتب إلى أبيه بخبر حباسة. فلما وصل حباسة إلى برقة قبض عليه وسجن، وكان اخوه عروبه عاملا على تاهرت، فلما بلغه خبر القبض على اخيه، هرب بما أستطاع حمله من أموال، ولكنه أعتقل بجبل أوراس، وقتل، وأمر الخليفة بقتل اخيه وما كاد أبو القاسم ينصرف عن برقة الى افريقية حتى قام أهلها بالثورة على الفاطميين، وقتلوا من كان بها من الكتاميين في ١٠ذي القعدة سنة ٣٠٢هـ، فسير إليهم عبيد الله الجيوش بقيادة أبى مدين بن فروخ اللهيصي، ويبدو أن أبا مدين لاقى كثيراً من الصعوبات في فتح برقة، لأنه لم يدخلها إلا في سنة ٣٠٤هـ بعد حصار دام ١٨ شهرا، قتل فيها من أهلها معظمهم، ولما دخلها أستصفى أموال من قتل من سكانها، وبعث بجماعة منهم الى عبيدالله ، فأمر بقتلهم. وفي أول ذي القعدة عام ٣٠٦هـ، خرج أبو القاسم لغزو مصر للمرة الثانية، وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن أسحق، وأبو غانم الكاتب، ومن الله بن الحسن بن أبى خنزير، وسليمان بن كافي. ولما أقترب أبو القاسم من الإسكندرية سيرّ اليها سليمان بن كافي في حملة من رجال كتامة، فاجأوا أهل الاسكندرية ودخلوها، وأنتهبوا أموال أهلها، ثم سار أبو القاسم الى الفيوم، ودخلها بالسيف، ثم نزل الأشمونين. وفي هذه الأثناء تحرك الأسطول العباسي من سواحل الشام، ونزل الإسكندرية، وأشتبك في قتال عنيف الأسطول الفاطمي في رشيد، أنتصر فيه ثمل الفتي، وتمكن من أحراق كثير من سفن الفاطميين، واسر عددا من كبار قوادهم، أقتادهم معه إلى الفسطاط، ومنهم سليمان الخادم، ويعقوب الكتامي ونتيجة لذلك تراجعت الجيوش الفاطمية الى المغرب.

وعلى الرغم من هذا الفشل المتلاحق، فقد ظل المهدى يتطلع إلى غزو مصر بعد أن ايقن باستحالة فتح الأندلس ، فأعاد الكرة للمرة الثالثة عندما اضطربت أمور العباسيين في المشرق الإسلامي بعد وفاة الخليفة المقتدر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأقسم الأتراك في بغداد على أنفسهم. وأعد حملة سيرها إلى مصر عام ٣٢١هـ وبعد مناوشات بين الأخشيديين والمغاربة، أبرمت معاهدة للصلح في صفر سنة ٣٢٢، غير أن هذا الصلح لم يطل امده فقد حدثت وقائع بين المغاربة والأخشيديين في الجيزة وبلبيس، ونجح محمد بن طغج الأخشيد في هزيمة المغاربة، سنة ٣٢٤، وأسر عددا كبيرا منهم.

٢ - قيام الثورات في بداية عهد القائم :

توفي عبيد الله المهدى في ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ وبوفاته أحس أهل المغرب بزوال كابوسه الذى كان جاثما عليهم، فاستردوا كثيرا من حرياتهم، واطلقوا العنان لثوراتهم التى اخذت براكينها تنفجر في المغرب كله، فاشتعلت البلاد من حممها نارا في أول ولاية القائم بأمر الله، ذلك أن قبائل البربر وجدت في اختفائه فرصه مواتية للتحرر من سلطان الفاطميين، وأول هذه الثورات التي اعقبت وفاة المهدى ثورة رجل عربي يعرف بأسم أبن طالوت القرشي بنواحي طرابلس، فقد أدعى أنه أبن المهدى، فاتبعه البربر، والتفوا حوله وزحف ابن طالوت الى مدينة طرابلس وحاصرها، ولكن حامية طرابلس تمكنت بمساعدة الأهالى من التصدى لهجوم هذا المدعى، وأتضح لأتباعه كذبه فانقلبوا عليه وقتلوه، وبعثوا برأسه الى القائم بأمر الله. وفي فاس ثار احمد بن بكر بن ابى سهل الجذامى على واليها حامد أبن حمدان الهمذاني، فأضطر القائم بالله الى تسيير ميسور الفتى الى فاس، لاعادة النفوذ الفاطمى على فاس والمغرب الأقصى، فوصل ميسور الى فاس في سنة ٣٢٣هـ، وغدر بأحمد بن بكر، إذ قبض عليه عندما قدم إلى معسكره، فامتنع أهل فاس داخل اسوارهم، وقدموا على انفسهم حسن بن قاسم اللواتي فحاصرهم ميسور زهاء سبعة أشهر ثم صالحهم على أن يبايعوا القائم بالله، ويسجلوا أسمه في السكة. واقر ميسور عليهم حسن اللواتى، ثم رحل إلى المهدية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سنة ٣٢٣ هـ بعث القائم بامر الله عسكرا إلى برقة بقيادة زيدان وعامر المجنون، وأبى زرارة، وانضم الى هذا العسكر جماعة من الجنود الكتاميين المرابطين ببرقة، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدى قوات الإخشيد.

أما الثورة الكبرى التى كانت تشكل خطرا حقيقا على كيان الدولة الفاطمية، فهى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى، وقد أستغرقت عصر القائم بالله كله، وعامين من عهد أبنه أبى العباس إسماعيل المنصور، أى انها استغرقت نحو ١٤ سنة، ومما يدل على خطورة هذا الثورة، وأهمية القضاء عليها بالنسبة للدولة الفاطمية أن إسماعيل المنصور سجل أنتصاره على أبى يزيد بإنشاء مدينة المنصور فى سنة ٣٣٧هـ.

ثورة ابي يزيد مخلد:

١ - المرحلة الاولي : (٣٢٢ - ٣٣٢ هـ) :

صاحب هذه الثورة هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد من قبيلة يفرن الزناتية، وكان أبوه كيداد من أهل توزر، وكان يشتغل بالتجارة بين بلاد السودان وأفريقية، ومن المعروف أن قوافل التجارة كانت تمر فى العادة بمدينة ورجلان، وكان سكان ورجلان من الأباضية وأكثرهم من أهل تاهرت الذين رحلوا عنها بعد سقوط تاهرت فى أيدى الفاطميين، وأستقروا فى ورجلان. ولد ابو يزيد مخلد بالسودان من جارية هوارية، فأتى به أبوه إلى توزر، فنشأ بها وتعلم القرآن منذ طفولته فى نفطة، ثم اتصل بالأباضية النكارية اتباع ابن فندين الذين أنكروا امامة عبد

الوهاب بن رستم، فمال إلى مذاهبهم واخذ به، ثم رحل إلى تاهرت مركز الأباضية فى العهد الأخير فى الدولة الرستمية، فأقام بها مشتغلاً بتعليم الصبيان. فلما أستولى ابو عبد الله الشيعى على تاهرت سنة ٢٦٩هـ، ورحل منها إلى تقيوس من مدن قسطيلية الكبار، فأستقر به المقام هناك أيام عبيد الله المهدى، وأشترى ضيعة وأستمر يشتغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية، وأخذ يدعو هناك إلى تكفير الشيعة أو أستباحة الأموال والدماء والخروج على سلطان الفاطميين الذين أنحرفوا عن مبادىء الإسلام بسبهم لأبى بكر وعمر، ووجد من الناس تجاوباً معه فقد ضاقوا ذرعا بتشدد الفاطميين عليهم فى تطبيق المذهب الاسماعيلى، ثم أتجه فى دعوتة منذ سنة ٣١٦ هـ إلى تغيير المنكر، فكثر اتباعه، وقوى حزبه، فلما توفى عبيد الله المهدى خرج من تقيوس لنشر دعوته للاباضية على مذهب النكارية ورحل إلى جبل أوراس الذى كان معقلا للثورات طوال عصور التاريخ، فإنضم اليه عدد هائل من البربر الساخطين على الحكم الفاطمى، فتلقب بشيخ المؤمنين، وكان من الطبيعى أن يعتمد فى ثورته على احدى الشخصيات المناهضة للفاطميين، فلم يجد خيرا من الإستناد على عبد الرحمن الناصر الذى كان له أنصار عديدين فى المغرب، فإجتذب بذلك الأنصار والأتباع من البربر.

٢ - المرحلة الثانية: (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ):

لما عظم أمره، وأستفحل خطره، بقوته جاهر بعدائه للفاطميين سنة ٣٣٢ هـ، ثم"هبط من جبل أوراس يدعو الحق بزعمه، ولم يعلم الناس مذهبه، فرجوا فيه الخمر والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة، ودخل أفريقية". وأشتد أمره حتى أن القائم أضطر إلى الفرار أمامه من رقادة وأقام فى المهدية، وسير إليه عامل مدينة باغاية، فزحف إليه أبو يزيد فى جموع كثيرة من البربر، فزحف أبو يزيد على أثر إنتصاره إلى باغاية وحاصرها ولما

طال الحصار، آثر أن يترك على حصارها جماعة من قبائل بني زناته بضواحي قسنطينة فحاصروها في سنة ٣٣٣ هـ، أما هو فمضى إلى تبسة فأفتتحها صلحا، ثم افتتح مجانة كذلك وهدم سورها وإستولى بعد ذلك على مرما جنة، وأهدى إليه أهل مرماجنة حمارا أشهب اللون، فكان يركبه ولذلك سمي صاحب الحمار، وكان يلبس جبة من الصوف ضيقة الكمين ووزحف أبو يزيد إلى الأربس، فانهزمت عنها حاميتها الكتامية، ولم تلبث أن سقطت الأربس في يده فأحرقها ونهبها، وقتل من لجأ من أهلها إلى المسجد الجامع ثم وجه عسكرا إلى سبيبه فأفتتحها، وقتل عاملها. وكان لابد للقائم أن يعمل على إيقاف هذا السيل المدمر، فجهز الجيوش، وبعثها إلى رقادة والقيروان بقيادة ميسور الفتى كما سير عسكرا بقيادة بشرى الفتى إلى باجة، فزحف اليه أبو يزيد، وهزم قوات بشرى في باجة ودخلها، وقتل من بها من الأطفال، وسبى النساء، وإجتمعت إليه هناك حشود كثيفة من البربر، وكان بشرى قد لجأ الي تونس، فثار عليه أهلها، ففر بنفسه وتمكن أبو يزيد من دخول تونس، وأمن على أهلها، وأستخلف عليها أحد أتباعه، ثم مضى نحو القيروان. ولم يسكت القائم على هذه الهزائم المتوالية، فعبر بشرى في جيش من الكتاميين لمحاربة أبي يزيد، وتمكن بشرى في المرة من التغلب على قوات ابي يزيد، وقتل منهم نحو أربعة الآف، وجيء بأسراهم وعددهم نحو خمسمائة إلى المهدية حيث قتلهم العامة.وغضب أبي يزيد لهذه الهزيمة، فسار في جيوش مجتمعة، وعدتها نحو ٢٠٠ ألف مقاتل. لمقاتلة الكتاميين، فهزم طلائعهم، فانسحب الكتاميين إلى القيروان، فطاردهم ابو يزيد اليها. ورأى أن يبدأ بالإستيلاء على رقادة. وكان عاملها خليل أبن أسحق ينتظر وصول ميسور الفتى لنجدته، ولكن أبا يزيد لم يمهله، فهزمه ودخل رقادة فعاث فيها. ووجه من هناك أحد رجاله وهو أيوب الزويلي في عسكر الى القيروان، فدخلها في صفر سنة ٣٣٢ هـ، ونهبها. ثم قدم أبو يزيد إلى القيروان فدخلها في صفر

من سنة ٣٣٦ هـ، فأمنهم، ورفع النهب عنهم، واظهر الخبر لأهلها، وترحم علي أبي بكر وعمر، ودعا الناس الي جهاد الشيعة، وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلي أصحابه وأزواجه، حتى ركزوا بنودهم عند الجامع، فلما كان يوم الجمعة أجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح ومعهم البنود والطبول، منها بندان أصفران مكتوب في أحدهما البسملة ومحمد رسول الله، وفي الأخر: نصر من الله وفتح قريب، علي يدى الشيخ أبي يزيد. اللهم أنصر وليك علي من سب أوليائك، وبند آخر مكتوب عليه: قاتلوا أئمة الكفر، الآية، وبند آخر فيه مكتوب: قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، وبند آخر مكتوب فيه، البسملة أيضا: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، وبند آخر وهو السابع عليه ما يلي:(لا الله الا الله. ألا تنصروه فقد نصره الله، إذا خرجه الذين كفروا ثاني إثنين اذهما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا)، فلما اجتمع الناس وحضر الإمام وطلع علي المنبر، خطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب. ثم لعن عبيد الله، وابنه، ثم خرج الناس معه لقتال الشيعة. وكانت جيوش ميسور الفتى قد قدمت لمحاربة ابي يزيد، فأنخذل عنه بنوكهلان، وأنضموا إلى أبي يزيد، فخرج أبو يزيد للقائهم وأشتبك الجيشان في معركة رهيبة بوادي الملح أسفرت عن هزيمة ميسور، وقتله جماعة من بني كهلان، وجاءوا برأسه الى ابي يزيد، فأمر بان يطاف به في القيروان، وأصبح أبو يزيد متغلبا على معظم افريقية. فلما بلغت القائم أنباء هزيمة ميسور ومصرعه، تأهب للحصار، فأمر بحفر الخنادق حول المهدية. والأستعداد لحصار طويل الأمد، فحصن المدينة بكل ما يلزمها من مؤن واقوات. وأقام أبو يزيد سبعين يوما في مخيم ميسور بث خلالها السرايا في كل نواحي إفريقية. فأفتتح سوسة عنوة، وخرب عمران إفريقية، ثم زحف بجيوشه إلى المهدية لحصارها، عندئذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استنجد القائم بزيرى بن مناد الصنهاجى زعيم قبيلة صنهاجة البربرية الموالية للفاطميين، وقد كان لذلك أثر كبير فى تغيير مصير المعركة لصالح الفاطميين، ويذكر الإستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى أن هذا الإنضمام"راجع إلى عداء تقليدى قديم بين صنهاجة وزناتة التى تناصر أبا يزيد، فالحرب فى ظاهرها كانت بين خوارج وشيعة، ولكنها فى باطنها بين اهل البداوة والرحل أو البربر البتر ومنهم زناتة، وبين أهل الزراعة والإستقرار والبربر البرانس ومنهم صنهاجة".

٣ - المرحلة الثالثة :(٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) :

نزل أبو يزيد على بعد ١٥ ميلا من المهدية، وأخذ يشن الغارات على أطرافها ونواحيها، فنهب ما حولها من القرى، ودمر ما صادفه من عمران وإصطدم فى هذه الأثناء بعسكر الكتاميين، فهزمهم، ولكن وصول زيرى بن مناد فى جميع صنهاجة حول مجرى الأحداث، رجحت كفة الفاطميين، وبدأت الهزائم تتوالى على عسكر ابى يزيد، فاضطر إلى حفر حول معسكره، وبعث فى طلب النجدة، فإجتمع إليه حشد هائل من البربر نفوسه والزاب وأقاصى المغرب، وكان من جملة من إنضم إليه محمد ابن خزر الزناتى، فضيق الخناق على المهدية، وزحف إليها فى أخر جمادى الثانية ولكنه عجز عن اقتحامها، وإنهزم أمامها، فأضطر إلى الكتابة الى عامل القيروان يستمده فأمده بعسكر كثيف زحف بهم للمرة الثالثة فى آخر رجب سنة ٣٣٤، ولكنه إنهزم فى هذه المرة ايضا وأبيد قسم كبير من جيشه أثناء المعركة. وفى آخر شوال، زحف للمرة الرابعة للهجوم على المهدية ولكن نتيجة للمعركة فى هذه المرة لم تكن أحسن من المرات السابقة، إذ إنهزم هزيمة مخزية، ورجع إلى معسكر مكتفيا بمحاصرة المهدية.

وإشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الدواب والميتة، وخرج أكثر السوقة والتجار من المهدية، ولم يبق بها غير الجند، وكان كل من خرج من المهدية وقع فى أيدى البربر، وأخذوا ماله، وشقوا بطنه طلبا للذهب. فأضطر القائم إلى فتح الأهراء التى كان المهدى قد أقامها في المدينة، ووزع ما فيها من حبوب على رجاله ويبدو أن بطنا من بطون كتامه الضاربة فى المغرب الأوسط تأهب للمجىء الى المهدية، وعسكرت قواتهم في قسنطينة، فسير إليهم أبو اليزيد عسكرا من ورفجومة وغيرهم، فهزموا الكتاميين، وإجتمع إلى أبي اليزيد عقب ذلك حشد كبير من البربر من كل ناحية، فحاصر مدينة سوسة التى كانت قد خرجت عليه. ويغلب على الظن أن سياسة أبي اليزيد القائمة على تفضيل فريق من أبناء البربر على فريق اخر غضبت جماعات كبيرة منهم، فأنفضوا عنه،ولم يبقى معه سوى هوارةوبنى كملان، وثار عليه أهل قيروان، أعلنوا طاعتهم للقائم، وكان على بن محمدون فى هذه الأثناء يبث الغارات على المدن التابعة لابى اليزيد، فهزم هوارة، وتغلب على مدينتى تيجسى وباغاية.

وفى جمادى الآخر أتجه أبو يزيد سوسة لمحاصرتها، وبينما كان يحاصرها توفي القائم بالله، وخلفه أبنه أبو الطاهر إسماعيل الملقب المنصور، فكتم موت أبيه حرصا على إلايطلع عليها أبو يزيد وهو يحاصر سوسة، فلم يغير الوضع عما كان علية قبل وفاة أبيه.

٤ - المرحلة الرابعة (٣٣٤ -٣٣٦هـ) :

أشتد حصار يزيد على سوسه، فبعث أسماعيل المنصور الأساطيل من المهدية إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والأمتعه والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن أسحق فلما وصلت المؤن والأقوات إلى سوسة، تقوى أهلها بالمدد، وخرجوا مع عسكر المنصور لقتال أبي يزيد فهزموه ،

وأستباحوا معسكره نهبا وحرقا، ففر إلى القيروان، فمنعه أهلها من الدخول، وثاروا بعامله عليها، فخرج إليه، ورحلوا إلى سببية في آواخر شوال سنة ٣٣٤. وقدم المنصور على أثر ذلك إلى القيروان، وأمن أهلها، وإبقى حرم أبي يزيد وأبنائه، فأحس إليهم.

ولما علم أبو يزيد بدخول المنصور القيروان قدم على رأس جيش كبير لمهاجمة المنصور، فهزمه المنصور أولاً، ثم أنتصر أبو يزيد، وظل العسكر أن يتبادلان النصر والهزيمة حتى حل شهر المحرم سنة ٣٣٥هـ، والقتال المتواصل، فبعث أبو يزيد يطلب من المنصور حرمه وأولاده، فبعثهم بعد أن أشترط عليه أن يرحل عن القيروان فلما وصلوا إليه نكث بوعده، وقاتل المنصور في ١٥ المحرم سنة ٣٣٥ هـ وهزم جيشه، وأمام هذه الهزيهة عبأ المنصور عسكرا جرار في منتصف المحرم، وإشتبك مع أبي يزيد في معركة ضارية أنهزم فيها أبو يزيد هزيمة شنعاء، وسحق عسكره سحقا، فبلغ عدد القتلى من قواته عشره الآف، وتعرف هذه الواقعة يوم الجمعة، وفر أبو يزيد مع من بقى من رجاله إلى باغاية، فمنعوا إليها من الدخول فيها، فأقام يحاصرها، وعندئذ خرج المنصور في ربيع الأول سنة ٣٣٥ لمطاردته بعد أن أستخلف على المهدية مرام الصقلي وأدراك أبا يزيد وهو يحاصر باغاية، ففر أبو يزيد وجيوش المنصور تلاحقه من حصن إلى حصن، فلما نزل المنصور مدينة طبنه بالزاب جاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة تعلن خضوعها إليه، وأنضمامها إلى جانبه، وما زال أبو يزيد يتراجع من موضع إلى اخر حتى سلك الأوغار والمضايق، وأصاب رجاله الجهد والأرهاق، ولم يبق أمامه إلا المفازه المؤديه إلى أسوان. وكان المنصور قد اعتل أثناء مطاردته لأبي يزيد، فأنتهز أبو يزبد هذه الفرصة وسار إلى المسيلة (مدبنة المحمدية) وحاصرها، فلما أبل المنصور من مرضه رحل في أول رجب ٣٣٥، لإستئناف مطاردة أبي يزيد، فرفع أبو يزيد الحصار عن المسيلة وأوغل في الجنوب

بصد الإلتحاء الى بلاد السودان، فأبى بنو كملان مسايرته ، وأرغموه على العودة إلى جبال كتامة وعجيسة، فتحصنوا بها، فعزم المنصور على محاربته، فإنهزم أبو يزيد هزيمة نكراء، وقتل من رجاله ما يزيد على عشرة الآف، وفر هذه المرة وهو مثخن بالجراح إلى قلعة كتامة، فحاصرها المنصور حتى أفتتحها، وأضرم النيران فى الشعراء المحيطة بالقصر حتى يضىء ما حوله، فيكشف من حاول الفرار، فقبض عليه، وحمل إلى المنصور. وتوفى ابو يزيد بعد ثلاثة أشهر من هزيمته، وذلك في المحرم سنة ٣٣٦ هـ فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبنا.

وبوفاة أبى يزيد انتهت الثورة الكبرى التى صدعت دعائم الدولة الفاطمية في المغرب وكادت تقضى عليها. وقد سجل ابو الطاهر إسماعيل المنصور إنتصاره على أبى يزيد ببناء مدينة صبرة المعروفة باسم المنصورية في سنة ٣٣٧ هـ لصق القيروان، ولا تبعد عنها بأكثر من نصف ميل. فإنتقل اليها، واستوطنها، ونقل اليها المعز لدين الله بن المنصور أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات. وكان لصبرة خمسة أبواب، القبلى والشرقى وزويلة وكتامة (شمالى) والفتوح - ولما أعاد المعز بن باديس بناء سور القيروان سنة ٤٤٤ هـ، وجعل السور ما يلى صبرة كالفصيل حائطان يتصلان إلى مدينة صبرة، وبينهما نحو نصف ميل، ولا سبيل لتاجر ولا وارد يدخل القيروان إلا بعد جوازه على مدينة صبرة، وقد أثر بناء صبرة على عمران المهدية، فخلت أكثر أرباضها وتهدمت وأنحسر العمران عنها.

٣ - خلافة المعز لدين الله الفاطمي

أ - بسط نفوذ الفاطميين علي المغرب الاقصي:

شغلت ثورة أبى يزيد الفاطميين عن بسط نفوذهم فى بلاد المغرب الأقصى، - فاستغل الامويون بالاندلس هذه الفرصة ، ومدوا نفوذهم على طول الساحل الإفريقى حتى الجزائر، كما أقاموا قواعد عسكرية فى الثغور المطلة على جبل طارق مثل طنجة وسبتة ومليلة. ونجح الخليفة عبد الرحمن الناصر فى أجتذاب رؤساء البربر من زناته ومغراوة فأنضموا تحت لوائه.

ولما تولى أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله الخلافة الفاطمية فى سنة ٣٤١ هـ أن سلطان الفاطمين يمتد فى المغرب الأوسط حتى أيفكان الواقعة فيما وراء تاهرت وكان يتولى تاهرت من قبله يعلى بن محمد اليفرنى، كما كان يتولى أشهر اعمالها زيرى بن مناد الصنهاجي، والمسيلة جعفر بن على الأندلسى، وباغاية قيصر الصقلى، والى زيرى برجع الفضل فى بناء مدينة أشير عندما أستقل بولاية الزاب سنة ٣٢٤هـ، كما جدد بناء مدينة مليانة القديمة وأسكنها أبنه بلكين، وبنى مدينة جزائر بنى مزغنة والمدية أما جعفر بن على بن حمدون المعروف بأبن الأندلسى، فقد خلف أباه على المسيلة والزاب كله، وظل مقيما عليها إلي أن خرج عنها فى سنة ٣٦٠ هـ فى فتنة زيرى. أما فاس فكان يلبها من قبل المعز أحمد بن بكر بن أبى سهل الجذامى، فخرج أهل فاس على المعز، وبايعوا لعبد الرحمن الناصر،فولى عليهم محمد بن الخير المغراوى الذى أقام علي ولايتها عاما واحد ثم إرتحل إلى الأندلس للجهاد، وأستخلف على فاس أبن عمه أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن عثمان الزناتى. كذلك خرج على المعز يعلى بن محمد اليفرنى سنة ٤٤٧ هـ، ونقض طاعه الشيعة، وبايع لعبد الرحمن الناصر. فغضب المعز لخروج المغرب الأقصى من طاعته، وأنضوائه إلى الخلافة الأموية بالاندلس.

فسير جوهر الصقلي على رأس جيش كثيف إلى المغرب لإعادة النفوذ الفاطمي على بلاد المغرب الاقصى وخرج مع جوهر جعفربن على صاحب المسيلة، وزيرى بن مناد أمير اشير. ونجح جوهر في الايقاع بعلى بن محمد اليفرني، وخرب إيفكان، ومضى الى فاس، ثم تجاوزها إلى سجلماسة، فأستولى عليها، وقبض على أميرها الشاكر لله محمد بن الفتح من بنى واسول المدارين، ثم عاد الى فاس، واحكم عليها الحصار، وتمكن زيرى بن مناد من أفتتاحها في سنة ٣٤٨هـ. وبذلك نجح جوهر في مهمته، وأعاد النفوذ الفاطمي على القسم الأعظم من المغرب الاقصى. وفر كثير من الدولة الفاطمية الى الأندلس، ومنهم بنو يعلي اليفرني، وبقايا بني إدريس، ووفد من برغواطة على رأسهم الأمير أبو صالح البرغواطي رسولا من أبي منصور عيسى بن الأنصار، أمير برغواطة.

ب ـ إستيلاء المعز علي مصر، وانتقاله إليها:

أستطاع المعز بفضل جهود قائده جوهر الصقلي وزيرى بن مناد الصنهاجي، ان يمكن سلطانه من حدود طرابلس شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، وكان فتح مصر أمنية خلفاء الفاطميين منذ أيام عبيد الله المهدى، بعد أن إستحال عليهم فتح الأندلس. وكانت مصر بالنسبة للفاطميين معقد آمالهم لثرائهم، وأهمية موقعها الجغرافي سياسا وحربيا وقربها من بلاد الشام والحجاز. وازداد تطلعهم للفتحها بعد ان قضى إسماعيل المنصور علي ثورة أبي يزيد. فلما خلفه المعز اشتدت رغبته في فتحها، ولكنه لم يشأ أن يقدم علي ذلك قبل أن يؤمن ظهره من الأمويين وأنصارهم ويخضع بلاد المغرب الأقصى لسلطانه. فلما تم له ذلك، اخذ يتفرغ منذ عام سنة ٣٤٥، لهذه المهمة، ورأى أن يعزز جيشه بكل الوسائل حتى يضمن لنفسه

النصر. وساعدته الظروف السياسية فى العالم الإسلامى وقتئذ على نجاحه فى فتح مصر. كانت امور مصر قد انتهت بعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد سنة ٣٣٤هـ إلى الضعف، وعلى الرغم من إستبداد كافور بالحكم دون ولدى الإخشيد، ونجاحه فى اخماد الثورات، فإنه لم ينجح فى تحسين الاحوال الإقتصادية بمصر، ففى سنة ٣٥٢هـ قصر النيل فى فيضانه، وحدث بمصر غلاء شديد، نتجت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات، قاسى المصريون خلالها الشدائد، وساءت أوضاع مصر بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ، وأنتشرت بها الفوضى والإضطراب وعظم فيها الغلاء. وفى ذلك يقول المقريزى، وكثر الإضطراب، وتعددت الفتن، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير، وانتهبت اسواق البلد، وأحرقت مواضع عديدة، فأشتد خوف الناس، وضاعت أموالهم، وتغيرت نياتهم، وإرتفع السعر، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار، واختلف العسكر ،فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج، وهو يومئذ بالرملة، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى، وعظم الأرجاف بسير القرامطه إلى مصر" وبالإضافة إلى ذلك كانت ظروف الدولة العباسية قد ساءت إلى درجة كبيرة، وكثرت الفتن فى بغداد بين بختيار بن معز الدولة، وأبن عمه عضد الدولة، وشغلت بغداد بهده الفتن عن الاهتمام بشئون مصر. يضاف الى ذلك أن دعاة الشيعة الإسماعيلية فى مصر نجحوا فى إجتذاب عدد كبير من المصريين إلى هذا المذهب. وهكذا كان الجو فى مصر ممهدا للغزو الفاطمى فلم يتردد المعز فى تعبئة كل طاقته، وإمكاناته لغزوها، وبدء منذ سنة ٣٥٥ يتأهب لفتح مصر، فجمع الأموال الوفيرة، وكتب إلى عمال برقة لحفر الأبار فى الطريق من افريقية إلى برقة، أقامة المنازل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق فلما أجتمعت له حشود كتامة، وتمت كافة الإستعدادات للسير خرج جوهر الصقلى على رأس جيش عدته نحو الف من

البربر في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٥٨هـ، في طريقه الى مصر، ووصل جوهر إلى الإسكندرية فخرج إليه وفد من القضاة وإلتقى به في تروجة فأجابهم إلى ملتمسهم ودخل الإسكندرية دون مقاومة. وتقدم جوهر نحو الفسطاط، فإستعد الإخشيديون الكافورية لقتاله. وإلتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط، جيش الإخشيد بقيادة نحرير الارغلي، وبمن الطويل والجيش الفاطمي بقيادة جوهر، وإنتهت الموقعة بانتصار جوهر، وزال بذلك سلطان الإخشيد يين والعباسيين عن مصر، واصبحت مصر ولاية فاطمية، ودخل جوهر الفسطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، ثم أنه نزل بعسكره إلى الشمال الشرقي من الفسطاط، في الموضع الذى أحتط فيه مدينة القاهرة، وهناك وضع أسس هذه المدينة العظيمة التي قدر لها أن تلعب دورا طليعيا حتى يومنا هذا، وبدأت أعمال الإنشاء في سرعة عظيمة، فلم يمضي عامان حتى كان جوهر قد انتهى من تأسيس القاهرة، وبناء جامعها المعروف بالأزهر.

وقبل أن يرحل المعز لدين الله إلى عاصمته الجديدة أرد أن يبقى على النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب مع انه كان يدرك أن أستمرار هذا النفوذ لن يدوم طويلا، لما كان يعرفٌ من شدة مراس البربر، وطبيعتهم الثورية، ويرى الدكتور مختار العبادى انه رأى خير وسيلة للإحتفاظ بتبعية المغرب للفاطميين أن يعمل على اضعافه، بأثارة الفرقة والتنافس بين قبائله حتى تظل في حروب متواصلة، ولا يفكر أهل المغرب في الخروج عن الفاطميين. فأستخلف لذلك ابا الفتوح يوسف بن زيرى مناد الصنهاجي على إفريقية، ومضى الى مصر بأمواله ورجاله، وحمل توابيت آبائه واجداده، ودفنهم بقصره في القاهرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا: الدولة الفاطمية في مصر

١ - أعمال جوهر الصقلي المعمارية بالقاهرة:

انشاء مدينة القاهرة:

لما تم لجوهر فتح سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) عدل عن اتخاذ الفسطاط والقطائع عاصمة لولايته وفكر فى تأسيس مدينة جديدة تكون مقرا للفاطميين ومركزاً لنشر دعوتهم السياسية وحصنا منيعا ضد أعدائهم. وبدأت أعمال الإنشاء في سرعة عظيمة حتي يتمكن جوهر من إستقبال المعز فى حاضرته الجديدة فلم يمض عامان حتى كان قد انتهى من تأسيس القاهرة وبناء جامعها المعروف بالأزهر.

وتعتبر القاهرة رابعة العواصم الإسلامية بمصر وأولها الفسطاط التى أقامها عمرو أبن العاص سنة ٢١ هـ لتكون حاضرة مصر بدلاً من الإسكندرية. والعاصمة الثانية هي مدينة العسكر التى أنشأها صالح بن على سنة ١٣٣ هـ (٧٥١ م) بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وتقع الى الشمال الشرقى من الفسطاط.

والعاصمة الثالثة هى مدينة القطائع التى أسسها أحمد بن طولون سنة ٢٥٦ هـ، (٨٧٠ م) عندما أستقل بمصر .

دخل جوهر مدينة الفسطاط في ١٧شعبان سنة ٣٥٨ هـ(١٧ يوليو ٩٦٩ م) ثم نصب معسكراته فى الفضاء الواقعة إلى الشمال الشرقى من خرائب القطائع وفى تلك الليلة وضع جوهر أساس المدينة الجديدة التى إعدها الخليفة المعز. وبدأ ببناء قصر المعز المعروف بالقصر الشرقى الكبير وأحاط

مدينة القاهرة بسور من اللبن شاهد المقريزى آثاره سنة ١٤٠٠ م واختطت كل قبيلة من قبائل البربر حول ذلك القصر خطة عرفت بأسمها فأختط جماعة من برقة الحارة البرقية وأختط الروم حارتين احدهما حارة الروم الأن والأخرى حارة الروم الجوانية الواقعة قرب باب النصر. وضم سور جوهر خطط القاهرة وكان بمثابة حصن يتحصن فيه ضد هجوم القرامطة وجعل جوهر فى السور الرابعة أبواب هى باب زويلة جنوبا وباب التوفيق وباب النصر وباب الفتوح شمالاً.

ولما فرغ من أنشاء القصر الشرقى الكبير سمى المدينة بالمنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور بن المعز، وقد ظلت هذه التسمية مطبقة على حاضرة الفاطميين حتى قدم المعز لدين الله إلى مصر فسميت منذ ذلك الحين بالقاهرة المعزية. وقد أختلف المؤرخون فى تحليل تسميتها بالقاهرة فبعضهم (ابن دقماق والمقريزى) ينسبه الى كوكب القاهر (المريخ) وينسبة البعض الأخر إلى رغبة المعز فى بناء مدينة تقهر الدنيا إذ أنه قال لجوهر وهو يودعه، ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا".وقد يكون سبب تسمية الفاطميين لعاصمتهم بهذا الاسم تفاؤلا بما سيكون لهذه العاصمة من شأن فى العصور التالية وتفوقها حربيا على سائر العواصم الإسلامية وأيا ما كان سبب تسمية القاهرة بهذا الإسم فقد قدرلها أن تكون حاضرة مصر إلى وقتنا هذا ومركز الحضارة الإسلامية فى مصر، وأصبحت القاهرة زمن المعز العاصمة الإرستقراطية بينما ظلت الفسطاط مدينة الإهالى والتجار.

وكان القصر الذى بناه جوهر للمعز(القصر الشرقى) يقع تجاه قصر آخر بناه العزيزبالله أبن المعز يعرف بالقصر الغربى الصغير، وكان بين القصرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مساحة فسيحة كانت تتسع لعشرة آلاف جندى وقد أطلق على هذه الساحة فيما بعد إسم"بين القصرين" وأختط جوهر طريقا عاما يشق وسط القاهرة من الشمال إلى الجنوب أى من باب الفتوح إلى بابى زويلة مارا بمساحة ما بين القبصرين وهذا الطريق يشبة المحجة العظمى أو Cardo Maximus فى المدن الرومانية التى تأثر الفاطميون بنظمها.

ثم تدرجت القاهرة فى النمو والاتساع حتى كانت فى نهاية عهد الفاطميين من أعظم مدن العالم الإسلامى، فأقيمت بها المبانى الفخمة والقصور والأسواق العامرة أنشئت بها البساتين والدور والحمامات والفنادق والمدارس. وأفتتحت فى سورها ابواب جديدة مثل باب المحروق وباب البرقية شرقا وباب السعادة وباب الفرج وباب القنطرة غربا، على أن أسوار جوهر لم يتح لها أن تقوم بوظيفتها مدة طويلة اذ ما لبث أن تهدمت وتفتحت العاصمة للداخلين والخارجين وأصبحت مهددة بالأخطار زمن الشدة العظمى فأقام لها الوزير امير الجيوش بدر الجمالى سورا جديدا بناء بالحجارة سنة ٤٨٥ هـ مازالت بقايا منه ظاهرة حتى يومنا هذا بأبوابه الثلاثة الفتوح والنصر وزويلة. وأكتشف باب رابع منذ ١٥ سنة هو باب التوفيق يقع بين بابى البرقية والمحروق.

وكانت الطرق التى تتفرع من شارع بين القصرين منظمة تنظيما يدل على سعة إطلاع القوم وقتئذ بفن تخطيط المدن وعلى حسن ذوقهم وترتيبتهم الفنية وقد زار القاهرة فى العصر الفاطمى الرحالة الفارسى ناصر خسرو ووصفها وصفا مبدعا فاق كل وصف فذكر دورها وقصورها ومما قاله فيها"ويقع قصر السلطان فى وسط القاهرة وهو طلق من جميع الجهات ولايتصل به أي بناء وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة ميافارقين وكل ما حوله فضاء... ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما فيه من الأبنية المرتفعة. وهو لا يرى من داخل المدينة لإرتفاع أسواره. . .
وهذا القصر يتكون من أثنى عشر بناء وله عشرة ابواب فوق الأرض فضلا
عن أبواب أ خرى تحتها..."ويصف البساتين فيقول:"وفي المدينة بساتين لا
نظير لها"ويصف البيوت فيقول - "وكانت البيوت من النظافة
والبهاء،بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الحصى والاجر
والحجارة. وهى بعيدة عن بعضها." ويذكر أحياء القاهرة فيقول" ولمدينة
القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة وهى حارات: برجوان (نسبة
إلى الخادم برجوان الوصى على الحاكم) وزويلة (نسبة إلى جودر الخادم خادم
المهدى) والأمراء والديالمة والروم والباطلية وقصر الشوق وعبيد الشرا
والمصامدة".

وقد أنشا جوهر لمدينة القاهرة مسجدا جامعا سنة ٣٥٩ ه سماه الأزهر
سندرسه فى الصفحات التالية عندما نتناول بالدرس أزدهار العمارة فى
العصر الفاطمى.

١ - جوهر الصقلي وحروبه مع القرامطة:

ظل جوهر يحكم مصر نيابة عن الخليفة المعز فيما بين عامى ٣٥٨ -
٣٦٣ هـ، وأستطاع بفضل ذكائه ومهارته الحربية أن يؤسس أركان الدولة
الجديدة فى فترة تعد من أشد فترات الحكم تحرجا وهى فترة الأنتقال التى
كان يتوقف عليها مصير الدولة الفاطمية، وكان عليه قبل شئ أن يؤمن
حدودمصر الشرقية من هجمات القرامطة الذين كانوا يهددون بلاد الشام
ومصر، وكان عليه أيضا أن يضم بلاد الشام إلى سلطان الدولة الفاطمية لأن
بلاد الشام كانت جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية فإذا كان الفاطمين قد
إنتزعوا مصر من الدولة الإخشيدية فلابد أن ينتزعوا بلاد الشام كذلك ومع

ذلك فقد عمل الحسن بن عبد الله بن طغج الاخشيدى والى الرملة ودمشق على صد الهجوم الفاطمى واعد العدة لمقابلة العدوان بالمثل واناب عنه فى حكم دمشق شمولا الإخشيدى وسار هو إلى الرملة ولكن (نائبه خانه) وكتب إلى جوهر الصقلى يدعوه إلى القدوم إلى الشام ويعده بتقديم كل ضروب المساعدة، وكان سببا من بين الأسباب التى حملت جوهر على تسيير حملة الشام.

فعهد جوهر إلى أحد قواده المغاربة هو جعفر القائد بن الكتامى بهذه المهمة وكان معروفا بشجاعته وبلائه وحسن قيادته، ويرى بعض المؤرخين أن جوهر أراد التخلص من جعفر بن فلاح الذى كان يطمع إلى نفوذ جوهر وسلطانه، وتقدمت جيوش جعفر فى بلاد الشام وإصطدمت بجيوش الأخشديين فى الرملة بقيادة الحسن بن عبد الله بن طغج، وإنتصرت جيوش جعفر إنتصارا ساحقا وأسرت الحسن الإخشيدى، وتوغلت الجيوش المغربية بعد ذلك فى سورية وأستولت على طبرية بعد أن قضت على القائد الإخشيدى فأتك واتجهت الجيوش نحو دمشق ولكن أهل دمشق عزموا عزما صادقا على مقاومة الجيوش الفاطمية وبالفعل لاقت الجيوش الفاطمية عناء كبير فى الإستيلاء على المدينة وإنتهى الأمر بدخول هذه الجيوش فى مدينة دمشق فى محرم سنة٣٥٩هـ غير أن جعفر أتبع الشدة فى معاملة أهالى دمشق وأباح لجنوده سلب المدينة ونهب دورها مما أثار سخط الأهالى فإشتعلت الفتنة من جديد، ورأى جعفر ان يقبض على زعماء الفتنة من أهل دمشق وقتلهم، ولكنه باتباعه هذه الأساليب الجائرة واباحته العبث بالنظام والإستهتار بالأرواح كان يحفر قبره بنفسه، فقد إستنجد أهل دمشق بالقرامطة لتخليصهم من إستبداد الفاطميين، ولبى القرامطة نداء اهل دمشق خاصة وأن جعفر بن فلاح قطع عن القرامطة الجزية التى كان يدفعها أهل دمشق لزعيمهم الحسن بن أحمد القرمطى المعروف بالحسن الأعصم ابن

آحمد بن أبى سعيد الجنابى، فسارع الحسن الأعصم بالسير نحو بلاد الشام واشتبك مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكة التى تقع على نهر يزيدُ على مقربة من دمشق ودارت الدائرة على جعفر بن فلاح فأسر ثم قتل هو وكثير من اتباعه فى ٦ ذى الحجة ٣٦٠ هـ، ومثل بجثته رجل اسمه محمد أبن عصودا وصلبه عند حائط داره أنتقاما لأخيه اسحق، وكان جعفر قد قتله وصلبه. وهكذا قتل جعفر نتيجة لسوء تدبيره واساءته إلى أهالى دمشق وقبضه على زعمائهم بدلاً من عمله على تأليف القلوب. ثم أن الغرور قد ركبه بعد إنتصاراته الأولى فأخذ لا يصغى إلى تعليمات جوهر إليه وترفع عن طلب معونته بعد أن حاصرته قوات الحسن القرمطى.

وأستولى الحسن القرمطى على دمشق وأمر بلعن الخليفة الفاطمى المعز على منبر الجامع الأموى بدمشق، وكان لعن القرامطة للفاطميين أمر عجيباً إذ كانت دعوتهم تقوم على شرف الإنتماء إلى آل على كما كانوا يعتقدون بنظرية الحق الإلهى للإمام الفاطمى،ولعله أراد من ذلك ان يكسب إليه محبة أهل دمشق السنة الذين كانوا يكرهون الشيعة وأنصار على. وعزم الحسين القرمطى على غزو مصر بعد إستيلائه على الشام فأسرع إلى الرملة وأنضم إليه فى الطريق كثير من الإخشيدية والكافورية، ففر والى الرملة من قبل الفاطميين وإسمه سعادة بن حيان المغربى غلام المعز فإستولى القرامطة على الرملة ثم إستولوا على الفرما فى المحرم ٣٦١ هـ وأفتتح الحسين تنيس، وتقدم فى داخل البلاد وفى نفس الوقت هاجم أسطوله القلزم وأستطاع أن يتحكم فى منطقة القناة حاليا وعسكرت قواته فى عين شمس وهددت مدينة القاهرة نفسها فأضطر جوهر إلى تحصين القاهرة فحفر حولها خندق أقام عليه بابين من حديد وشرع جوهر فى العمل على صد هجوم القرامطة وبعث بعض المتطوعة من المصريين إرغموا القرامطة على الرجوع إلى القلزم تاركين وراءهم متاعهم وعددهم وفى نفس الوقت تلقى جوهر

إمدادا من القيروان، فوصله جيش مغربى ارسله إليه المعز لدين الله بقيادة أبى محمد الحسين بن عمار تأزره جيش جوهر، وعزم جوهر على طرد القرامطة من تنيس فزحف اليها بجيوشه واستولى عليها بعد أن أرتد أسطول القرامطة تاركا خلفه سبع سفن حربية، ووقع من القرامطة نحو ٥٠٠ أسير فى أيدى الفاطميين. وهكذا تمكن جوهر من رد القرامطة على أعقابهم وسار يطاردهم فأسترد يافا وتراجع الحسن القرامطى إلى دمشق، وأخذ يعد العدة لغزو مصر ثانية ولكنه اضطر الى التوجه الى الاحساء لاخماد ثورة قام بها أنصار أبى طاهر. ومع ذلك فقد ظل خطر القرامطة يهدد سلطان الفاطميين، ولم يتم القضاء على القرامطة إلا فى عهد العزيز بالله الفاطمى.

ولا شك أن جوهر قابل صعوبات كثيرة فى مواجهته للقرامطة وكان يعتقد أن مصر كانت ما تزال معرضة لخطرهم وقد يكون هذا هو الحافز الذى دفعه للكتابة إلى الخليفة المعز يطلب منه القدوم لتسلم زمام الحكم فيها. وكان جوهر قد قام بتوطيد سلطان الفاطميين فبدأ الدعوة للمذهب الفاطمى فى جامع عمرو فى شعبان سنة ٣٥٨ كما منع إستعمال بعض العبارات الشائعة عند السنيين وازاد فى الآذان عبارة"حى على خير العمل" وإضاف فى خطبة الجمعة عبارة "اللهم صلى على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وفاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين اذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا.اللهم صلى على الائمة الراشدين بن آباء أمير المؤمنين الهادين المهتدين". وفى رمضان سنة ٣٥٩ إمر بنقش جدران جامع عمرو باللون الاخضر شعار العلويين. ثم إسس الجامع الإزهر ليكون مقرا للدعوة الفاطمية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدوم المعز الي القاهرة:

إستخلف المعز بلكين بن زيرى الصنهاجى على إفريقية ومضى إلى مصر بأمواله ورجاله وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله. وخرج المعز من المنصورية دار ملكه فى ٢١ شوال سننة ٣٦١ هـ (٥ اغسطس ٩٧٢ م) ودخل الإسكندرية فى ٢٣ شعبان القصر الذى بناء جوهر، فلما صارَ فى أحـدى ردهاته خـر سـاجـدا لله. وفى ١٠ المحـرم سنة ٣٦٤ هـ (٧ أكتوبر سنة ٩٧٤) تسلم المعز من جوهر دواوين مصر وجبايتها، بعد أن تولاها جوهر زهاء أربع سنوات. وبوصول المعز اخذ نشاط جوهر السياسة يتضائل شيئا فشيئا وسرعان ما توارى عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد إلى الظهور إلا فى آواخر عهد المعز حين أشتد خطر القرامطة وفى أوائل عهد العزيز بالله حين تأهب أفتكين التركى للإستيلاء على الشام بالإشتراك مع القرامطة.

أصبحت مصر منذ وصول المعز دارا للخلافة الفاطمية وغدت القاهرة مركزا لتلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف. وقلد المعز يعقوب بن كلس الوزارة بعد أن تقصى جوهر عنها، وكان قد خاف أن يسيطر على مصر بنفوذه القوى.

وأهتم المعز بنشر الدعوة الفاطمية وتأمين حدود مصر من خطر القرامطة. فقد عزم على القضاء على الحسن القرمطى فكتب إليه كتابا يهدده فيه ويتوعده ونوه فى كتابه بما للمعز ولأبائه من الولاية والوصية على إسلافه والى ما كانوا ينشدونه من رعاية الأئمة الفاطميين وأنهم لم ينتصروا على جيوش العباسيين إلا بفضل هذه الدعاية الروحية. ثم عرض عليه فى نهاية رسالته أما أن يرد جميع ما إستولى عليه من الغنائم والأسرى فى حروبه مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جعفر بن فلاح بدمشق وسعادة بن حيان بالرملة وأما أن يسير الحسن وأتباعه أى الشرطين وختم كتابه قائلا: "وما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرر..."ولما تسلم الحسن بن احمد القرمطى هذه الرسالة كتب إلى المعز قائلا:"وصل إلينا كتابك الذى كثر تفضيله وقل تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام". وبعد قليل أعد حملته الثانية وزحف على مصرسنة ٣٦٣ هـ وتوغل القرامطة فى الأراضى المصرية على هيئة موجة عظيمة أكتسحت ودمرت كل ما صادفها في طريقها. وقد أعد المعز العدة لمواجهة هذا الخطر، وبالرغم من أن عهد الله بن المعز قد اعد العدة لمواجهة هذا الخطر، وبالرغم من أن عهد الله بن المعز قد تمكن من تدمير القوة الرئسية من جيش القرامطة نحو القاهرة. على أن المعز ما لبث أن أهتدى إلى خدعة يدرأ بها ذلك الخطر الجاثم أمامه، فقدم رشوة إلى زعيم بنى طئ اعظم خلفاء القرامطة ومقدارها مائة الف دينار مزيفة سكها خصيصا لهذا الغرض، وكان هذا المبلغ كافيا لحمل بنى طى على خذل حليفهم الحسن بن أحمد الذى أضطر إلى التقهقر بجيوشة إلى بلاد البحرين وبذلك نجت الدولة الفاطمية من كارثة كادت تطيح بها وهى ما تزال فى مهدها، وأستطاعت أن تسترد بلاد الشام.

إلا أن الخطر القرمطى كان ما يزال يهدد دولة الفاطميين خصوصا بعد أتحادهم مع الأتراك بقيادة افتكين. وحاول المعز أستمالة أفتكين ولكنه مات قبل أن يحقق أمنيته.

وتوفى المعز فى شهر ربيع الاخر سنة ٣٦٥ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - العزيز بالله أبو منصور نزار:(٣٦٥ - ٣٨٦ هـ/٩٧٥ - ٩٩٦ م) :

تولى الخلافة وهو فى الثانية والعشرين من عمره وكان حاكماً قديرا متسامحا ويعتبر عهده عهد يسر ورخاء وتسامح دينى، وقد أخذ عليه رعيته محاباته لليهود والمسيحيين حتى أنه تزوج من مسيحية وأنجب منها ولده الحاكم بأمر الله الذى تولى الخلافة من بعده. وقد قلد عيسى بن نسطورس النظر في الوزارة بعد وفاة وزيره يعقوب بن كلس كما عين منشا بن إبراهيم اليهودى على بلاد الشام، وكان عهده عهد إزدهار فى الثقافة، فهو أول من حول الجامع الأزهر الى جامعة علمية كبرى. كذلك كان عهد ه عهد ترف فبنى كثيرا من المنشئات التى تدل على ثراء مصر وقتئذ منها القصر الغربى الصغير. كذلك شرع فى سنة ٣٨٠ هـ فى تأسيس المسجد الذى سمى فيما بعد بإسم ولده الحاكم، وأقامت تغريد زوجة المعز في عهده مسجد القرافة وقصر القرافة.

وقد ذكرنا أن القرامطة والأتراك تجمعوا على إزالة ألفاطمية فى سوريا فعمد العزيز بالله منذ بداية عهد إلى معاملتهم باللين وإستمالتهم إليه، فكتب إلى أفتكين زعيم الأتراك بعده بحسن المكافأة إذا جلا عن دمشق فرد عليه افتكين"هذا بلد اخذته بالسيف وما إدين لأحد بطاعة ولا أقبل منه إمرا".

فثار العزيز لذلك وطلب جوهر الصقلى وعهد إليه بمقاتلة أفتكين، فسار جوهر سنة ٣٦٦ هـ إلى الشام وأحتل الرملة، وكان أهل دمشق قد أجتمعوا على مساعدة أفتكين ودار القتال بين جوهر وأفتكين فى دمشق، فكاد جوهر أن ينتصر لولا أن أفتكين استنجد بالحسن القرمطى فلبى نداءه، وسار إلى دمشق، فطلب جوهر الصلح على أساس ان يجلو لهما عن دمشق، ورحل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوهر من دمشق فى جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ وسار إلى طبرية ثم الرملة وهناك التحمت جيوشة مع جيوش القرامطة، وأضطر أفتكين إلى مساعدة القرامطة، فلم يجد جوهر بدأ من النكوص إلى عسقلان وتبعته جيوش القرامطة والأتراك، وحاصرت قواته فيها حتى ساءت حال جنود جوهر وأكلوا الميتة: عندئذ عمد جوهر الى دهائه فاستمال إليه أفتكين واتفق معه على أن يتركه يرحل من المدينة بشرط ان يؤدي اليه جوهر مبلغا من المال ويخرج بجيوشه من تحت سيف أفتكين ورمح الحسن بن احمد وهما معلقان على أحد أبواب عسقلان وقد قبل جوهر هذا الصلح مع من المذلة والمهانة لكسب الوقت حتى اذا ما أتيحت له الفرصة قضى على كل من أفتكين وحلفائها لقرامطة. ولما عاد جوهر إلى مصر وأخيراً الخليفة فزحف مع قائده جوهر إلى بلاد الشام وتمكنا من هزيمة أفتكين والحسن بن أحمد سنة ٣٦٨ هـ وفر الحسن القرمطى هاربا، أما أفتكين فقد أسر وهو يحاول الهرب على فرس له وأكرمه العزيز بالله وأخذه معه إلى مصر وعفا عنه وظل يحيا تحت ظله حتى مات فى سنة ٣٧٢ هـ. هكذا توطد سلطان الفاطميين فى بلاد الشام بفضل جهود جوهر.

وإتسعت رقعة الدولة الفاطمية فى عهده وإمتدت ممتلكاتها من بلاد المغرب والحجاز شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوباثم عمد العزيز بالله إلى نشر عقائد المذهب الشيعى فى الجوامع، وكان يعقوب بن كلس قد تقلد الوزارة فى سنة ٣٦٨ هـ فأدار شئون البلاد بمهارة فائقة وأقترن أسمه بإصلاح نظام الضرائب فزادت موارد الدولة ما ليا مما جعل العزيز يستكثر من الأبنية كما يرجع الفضل إليه أيضا فى نشر المذهب الفاطمى. وكان أديباً قام بتأليف بعض الكتب لنشر الدعوة الشيعية وهو الذى وجه نظر العزيز إلى تحويل الجامع الأزهر إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جامعة كبرى تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية، وأوقف العزيز الأوقاف على الجامع.

وبرز في عهده طائفة من الشعراء والكتاب الأطباء والمؤرخين، فمن الشعراء أبو حامد الأنطاكي، وفي الطب علي بن رضوان، وفي التاريخ الحسن بن ابراهيم بن زولاق وأبو الحسن علي الشابشتي الذي تولى خزانة الكتب وكانت هذه الخزانة مفخرة للفاطميين واكبر دليل تقدم الآداب والعلوم. وكان الخلفاء والوزراء يحرصون على أقتنائها ويذكر المقريزي أن رجلا عمل إلى العزيز نسخة من كتاب الطبري فأمر العزيز أمناء المكتبة فأخرجوا من الخزانة ما يزيد على عشرين نسخة من تاريخ الطبري. وكان في الخزانة مخطوطات محلاة بالذهب والفضة، وقيل أن عدد الكتب بلغ نحو مليون وستمائة ألف وقيل مليونين في الفقه والنحو واللغة والحديث والسير والتنجيم والكيمياء، وتوفي العزيز في رجب سنة ٣٨٦ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشر الدعوة الفاطمية وأذرهار من العمارة:

أزدهر فن العمارة فى عهد الفاطميين ازدهاراً تكشف عنه آثارهم، ونقصد بالعمارة هنا المنشئات الدينية كالمساجد والأضرحة والقباب والمنشآت الحربية كالأسوار والأبواب والمنشآت المدنية كالقصور والدور والحمامات والفنادق. ويعتبر عصر الفاطميين فى مصر من أزهى عصور الفن الإسلامى ومع أن عصر المماليك قد فاقه فى كثرة الأبنية وتعدد أنواعها والتفنن فى زخرفتها فأن الفنون الصناعية والزخرفية بلغت قمة عظمتها فى عصر الفاطميين ولقد أسس الفاطميون قصورا فخمة أندثرت تماما ولم تترك وراءها سوى قطعة من أبواب وأخشاب حفرت عليها صور تمثل الحياة الأجتماعية فى مصر وقتئذ من مناظر لمجالس والأنس والطرب والشرب والطعام وغير ذلك، كما تبقت مجموعة هائلة من الخزف الفاطمى أسفرت عنها الحفائر التى أجريت بمدينة الفسطاط. على أن العصر الفاطمى يتميز بكثرة المنشآت الدينية كالمساجد والأضرحة مثل جامع السبع بنات والمسجد الأقمر وجامع الصالح طلائع ومشهد الجيوشى وضريح السيدة رقية وضريح السيدة أم كلثوم، وذلك أن العدد الأعظم من المصريين كانوا يدينون بالمذهب السنى بينما كانت هناك قلة من الشيعة. فعمد الفاطميين منذ أستقرارهم بمصر على نشر الدعوة الفاطمية وتوسلوا فى سبيل تحقيق هدفها هذا بوسائل مختلفة منها تشجيع التواليف التى تعالج موضوعات التشيع والكتب التى تتناول العقائد الفاطمية وتشجيع الكتاب والشعراء بالصلات والرتب والمناصب ومنها نشر الدعوة فى المساجد الجامعة. وقد أستتبع بناء القاهرة بناء مسجد للمدينه الفاطمية الجديدة أسوة بالجامع الطولونى فى القطائع وجامع عمرو بالفسطاط، كما كان الغرض منه أن يكون معهدا لفئة معينة من الطلاب المتأثرين بالدعاية الفاطمية يتلقون فيه اصول المذهب الشيعى وهو المذهب الدولة على أساتذة من الشيعة، وكانت الدولة تنفق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليهم بسخاء وتوفر لهم وسائل العيش وأسباب الراحة بلا أجر. حتى اذا ما أتموا دراستهم عملوا على نشر تعاليم هذا المذهب بين طبقات الشعب المصرى السنى. كانت تلك هى الغاية الأساسية من أنشاء الجامع الأزهر وسنرى أن هذا الجامع ظل معطلا بعد سقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧ هـ (١١٧١م) أذ دخل فى حيازة أهل السنة حتى أهل السنة حتى أذا ما قامت دولة المماليك سنة ٦٤٨ هـ(١٢٥٠ م) عاد الجامع الأزهر إلى نشاطه وتحولت وظيفته الى جامعة علمية يتلقى فيها الطلاب فروع العلم المختلفة. وما لبث أن يكون مجتمعا ثانيا للمسلمين يجتمعون فيه.

الجامع الازهر:

هو أول جامع أنشىء فى القاهرة، شرع القائد فى بنائه فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٢ أبريل سنة ٩٧٠ م) بأسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وتمت عمارته فى رمضان سنة ٣٦١ (٢٤ يوليو ٩٧٢م) أى فى أقل من عامين. ولكن المسجد الجامع الذى نشاهده اليوم، ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وضع جوهر أساسه بل هو مجموعة من المنشأت التى ضمت إليه فى أزمنة مختلفة، فقد تعرض خلال الألف سنة التى مضت على بناءه للزيارة فيه والإصلاح والترميم حتى أصبح اليوم بأجزائه المختلفة وأضافاته المتعددة معرضا للعمارة الإسلامية المصرية منذ العصر الفاطمى حتى العصر الحاضر وكان المسجد الذى اقامه جوهر يشتمل على بيت للصلاة طوله ٨٥مترا تقريبا وعرضه ٢٤,٥ مترا، وكان بيت الصلاة يضم خمسة بلاطات طولية تمتد بحذاء جدار القبلة على تسعة عشر بلاطا طولية عرضا كل منها ٤ أمتار تقريبا، وكان يتوسط هذه البلاطات بلاطة وسطى عرضها ٦,٥ مترا وكان للمسجد زمن المعز صحن أو بهو طوله خمسون مترا وعرضه ٣٢,٥ مترا، وكان لهذا الصحن مجبنبتان تنقسم كل منهما إلى ثلاث بلاطات وكان للمسجد أحد عشر مدخلا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأول مانلاحظه في تخطيط هذا المسجد أتجاه عقوده في موازاة جدار القبلة وكذلك أتجاه عقود المجنبات في موازاة جدار القبلة ، وظاهرة أتساع البلاط الاوسط تذكرنا بالتقاليد التونسية الموجودة في جامع القيروان . وترتكز العقود على أعمدة تعلوها تيجان. وتعلو التيجان حدائر وتربط بين الأعمدة أوتار خشبية تسند العقود وتلاقي دفع الضغط، وتبدو عقود الأزهر على شكل جديد سمي بالعقود الفارسية مبنية بالأجر ومكسورة بطبقة جصية. وأقيمت بين أطراف العقود على نمطها ما نشاهده في جامع أبن طولون طاقات مستطيلة الشكل تعلوها زخارف من قواقع داخل عقود فارسية فاطمية أيضا وتركز هذه العقود القوقعية على عمد صغيرة كذلك، كما تعلو رؤوس العقود دوائر زخرفية أو سرر ويعلو واجهات الصحن أفريز زخرفي مخرم من مضلعات ونجوم ويعلو هذا الأفريز شرفات مقصوصة على شكل اسنان ذى خمس درجات مخرمة بزخارف نباتية والغالب ان شكل هذه الشرفات أستوص من العمارة الشرقية في بلاط الجزيرة من العهد الأشورى والأصل فيها أنها ترمى الى غاية حربية وقد أقيمت أمام المحراب قبة على النظام التونسي. والأصل في القبة أنها تزيد من أضاءة المحراب وأن تكون علامة خارجية له. وقد يكون لها أصل رمزى ديني وينتهي بلاط المحراب على الصحن بقبة ثانية هي أيضا من تأثيرات الفن التونسي أقيمت في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤).

التطورات التي لحقت بالمسجد

أضيفت إلي المسجد أبنية أخرى في أزمنة مختلفة حتى وصل الجامع على الحالة التي هو عليها اليوم أذ أنه جدد في العصر الفاطمي وحده خمسة مرات، الأولى أيام العزيز بالله أى بعد مضى سنوات من أنشائه فقد حول العزيز بالله المسجد إلى جامعة تدرس فيها العلوم بفضل وزيره أبى الفرج يعقوب بن كلس وأجرى الأرزاق على الطلاب وبنى لهم مساكن وأقام

دارا للفقهاء بجوار الجامع وقد سار الخلفاء من بعده على نهجه فى تعمير الأزهر وتوسعته. وكانت مكتبة الأزهر تحتوى على كثير من الكتب العلمية والمصورات الجغرافية. ثم أصلح المسجد مرة ثانية فى أيام الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ فنقل الكتب التى كانت تزخر بها دار الحكمة إلى الإزهر وجدد بناءه. وجدد الجامع مرة ثالثة فى زمن المستنصر بالله ومرة رابعة فى أيام الآمر بأحكام الله الذى أقام به مقصورة سنة ٥١٩ هـ ومرة خامسة فى أيام الحافظ لدين الله الذى أقام بالمسجد فية الصحن. ولما تولى صلاح الدين سلطنة مصر سنة ٥٦٧ هـ منع الخطبة فى الجامع الأزهر ولم يمس المسجد فى عهد الدولة الأيوبية وانتزع سلاطين هذه الدولة كثيرا من أوقافها الفاطميون عليه وظلت صلاة الجمعة معطلة فى الجامع حتى أعادها فيه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ.

فلما تولى الظاهر بيبرس سنة ٦٥٧ هـ أمر بأعادة الخطبة والصلاة فى الجامع ووقف عليه الأوقاف الكثيرة وأتخذه معهدا للعلم سنة ٦٦٥ هـ ثم أصلح الجامع على يد الأمير عز الدين أيد مراذ أقام له منبرا وحلاه بزخارف جصية ثم عمره الأمير سلار سنة ٧٠٢ هـ فأضاف اليه جصية أخرى ثم أضاف إليه الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش فى دولة الناصر محمد مدرسة سنة ٧٠٩ هـ سميت بالمدرسة الطيبرسية غلى يمين الداخل من الباب الرئيسى.

وفى سنة ٧٤٠ هـ أقام الامير أقبغا عبد الواحد المدرسة الاقبغاوية على يسار المدخل الرئيسى وحولت هذه المدرسة الى مكتبة للازهر سنة ١٣١٤ هـ. ويسترعى النظر فيها جمال مدخلها ومحرابيها برخامها الدقيق وفسيفسائها المذهبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويهمنا أن نعرف من بين هذه الإضافات التى تلاحقت على المسجد المئذنة التى بناها الظاهر برقوق سنة ٨٠٠ هـ والمدرسة الجوهرية التى أنشأها جوهر القنقبائى فى عهد السلطان الاشرف برسباى والمئذنة التى أقامها السلطان قايتباي سنة ٨٧٣ على يمين المدخل وتعتبر من أرشق مآذن مصر. وفى سنة ٩٢٠ هـ جدد الملك الاشرف قانصوة الغورى الجامع وأنشأ به مئذنة ذات رأسين بجوار مئذنة قايتباى. ثم تواترت على المسجد فى العهد العثمانى عدة إصلاحات أهمها زيادة عبد الرحمن كتخدا فى بيت الصلاة . وظل الجامع الأزهر موضع عناية السلاطين والأمراء حتى وقتنا هذا.

دور الأزهر كجامعة علمية:

بنى جوهر جامع الأزهر ليتلقى فيه الطلاب عقائد المذهب الفاطمى وعملا بسنة الحكام فى أقامة جامع لكل مدينة جديدة، وكان أول درس بالأزهر الفقه الفاطمى على المذهب الشيعى ففى رمضان سنة ٣٦٥ هـ كان على بن النعمان يملى على طلبته مختصر أبيه فى الفقه عند أهل البيت وظل الجامع الأزهر مهد الفقه الفاطمى حتى سنة ٣٨٠ هـ حين شرع العزيز بالله فى بناء جامع الحاكم سنة ٣٨٠ هـ فكان يختلف إليه الفقهاء الذين يقومون بالتدريس فى الأزهر. وكان الأزهر بجانب كونه جامعاً جامعة علمية كبرى، فقصده الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى لذلك شد الخلفاء الفاطميون لهم أروقة للسكنى وأثثت هذه الأورقة بأماكن للوضوء وأخرى لإعداد الطعام. وقد أتاحت هذه المساكن للطلبة الغرباء على أختلاف جنسياتهم المعيشة وشجعت غلى إجتذاب عدد كبير منهم من سائر أقطار الارض. وكان بين هذه الأروقة المعدة لسكنى الطلبة رواق الصعايدة لأهل الصعيد ورواق اليمن ورواق الحرمين الشريفين لطلبة الحجاز ورواق دارفور ورواق الأكراد ورواق الهنود ورواق البغدادية ورواق الأتراك ورواق الشام ورواق المغاربة وكان لكل رواق شيخ يختاره الطلبة من بينهم ليشرف عليهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويدافع عن حقوقهم . ولم تقتصر الدراسة فى الأزهر على المذهب الفاطمى بل تجاوزته إلى دراسة العلوم الرياضية والجغرافية الفلكية. وهكذا أدى الأزهر خدمات جليلة الشأن للنهضة العلمية فى مصر والعالم الإسلامى.

٣ - الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م)

كان العزيز بالله قد عهد فى سنة ٣٨٣ هـ إلى أبنه أبى على منصور الملقب بالحاكم بأمر الله بالأمامة من بعده، فلما مات العزيز سنة ٣٨٦ هـ بويع الحاكم بالخلافة وله أحدى عشرة سنة ونصف، وكان أبو محمد الحسن بن عمار أول وزير للحاكم وكانت الوزارة تسمى الوساطة ،لم يلبث أبن عمار فى الوساطة طويلا فقد أختلف عليه أهل الدولة ووقعت حروب أدت إلى صرفه وأقيم على الوساطة الطواشى الأستاذ أبو الفتوح برجوان الصقلى فى رمضان سنة ٣٨٧ وكان برجوان الخادم خصيا أبيض اللون نشأ فى دار الخليفة العزيز بالله وولاه أمر القصور فلما حضرته الوفاة أوصاه بأبنه أبى على المنصور.

وإرتفع برجوان ونال من السلطان ما جعله يستبد بأمور الدولة دون الحاكم ويذكر المقريزى أنه. «قصر عن الخدمة وأشتغل بلذاته وأقبل على سماع الغناء وكان كثير الطرب شديد الشغب به، فكان يجمع المغنيين من الرجال والنساء بداره فيكون معهم كأحدهم «ويضيف المقريزى إلى ذلك أن برجوان لم يكن يحترم الحاكم الإحترام الكافى وفى ذلك يقول «وكان برجوان من أستبداده يكثر من الدالة على الحاكم فحقد عليه اموراً منها أنه قال بعد أن قتله أنه كان سئ الأدب جدا. لهذا حقد عليه الحاكم وبدأ ينقم عليه ويدبر لقتله.

وفى سنة ٣٩٠ هـ (فى ٢٦ ربيع الآخر) أرسل الحاكم إلى برجوان فى المساء يستدعيه للركوب إلى المقس فقتله الحاكم فى بستان بالقصر، وأصدر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سجلا فى سنة ٣٩٠ (٢٧ ربيع الآخر) برر فيه مقتل برجوان قرئ فى مسجد القاهرة بمصر والجزيرة.

ويبدو أن برجوان قد أستمال إليه كثيرا من طوائف الجند وكبار رجال الدولة لذلك أحدث مقتله صدى عميقا وأدى إلى حدوث إضطرابات واضطرب الحاكم إلى إسترضاء هذه الطوائف وأصدر سجلا أعلن للمصريين جميعا أسباب قتله لبرجوان ومن بين ما قاله "أن برجوان عبدى أستخدمته فنصح فأحسنت إليه ثم أساء فى أشياء عملها فقتله".

وبعد مقتل برجوان أنفرد الحاكم بالسلطة فأخذ يتعصب للمذهب الفاطمى ويضطهد العناصر غير الشيعية كالسنيين والمسيحيين واليهود فقتل فهد أبن إبراهيم النصرانى الذى أتخذه برجوان كاتبا له وذلك لأن فهد هذا كان يتحيز للنصارى. ولم يمضى على قتله فهد تسعة وعشرين يوماً حتى قتل ابن العداس فى، شعبان سنة ٣٩٣ ثم أمر الحاكم بالقبض على رؤساء الكتاب من النصارى وفى سنة ٣٩٥ هـ أمر الحاكم النصارى واليهود بلبس الشارة التى يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين ثم بدأت سياسته العدائية تظهر فى وضوح بعد ذلك بثلاث سنوات فهدم بعض الكنائس. وقد أدت سياسته هذه القائمة على أضطهاد النصارى واليهود إلى دخول عدد كبير منهم فى الإسلام وهجرة عدد آخر إلى بلاد الروم والحبشة والنوبة، ووافق الحاكم على هذه الهجرة.

ثم يناقش الحاكم نفسه بعد ذلك فيتراخى في سياسة الأضطهاد التى أتبعها مع أهل الذمة فيولى بعضا منهم الوزارة مثل أبن عبدون الذى تولاها سنة ٤٠٠ هـ وزرعة أبن نسطورس أخو عيسى بن نسطورس ثم أصدر الحاكم بعد ذلك عدة مراسيم أطلقوا عليها حرية الشعائر الدينية لليهود والنصارى وأعاد إليهم ما أخذه من كنائسهم وأديرتهم. ويبدو أن الحاكم غير سياسته التعصبية لسببين أحداهما إغارة أبى ركوه الأموى على مصر والثانى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنخفاض النيل مدة ثلاث سنوات (٣٩٨ - ٤٠١ هـ) وما سببه ذلك من مضايقات للأهالى.

وتبدأ عدة مرحلة جديدة فى حياة الحاكم تبدأ من سنة ٤٠١ هـ وتمتد حتى سنة ٤١١ التى مات فيها. فقد بدأ الحاكم يظهر مضطربا متقلبا فأمر بنقش سب الصحابة على جدران المساجد ثم محاة وقال عنه المقريزى "أنه كان يعتريه جفاف على دماغه، ولذلك كثر تناقضه وكانت أفعاله تعلل وأحلامه لا تؤول". والواقع أن شخصية الحاكم ما تزال حتى اليوم غامضة وعلينا أن نتوخى الحذر فى الإتهامات التى وجهت إليه.

وكان الحاكم مغرما بالتنجيم والفلك فبنى سفح المقطم ومرصد عرف بأسم المرصد الحاكمى وكان يكثر من الذهاب اليه. وقد نسب إليه أنصاره أمثال الحسن الأخرم وحمزة الدرزى صفات الألوهية فأذا سار خروا له ساجدين وفى سنة ٤١١ نادى الأخرم فى المسجد الجامع الفسطاط "بسم الحاكم الرحمن الرحيم "، وقد أظهر الحاكم إنكاره لذلك.
كذلك ساهم فى الدعوة بألوهية الحاكم محمد بن إسماعيل الدرزى وأدعى أن روح على إنتقلت إلى العزيز بالله ثم أنتقلت إلى الحاكم ومنذ ذلك الحين ظهرت طائفة الدروز الذين قاموا بالدعاية له.

على أن الحاكم رغم ماقيل فيه لعب دورا هاما فى نشر العلوم، ففى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ أنشأ دار الحكمة على غرار دارالحكمة التى أسسها العباسيون فى بغداد فألتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء وألحق بها مكتبة سماها دار العلم أجتمع فيها عدد هائل من الكتب. . وكان يجتمع مع المشاهير العلماء فى الرياضة والمنطق والطب الخلع والجوائز الثمينة، ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم أستدعى العالم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصرى الكبير أبا على، الحسن بن الهيثم عندما بلغه براعته فى فن الهندسة وعهد إليه بفحص مجرى النيل وبحث الوسائل اللازمة لإستغلال مياهه.

وقد أختلف الرواية فى وفاة الحاكم فيقول بعض المؤرخين أن أخته ست الملك هى التى أتفقت مع سيف الدولة بن دواس احد زعماء كتامة على قتله رغبة منها فى الإستئثار بالسلطة ولأنه كان قد أتهمها فى أخلاقها. وعلى الرغم من إجماع المؤرخين على ذلك فأن المقريزى يبرىء ست الملك من جريمة قتل أخيها. و يقول «أن أتهامها بقتله جاءنا من كلام المشارقة وأورد لنا رواية تتلخص فى أن رجلا من أحدى بلاد الصعيد فى سنة ٤١٥هـ وأدعى أنه قتل الحاكم ولما سئل عن سبب قتله قال "قتلته غيرة لله والدين" فقيل له وكيف قتلته؟ فأخذ سكينا وضرب به نفسه وقال: وهكذا قتلته ولم يلبث أن خر صريعا ومات. ويقول آخرون أنه كان عند مقتله راكبا حمارا وبصحبته رجلان وأنه أختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر. فقام بعض رجال الدولة وقضاتها بالبحث عنه فعثروا على الحمار الذى ركبه مقطوع الأرجل وعثروا على ثياب الحاكم ممزقة بجوار بركة شرقى حلوان وأستقر الرأى على آن الحاكم لقى حتفه بصورة من الصور. وقد أشار أبن خلكان الى ذلك بقوله "وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه فأقاموا ولده فى يوم النحر".

وأتخذ حمزة بن على ومحمد بن إسماعيل الدرزى وكانا قد فرا إلى الشام من الظروف التى لابست أختفاء الحاكم مادة جديدة لدعوتهما فأذاع حمزه بن على فى سنة ٤١١هـرسالته عن أختفاء الحاكم تعرف بالسجل زعم فيها أن الحاكم لم يقتل ولم يمت ولكنه أختفى وعلل غيبة الحاكم بغضبه على أمته لما اقترفت من أثام كما بشر برجعته حين تأتى الساعة فى آخر الزمان. وليست فكرة تألية الحاكم ثم القول برجعته فكرة جديدة فأن بعض

الشيعة كانوا يعتقدون بأن عليا وخلفاءة من الائمة ليسوا بشرا عاديين ولكنهم يتصلون إلى حدما بالقوة الألهية فزعمت السبأية أنصار عبد الله بن سبأ أن عليا لم يمت وأنه مستقر بالحساب وقالت الكيسانية أن محمد بن الحنفية مستقر بجبل رضوى بالقرب من ينبع.

على أن السبب المباشر فى أختفاء الحاكم يرجع الى أن الحاكم عهد بولاية العهد من بعده لأبن عمه عبد الرحيم بن الياس بدلا من أبنه وفى هذا خروج عن مبدأ الامامة الفاطمية التى تشترط أن تنتقل الإمامة من الأب الى الأبن الأكبر، وقد آثار هذا التصرف الرأى العام الشيعى على الحاكم فأختفى بينما أوعزت ست الملك أخته الى من قتل ألياس سنة ٤١١ فى تنيس.

ومن أعمال الحاكم أكماله لبناء الجامع الذى شرع فى بنائه العزيز بالله سنة ٣٨٠ هـ خارج باب الفتوح وكان يشتمل على بيت للصلاه يتألف من خمسة بلاطات موازية لجدار القبلة يخترقها فى وسطها بلاط يؤدى إلى المحراب وأقيم على طرفى جدار المحراب قبتان تتوسطهما قبة ثالثة أمام المحراب. كما أقيمت على طرفى الواجهة الشمالية للمساجد مئذنتان يتوسطهما الباب الرئسى. وقد هدم كثير من عقود الجامع وأكتافه الحاملة لها على أثر زلزال حدث سنة ٧٥٢ هـ وسقط السقف كما سقطت قمتا المئذنتان فر منهما الأمير بيبرس الجاشنكير بأمر السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٣ ثم أصلح الجامع مرة أخرى فى عهد السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد سنة ٧٦٠ هـ.

٤ - الظاهر لاعزاز دين الله :(٤١١ - ٤٣٧ هـ)

تولى أبو هاشم الظاهر فى شوال سنة ٤١١ هـ وكان فى السادسة عشرة من عمره فقامت عمته ست الملك بالوصاية عليه حينا وأظهرت كفاية ممتازة فى أدارة شئون البلاد وظلت تقوم بدور الوصية حتى وفاتها سنة ٤١٥ هـ.

وكان الظاهر سمحا عاقلا بريئا من الإتهامات التي وجهت إلى والده. وقد أعلن الظاهر بعد ثلاثة أعوام من وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التى قيلت فى أبيه، وكان متأثرا فى ذلك برغبته الصادقة فى تطهير مصر من هذه الحركة الخطيرة التى كادت تقوض أركان الدولة الفاطمية وتزعزعها والتى أثارت عاصفة من السخط حول خلفائها. ولا غرو فقد عرف الخليفة بميله إلى أستعمال العنف فى مطاردة الملحدين فأصدر الأوامر بتتبعهم فى سائر الأنحاء. كما جاهر بإنكار ما أدعاه بعض الناس من تألية آبائه وأجداده، وهدد بإيقاع الأذى الشديد على كل من تحدثه نفسه بذلك فى رسالة أذاعها على المصريين.

على أن الأمر الذى يجب ملاحظته أن المصريين لم يساهموا فى نشر دعوة الوهية الحاكم بل كان أغلب القائمين بنشرها من أبناء الفرس الذين ركزوا جهودهم منذ زال ملكهم على أيدى العرب على تفويض دعائم الإسلام ومناوأة سلطانه السياسى. وهذا يحملنا على الظن بأن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا إلى مصر وأشادوا بالوهية الحاكم كانوا يعملون لحساب جمعية ثورية مركزها فارس وغايتها أضعاف الدلة الإسلامية عن طريق بث القلاقل والفتن فيها، فعاونت القرامطة ضد الخلافة العباسية ثم لم تلبث أن ركزت قواها لإزالة دولة الفاطميين الفتية فبعثت اليها بدعاتها ليعملوا فى ظل الدعوة الفاطمية على اضرام نيران ثورة جديدة فى القاهرة، غير أن هذه المحاولة سرعان ما باءت بالفشل على الرغم مما أصاب الشعب المصرى من الأحداث الهائلة التى سببت له النكبات العظام نفسيا وماديا وكادت تعصف بتراثه الروحى وتقاليده الإجتماعية. وهكذا وقفت مصر بالمرصاد لهؤلاء الدعاة ومزقت شملهم وأخمدت فتنتهم فى مهدها وأضطرتهم إلى الفرار إلى جبال الشام حيث أنتظمت دعوتهم فى طائفة الدروز التى لا تزال تحتفظ إلى الأن بشىء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلى، ومن

أهم الخصائص إتخاذ الدرزية تقييما جديدا تؤرخ به حوادثها ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ وهى السنة التى ظهرت فيها دعوة تألية الحاكم على يد حمزة أبن على وأنصاره مثل الحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ومحمد أبن أسماعيل نشتكين البخارى الدرزى. وفد حمزة الى مصر سنة ٤٠٥ هـ وأنتظم فى سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون الى دار الحكمة واخذ ينشر فى الخفاء الدعوة إلى تألية الحاكم، ثم جهر بهذه الدعوة بعد أن لقى قبولا لدى بعض الغلاة. وفى سنة ٤٠٨ جهر حمزة بن على بدعوة الوهية الحاكم وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله حلت فى آدم ثم أنتقلت إلى على وأنتقلت إلى العزيز ثم إلى أبنه الحاكم وأن الحاكم قد أصبح فى نظرهم إلها عن طريق الحلول. وشجع صمت الحاكم هذا الداعى وأنصار مما زاد من مغالاة حمزة فى تلقيب نفسه بألقاب منها الإمام والدليل على عبادة الله والداعى إلى توحيد الله والناطق بحق الله...!.

ويعتبر حمزة بن على المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية وواضع ميثاق ولى الزمان، وأستغل الحسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى فى نشر عقائد هذا المذهب كما شجع الأخرم سنة ٤٠٩ على الجهر بتأليه الحاكم وكان الأخرم مقداماً لا يعرف الخوف ولكنه قتل فيما يظهر بعد أن آثار الأضطرابات فى جامع عمرو. ولكن قتل الأخرم لم يضعف من عزيمة غلاة الإسماعيلية فظهر بعده محمد بن إسماعيل الدرزى الذى وصل إلى مصر سنة ٤٠٨ ورحب به الحاكم وكان يقرأ كتابه عن تألية الحاكم فى الجامع الأزهر الأمر الذى آثار المصريين وسخطهم وكادوا يقتلونه لولا أن فر إلى الشام (١) وأقام دعوته هناك وأنتشر مذهبه وكثر أعوانه وما زالت طائفة الدروز تحتفظ حاليا بشيء من مميزاتها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلى، ويسمون أنفسهم بالموحدين.

وينقسم الدرزية إلى طائفتين: الأولى الروحانيين، وتتكون من الطبقة المستنيرة التى تلم بأصول المذهب الدرزى وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعقال وأجاويد، فالرؤساء بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية والعقال بيدهم الأسرار الداخلية المتعلقة بالتنظيم الداخلى للمذهب والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية:-

والطائفة الثانية هى طائفة الجثمانيين، وتنقسم إلى فريقين الأمراء الجثمانيين والعامة أو الجهال، فالأمراء الجثمانيون بيدهم شئون الحرب والزعامة الوطنية والعامة هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا أسمه. ولا يحق لطبقتى الجثمانيين الدخول فى مجالس طائفة الروحانيين ولا يسمح لهم بالإنتظام فى طائفة الروحانيين إلا بعد إجتياز أختبار طويل شاق.

وقد وضع الدروز كتبا كثيرة عن مذهبهم منها مخطوط عنوانه - رسائل الحاكم بأمر الله للقائمين بأمر دعوته "وهى رسائل تقوم على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة.

أستطاع الظاهر أن يكسب بفضل ما أوتى من حسن السياسة محبة أهل الذمة له فتمتعوا فى عهده بالحرية الدينية، ولم يقم الظاهر بكثير من المنشآت لإشتغاله بتحسين حال البلاد وقد بنى فى عهده منظرة اللؤلؤ بالقرب من القصر الصغير، وتعد من أجمل المناظر التى أنشئت فى القاهرة. ولم يطل عهد الظاهر أذ توفى سنة ٤٢٧ هـ وهو فى ريعان الشباب (٣١ سنة) وكان قد تزوج من أمه سوداء كانت جارية فى بيت أبى سعيد انسترى أنجبت له أبنة سعد أبا تميما الذى تلقب بالمستنصر بالله. وقد أستكثر الظاهر من المماليك السودانيين فى جيشه ويرجع أستخدام العناصر الأجنبية فى مصر إلى أيام الدولة الطولونية فقد أشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة مماليك الديلم ليقوى بهم جيشه ثم جاءت الدولة الإخشيدية وعلى رأسها محمد بن طغج الإخشيد وكان معظم الجيش فى عهده وعهد من جاء بعده (أنوجور وعلى) من الأتراك والديلم. ولما آلت ولاية مصر إلى كافور أستكثر من عنصر السودان فى الجيش وأصبح يطلق

على فرقتهم أسم الكافورية وقد أشتد العداء بين هذه الفرقة وبين الإخشيدية وتفاقم الخلاف بسبب أستئثار كافور بالسلطة فى مصر. ولما جاء الفاطميون إلى مصر وأسسوا دولتهم ساروا على طريقة العباسيون فى الإعتماد على غير أبناء جنسيتهم وأصبح جيشهم يتألف من عدة عناصر -

أولا - **المغاربة**: الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر، وكانوا يدينون بالمذهب الفاطمى وقد أعتمد الفاطميون على هؤلاء المغاربة وخاصة على الكتاميين منهم وهم عصب الدولة الفاطمية وأساس قوتها فى مصر. وكان زعيمهم فى عهد الحاكم أبو محمد الحسن بن عمار.

ثانيا : **السودان**، الذين بدأ ظهورهم منذ أيام كافور وكثر عددهم فى عهد الخليفة الحاكم الذى أستعان بهم ضد المصريين السنين، وفى أيام الخليفة الظاهر الذى جلب منهم عددا كبيرا أرضاء لزوجته السودانية.

ثالثا :**الأتراك**، الذين أشتراهم الخلفاء الفاطميون وقوى أمرهم فى عهد الحاكم حين بالغ الحسن بن عمار فى محاباة المغاربة وأعتمد عليهم وأبطل أعطيات الأتراك مما أدى إلى التطاحن بين الفريقين. كذلك وقع الخصام بين المغاربة والأتراك فى عهد المستنصر بالله وسنذكر كل ذلك فى حينه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥- عهد المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ)

توفى الظاهر فى المقس سنة ٤٢٧ فأخذ وزيره الجرجرائى البيعة لأبنه بعد أبى تميم الذى تولى الخلافة وتلقب بالمستنصر بالله وكان فى السابعة من عمره فقامت أمه بالوصاية عليه وأحاطت نفسها بجيش قوى من السودان فزاد بذلك من عداء البربر والسودان وهما العنصران اللذان كانا يؤلفان أغلبية الجيش الفاطمى. وكانت الخصومة القائمة بين هذه الفرق سببا فى الكوارث التى دمرت حكم المستنصر الطويل الأمد.

وتمتعت مصر فى الفترة الأولى من حكم المستنصر برخاء لم تشهده من قبل وكان سلطان الدولة الفاطمية فى هذا العهد الأول يمتد على الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وأفريقية وأعترف الصليحى الشيعى فى اليمن بسلطان المستنصر سنة ٤٥٥ هـ وأقيمت الخطبة للمستنصر على منابر بغداد على يد البساسيرى القائد العباسى . غير أن هذا الرخاء لم يدم طويلا أذ سرعان ما أنقطع ماء النيل وأهملت الزراعة وأنتشرت المجاعات والأوبئة وعم القحط أنحاء البلاد وقامت المعارك بين عناصر الجيش المختلفة فى الطرقات وتأزمت الحالة .

وتعاقبت الوزارات بعد مقتل الوزير أبى محمد الحسن اليازورى سنة ٤٥٩ الذى حاول أصلاح الحالة دون جدوى حتى كثر عدد الوزراء الذين تولوا الوزارة فى أمد قصير ولم يستطيع الخليفة ولا وزراؤه أن يكبحوا جماح الجند الأتراك والمغاربة والمغاربة والسودان فقام هؤلاء بكثير من أعمال السلب والنهب والعنف والشدة، وكانت أم الخليفة تتعصب لجند السودان على الأتراك وأشتد النزاع بين الأتراك والسودانيين ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة وقف فيها الجند لمغاربة فى جانب الأتراك فأوقعوا الهزيمة بالسودانيين فى موقعة

كوم الريس بالصعيد سنة ٤٥٤ هـ وأستقر من السودانيين نحو ١٥ ألفا فى الصعيد عاثوا فى البلاد فسادا وأخذوا يشنون هجماتهم المتواصلة على القاهرة رغبة فى الإستلاء عليها وطرد الأتراك منها. وأزداد نفوذ الأتراك فى القاهرة بعد أن طردوا السودان إلى الصعيد وسرعان ما أستفحل خطرهم.بعد أن خلا لهم الجو فأخذوا يطالبون الخليفة بزيادة رواتبهم (سنة ٤٦٠هـ) فزاد من أعطياتهم ولم يلبث أن ظهر لهم عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة إيرادات الدولة فلجأوا إلى القوة فى سبيل الحصول على أرزاقهم فنهبوا قصر الخليفة وأستولوا على ما فى خزائن الدولة من أموال وبددوا ما كانت تحتويه قصور الخليفة من تحف وكنوز كما بددوا كتب دار العلم التى أنشأها الحاكم . وأزداد نفوذ الأتراك بزعامة نصر الدولة بن حمدان الذى أخذ يعمل منذ سنة ٤٦٢ على الأستئثار بالحكم وأضعاف نفوذ الخليفة فبدأ بأن حذف أسم الخليفة من الخطبة وهدد مصر بوضعها تحت سيادة بغداد. وكانت الحكومة الفاطمية فى ذلك الوقت تغض الطرف عما ينهبه الجند من قصور الخليفة لئلا يمتد إلى الشعب فيزيدونه بؤسا على شقائه، وكان الشعب مقضيا عليه بالبؤس منذ أن أنقطع الغذاء من أسواق القاهرة وأنعزلت القاهرة من سائر البلاد. وبينما كان الأتراك يسيطرون على السودان يحكمون الصعيد فقلت الأقوات وأرتفع ثمن الكلاب وزاد الجوع بالناس حتى أضطروا إلى إختطاف الناس من الطرقات بواسطة خطاطيف يدلونها من النوافذ فيصطادون الناس ويأكلون لحومهم . وزاد عدد الموتى وأضطر عدد كبير من أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة البلاد والرحيل عنها إلى الشام والعراق وأطلق المؤرخون على هذه الفترة أسم الشدة العظمى لما حدث فيها من مصائب أفقدت المستنصر كل شىء ففرت زوجته إلى بغداد هربا من الطاعون ونهب الجند والعوغاء قصوره ازدادت حالة المستنصر سوءا حتى رآه رسول الخليفة القائم العباسى عند حضوره إلى القاهرة

جالسا فى إحدى حجرات القصر على حصير بال لابسا قبقابا وحوله ثلاثة من الخدم وتأثر الرسول من هذا المنظر المحزن ولم يتمالك نفسه من البكاء. ثم بدأت الإمبراطورية الكبرى التى أسسها المعز ووطد العزيز أركانها تنهار فسقطت صقلية فى يد الملك روجار النورماندي وشق أهل المغرب عصا الطاعة على الفاطميين وخرج المغرب عن سلطانه وخلعت الحجاز طاعته سنة ٤٦٢ هـ.

أمام هذه الإضطرابات التى شملت كل أنحاء مصر وما أصاب البلاد من نكبات أصبحت تهدد وجود الدولة نفسه أضطر المستنصر بالله إلى الإتصال سرا سنة ٤٦٦ هـ بأحد حكامه فى الشام الباقين على الولاء وهو بدر الجمالى والى عكا، وطلب منه المستنصر القدوم لتنظيم أمور مصر وإصلاح ما فسد فيها، فرحب بدر الجمالى بذلك على أن يصطحب معه فرقة من جنده الإرمن ليستعيض بهم عن خدمات جند الأتراك والمغاربة والسودان الموجودين بمصر. ولقيت هذه الرغبة قبولا حسنا فى نفس المستنصر وكان بدر الجمالى فى الواقع رجلا مشهودا له بالشجاعة والهمة وحسن الأدارة والحزم فمنحه المستنصر سلطة مطلقة فى سبيل أنقاذ البلاد..وكان ذلك بداية لعصر الوزراء العظام ودخل بدر الجمالى القاهرة فى جنده الأرمن وأستقبله الجند الأتراك وديا لجهلهم بالهدف الذى جاء من أجله وهو القضاء عليهم، وما لبث بدر أن دبر مؤمراة للتخلص من زعماء الأتراك وقوادهم أذ عين كل واحد من ضباطه على أحد قواد الأتراك ليقتله أثناء الليل وفى اليوم التالى تقدم ضباطه حاملين رؤوس هؤلاء القواد الأتراك الذين عهد إليهم بقتلهم . وبذلك تمهدت الأمور له وبلغ من شدة سرور الخليفة بذلك أن خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة وقلده نظارة السيف والقلم كما زاد فى القابه لقب «السيد الأجل أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين».[٢]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الأخير من تاريخ الدولة الفاطمية

وهكذا أنتهت أيام الشدة العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود التركية، واعادة بدر الجمالى الأمن والنظام فى البلاد. وقد وضع بدر الجمالى حدا لمظاهر الفوضى التى كانت سائدة فى مصر وأتبع سياسة جديدة تقوم على تعمير الريف فرخصت الأسعار وزاد إيراد مصر فتحسنت أحوال الناس ووجه بدر الجمالى همه إلى إصلاح حال البلاد فقضى على المفسدين فأزدهرت الزراعة والنجارة. وبعد أن فرغ بدر من إعادة الأمور إلى نصابها فى العاصمة والفسطاط بدأ يوجة عنايته إلى بقية الأقاليم فأتجة أولا إلى الشمال وخلص أقليم الشرقية من زعيم بنى لواته ويعرف بسليم اللواتى فقتله وصادر أمواله كما توجه إلى دمياط وقتل كثيرا من الخارجين على الخليفة ثم أتجه إلى الصعيد سنة ٤٦٩ هـ حيث كان الجنود السوادنيين فأنقض عليهم فجأة وقضى على أكثرهم وغنم غنائم كثيرة واعاد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان وترك فيها آثار جليلة. ولم تكن الحالة فى الإسكندرية بأحسن منها فى غيرها من المدن المصرية فقد ثارعليه فيها أبنه الأوحد سنة ٤٧٧ وألتف حول هذا الأبن جماعة من العربان فسار إليه أبوه وقبض عليه وقتل فريقا من أتباعه وصادر كثيرا من أموال أهالى الإسكندرية وأنفق منها على بناء جامع العطارين الذى ظلت تقام به الخطبة إلى أن أستبد صلاح الدين بأمر مصر. وقد أستطاع بدر الجمالى بعزمه ومهارته أن يعيد حال البلاد إلى مثل ما كانت عليه من الرخاء فاطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنوات حتى تحسنت أحوالهم وزاد أيراد مصر فى عهده من ٢ مليون دينار إلى ٣ مليون، و ١٠٠ ألف دينار.

فلما حل السلام بالبلاد أزدهرت وزاد الخراج وأستطاع بدر الجمالى أن ينفق بعض المال فى بناء المساجد وتعميرها مثل ذلك ضريح الجيوش وبعض مساجد الصعيد وجامع العطارين بالإسكندرية. وأتفق بنوع خاص على تحصين القاهرة وبنى سورا حصينا لها من الحجارة بدلا من السور القديم الذى بناه جوهر باللبن سنة ٣٥٨ هـ. ومما يستدعى النظر أن بدر الجمالى أنتهز فرصة أستبداده بالسلطة وجعل ابنه شاهنشاه وليا لعهده فى الوزراء، فلما توفى بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) لم يتردد المستنصر فى تعيين شاهنشاه الذى تلقب بالأفضل فى الوزارة، وظل المستنصر فى عهد الأفضل كالمحجور عليه حتى مات بالقاهرة فى أول شوال سنة ٤٨٧ هـ.

منشآت بدر الجمالي في القاهرة وغيرها من الأقاليم:

أسوار القاهرة تهدم سور جوهر الذى بناه سنة ٣٥٨ فجدده بدرالجمالى سنة ٤٨٠ هـ. وذكر المقريزى أن المهندسين الذين بنوا السور الجديد وأبوابه الثلاثة التى نراها اليوم كانوا ثلاثة أخوة قدموا من مدينة الرها ويمتاز السور الذى لا تزال بعض أجزائه باقية فى وقتنا الحاضر بأنه من الحجر وأن أبوابه التى وصل الينا منها باب النصر والفتوح وزويله كبيرة ذات عقود دائرية ضخمة ويحف بعقد المدخل من كلا جانبيه برج هائل. ونلاحظ أن عمارة سور القاهرة وأبوابه الثلاثة متأثرة إلى حد كبير بالأساليب الفنية البيزنطية بسورية حيث جاء بدر الجمالى.

ولقد أقيم باب زويله سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١ م ة) وسمى كذلك نسبة لقبيلة زويلة المغربية وقد تغيرت بعض معالم هذا الباب فى عصر الملك الكامل الأيوبى ثم أقام الملك المؤيد شيخ فوق برجى الباب مئذنتين سنة ١٤٢١ م نعتبران من أرشق المآذن المصرية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتصل بباب زويله من الشرق قسم هام من سور بدر الجمالى محتجب خلف منزل العلايلى والمنازل المجاورة له، ولباب زويله برجان كبيران مستديران وفى جدار هذين البرجين طاقات احيطت بعقود منكسرة ومفصصة أما باب النصر فبناؤه ضخم أقيم سنة ١٠٨٧ من كتل حجرية ضخمة وأرتبطت به أبدان أعمدة عليها أشكال زخرفية تشبه الدروع. ويحيط بالعقد الخارجى من مدخله أفريز زخرفى مستطيل الشكل.

مسجد الجيوشي : أقام بدر الجمالى مسجدا رائعا على جبل المقطم سنة ٤٧٢ هـ عرف بأسم مشهد الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى - ويتميز هذا المسجد بقبته الرائعة ومئذنته التى تعد أول صورة للمآذن الفاطمية، كما أنها أول مرحلة من مراحل تطور المئذنة المصرية. وقد أزيل عن أجزائها العليا طبقة الجص التى كانت تغطى بناءها المتخذ من الأجر. وتتألف المئذنة من قاعدة مربعة مرتفعة البناء هى أبرز ما فى المئذنة وفى أعلاها نلمح عنصرا هاما من الزخرفة هو صفين من المقرنصات فى صورتها الأولى كان الغرض منها فيها يظهر حمل سياج الشرفة. ويعلوا الطابق المربع طابق مثمن الشكل تنفتح فى كل جانب من جوانبه الثمانية نافذة معقوده ويتوج المئذنة قبة من الأجر. وفى ذلك تشبه مئذنة الجيوشى مئذنه جامع القيروان بتقاسيمها الثلاث.

مسجد العطارين : كان يقوم فى موضعه مسجد قديم أقيم فى فجر الإسلام على أساس كنيسة القديس أثناسيوس. وقد أصيب المسجد القديم بأضرار فادحة فى عصر الفاطميين وتهدمت بعض جدرانه وتهاوت سقفه، فلما زار أمير الجيوش بدر الجمالى مدينة الإسكندرية سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) أمر بأصلاح هذا المسجد وتجديدة وترميم ما تصدع منه وأنفق على هذه الأعمال من أموال أخذها من أهل الإسكندرية وما تزال ترى بالجامع لوحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تذكارية سجل عليها نص كتابى نقرأ فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) أنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى إلا الله. أمرَ بأنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدرالمستنصرى عند حلول ركابه بثغر الاسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابا فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفا إلى الله تعالى وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة).

٦ - عصر الوزراء العظام

إزدياد نفوذ الوزراء منذ أواخر عهد المستنصر:-

أولا الوزير الأفضل شاهنشاه - بدأ أنفوذ الوزراء فى الأزدياد منذ أواخر عهد المستنصر بالله وأصبح الوزير رب السيف والقلم وآلت إليه كل أمور الدولة، ففد أستأثر بدر الجمالى بالسلطان دون الخليفة المستنصر وتغالى ابنه الأفضل فى أغتصاب كل ما كان لهذا الخليفة من سلطة فأستهل عهده باقصاء نزار أكبر أبناء المستنصر من الخلافة وبايع الأبن الأصغر للمستنصر وأسمة أبو القاسم أحمد الذى تلقب بالمستعلى بالله، وبذلك أحدث الأفضل أنقلابا سياسيا بمعنى الكلمة أذ أدى أقصائه لنزار ومبايعته للمستعلى إلى الخروج عن مبدأ الأمامة الأسماعيلية وكان الأفضل يؤثر تولية أبى القاسم أحمد المستعلى بالله لعدة أسباب منها:

١ - أن الأفضل كان يتمتع بنفوذ مطلق فى أواخر عهد المستنصر فعمد إلى المحافظة على هذا النفوذ بعد وفاة المستنصر وكان أبو المنصور نزار أكبر أبناء أبيه بينما كان أبو القاسم أحمد المستعلى بالله أصغر أبناء المستنصر فاعتقد الأفضل أن نزار سيعمل على أضعاف نفوذه إذا ولى الخلافة وربما حال بينه وبين تقلد الوزارة بينما كان أبو القاسم أحمد

صغير السن فى أستطاعة الأفضل أن يحجر عليه ويصبح هو مطلق التصرف فى إدارة شئون الدولة.

٢ - أن أبا القاسم أحمد المستعلى بالله كان تزوج أخت الأفضل شاهنشاه ولذلك نصره بأعتباره زوج أخته.

٣ - كانت العلاقات متوترة بين الأفضل ونزار لأسباب منها أن نزار خروج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل يدخل من أحد أبواب القصر الفاطمى راكبا دابته فصاح به نزار: انزل ارمنى النحس فغضب الأفضل لهذه الإهانة وحفظها فى نفسه.

وقد أتيح للأفضل أن ينتقم من نزار عندما بايع المستعلى بالله بالخلافة عقب وفاة المستنصر بالله فآثار بذلك حفيظة أنصار نزار وعلى رأسهم حمود بن مصال اللكى الذى أضرم نيران الثورة بالإسكندرية تأييدا لنزار. وسار نزار إلى الإسكندرية وناصره فيها واليها التركى ناصر الدولة أفتكين بعد أن وعده نزار بالوزارة أن هو تولى الخلافة ولكن الأفضل لحقه ومعه عدد من الجند ودرات بين والى الإسكندرية والأفضل معركة إنتهت بهزيمة الأفضل وإرتداده إلى القاهرة ولكن هذه الهزيمة لم تثنه عن معاوده الكرة مرة أخرى وأستقر رأيه على أعداد حملة أخرى ليتسنى له إستعادة نفوذه فى الإسكندرية. ولما تم له ذلك سار ميمماً وجهه شطرها فى آوائل سنة ٤٨٨ هـ وظل يحاصرها مدة سبعة أشهر إرتكب فيها كثير من ضروب القسوة والعنف حتى إضطر كل من إفتكين ونزار إلى طلب الأمان فأمنهما ثم أمر بإرسالهما إلى القاهرة ونكل بهما عقب عودته اليها. ويذكر ابو الحسن أنه قتلهما شر قتلة. وصفا الأمر للأفضل بعد قضائه على تلك الفتنة فنقل الى داره التى شيدها سنة ٥٠١ هـ جميع دواوين الحكومة وجعل بها أماكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاصة لأقامة الأسمطة فى الأعياد.

ولم يقتصر الأثر الذى أحدثه أقصاء نزار عن الخلافة وقتله على ظهور فريق ويتشيح له بمصر فحسب بل أنه دخل بعض أهالى فارس من الإسماعيلية الباطنية الى امامته وقد راجت دعوة الإسماعيلية الباطنية فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى وتمكن زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش من نشر هذه الدعوة فى اصفهان وكان من تلاميذه الحسن بن الصباح وأمتاز الحسن بن صباح بنبوغه فى علوم الهندسة والحساب والنجوم والسحر وخلف إستاذه فى زعامة طائفة الإسماعيلية الباطنية فى فارس وكان يطمح فى إرتقاء بعض المناصب الهامة فى دولة السلاجقة فلما اخفق فى الوصول إلى أحد المناصب عمل على تقويض دعائم تلك الدولة فقدم الى مصر سنة ٤٧٩ هـ وأكرم المستنصر وفادته وأمره بأن يقوم بنشر الدعوة إلى أمامته فى فارس وقد سأل الحسن بن الصباح المستنصر عن ولى عهده فاجابه "الخليفة بعدى ولدى نزار" وعاد الحسن بعد ذلك إلى خراسان وما وراء النهر وأخذ يدعو فى هذه البلاد إلى امامة المستنصر وابنة من بعده وقد تمكن الحسن بن الصباح من الإستيلاء على قلعة الموت Al amut (عشر النسر) سنة ٤٨٣هـ وأتخذها مركزا له كما ملك عددا من القلاع فى نواحى بحر قزوين. وقويت شوكة هذه الفرقة الإسماعيلية فى عهده وأصبح سلاطين السلاجقة يرون فيهم خطرا كبير وشديدا على نفوذهم. وقد تناوب زعامتهم بعد وفاة الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ سبعة سموا بشيوخ الجبل وكان بعضهم لا يسير وفق تعاليم الدين الاسلامى. وكانوا يلجأون الى وسائل عجيبة لإقناع مريديهم فكانوا يعطون لمن يتوسمون فيه قبول داعوتهم شرابا مخدرا ثم ينقلونه بعد التخدير إلى مكان آخر فإذا فاق قيل له هذه هى جنة المؤمنين ثم يعرضون عليه عقائدهم وقد حمل ذلك بعض الكتاب على دعوة هذه الفرقة بالحشيشية.

وقد عكر هؤلاء الحشيشية صفو الدولة السلجوقية وأصبحوا يؤلفون جميعة سرية على أعضائها طاعة الرئيس الأكبر طاعة عمياء كما صار بعض أتباعها من الفدائيين الذين يناط إليهم أمر إغتيال من تقرر الجميعة قتله من أعدائها. وقد قتل هؤلاء الحشيشية الوزير نظام الملك السلجوقي.

لم يكد الأفضل يفرغ من القضاء على الفتنة التى أثارها نزار حتى قبض على زمام السلطة فى مصر وأستبد بأمور الدولة دون المستعلى ومن ثم أصبح للوزير النفوذ الأكبر فى الدولة وصار الوزير كما يقول المقريزى (من عهد امير الجيوش بدر الجمالى إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية).

وكان الأفضل حريصا على تجنيب مصر ويلات الأخطار الخارجية، لذلك عمد إلى الوقوف فى وجه الصليبيين حين وصله خبر الغارات التى شنوها على بلاد الشام وما كان من تأسيسهم إمارة لاتينية فى بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ بعد أن دخلوها عنوة وقتلوا من فيها من المسلمين، فخرج اليهم الأفضل فى عشرين ألف مقاتل وأشتبك الفريقين فى عدة معارك إنتهت بتراجع المصربين عن هذه البلاد تدريجيا حتى لم يبق منها سوى عسقلان ونجح الأفضل فى إيقاف الفرنجة عن عسقلان التى اصبحت آخر معقل بقى إيدى الفاطميين بسورية.

وظل الأفضل مشايعا للمذهب الفاطمى حتى توفى المستعلى وخلفه المنصور أبو على الملقب بالآمر بأحكام الله سنة ٤٩٥ هـ (٤٩٥ – ٥٢٤/ ١١٠ – ١١٣٠) فأخذ الأفضل يميل إلى السنة وتعصب لهم وتجلى ذلك الغائه الأحتفال بموالد النبى ومولد أبنته فاطمه الزهراء ومولد الخليفة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يخفى علينا أن عمله هذا كان كافيا لتقويض دعائم حكم للفاطميين الذين كانوا يعتمدون على أنهم من سلالة على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول. كذلك من مظاهر تعصبه للسنة أغلاقه لدار العلم سنة ٥١٣ التى أنشأها الحاكم وزودها بآلاف الكتب فى المذهب الفاطمى.

ثانيا : الوزير المأمون البطائحي :

لما رأى الآمر بأحكام الله أن وزيره الأفضل قد تمادى فى سلبه للسلطه وأنتزاعه السلطان منه على التخلص منه سنة ٥١٥ هـ فأوعز إلى أحد خواص الأفضل وهو عبد الله المأمون بن البطائحى بتدبير مؤامرة لإغتيال الإفضل بعد أن وعده بتعيينه فى الوزارة مكان الأفضل وأختار المأمون البطائحى قتله يقتلون عقب إرتكابهم الجريمة حتى لا يعرف أنه هو الذى حرضهم عليه. وقد شرح لنا أبن القلانسى فى تاريخه الظروف التى أدت إلى مقتله وذكر أن مقتله كان مدبرا من الخليفه الفاطمى واشاره لدواع سياسية وحربية، فيقول: أن الخليفة الامر الذى ضعفت سلطته كثيرا بتدخل الأفضل شعر بالحاجة إلى التخلص من وزيره فدبر مكيده إغتياله بواسطة البطائحى نظيرتوليته الوزارة" وتولى البطائحى الوزارة مكافاة له. وعاد لآمر نفوذه بعد مقتل الأفضل وأمر بنقل ثروة الأفضل إلى دار الخلافة، وكانت النزارية الذين تشيعوا لنزار بحجة انه صاحب الحق الشرعى فى الخلافة والإمامة بعد المستنصر لأنه أكبر أبنائه وولى عهده لا يزال لهم أعوان فى مصر وكانوا يرون أن الآمر وأباه المستعلى قد اغتصبا الخلافة. وكان الأفضل قد كسر شوكتهم فاختفوا فى أيامه. ولما مات الأفضل عادوا إلى الظهور وقام المأمون البطائحى يتتبعهم ومطاردتهم دون جدوى وظل كذلك حتى مات سنة ٥٢٢ هـ، وتولى بعده أبو على أحمد بن الأفضل المسمى بكتيفات كرسى الوزارة سنة ٥٢٤ هـ، وفى هذه الآونة دبر النزارية مؤامرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقتل الآمر وقتله فريق منهم فى آواخر عام ٥٢٤ هـ ومن مآثره حبة للآداب وتشجيعه الشعراء فقد جعل القنطرة التى كانت تطل على بركة الحبش طاقات عليها صور الشعراء كل شاعر بأسمه وبلده وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قصيدة للشاعر فى المدح وعلى الجانب الآخر رف مذهب وأمر عند دخوله إليها بان يوضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شاعر وينال نصيبه بيده وفى عهده تم بناء الجامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ على يدى المأمون البطائحى. وهو مسجد صغير يشتمل بيت الصلاة فيه على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وأهم ما فيه واجهته الحجرية التى تعتبر بحق تحفة رائعة تنطق بأن الفنانين فى العصر الفاطمى قد أتقنوا أصول الجمال الفنى.

ثالثا: الوزير أبو علي بن الافضل وزير الحافظ لدين الله:

بعد وفاة الآمر أقيم على الخلافة عبد المجيد ابو الميمون بن محمد بن المستنصر بالله كفيلا للحمل أى كفيلا لأبن الآمر الذى مازال جنينا فى بطن أمه فلما وضعت زوجة الآمر بنتا (وفقاً لبعض المصادر) أستقرت الخلافة لعبد المجيد وتلقب بالحافظ لدين الله وقد ثبت من النصوص التى أوردها الدكتور الشيال فى (مجموعة الوثائق الفاطمية) أن الآمر أعقب ولدين: واحد فى حياته أسمه أبو القاسم الطيب عمل الحافظ على أخفائه ومع ذلك وجد له أتباع فى اليمن والشام، والثانى وأسمه قفيفة ولد بعد وفاة الآمر وقد عثر عليه الحافظ وقتله فى ٥٢٨ هـ.

وبالغ أبو على الأكمل فى أضعاف الحافظ، فكف يده عن التصرف فى أمور الدولة ومنع الناس عن زيارته إلا بإذن منه، ثم حبسه وأستولى على ما فى قصره من كنوز واموال زاعما أن ذلك كان ملكا لأبيه الافضل، وامر بحذف إسم الخليفة من الخطبة والدعاء للامام المنتظر ذلك لأنه كان اماميا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أثنا عشريا، تمهيدا للقضاء على المذهب الاسماعيلى، ورتب فى الحكم أربعة قضاة مالكى وشافعى وإسماعيلى وامامى، ثم اسقط اسماعيل بن جعفر الصادق، وألغى الاذان الإسماعيلى مسقطا عبارة (حى على خير العمل) وجعل الخطبة لنفسه بأعتباره (ناصر أمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم فى نصرته بماضى سيفه وصائب رايه وتدبيره) واتخذ القابا جديدة (السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، الحامى عن حوزة الدين، ناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره....، أمين الله على عباده،... مولى النعم ورافع الجور عن الأسم ومالك فضيلتى السيف والقلم، أبو على أحمد بن السيد الأجل أبى القاسم شاهنشاه أمير الجيوش) ثم ضرب دراهم ودنانير بإسم الإمام المستنصر.

ويقى أبو على يحكم مستقلا ما يزيد على السنة، ولو قدر لحكمه أن يطول لكان قد قضي على الدولة الفاطمية ومذهبها الأسماعيلى، ولكن جماعة من صبيانه قتلوه فى ١٦ المحرم سنة ٥٢٦ وأعيد الحافظ إلى الخلافة، وأعتبر هذا اليوم الذى قتل فيه أبو على أحمد واعيد الحافظ للحكم يوم عيد قومى للدولة والمذهب الإسماعيلى، وعرف بعيد النصر، وحال الحافظ كفيلا بالحمل حتى عثر على الطفل المختفى قفيفه) وقتله فى سنة ٥٢٨.

رابعا: وزارة أبي المظفر بهرام الأرمني وصراعه مع رضوان بن ولخشي:

تبع مصرع أبى على الاكمل فترة من الفوضى، وذلك عندما قدم بهرام الأرمنى والى الغربية الى القاهرة فى سنة ٥٢٩ وحاصرها، فأضطر الحافظ إلى أن يقلده الوزارة رغم كونه مسيحيا، فأثار ذلك مشاعر المسلمين، خاصة وأن بهرام أسرف فى التحيز لبنى جنسه من الأرمن (أحضر منهم إلى مصر ما يزيد على ٣٠ الفا) وقد أساء وجود الأرمن فى مصر إلى المسلمين

فصادروا الكثير من أملاكهم وشيدوا الكنائس والأديره وإستبدوا بالمناصب الكبيرة، فأستنجد الإهالي بوالي الغربية رضوان بن ولخشي فقدم رضوان إلى القاهرة على رأس حشود كثيفة، ففر بهرام إلى اخيه الباساك والي قوص، ولكن أهالي قوص ثاروا على الباساك وقتلوه، ففر بهرام إلى أسوان، أما رضوان فقد تقلد الوزارة سنة ٥٣١ وتلقب بالسيد الأجل الأفضل، وصادر أملاك بهرام وأعوانه، وأمر بقتل الكثيرين منهم. وهم بخلع الحافظ محتجا بقوله: (ما هو أمام وأنما هو كفيل لغيره وهذا الموضوع لم يصح) فغضب الحافظ وأستقدم بهرام من أسوان وأكرم وفادته. فرحل رضوان في سنة ٥٣٣ إلى الشام وعاد بعد سنة بجيش كبير حارب به جيش الخليفة قرب باب الفتوح ولكنه إنهزم وقبض عليه، وحبسه الخليفة مدة عشر سنوات ثم قتل وظل الحافظ بلا وزير حتى توفى في ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ.

خامسا: ابن السلار وصراعه مع ابن مصال في عهد الظافر بامر الله:

بويع لاسماعيل بن الحافظ بالخلافة ولقب بالظافر بأمر الله (٥٤٤ - ١١٤٩/٥٤٩ - ١١٥٤) وقلد الظافر في بداية عهده علي بن السلار والي الإسكندرية والبحيرة الوزارة فتلقب بالعادل وكان سنيا، ولم يدم عهده طويلا فطارده الظافر وقلد الوزارة مكانه نجم الدين بن مصال الذى لم يكن محبوبا عند الشعب. ففر العادل أبن السلار إلى الشام وطلب النجدة من نور الدين محمود بن زنكى اتابك الموصل وصاحب حلب ودمشق، لينصره على أبن مصال. ودارت الحرب بين الوزيرين وإنتهى الأمر بقتل بن مصال وعوده أبن السلار إلى الوزارة رغم أنف الخليفة، فدبر الخليفة مؤامرة لقتله وعهد بذلك إلى نصر بن عباس بن أبى الفتوح، وتم قتل أبن السلار، وكوفيء القاتل بالوزارة فتولاها ابوه عباس الذى تآمر بدوره على قتل الظافر، فقتله في سنة ٥٤٩، وفر عباس وولده إلى الشام ولكنه قتل في الطريق وقبض على نصر وصلب حياً على باب زويلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سادسا: الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك في عهد الخليفة الفائز:

نشبت معارك عنيفة فى القاهرة بعد مصرع الظافر، ونودى بابنه خليفة ولقب بالفائز بنصر الله (٥٤٩ - ١١٥٤/٤٥٥ - ١١٦٠) وكان طفلا فى الخامسة، عندما تولى الخلافة وسط مناظر الدماء التى أثرت عليه فأصيب بالصرع إلى أن توفى سنة ٥٥٥. وسادت الفوضى أنحاء القاهرة فى أول خلافته، فقصت نساء القصر شعورهن وبعثت بها عمة الفائز إلى والى الأشمونين ابى الغارات طلائع بن رزيك، كنوع من الأستصراخ فبادر أبن رزيك يالسير نحو القاهرة فى جموع كثيفة من الأعراب فى صفر سنة ٥٤٩ وأخرج جثة الظافر وإحتفل بدفنه، وولى الفائز مكان ابيه واستقر أبن رزيك فى دار الوزارة متلقبا بالملك الصالح، وأستطاع أبن رزيك القضاء على الفتن. وأستغل الصليبيون الفرصة وأستولوا على عسقلان فى سنة ٥٤٩ وهى أخر معقل فاطمى فى الشام. وظل الصالح طلائع بن رزيك يقبض على زمام الأمور حتى وفاة الفائز سنة ٥٥٥ وخلفه أبو محمد العاضد لدين الله آخر خلفاء الدولة الفاطمية فى مصر. وحاول الصالح طلائع ان يحد من سلطه الخليفة الجديد ولكن الخليفة دس له من قتله فى سنة ٥٥٦، وأسند الوزارة إلى أبى شجاع العادل بن الصالح طلائع.

سابعا: الصراع الاخير بين الوزراء في عهد العاضد:

لم يطل عهد العادل بن الصالح طلائع فى الوزارة أكثر من عامين، فخلفه عليها والى الصعيد شاور فى سنة ٥٥٨. وقد أصطدم شاور مع منافس له أسمه ضرغام أمير البرقية وتغلب ضرغام على شاور فإستعان شاور بنور الدين أتابك حلب ودمشق، فأعانه بقوات يقودها أسد الدين شيركوه، وأنتصر شاور على عدوه ضرغام وقتله. ولكنه لم يف بتعهداته لنور الدين زنكى ظنا منه أنه يمكنه أن يتحالف مع الصليبيين ضد نور الدبن وكانت

لتلك السياسة أثرها فى تطلع أنظار الصليبيين والنوريين إلى غزو مصر.
فأرسل نور الدين حملة إلى مصر للمرة الثانية بقيادة شيركوه ايضا، ولكنه أضطر إلى الجلاء عن مصر. ثم أرسل الصليبيون حملة إلى مصرفى ٥٦٤ طمعا فى الإستيلاء عليهما، وإضطر شاور إزاء تقدم الصليبيين إلى أخلاء الفسطاط وأحراقها لتعويق زحفهم على القاهرة، فإستنجد العاضد بنور الدين الذى أرسل شيركوه للمرة الثالثة، وأرغم املريك ملك بيت المقدس على الأنسحاب من مصر. ودخل شيركوه القاهرة دخول الظافر المنتصر، فأستقبل استقبال الأبطال، ولما أستقرت الأمور فى القاهرة قتل شاور، وتولى هو منصب الوزارة بعهد من العاضد، وتلقب بالملك المنصور ولكن شيركوه مات بعد ٣ أشهر من وزراته، فخلفه أبن أخيه صلاح الدين الذى أخذ يدعم مركزه فى مصر ويضعف مركز الخليفة حتى نجح فى النهاية فى الأطاحة بحكم الفاطميين فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ بعدما أعلن الخطبة للخليفة العباسى، وكان العاضد مريضا، فتوفى فى ١٠ من المحرم سنة ٥٦٧ قبل أن يعلم بهذا التغيير، وعادت مصر من ذلك الحين تتبع الخلافة العباسية تبعية إسمية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من وثيقة

الهداية الآمرية في أبطال الدعوة النزارية

(وهى سجل اصدره الآمر باحكام الله الفاطمى فى شوال سنة ٥١٦ هـ
لتبريرأحقية أبيه المستعلى بالله فى الخليفة وأثبات بطلان حجج عمه نزار،
نشرها الدكتور جمال الدين الشيال نقلا عن آصف بن على فيضى)

نص الوثيقة

"يا معشر المؤمنين: أصغوا بآذان واعية إلى ما أوضحه لكم من سبيل الله، وتفهموا بقلوب صافية ما أعرضه عليكم من حجج الله البنيان (اما تعجبون لطائفة حالفها الشيطان فخافت القرآن، وكسبت فن دين الله عظيما، وأباحت منه حمى معصوما، فأشبهت يهود هذه الأمة فى كتمان الحق بعد عرفانه، وأجتناب الصدق بعد وضوحه وبيانه. (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا منهم قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنه الله على الكافرين). هؤلاء قوم قالوا بإمامة نزاز فون دليل واضح هداهم، ولا نص جلى قادهم إلى ذلك وأداهم، بل عموا على محال يستدل الباب الأغمار - وأخبار ملفقة تموهت لأجل بعد الدار، ومعلوم أنه لا طريق إلى تشبيت إلا بالنص والأختيار، وقدا لجمع جميع من ينسب إلى الدعوة الهادية على صحة النص فى الامامة وفساد الإختيار، وادوا بما يؤيده من البراهين الواضحة والقضايا الصادقة وذلك أن الإختيار لا يصح إلا بحصول شرائط فى التخير والمتخير. وإما شرائط التخير فأن يكون بالجتماع من جهة العقلاء والفضلاء دون هوى يلحقهم، ولا هوادة توقهم، وتحصيل هذا الإجتماع بعيد، والإتفاق مع عدم الهوى صعب شديد. وأما شرائط المتخير فان تجتمع فيه خلال الامامة التى افادتها ائمة الدين وهداته، وأثبتها عنهم أرباب المذهب الطاهر ودعاته، ووصول الناقد

فى الزمـان الطويل، الناظفى الدقـيق والجليل، إلى تحـقق هذه الخـلال من شخص متعذر غير موثوق به، لأن ثم أشياء خفية، ونحائز نفسانية يمكن أن يساير الشخص بها ويرائى فيها، فكيف يصل إلى تحققها جمهور أهل العقد والحل، وأكثرهم له مفارقون وعنه متباعدون، فلهذا وأمثاله من ضعف البصائر البشرية وأضطرارها إلى الإستضاءة بالمعارف الحقيقية، بإرشاد هداة الحكم الربانيـة، لم يكن تثبيت الإمامة إلا بنص صحيح يؤخذ من لسـان المرشد إلى الحق وقته وزمانه، لا يكتفى فى ذلك...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

حضارة مصر في العصر الفاطمي

(١)

نظام الحكم والادارة

أ - نظام الإمامة وولاية العهد:

لفظ الإمامة عند الشيعة يقابل فى مدلوله لفظ الخلافة عند أهل السنة، وأن كان الشيعة يسمون الخلافة بالامامة الكبرى تمييزا لها عن الامامة الصغرى أى أمامة الصلاة والإمام الأول عند الشيعة هو على بن أبى طالب الذى يشبهونه بالامام فى الصلاة لوجوب الناس أتباعه والإقتداء به. وفكرة الإمامة هى أصل نظام الحكم فى الدولة الفاطمية فهى المحور الذى تدور حوله الدولة سواء فيما يتعلق بالمذهب أو النظام الحاكم والإمامة هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، وفى اعتقاد الشيعة أن من أصبح من هذه الأمة لا إمام له أصبح ضالا تائها، وأن من مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق. وترتبط الإمامة بفكرة الوصاية والوصاية تقترن بعلى، ولذلك كانت تولية على من الأركان الأساسية للمذهب الشيعى على الأخص الإسماعيلى، فيقولون لذلك: لا اله إلا الله، محمد رسول الله وعلى ولى الله"، وهذه الفكرة ترجع اساس إلى أعتقادهم بان على بن أبى طالب كان وصى محمد، كما كان الامام من بعده، ويحتجون على ذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نزل بغدير خم (موضع بين مكة والمدينة عقب حجة الوداع آخى عليا وقال له فى جمع من الحاضرين:"على منى كهارون من موسى" اللهم والى من والاه، وعاد من عاداه أنصر من نصره، وأخذل من خذله"ويعتبر الشيعة هذا الدعاء بيعة علنية منه لعلى، ويأتى القاضى النعمان بعبارة

اكثر تفصيلا فذكر أن الرسول خطب فى الحجيج فقال لهم:"الست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله"وكرر الرسول المؤاخاه. كما ورد فى المصادر الاسماعيلية أثناء غزوة تبوك ويعتقد الشيعة أن النبى صلى الله عليه وسلم أستودع عليا علوما لدنه كان يخفيها عن جمهور صحابته وأن هذه العلوم يلقنها كل إمام من نسل على لخلفه أو كانت تنتقل من الامام الأب إلى الأمام الأبن عن طريق الوراثة كالطبقات ولا تصح الإمامة إلا بالنص أى التعيين أو الوصية بمعنى أن الإمام السابق ينص على الإمام اللاحق من أبنائه، وبهذه الصورة تستمر تولية خلفاء النبى منذ ان نص على على فى الغدير، وعلى هذا النحو لا يؤمن الشيعة الاسماعيلية بالاختيار لأن الإمامة على حد قول أبى خلدون ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الإمة ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه للامة، بل يجب عليه تعين الإمام لهم ويكون معصوما من الكبائر أو الصغائر وان عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم".

ويشترط فى النص عندهم أن يصدر من الإمام وقت نقلته اى وقت وفاته، فلو حدث أن الإمام اصدر اكثر من نص لعدد من اولاده فانهم لا يأخذون إلا بالنص الأخير الذى فى لحظة إنتقاله. ويقضى نظام الوراثة فى الإقامة أن تنتقل من الأب إلى الأبن، أعتقادا بان للإمامة صفات وعلوم وأسرارا مكنونة تنتقل بالوراثة - كما تنتقل الصفات الخلقية، وعندما كان الائمة يخرجون على هذه القاعدة كان يحدث إنقسام مذهبى سياسى يهز أركان الدولة كما حدث بعد وفاة الآمر عندما خولف اصول المذهب فتولى الحافظ أبن عم الأمر فأنقسم الإسماعيلية إلى حافظية وطيبية نسبة إلى الطيب إبن الآمر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب - الوزارة:

لم يستخدم الفاطميون لفظ الوزارة كتسمية لا ختصاصات الوزير إلا منذ أيام العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م)، وكانوا يستخدمون لفظة الوسيط والوساطة للدلالة على هذا المعنى، إذ أن الوسيط كان فى الحقيقة يتوسط بين الخليفة ورعيته ويذكر المقريزى أن الوساطة كانت تصحب ما يسمى بالسفارة، ويعتقد الدكتور ماجد أن سبب أستعمال مثل هذين اللفظين (الوساطة والسفارة) إنما يرجع فى الظاهر إلى رغبة الخليفة فى تحقيق أغراض سياسة، فقد كان الخليفة الفاطمى يؤثر فى العهد الأول للدولة الفاطمية فى مصر الإبقاء على كل سلطة والإستئثار بكل سيطرته، وهذا يفسر كيف كان الخلفاء الفاطميون يسندون كثيرا من مهام الدولة إلى كتاب لا يتلقبون لا بلقب وسطاء وإنما بالقاب منها موقع أو مدير.

ومنذ أن أستخدمت لفظه الوزراء أصبحت تسند لشخصيات غالبا ما تكون من أرباب الأقلام، ولهذا كانت إختصاصات الوزير محدودة فى هذه المرحلة الأولى من تاريخ الدولة، فالوزير على هذا النحو كان أشبه بوزيرالتنفذ فى العصر العباسى عندما كانت السلطات كلها فى يد الخليفة. ولكن منذ أن اصطنع المستنصر بالله أمير الجيوش بدر الجمالى فى منصب الوزارة تغير الوضع فتحولت الوزارة إلى سلطة أستبدادية وأصبح الوزير منذ أيام بدر الجمالى وزير تفويض يختار من بين أرباب السيوف فالخليفة يفوض إليه جميع أمور الدولة، بل تجاوز بعض الوزراء حدود سلطاتهم فى بعض الأحيان وأصبحوا يتدخلون فى تولية الأمام وولى عهده ويتمثل ذلك بصورة واضحة فى شخص الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى وأصبح لوزراء التفويض ألقاب يتلقبون بها أو تصحب الأسم الوارد فى سجل التولية مثل لقب الأجل الذى لقب به الوزير الجرجرائى ومثل لقب أمير الجيوش الذى لقب به بدر الجمالى ولقب سلطان الجيوش الذى لقب به شيركوه، كما منحوا لقب

"كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين "وهما السلطتان القضائية والدينية.

ومنذ أن تولى رضوان بن ولخشى الوزارة للخليفة الحافظ فى سنة ٥٣١ أضيف للألقاب السابقة: "السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين هادي دعاة المؤمنين" وهى الألقاب التى تلقب بها شاهنشاه بن بدر الجمالى ثم أضيف له لقب الملك الأفضل، فى حين تقلب أبن رزيك بلقب الملك المنصور وبلقب رزيك الملك العادل وتلقب شيركوه بالملك المنصور وصلاح الدين بالملك الناصر، ولهذا السبب أطلق المؤرخون على النصف الثانى من العصر الفاطمى عصر الوزراء العظام.

وكانت مجالس الوزراء تعقد في دار الوزارة الكبرى التى عرفت بدار قباب وهى دار تقع بجوار باب النصر وتشمل على عدد من القاعات منها ...اعة السر وقاعة البحر وقاعة البستان (١)

وكان يشترط في أختيار الوزير شروط منها الكتابة والقدرة ومنها الأخلاص لعقيدة الدولة - ولم يكن شرطا عند الفاطميين أن يكون الوزير مسلما، فقد عين الخليفة الحافظ بهرام الأرمنى النصرانى ووزيراً للتفويض، وكان يعقوب بن كلس يهوديا وعيسى بن نسطورس نصرانيا وفهد بن إبراهيم نصرانيا. وكذلك لم يتحرج بعض الخلفاء من أتخاذ وزراء سنيين مثل رضوان بن ولخشى وعلى بن السلار والحسن بن على اليازورى.

---

(١) يصف المقريزى دار الوزارة بانها كانت محاطة بسور من الحجر وتضم عددا من القاعات والمساكن وبستان، وكانت تنقسم إلى قسمين أحداهما دار الحرم والثانى دار السلام.

ج - الدواوين :

يذكر المقريزى أنه لما قدم المعز لدين الله إلى مصر ونزل بقصره فى القاهرة كانت دواوين الدولة الفاطمية فى نفس موضعها بدار الأمارة الواقعة لصق الجامع الطولونى، فلما مات يعقوب نقلها العزيز بالله بعد موته إلى القصر، فلم تزل الدواوين بالقصر إلى أن أستبد الأفضل وعمر دار الملك بمصر الفسطاط فنقل اليها الدواوين، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى القصر بعد مصرعه، وظلت قائمة بالقصر حتى نهاية الدولة الفاطمية.

وأشهرهذه الدواويين :

١ - **ديوان المجلس**: وكان أصل الدواوين ويضم علوم الدولة كلها ومتولى هذا الديوان هو المتحدث فى الأقطاعات، ويشرف على عدد كبير من الكتاب لكل منهم مجلس ولديه معين أو معينان، ويلحق هذا الديوان بديوان النظر .

٢ - **ديوان النظر**: أهم دواوين المال لأنه يتولى النظر عليها، ولهذا الديوان الحق فى العزل والولاية، وكان صاحب الديوان يندب المترسلون لطلب الحسابات والحث على طلب الأموال.

٣ - **ديوان التحقيق**: تطلب تشعب النظم المالية ظهور ديوان جديد هو ديوان التحقيق مهمته مراجعة عمل الدواوين المالية الآخرى، وكان لا يتولاه إلا كاتب قدير لديه الخبرات اللأزمة، ويلحق هذا الديوان بديوان النظر.

٤ - **ديوان الجيوش والرواتب**: ينقسم إلى قسمين الأول ديوان الجيش ويتولاه شخص يشترط أن يكون مسلما ولهذا الديوان خازنان. والثانى ديوان الرواتب ويشتمل على أسماء كل مرتزق ومقدار جاريه، ويتولاه كاتب أصيل يعنيه فى عمله نحو عشرة من المبيضين. وفى هذا الديوان عدة عروض الأول يشتمل على رواتب الوزير وأولاده والثانى رواتب حاشية الخليفة وأولهم الأساتذة المحنكون على مختلف رتبهم ومعلم القصر وصاحب بيت المال وصاحب الدفتر وزمام الأشراب وأطباء القصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والثالث يتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة مثل كاتب الدست الشريف وصاحب الباب وحامل السيف وحامل الرمح وأزمة العسكر والسودان. أما العرض الرابع فيشتمل رواتب قاضي القضاة وداعي الدعاة وقرأ الحضرة وخطباء الجوامع والشعراء. والعرض الخامس يشتمل على أرباب الدواوين والسادس على المستخدمين بالقاهرة والفسطاط والسابع الفراشين والعمال بالقصور والعرض الثامن يشتمل على مرتبات صبيان الركاب ومقدموا أصحاب ركاب الخليفة.

٥ - **ديوان الأنشاء والمكاتبات:** من أهم دواوين الدولة الفاطمية وكان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ويخاطبون "بالشيخ الأجل" ويسمون كتاب الدست الشريف ومهمته أن يتسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة، ويأمر كتابه بالأجابة عليها. وكان الخليفة يستشيره في أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه. وكان يعاون رئيس الديوان مسئولان الأول يسمى المخرج وهو الكاتب الذي يكلف بكتابة مستخرجان من الرسائل الواردة أو الصادرة عن الديوان، والثاني ويسمى المتصلح ومهمته مراجعة ما يسطر في الديوان. ومن موظفي الديوان كتاب بعضهم يتصدى بالكتابة للملوك وبعضهم يختص بالتوقيع على القصص بختم الخليفة ومنهم المساعدون كالنساخ والمبيضين والحجاب.

موظفي الإدارة والدواوين

أشرك الفاطميون المغاربة مع المصريين في إدارة شئون البلاد مداراة لهم، والواقع أن المغاربة لم يلعبوا دورا يذكر في الإدارة إلا في بداية قيام الدولة الفاطمية ثم تواروا عن المهام الكبرى في الإدارة المركزية لجهلهم بدقائق الإدارة المصرية وأصبح الفاطميين يعتمدون على المصريين في الوظائف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الديوانية. وأصطنعوا في ذلك رجالا عرفوا بدرايتهم وخبرتهم في مجال الإدارة وعلى الأخص من أهل الذمة الذين كانوا سيشكلون أغلب موظفى الدواوين سيما ما يتعلق بديواني الأنشاء والمال حيث نجد الذميين يستحوذون على أعلى المناصب فيها.

وكانَ لكل طبقة من طبقات الموظفين زى خاص تتميز به دون غيرها فكان كبار موظفى الدولة يلبسون العمائم الكبيرة على رؤوسهم، كما كانت تتقدم لهم علامات مميزة كالدواة ذات الكرسي والمرتبة العظيمة ذات المساند والمخاد.

د - القضاء والقضاة:

ومن بين موظفى الدولة قاضى القضاة وهو لقب طبق لأول مرة فى مصر الفاطمية زمن العزيز بالله، واسند هذا المنصب إلى على بن النعمان بن حيون، ومن الموظفين أيضا صاحب المظالم، ومراقب الأسواق أو المحتسب، وصاحب الشرطة وداعى الدعاة، ومن المعروف أن القاضى فى مصر الإسلامية كان يجلس للحكم أو الفصل فى المنازعات فى الجامع فى موضع يعرف بمجلس الحكم، وينعقد مجلس الحكم مرتين فى الأسبوع ويتكون مجلس الحكم من قاضى وعدد من الموظفين القضائيين كالشهود العدول والموقعون والحجاب، وكان الحكم فى القضايا يجرى وفقا للقانون الشيعى، ويكل القاضى تنفيذ الأحكام إلى صاحب الشرطة.

ومنصب صاحب المظالم من أهم الوظائف المتعلقة بالقضاء ومهمته النظر فى المظالم ويشبه قضاة الأستئناف في الوقت الحاضر، وكان مجلس النظر فى المظالم يعقد بالقاهرة فى باب الذهب بالقصر الكبير فى أيام السبت من كل أسبوع ويحضره الوزير أحيانا.

أما المحتسب فعمله فى أساسه أخلاقى فهو يأمر بالمعروف وينهى عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمنكر، وكان يطوف فى الطرقات فيمنع التزاحم ويلزم رؤساء المراكب بألا تحمل أكثر من قدرتها ويأمر السقائين بتغطية الروايا والقرب بالأكسية ويأمرهم بارتداء السراويل الطويلة، ويأمر مؤدبى الصبيان فى المكاتب بعدم ضرب الصبية. كذلك كان يطوف فى الأسواق ويدس أعوانه عند الباعة فيقبض على الغشاشين والدلاسين، ويعاقبهم وتسمى عقوباته بالتعزيز ولا تخرج عادة عن الردع والجلد والتجريس والنفى، أما صاحب الشرطة فوظيفته أيضا قضائية ومهمته تنفيذ العقوبات التى يصدرها قاضى القضاة. وكانت القاهرة مركزا للشرطة العليا فى حين جعلت الشرطة السفلى لمصر الفسطاط، ويدخل فى نطاق عمل صاحب الشرطة عمل السجون وكان بمصر نوعان من السجون: السجن السياسى ويسجن فيه الأمراء والأعيان وسجن المجرمين من السراق واللصوص.

هـ - القوي الدفاعية :

١ - **الجيش**: أعتمد الفاطميون فى مصر على قوتهم الحربية، فكان لهم فى أوائل عهدهم فى مصر جيش كثيف قدموا به من المغرب تبلغ عدته مائة الف مقاتل ولكن هذا العدد الضخم الذى لم تشهده مصر من بل لم يلبث أن أنخفض فى أواخر عصر الدولة الفاطمية إلى أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل. وكان الجيش الفاطمى يعتمد على عدة عناصر هى على الترتيب بربر كتامة وصنهاجة، والترك، والسودان، والصقالبة، والديلم، وقد أهتم الفاطميون بتكوين العناصر التى يتألف منها جيشهم فأهتموا بتكوين طوائف عسكرية يعتمدون عليها فكان المعز يطلب من ولاته البحث عمن يظهرون مهارة حربية من بين أولاد الناس، فعندما تجمع لديهم عدد كبير منهم افرد إليهم حجرا فى قصره يتعلمون فيها فنون القتال، وسماهم بسبب ذلك بصبيان الحجر، وكان على كل مائة من هؤلاء قائد يسمى زمام، وكانوا يقسمون إلى قسمين: الحجرية الكبار والحجرية الصغار. وإلى جانب هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطائفة كانت بالجيش طوائف تنسب إلى الخلفاء أو الوزراء مثل طائفة الآمرية التى نسبت إلى الخليفة الآمر والحافظية إلى الحافظ والوزيرية نسبة إلى الأفضل شاهنشاه، واليانسية نسبة إلى يانس وزير الحافظ .

وكان قائد الجيش يسمى فى العصر الفاطمى أسفهسلار العسكر ومهمته القيادة الحربية أما المسائل الإدارية للعسكر فكانت من أختصاص ديوان الجيش وأخذ قواد الجيش يتميزون فى الرتب .

١ - فمن مرتبة الأمراء:

أ - الأمراء الكبار أو الأمراء المطوقون يتميزون بوضع أطواق من الذهب حول أعناقهم.

ب - أمراء القضب أى الذين يحملون عصيا فضية فى أى أيديهم.

ج - الامراء دون المطوقون أو أمراء القضب.

٢ - ومن مرتبة خواص الخليفة او حرسه الخاص:

١.- طائفة صبيان الحجر

ب - صبيان الخاص أولاد العساكر والامراء.

ج - الأستاذين أو عبيد القصر وعرفوا بالمحنكين.

٣ - ومن مرتبة طوائف الأجناد:

الحافظية والآمرية والوزيرية والجيوشية والركابية، وكان الجيش الفاطمى يتسلح بأنواع متعددة من الأسلحة منها:

أ - آلة حربسة مزودة بعدد من الأقواس يشدها رجل واحد فترسل عدد من السهام.

ب - قوارير النفط أو قاذفات اللهب.

ج - المنجنيقات والدبابات والأبراج.

د - الرماح والاسنة والقنطاريات والسيوف.

هـ - السهام والنشاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان الجنود يحملون أجسامهم ما يلى:

أ - الخوذات او البيضات.

ب - الكزاغندات وهى سترات مبطنة بالحرير او القطن أو الديباج وتستعمل كدرع.

ج - الدروع الحديدية المسماة زرديات او الجواشن والزردات المسبلة التى تغطى كل الوجه والرأس

د - التروس والدرق.

وكان للجيش الفاطمى رايات بيضاء اللون سميت مبيضة بخلاف الرايات العباسية السوداء، وكانت تحمل إسم الخليفة والقابه مطرزة على أطرافها.

وكان للجيش فرقة موسيقية من نافخى الأبواق وقارعى الطبول تتقدم الجيش فى الزحف.

٢ - **الأسطول:** يسجل إستيلاء الفاطميين على مصر والشام فيما بين عامى ٣٥٨ - ٣٦٥هـ بداية عهد جديد فى تاريخ البحرية المصرية، وأصبحت فيه سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط الشرقية من أنطاكية إلى غزة والجنوبية من عرقة شرقا الى مصب وادى ملوية غربا ملكا للفاطميين. وكان من الطبيعى ان يهتم الفاطميون بالدفاع البرى والبحرى عن هذه السواحل الشامية المصرية المغربية المترامية الأطراف من خطر الغزو البيزنطى من جهة وخطر القرامطة من جهة ثانية، او عن سواحل البحر الأحمر خوفا على مراكب الكارم من القراصنة، ولذلك وجه المعز لدين الله عنايته لتدعيم الأسطول الفاطمى وتنظيمه على نحو يتسق والاوضاع السياسية الجديدة، على الرغم من أنه كان قد نقل اسطوله من قواعده المغربية إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس وطرابلس وصيدا وصور ولم يترك فى المغرب إلا اعداد قليلة من السفن لمعاونة نوابه الزيرين على حماية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سواحل المغربين الأدنى والأوسط من الخطر الأميرى فى الاندلس، وفى نفس الوقت لمتابعة السياسة التى رسمها الأئمة الفواطم لمواصلة الجهاد البحرى فى صقلية وجنوبى إيطاليا.

وقد بلغ إهتمام الفاطميين بالبحرية ذروته فى خلافة المعز، ثم ازداد إهتمام المعز بالأساطيل منذ أن أستقر فى القاهرة حاضرته الجديدة، اما لمواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر، أو حماية للسواحل المصرية الشامية من الغارات البيزنطية او لأنه كان ينوى الدخول فى مغامرات جديدة مع البيزنطيين فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط بعد أن ضمن التفوق الفاطمى فى نصفة الغربى، وفى ذلك يقول القلقشندى:"أما أهتمامهم بالإساطيل وحفظ الثغور وإعتنائهم بامر الجهاد فكان ذلك من أهم أمورهم واجل ما وقع به عندهم وكانت أساطيلهم مرتبه بجميع بلادهم الساحلية وغيرها من سواحل الشام حين كانت بإيديهم قبل ان يغلبهم عليها "الفرنج" ويعبر المقريزى عن عناية المعز وبنيه فى مصر بقوله:" وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله وأنشاء المراكب الحربية وأقتدى به بنوه، وكان لهم إهتمام بأمور الجهاد وإعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها الى بلاد الساحل مثل صور عكا وعسقلان ." وقد بلغ عدد مراكب الأسطول الفاطمى فى عهد المعز ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية مابين شوانى ومسطحات وحمالات ومراكب نيلية.

وأول مظاهر عناية الفاطميين بالأسطول قيامهم بأنشاء ديوان الجهاد أو العمائر وكان مقره دار الصناعة بمصر، ويختص بانشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها. وثانيا أنشاء دار صناعة المقس فى زمن المعز، وذكر المقريزى أن المعز أنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على ميناء،" وثالثها توفير الأخشاب اللأزمة لصناعة السفن من الخراج فى أعمال البهنسا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص بالاضافة الى ما كان يرد من أخشاب الصنوبر الصقلية والمغربية وما كانت تحمله سفن البنادقة إلى الإسكندرية من أخشاب السفن من الصنوبر والشوح الجنوبي والسنديان.

وقد لعب الأسطول الفاطمي دورا حاسما في تزويد الثغور الشامية التي كان يحاصرها الصليبيون بكل مايلزمها من الأقوات والمؤن والأسلحة، مثل طرابلس وصيدا وصور.

(٢)

قصور الفاطميين الزاهرة وقصور الامراء

١ - القصر الشرقي الكبير او المعزي:

أختط جوهر الصقلي أساس مدينة القاهرة والقصر الشرقي الكبير في ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ليكون منزلا الخليفة وحرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر واهل الدولة، ويضم الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح. وقد زاد فيه المعز ومن خلفه من خلفاء الفاطميين.

والقصر الشرقي باب يعرف بباب الذهب وكان يعلو عقده منظره يشرف الخليفة فيها من طاقات، وله باب ثان يقال له باب البحر وباب ثالث يسمى باب الريح وباب رابع يسمى القيد وباب خامس يعرف بالزمرد وأمام هذا الباب رحبة فسيحة تقف فيها العساكر مشاة وفرسانا يومي العيدين. ومن أبواب القصر أيضا باب قصر الشوق وباب الديلم، وباب تربة الزغفران وهي مقبرة أهل القصر من الخلفاء وأولادهم ونساءهم ويشغل اليوم خان الخليلي وللقصر خزائن منها خزانة الكتب وخزانة الأشربة وخزانة السروج وخزانة الخيام وخزانة الفرش وخزائن الكسوات وخزائن دار أفتكين ودار الفطرة ودار التعبية.

وكان القصر يشتمل على قاعات منها قاعة الذهب، بناها العزيز بالله،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجددها المستنصر بالله في دنة ٤٢٨ وفيها كان يجلس الخلفاء في الموكب يوم الأثنين والخميس وبها كان يقام سماط الأمراء في شهر رمضان وسماط العيدين، وبها كان سرير الملك، ومن قاعات القصر الإيوان الكبير الذى كان يجلس فيه الخلفاء ثم إنتقلوا إلى الجلوس في قاعة الذهب وفيها المحول أو مجلس الداعي ويعرف بقصر البحر ومنها قاعة الفضة وقاعة السدرة وقاعة الخيم وقصر الشوق وقصر الزمرد. كذلك كان يشتمل على مناظر ثلاث هي الزاهرة والفاخرة والناضرة كان الخليفة يجلس في أحدها لعرض العساكر يوم الغدير، وعلى السقيفة التي يقف عندها المتظلمون.

٢ - القصر الغربي الصغير او قصر البحر:

يقع قبالة القصر الكبير بينهما فضاء متسع أو ساحة فسيحة تتسع لعشرة آلاف جندى يقال لها بين القصرين. بناه العزيز بالله واتمه المستنصر بالله في سنة ٤٥٧ وسكنة. وذكر أبن ميسر أن العزيز بالله كان قد أفرد أبنته الكبرى ست الملك بسكنى القصر الغربي. وجعل لها طائفة لخدمتها يسمون بالقصرية. وكان القصر يشتمل على عدة مواضع فيها: الميدان والبستان الكافورى المطل على الخليج، وكان متنزها للخلفاء الفاطميون مدة ايامهم وكانوا يصلون إليه من سراديب في جوف الأرض ينزلون اليها من القصر الشرقي ويسيرون فيها بالدواب إلى البستان الكافورى ومنظرة اللؤلوة. وكان من جملة القصر قاعة كبرى كانت مسكنا لست الملك وبجوار القصر تقع دار العلم من بحريه ومطبخ القصر وبالقرب منها الدار المأمونية.

وللقصر الغربي عدة أبواب منها باب الساباط وباب التباين وباب الزمرد وبالقرب من القصر تقع دار الضيافة بحارة برجوان وكانت تعرف أولا بدار الأستاذ برجوان وفيها كان يسكن، وبجوارها كان يقع

أصطبل الصبيان الحجرية.

٣ - **دار الملك بالفسطاط**: بناها الافضل شاهنشاه فى سنة ٥٠١ وأنتقل إليها من القباب أو دار الوزارة بالقاهرة، ومسكنها وحول إليها الشواوين من القصر فأصبحت بها وجعل فيها الأسمطة، وأتخذ بها مجالسا سماه مجلس العطايا. فلما قتل الأفضل أصبحت دار الملك من جملة متنزهات الخلفاء.

٤ - **منازل العز بالفسطاط**: بنتها السيدة تغريد ام العزيز بالله، ولم يكن فى مصر أحسن منها وكانت تطل على النيل، وكانت متنزها للخلفاء.

٥ - **الهودج بالروضة**: قصر بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية بجوار البستان المختار، وكان يتردد اليه كثيرا وأصبح من متنزهات الفاطميين العظيمة.

٦ - **قصر القرافة**: بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله سنة ٣٦٦ هـ هو والحمام الواقع غربه والبئر والبستان وجامع القرافة على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب، وكان هذا القصر متنزها مقصودا للفرجة وكانت له منظرة كبيرة محمولة على قبو تجوز تحته المارة ويقبل المسافرين أيام القيظ.

٧ - **منظرة بركة الحبش**: أقامها الخليفة الآمر بأحكام الله.

٨ - **قبة الهواء**: كانت من أجمل المتنزهات الفاطمية أقيمت على مرتفع من الأرض وسط عدة بساتين، وكانت القبة مؤثثة بفرش معدة فى الشتاء والصيف.

٩ - **قصر الورد بالخاقانية بقليوب**: قصر من ورد أقيم للآمر بأحكام الله فى قرية الخاقانية بقليوب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خزائن القصر الكبير

كان القصر الكبير يحتوى على نحو ١٥ خزانة هى كما يلى:

١ - خزانة الكتب: وتضم أربعين خزانة للكتب التى صنفت فى سائر العلوم منها خزانة تحتوى على ١٨ ألف كتاب من العلوم القديمة. وكانت بخزانة الكتب ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد. وذكروا أن العزيز بالله أشترى نسخة من كتاب تاريخ الطبرى بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما يزيد على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ومن كتاب الجمهرة لأبن دريد مائة نسخة. ويذكر صاحب كتاب الذخائر انه راى فى سنة ٤٦١ (شهرالمحرم) ٢٥ جملاً محملة كتبا محولة إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى، أخذها من خزائن القصر تبلغ قيمتها أكثر من مائة الف دينار، ونهبت جميعها من داره يوم أنهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر مع غيرها مما نهب من دور خزائن دار العلم بالقاهرة بخلاف ما تسرب إلى الإسكندرية ثم إلى المغرب وذكر المقريزى نقلا عن الطوير أبن الطوير أن خزانة الكتب المذكورة كانت تحتوى على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على ألف كتاب من المجلدات، ويسير من المجردات فمنها الفقة على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجابة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ. ويذكر أيضا نقل عن أبن طى أن صلاح الدين لما أستولى على القصر كان من جملة ما باعه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا ولم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من خزانة الكتب بالقاهرة فى القصر وأنها كانت تشتمل على ألف وستمائة كتاب فى حين يذكر أبن وأصل أنها كانت تضم أكثر من ١٢٠ الف مجلد.

٢ - خزائن الكسوات: أسس المعز لدين الله دار سماها دار الكسوة كان يفصل فيها الثياب المختلفة لكسوة أولاد الناس ونسائهم وسميت الدار بخزانة الكسوات وكانت تخزن فيها ثياب الخدم والحاشية ومن يلوذ منهم من صغير وكبير، بعضها ثياب مخصصة للصيف وأخرى للشتاء من العمائم إلى السراويل. ويذكر المقريزى نقلا عن ابن الطوير أن خزائن الكسوات خزانتان: الظاهرة يتولاها أكبر رجال حاشية الخليفة وفيها كميات هائلة من الملابس الشروب (الرقيقة) والدبيقى الملونة للرجال والنساء والديباج الملونة والسقلاطون (ثياب عليها نفش دوائر متصلة) وإليها يحمل ما يستعمل فى دار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية معد خاص المستعمل بها وبهذه الخزانة صاحب المقص وهو مقدم الخياطين ولعماله موضع فى داخل الخزانة لعملهم وكانوا يفصلون الحلل والبدل المذهبة أو الحريرية على مقدار الأوامر الصادرة أو ما تدعوا الحاجة إليه. أما الخزانة الباطنة فتشتمل على الكسوات الخاصة للباس الخليفة وتتولاها إمرأة فى خدمتها ثلاثون جارية، وكان الخليفة لا يغير ثيابه قط إلا عندها.

٣ - خزائن الجوهر والطيب والطرائف: وفيها تحفظ الأعلام والجواهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد، ويستدعى منها عند الحاجة ثم يعاد إليها عند إتمام مهمتها، وكذلك يحفظ فيها السيف الخاص والرماح المعزية الثلاث. وذكر المقريزى أن أحد شيوخ دار الجوهر بمصر أستدعى يوما مع بعض الجوهريين الى القصر فى ايام الشدة العظمى التى وقعت فى خلافة المستنصر لتقسيم بعض الجوهر، فاخرج أمامه صندوق كيلوا منه ٧ أمداد من الزمرد قيمتها على الأقل ٣٠٠ ألف دينار فسأل بعض الحاضرين من الوزراء شيخ دار الجوهر عن قيمة الزمرد فقال: أنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودا ومثل هذا لا قيمة له، ويذكر المؤرخون أن خزائن الجوهر كانت تشتمل على صناديق كثيرة من الدر الرائع وخواتم الذهب والفضة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذات الفصوص القيمة من الزمرد والياقوت السماقى وأخرجت معظم هذه الصناديق فى أيام الشدة وبيعت بابلاس الإنسان.

٤ - **خزائن الفرش والأمتعة**. وكانت تخزن فيها جميع أنواع المفروشات من النسيج القلمونى والدبيقى وانواع المخمل والخسروانى والديباج الملكى والخزما لا يحصى كثرة أو نفاسه. كذلك كانت تخزن فيها من الستائر السندسى الحريرية المطرزة والمخرمة بأشكال الطيور والفيلة والمصورة بسائر أنواع الصور.

٥ - **خزائن السلاح**. كانت تحفظ فيها الأسلحة التذكارية والأثرية مثل ذى الفقار سيف على بن أبى طالب صممة عمرو بن معدى كرب وسيف عبد الله بن وهب الراسى وسيف كافور وسيف المعز ودرعه وسيف الحسين بن على ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق. وكان بها من الخوذات والدروع والتجافيف والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والنعول وجعاب السهام والقسى والرماح الخطية والزراد والبيض كميات تعد بمئات الألوف. وفيها كانت تحفظ الكزاغندرات المدفونة بالزرد والمغشاة بالديباج والحواش المبطنة المذهبة والزرديات السابلة برؤوسها، والخوذات المحلاة بالفضة والرماح والأسنة والقسى.

٦ - **خزائن السروج**. خصصت لخزن سروج الخيل المحلاة بالفضة والذهب، وهى قاعة كبيرة تدور بها مصطبة إرتفاعها ذراع وعليها متكآت.

٧ - **خزائن الخيم**. كانت تحتفظ فيها ما لا يحصى من الخيم والمضارب والقصور والشرعات والفساطيط المصنوعه من الدبيقى والمخمل والديباج والبهنساوى من سائر الألوان، جميع الآتها من الأعمده الملبسه بانابيب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفضه والثياب المذهبة وغير المذهبه والحبال من القطن والحرير، والأوتاد وسائر ما يحتاج إليه لنصبها. وذكروا أنه أخرج من خزائن الخيم أيام الشده فسطاط كبيره يسمى المدورة الكبيره يقوم على عمود إرتفاعه ٦٥ ذراعا كبيرا ومحيطه ٥٠٠ ذراعا وعدد قطع شققه ٦٤ قطعه منها تخرم فى عدل واحد، ويحمل حرقه وحباله وعدته مائه جمل وكان الوزير أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازورى قد أمر بصنعه أيام وزارته.

٨-دار الفطرة. تقع خارج القصر، يناها العزيز بالله وقرر فيها ما يعمل من الفطره ويحمل الى النحربين فى أيام العيد، وكان يعمل منها الخشكنانج والبسيمه وكعب الغزال والحلواء والكعك والتمر والفستق والهند ويفرق ذلك كله على الناس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)
بعض مظاهر الحياه الاجتماعيه

الاحتفال بعاشوراءوالاعياد.

كانت تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ويبدأون فى النواح والنشيد تكسباً ويحتجب الخليفه فى ذلك اليوم، ولكنه يجلس فى قصره على الأرض فى ذكرى سيد الشهداء ثم المنشدون ويقرأ القراء نوبه ثم يفرش سماط الحزن مقدار الف زبديه من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان وأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه قصدا. فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وأدخل الناس ليتناول الطعام، فإذا فرغ القوم أنفصلوا الى اماكنهم. ويستمر النواح بالقاهرة فى ذلك اليوم حتى المغرب ثم يفتح الناس حوانتهم.

وكان للخلفاء الفاطميون على طول السنة أعياد ومواسم منها موسم رأس السنة الهجرية ويوم عاشوراء ومولد على ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة ومولد الخليفة وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرته وسماطه وليلة الختم من رمضان وعيد الفطر وعيد النحر وعيد الغدير ويوم النوروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وخميس العدس وموسم فتح الخليج.

وفى ليلة رأس السنة كان من رسومهم ان يعمل بمطبخ القصر عدة كبيرة من الخراف وتوزع على جميع ارباب الرتب واصحاب الدواوين وأرباب السيوف والأقلام مع جفان اللبن والخبز وأنواع الحلوى فيعم ذلك سائر الناس من خاصة الخليفة والإستاذين المحنكين إلى إرباب الضوء وهم

المتاعلية. وفى موسم أول العام كان يركب الخليفة بزيه الفخم ويخرج من باب الذهب وقد نشرت مظلته ورتب الموكب بحيث يسير ركبه بين صفي العسكر على يمينه ويساره ويقوم جميع الجوهريين والصناعة والبزازين فى القاهرة بتزيين الطريق الذى يسلكه الموكب الخلافى، ويخرج الخليفة من باب الفتوح ثم يدخل من باب النصر، ويعود إلى باب الذهب، وطوال الطريق تفرق الأموال والصدقات على الناس. فاذا ما دخل القصر يدخل خزانة الكسوات الخاصة فيغير ثياب الموكب ويتوجه إلى تربة آبائه للترحم على عادته، ثم تمد الأسمطة لاعمال الموظفين من أرباب السيوف والأقلام فتقدم الخراف المشوية وزبادى طعام وحامات حلوى وأرز بلبن وسكر.

وفى أول يوم من رمضان يرسل الخليفة الى جميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق فيه حلوى وبوسطه سرة من الذهب ثم يركب الخليفة ويسلك الطريق التى يسير فيها فى أول العام. وفى اليوم الرابع من رمضان يرتب السماط كل ليله بقاعة الذهب بالقصر الشرقى ويستمر ذلك حتى السادس والعشرين من رمضان.

وفى عيد الغدير يجتمع الناس والقراء والفقهاء والمنشدون بجامع الأزهر ثم يخرجون عند الظهيرة إلى القصر فتوزع عليهم الجوائز. وكان الخليفة يحتفل فى هذا العيد احتفالا يماثل احتفاله بعيد النحر، فكان يركب فى جميع من رجال الدولة إلى والأيوان الكبير لسماع خطبة قاضى القضاه، وعندما يدخل الخليفة الأيوان يتصدر الشباك ويصعد القاضى إلى كرسى الدعوه وهو يشبه المنبر فيجلس وامامه الشهود والأمراء والأجناد، ثم يقرأ القاضى نص وصاية النبى لعلى بن أبى طالب اثناء حجة الوداع فى غدير خم، فإذا إنتهى من قراءته نزل عن الكرسى وصلى بالحاضرين ركعتين، ثم يتقدم من الخليفة فيقدم إليه فروض الولاء ويمضى الخليفة بعد ذلك لذبح الأضاحى.

وفى الأحتفال بعيد مولد النبى ١٢ ربيع الأول كان الخليفة يجلس فى إحدى مناظر القاهرة للأستماع إلى الخطباء فى هذه الذكرى وبعد صلاة العصر يخرج قاضى القضاة فى موكبه الى الجامع الأزهر ومعه الشهود وداعى الدعاة وقراء القاهرة والخطباء وأئمة الجوامع وغيرهم ومعهم أرباب حملة أصناف الحلوى معبأة فى ٣٠٠ صينية من النحاس لتفرق عليهم، فيجلسون فى الجامع لسماع آيات الذكر الحكيم ثم يستدعيهم الخليفة الى المنظرة فيفتح الخليفة أحدى الطاقات ويظهر رأسه ووجهه ثم يقرأ القرآن ويخطب الخطباء وتغلق الطاقة بعد ذلك وينصرف الناس. وفى عيد النحر يخرج الخليفة فى موكبه متشحا ببدلة حمراء يتبعه رجال الدولة والجيش والبلاط ومعهم الجزارون إلى المنحر الذى يقع بجوار القصر الكبير، فإذا وصل الموكب يطلع الخليفة والوزير والقاضى وكبار الدوله فيناوله القاضى حربه مسنونه ويطعن الخليفة عنق الضحية ويساعده فى ذلك القاضى. وكان الخليفة يتردد على المنحر ثلاثة أيام فيذبح بيده ٧١ رأساً [illegible] يذبحه الجزارون وقدره يزيد على الألف. وفى اليوم الرابع يخلع الخليفة الثوب الأحمر والعمامة على الوزير وقد جرت العادة أن تقام صلاة العيد فى المصلى وهو أرض فضاء تقع خارج باب النصر ويخطب الخليفة خطبة العيد.

وكذلك أحتفل الفاطميون بالأعياد المسيحية من قبيل المشاركة لرعيتهم من أهل الذمة خلصة لوظفيم بالدواوين، فكانو يشاركونهم الأفراح، فيحضر الخليفة الأحتفال ويطلق المأكولات وتوزع الأموال والثياب على الموظفين المسيحيين والمسلمين على السواء.

كما أحتفلت الدولة بعيد النوروز وهو رأس السنة القبطية، وفى هذا اليوم كان الخليفة يخرج إلى منظرة اللؤلؤة فيشاهد أحتفال الناس بالعيد، كذلك كانت ضفاف النيل تموج بالناس وتمتلئ بالمشاعل. وكانت الدولة تطلق إلى الموظفين ونسائهم الكسوات والأموال والطعام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك أحتفل الفاطميون بعيد الميلاد في السابع من يناير، بإطلاق أصناف الحلوى إلى الموظفين كالمثارد والحلواء وشراب الجلاب والزلابية. وفي عيد الغطاس شارك الفاطميون رعاياهم المسيحين في الأبتهاج بهذا العيد فتتوقد الشواطىء في النيل بالمشاعل وتكثر الزوارق في النيل ويبلغ الناس في المأكل والمشرب والعزف والطرب. ومن أهم أعيادهم عيد تخليق المقياس وفتح الخليج فلقد حرص الفاطميون منذ أن ثبتت أقدامهم في مصر على الأحتفال بوفاء النيل على نحو يتفق أهميته بالنسبة لحياة البلاد الإقتصادية، وقد أبتدعوا في ذلك رسوما جديدة لم تكن متبعة في مصر قبل، فقبل أن يصل إرتفاع منسوب مياه النيل في زمن الفيضان إلى ستة عشر ذراعا بأصبع أو أصبعين كان يؤمر قراء الحضرة والمتصدرون بجوامع القاهرة ومصر الفسطاط بأن يبيتوا في جامع المقياس في تلك الليلة التي يستوفي فيها النيل ستة عشر ذراعا، لختم القرأن الكريم، وهناك يمد لهم السماط بالأطعمة الفاخرة، وتوقد لهم الشموع حتى الصباح. وكان يعهد بمقياس الروضة، الى شخص يراقب إرتفاع الماء عنده في زمن الفيضان من أسرة أبي الرداد وهي أسرة توارث أفرادها مهمة مراقبة المقياس ورعايته وتنظيفه منذ أن تولى هذا العمل عميدها الفقيه عبد الله بن عبد السلام بن أبي الرداد في سنة ٢٤٧ هـ. وجرت العادة قبل العصر الفاطمي أن يقاس النيل في بداية الفيضان وقت العصر من كل يوم، ثم ينادي صاحب المقياس بزيادة عدد الأصابع من الغد دون أن يصرح بذرع، إلا إنه كان يكتب في كل يوم رقاعا لأعيان الدولة يذكر فيها زيادة النيل في ذلك اليوم من الإصابع، وما صار إليه من الأذرع، ويذكر بعد ذلك ما كانت عليه الزيادة في ذلك الوقت من العام السابق، ولا يطلع على ذلك عوام الناس، فاذا وفى ١٦ ذراعا يسبل صاحب المقياس الستر الأسود الخليفي على شباك المقياس، فيتباشر على الفور بالوفاء. وقد منع الخليفة المعز في سنة ٣٦٧ هـ النداء بزيادة النيل وأمر بألا يكتب بذلك إلا إليه والى القائد جوهر، وأصبح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التكتم فى الزيادة عادة التزمها الخلفاء الفاطميون فى مصر، وعندما يستوفى النيل الزيادة يباح النداء ويكسر الخليج.

وعندما يثبت الوفاء، يعلم الخليفة، فيركب فى أحتفال مهيب ، ويلبس التاج ويشق القاهرة فى موكبه الحافل إلى باب زويله، ويسلك الموكب الشارع المؤدى إلى الجامع الطولونى والجسر الاعظم الى ان تصل الى مصر الفسطاط، ويدخل من دار الصناعة، ويمر بدهليز ممتد، قد أصطفت عليه مصاطب مفروشة بالحصر العبدانى يؤزر بها، ويخرج من بابها ويخترق موكبه مصر إلى أن يصل بعد ذلك إلى المنظرة المعروفة برواق الملك، وكانت تقع تقريبا من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجة له، ويمضى الوزير معة ما شيا إلى المكان المعد له، ويركب الخليفة العشارى الخاص وبصحبته عدد من الأستاذين المحنكين يصل من ثلاثة الى أربعة، بالإضافة الى الوزير وأثنين من خاصته. وكان نواتية العشارى يلبسون الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الاحمر. ثم يسير العشارى فى النيل من باب المنظرة إلى باب المقياس العالى على الدرج، فينزل الخليفة من العشارى ويدخل إلى فسقية المقياس، ويقف الوزير والآستاذون المحنكون بين يديه، يصلى كل من الخليفة والوزير ركعتين، ثم يؤتى بالزعفران والمسلك فيذيفه الخليفة بآله معه فى يده بداخل أناء، ويتناوله صاحب بيت المال، فيتناوله لصاحب المقياس، فيلقى هذا نفسه فى الفسقية بثيابه، ويتعلف فى عمود المقياس برجليه ويده اليسرى، ويخلقه بيده اليمنى أى يطيبة بالمسك، والزعفران. وفى أثناء عملية التخليق يقوم قراء الحضرة بقراء القرآن. ثم يخرج للخليفة على أثر ذلك فيركب العشارى، ويقفل عائد إلى دار الملك الواقعة بالقرب من باب القنطرة، ومنها يركب فى موكب حافل فيعود من هناك إلى الفاهرة.ويكون فى النيل فى ذلك اليوم نحو الف مركب قرقورة مشحونة بالناس للتفرج وأظهار الفرج. وفى اليوم التالى يأتى صاحب المقياس إلى الايوان الكبير بالقصر، فيخلع عليه الخليفة خلعة مذهبة بطيلسان مقور،

ويدفع إليه خمسة أكياس فى كل منها خمسمائة درهم فيليس الخلعة، ويخرج من باب العيد أحد أبواب القصر، ويسير فى موكب تصدع أمامه للأبواق، وتضرب من ورائه الطبول، فيشق بين القصرين، وكلما مر على باب من أبواب القصر يدخل منه الخليفة او يخرج، نزل وقبله، ثم يخرج من باب زويلة فى الشارع الاعظم حتى يصل إلى مصر، فيخترق المدينة مارا بالجامع العتيق، ويتجاوزه الى شاطىء النيل، ثم يجوز إلى المقياس بخلعته، وما من الأكياس، فياخذ من الأكياس قدرا لنفسه، ويوزع باقى ذلك على الأقارب وغيرهم.

وفى اليوم الثالث والرابع من التخليق، وبعد أن يأخذ النيل فى الزيادة، ويخرج الخليفة فى موكب حافل، وقد لبس ثوبا من حرير مرقوم بالذهب يقال له بدنه (١)، ويسير حوله الأستاذون المحنكون، ويسلك الموكب نفس الطريق التى كان قد سلكها يوم تخليق عمود المقياس إلى أن يصل إلى ساحل الخليج، فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة المنصوبة له حافة الخليج الغربى

عند المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة (٢). وكانت هذه الخيمة من الديباج الرومى الموشى بالذهب ومكللة بالجواهر (٣) فيترجل الخليفة على باب الخيمة، ويجلس على الحشية الموضوعة له فوق الملك، ويحيطة الأستاذون

---

(١) السدنة ثوب لا يدحل فى لحمته وسداه من الغزل سوى أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب ، وتبلغ قيمته الف دينار، إختصت بصناعته مدينة تيس (المقريزى، ج ١ ، ص ٣١١

(٢) كان عمود الخيمة يلف بديباج أحمر أو أبيض أو أصفر من أعلاه الى أسفله، وينصب فيه سرير الملك مستندا إليه ويغشى بقرقوبى، ويوضع عليه حشية من الفرش للخليفة (إرجع التفاصيل فى. ناصر خسرو، سفرنامة ص ٥١ - ٥٥ ، القلقشندى، صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٤ وما يليها).

(٣) ناصر خسرو، ص ٥٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم، ويجلس الوزير على كرسي مخصص له، ويقف أرباب الرتب صفين من سرير الملك الى باب الخيمة، ويبدأ الحفل بتلاوة آيات من القرآن الكريم تستغرق ساعة من الزمان، ثم يدخل الشعراء وينشدون، فاذا أنفض هذا المجلس ركب الخليفة الى المنظرة بالسكرة، وهى منظرة بناها العزيز بالله، فيجلس الخليفة فى الموضع المعد له، ويجلس الوزير فى موضع منها، ثم يشير إلى الخليفة أشارة البدء فى فتح السد (١)، فيفتح بالمعاول، وتضرب الطبول والأبواق من ضفتى الخليج. فإذا ما أغتدل الماء فى الخليج، دخلت العشاريات اللطاف، يليها العشاريات الكبار وعددها سبعة منها الذهبى المخصص للخليفة، وهو الذى يركبه فى يوم تخليق عمود المقياس والفضى، والأحمر، والأصفر، والأخضر، وهو والوردى، والصقلى، وهو عشارى أنشأة تجار من صقلية فنسب إليه، وتسير هذه العشاريات، وقد زانت بالستور الدبيقى الملونة، وعلقت فى أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والخرز الأزرق، فى الخليج حتى ترسو على بر المنظرة التى يجلس فيها الخليفة. وبعد صلاة العصر يركب الخليفة وقد غير ثيابه التى كان يلبسها فى الصباح، ويسير فى موكبه فى البر الغربى من الخليج مخترقا البساتين حتى يصل إلى باب القنطرة فيعطف على يمينه، ويمضى إلى القصر(٢) وإعتاد الخلفاء الفاطميون أن يبذلوا الأموال الطائلة على النواتية الذين يجدفون بالخليفة فى العشارى فى يوم الأحتفال بفتح الخليج، مثل ذلك الحاكم بأمر الله أنعم فى رمضان سنة ٤١٥ هـ بإقطاعات وأموال النواتية (٣).

---

(١) هو سد من التراب كان يقام عند فم الخليج قبل الأحتفال بكسر فى كل سنة.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ح ٣ ص ٥١٥، ٥١٧ - المقريزى ح ٢ ص ٣٧٠ - أبو المحاسن، النحوم الزاهرة، ج ص ٩٩ - ١٠٠، عبد الرحمن عبد التواب، مشآتنا المائية عبر التاريخ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٤.

(٣) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٦٨ ب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمعز لدين الله أول من احتفل بوفاء النيل من خلفاء الدولة الفاطمية، ففى السنة التى قدم فيها إلى مصر ركب لكسر خليج القنطرة، فكسر بين يديه، ثم سار على شاطىء النيل فى موكب عظيم، وخلفه وجوه اهل الدولة، ومر على سطح الجوف وعطف على بركة الحبش، ثم على الصحراء، وطاف بالخندق الذى حفره جوهر(١).

مظاهر الأبهة في الحياة الخاصة والعامة:

شاع فى العصر الفاطمى لون من الترف لم تشهده البلاد من قبل إلا فى زمن خماروية، فقد كثر بناء القصور والمباني الفخمة التى أكتظت بفاخر الأثاث ونفيس الامتعة وكانت الحنايا والأبواب تزدان بمختلف أنواع الستائر والطنافس المخملية والحريرية. ونستدل من وصف المقريزى لما كانت تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف من التحف البلورية (٢) والزجاجية المموهة بالمنيا مثل كيزان الفقاع المصنوعة من صافى البلور المنقوش والمجرود والصناديق المملوءة بسكاكين الذهب والفضة والدوايا المربعة والمدورة المصنوعة من الذهب والفضة والصندل والعود والآبنوس والعاج والمحلاة بالجوهر ما يعبر عن هذا الترف الذى بلغ الغاية.

ويروى المقريزى أن الطبيب وصف لسلطان الملوك حيدرة أخى الوزير المأمون بن البطائحى والى الإسكندرية فى ٥١٧ وصف له دهن شمع بحضور

(١ المقريرى، أتعاط الحفا، ج ١ ص ١٣٩ - الخطط، ج ٢ ص ٣٥٧.

(٢) وصلت إلينا امثلة من التحف الللورية منها أبريق من البلور الصخرى(كريستال) محفوظ فى كاتدرائية سان مارك بالبندقية من العصر الفاطمى عليه كتابة على هيئة شريط يلف حول أعلى البدن نطالع فيه: بركة من الله للإمام العرير بالله)

القاضي مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد، فأمر القاضي في الحال بعض غلمانه بالمعنى إلى داره أستحضار دهن شمع، فأحضر الغلام حقاً مختوما، فك القاضي عنه، فوجد بداخله منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه تعرف بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة ومرصعة بياقوت وجوهر: بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور وبيت دهن بعنبر طيب، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته، فتعجب الحاضرون من علو همة القاضي.

ويتساءل المقريزي قائلا:" وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار فانظر رحمك الله إلى من يكون دهن الشمع عنده في أناء قيمته خمسمائة دينار ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة، فماذا تكون ثيابه وحلي نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات. وهذا انما هو حال قاضي الاسكندرية ومن قاضي الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ؟".

ويصف ناصر خسرو تجار مصر فيقول:"وكانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملؤة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة والملابس المذهبة والموشاة"

(٤)

صور من الحياة العلمية في العصر الفاطمي

أزدهرت الحياة العلمية في مصر في العصر الفاطمي أزدهارا لم تشهده البلاد من قبل، ولا شك فيه ان من أسباب الأفرادها قيام جامع الأزهر بدوره كجامعة علمية من جهه وأنشاء دار الحكمة على يدى الحاكم بأمر الله في القاهرة سنة ٣٩٥ هـ، ففيها جلس القراء والمنجمون وعلماء النحو واللغة والأطباء، وحلت إليها أعداد هائلة من الكتب نقلت من خزائن القصور وبلغ عددها نحو مليون وستمائة ألف مجلد، ولم يكن على حد قول المقريزي في جميع بلاد الإسلام كتب أعظم منها، وكانت تضم مصورات جغرافية وآلات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلكيـة وتحف نادرة منـها كرتان ارضيـتـان إحداهمـا مـن الفضـة صنعـهـا بطليـمـوس والثـانيـة من النحـاس، ومن بين من تولى دار الحكمـة بالقـاهرة ،داعى الدعـاة أبو نـصـر هبة الله بن مـوسى الشيـرازى المعـروف بالمؤيد فـى الدين. وأستـمـرت دار العلم قـائمـه إلى أن ابطلهـا الأفـضـل شاهنشـاة فى سنة ٥١٦ هـ بسـبب إجتـمـاع النـاس والخـواص فى المذهب، والخـوف من الإجتـمـاع على المذهب النزارى

العلوم الدينية:

حـاول الفاطمـيون نـشر تأويلهم البـاطن ولكن مـعظم المصـريين أمتنعـوا عن قبوله لما فى تأويلهم من مـخالفات واضـحة من المأمـور، وهذا يفسـر أستـمرار تغـيـر أهل السنة فى مـصر طوال العصر الفاطمى حتى زوال التـأويل البـاطن بنهاية الدولة الفـاطمـية. وكـان الفـاطـمـيين يـسمون التـفسـير المأثور الذى يتـبعـة جمـيع المسلمين بـتـفسـيـر العـوام وإنهم وحدهـم الذين يعرفـون حقـيقـة الدين تأويل القرآن ذلك لإن الله أستـودع التأويل على بن أبى طالب وورثة الإئمة من ذريتـه.

وفيـمـا يتـعلق بعلوم الحـديث فقـد حـاز المقربون على غـيـرهم من الشـعـوب الإسلامـيـة قصـب السـبق وكـان لمصر دور هام فـى هذه العلوم (١) وأسـتـمـرت مصر فـى العـصـر الفـاطمى كعبة علوم الحديث فقد وفد إلى مـصـر المحدث عبد الغنـى بن سـعـيـد فـى العـصـر الفـاطـمى وروى عن أبى بكر مـحـمـد العـسكرى المصرى، وأبى القاسم الكنانى المصرى، وأشهر المحدثين الذين قصـدوا مصـر فى أواخر العـصـر الفـاطمى الحـافظ السلفى الذى أنتـهـى إليـه علوم الأسناد وكـان أوحد زمـانه فى علوم الحديث وأعـلمهم بقوانين الرواية، (٢) ولما أستـقر

(١) محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٧.

(٢) ومن أشهر رجال الحديث المصريين عبد الله بن وهب المصرى (ت ١٩٧) وسعيد بن غفير ويحيى بن بكير والليث بن سعد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

به المطاف فى الإسكندرية بنى له الوزير على بن السلار مدرسة للحديث فى سنة ٥٤٤ وفرص أمرها إليه وعرفت المدرسة لذلك بالمدرسة (١) السلفية.

وقد وجد الفقة فى مصر منذ أن دخلها المسلمون وظهر فى عصر الولاة عدد من كبار الفقهاء وظلت مصر فى العصر الفاطمى مركزاً لعلوم الفقة على الرغم من أن الفاطميين كانت لهم سياسة خاصة نحو مذاهب أهل السنة والجماعة. وعلى هذا النحو نجد عددا كبيرا من فقهاء المالكية فى مصر فى العصر الفاطمى أمثال أبى بكر النعال الذى كانت إليه الرحلة بمصر (ت ٣٨٠) وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى المصرى صاحب مسند الموطأ. وفى هذا العصر وفد إلى مصر عبد الجليل بن مخلوف الصقلى (ت ٤٥٦) كما وفد إليها الطرطوشى ونزل بالإسكندرية (ت ٥٢٢) وكذلك كانت مصر قاعدة للمذهب الشافعى، وكان لظهور فقه الشافعى أثر واضح فى الحياة العلمية بمصر أذ أتاح الفرصة لقيام المناظرات الفقهية بين علماء الشافعية والمالكية وظهر فى العصر الفاطمى أمثال نصر بن بشر (ت ٤٧٧) والقاضى على بن الحسين الخلعى (ت ٤٩٢) الذى على الرغم من كونه شافعيا فان الفاطميين ولوه القضاء سنة ٤٥٠ هـ ولكنه إعتزل بعد يوم واحد. أما بالنسبة للفقة الحنبلى فقد أعرض عنه المصريون فى حين أنتشر فقه أبى حنيفة نوعا ما وظهر عدد من المصريين فبغوا فى هذا الفقة أمثال الطحاوى أمام المصريين.

وإلى جانب فقة السنة كان للشيعة الأسماعيلية فقه حمل لواؤه أشهر فقهاء المذهب الأسماعيلى النعمان بن محمد بن حيون المغربى صاحب كتاب دعائم الإسلام وقد أشتهرت أسرة النعمان بإشتغالها بالفقة الشيعى

---

(١) عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية ص ٢١٩.

الأسماعيلى وكان لهم أعظم الأثر فى تألق الحركة العلمية فى مصر الفاطمية. ومن أشتغل بالفقة الشيعى الوزير يعقوب بن كأس وكان يهوديا ثم أسلم وله من المؤلفات "الرسالة الوزيرية" فى فقة المذهب الإسماعيلى، وكان أعظم من رعى العلماء فى مصر وشجعهم على التأليف والبحث، وهو الذى حول الجامع الأزهر إلى جامعة علمية.

العلوم اللغوية:

نشطت الدراسات اللغوية فى مصر نشاطا واضحا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة فظهر بنو ولاء التميميين الذين كان لهم أعمق الأثر فى دعم هذا النوع من الدراسات ويفضلهم ويفضل من ظهر فى مصر بعدهم أقبل المصريون على دراسة علوم اللغة والنحو.

ويعتبر العصر الفاطمى يحق العصر الذهبى للعلوم بفضل تشجيع فاطميين للعلم والعلماء وقيامهم بأنشاء خزائن الكتب ودار العلم، وقد بلغ ـ أهتمام الفاطميين بعلوم اللغة والنحو أنهم جعلوا من كل ديوان من .واوينهم لاسيما ديوان الأنشاء علماء لغويين يراجعون ما كان يصدر عن الدواوين من رسائل.

ومن أبرز العلماء الذين ذاعت شهرتهم فى العصر الفاطمى القزاز النحوى الذى ألف للعزيز الفاطمى كتابا فى النحو ومنهم المهلب النحوى وكان من المقربين إلى العزيز بالله.

علم التاريخ:

كانت مصر مركزا رئيسيًا للدراسات التاريخية، فقد نبغ من مؤرخيها فى عصر الولاة عدد كبير نذكر منهم على سبيل المثال عبد الرحمن الحكم (ت ٢٥٧) والكندى أكبر مؤرخى مصر الإسلامية قبل العصر الفاطمى

(ت ٣٥٠) والحسن بن زولاق (ت ٣٨٧) الذي لقب بمؤرخ مصر. وزخر العصر الفاطمي بطائفة من كبار مؤرخي مصر نذكر منهم السبحي المؤرخ الذي عاصر الحاكم بأمر الله وخدمة ودخل في عسكره وتدرج في المناصب حتى أصبح أمير على البهنسا من أعمال الصعيد ثم تولى ديوان الترتيب. وكانت له مع الحاكم مجالس سجلها في كتابه "التاريخ الكبير" ولم يبق للأسف من هذا الكتاب التاريخي الجامع الذي يتضمن وصفا لأحوال مصر السياسة والإجتماعية والثقافية والإقتصادية إلا عدد من الصفحات المخطوطة التي تحتفظ بها مكتبة الأسكوريال بأسبانيا.

ومن مؤرخي مصر في العصر الفاطمي المؤرخ القضاعي (ت ٤٥٧) وكان كونه شافعيا كاتبا للأنشاء للفاطميين وأوفد سفيرا لهم إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧. وقدألف القضاعي عددا من المصنفات منها "تواريخ الخلفاء" وأهمها كتاب "خطط مصر".

العلوم العقلية:

كانت الإسكندرية أعظم مراكز الثقافة الهللينية ولكن مدرسة الإسكندرية لم تلبث بعد الفتح العربي أن إضمحلت لأنصراف أهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية وأقبالهم على الثقافات العربية. ولم يعر المصريين الفلسفة أنتباها ومع ذلك فقد أقتصر الدارسين للعلوم العقلية على جماعة من النصارى واليهود وعلى الأخص درسة الطب والفلك - ففي مجال الطب نبغ في عصر الولاة جماعة من أهل الذمة أمثال بليطان وسعيد بن نوفل وأبن رحيمون اليهودي، ولكن منذ العصر الفاطمي برز عدد من أطباء المسلمين نذكر منهم الطبيب محمد بن أحمد التميمي (ت ٣٧٠) وأبو الحسن على بن رضوان، الذي أزدهرت مدرسة الطب على يديه. أما في مجال الفلك والرياضيات فأننا نشهد تطورا واضح المعالم في العصر الفاطمي لإهتمام الفاطميين بهذه العلوم ورعايتهم لها ثم أنها كانت دعامة مذهبهم الديني بل

كان بعض هؤلاء الخلفاء من العلماء البارزين في هذه العلوم، فكان المعز والعزيز والحاكم والحافظ يرصدون النجوم لأستقراء ما وراءها من أحداث أو معرفة الأرصاد الفلكية التي يقصد منها عمل التقاويم (١) وعمد الفاطميون إلى أقامة المراصد وأستدعاء علماء الفلك وأشهر علماء الفلك وأشهر علماء الفلك والرياضيات في هذا العصر أبو الحسن علي بن يونس صاحب الزيج الحاكمي، وأبو علي محمد بن الحسن بن الهيتم أعظم عالم رياضيات شهدته مصر الفاطمية الذي أستقر بمصر في عصر الحاكم، وقد لقب لبراعته وحذقه وكثرة تواليفه في الرياضة والطبيعيات ببطليموس الثاني ومن المعروف أن ابن الهيثم أول من أنشأ علم الضوء بالمفهوم الحديث.

(١) محمد كامل حسين، ص ٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥)
الفنون الصناعية في العصر الفاطمي

١ - في صناعة التحف الخزفية والفخارية:

كانت مصر قبل الفتح العربي مركزا هاماً لصناعة التحف الفخارية المتخذة للزينة كالكؤوس ذات الرسوم البارزة، وأستمرت شهرة مصر في صناعة التحف الفخارية والخزفية في العصر الإسلامي وعلى الأخص في العصر الفاطمي الذي يسجل أزدهاراً منقطع النظير لسائر أنواع الصناعات. وقد حظي الخزف ذي البريق المعدنية بشهرة كبيرة وراجت صناعته وتعددت أشكال التحف بتعدد المصانع في البلاد، وقد ساعد على أزدهار صناعة هذا النوع من الخزف الرخاء الإقتصادي الذي نعمت به البلاد في ظل الحكم الفاطمي ولا تخلو التحف الخزفية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي من رسوم آدمية وحيوانات وطيور وزخارف من التوريق والعناصر الهندسية والخطية، كما تجلت في بعضها صور تمثل جوانب هامة من المجتمع المصري في العصر الفاطمي، فمنها ما يشتمل على مناظر الحمالين والشيالين والمصارعة ومجالس الطرب والمبارزة بالعصى وآخرى تمثل مصارعة الديكة أو أشكال سفن. هذه الصور تمثل لأول مرة في تاريخ الفن المصري لوناً من الفنون الشعبية لم يكن متد في التحف الإسلامية للمعاصرة.

وقد أشتهر من صناع الخزف في هذا العصر شخصيتان هما: أبو القاسم مسلم بن الدهان، والثاني سعد، وكلاهما وقع أسمه على جميع منتجات مصنعه (١). أما التحف الفخارية فقد تطورت صناعتها في العصر الفاطمي

---

(١) حسن باشا، وصوح شخصية الفنان على حوف القاهرة، في كتاب القاهرة: تاريخها فنونها آثارها، القاهرة ص ١٠٢ وما يليها - عبد الرؤوف علي يوسف أبو القاسم مسلم بن المهان، مقالي في كتاب القاهرة، ص ١٠٨ وما يليها، - وبفس المؤلف، في تعاليم عن الحرف، بكتاب القاهرة ص ٣١٢ وما يليها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تطورا دفع بضاعتها خطوات كبيرة إلى الأمام، فقد تعددت أشكال المسارج وتنوعت زخارفها وأساليب صناعتها فاتخذ بعضها شكل حيوان صغير يشبه الخروف وبعضها يشبة الأباريق، والقلل الفخارية وهى من الأعمال الشعبية تفنن الصناع فى تزيينها وفى زخرفتها لكى تكون أداة لادخال البهجة فى نفس الشارب أو الناظر اليها على السواء، فصنعت لهذه القلل شبابيك مخرمة أتخذت رسوما وزخارف تجاوزت حدود الجمال بعضها يمثل رسوم حيوانات وطيور وأشكال آدمية وبعضها الأخر خرمت فيه كتابات كوعية ونسخية نقرأ فيها كلمات مأثورة أو أبيات فى الحكمة، من ذلك شباك قلة محفوظ بمتحف أطنة بتركيا يتضمن كتابة كوفية لبيت من الشعر

نصه:

إذ أنت لم تحفظ لنفسك سرها فسرك بين الناس يعلمه الغير

وهناك شبابيك قلل رست فيها رسوم منازل أمامها شجيرات النخيل أو قوارب وسفن وفى بعضها مناظر تمثل مجالس شراب أو رسوم تمثل صور وحيوانات وطيور وطواويس وأسماك.

صناعة البلور الصخري:

أبدى ناصر خسرو أعجابه بالتحف المصنوعة من الزجاج والبللور الصخرى فى العصر الفاطمى فأمتدح أوانى الزجاج المصرى لشفافيته ونقاوته وذكر أنه شاهد من الزجاج القاهرى نوعا فاخراً يشبه الزبرجد كان يباع لنفاسته بالوزن"ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والطافة ويبيعونها بالوزن"كذلك سجل أعجابه بالتحف المصنوعة من البللور الصخرى، فقال:"ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال، وهم يحضرونه من المغرب،. والبلور الصخرى نوع من الأحجار يشبه الزجاج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنه أشد صلابه وأكثر جمالا. وقد وصلت ألينا أمثلة متعددة لهذه التحف البلورية تشهد بدقة الصناعة وأحكامها.

في صناعة النسيج:

صناعة النسيج من الصناعات التى كانت لها تقاليد راسخة فى تاريخ مصر، وقد أكتسبت هذه الصناعة شهرة عالمية، وواصلت مصر شهرتها فى هذا المجال فى العصر الإسلامى ووصلت ذروتها فى العصر الفاطمى، ولقد حازت الأقمشة الفاطمية شهرة عالمية لما كانت تتميز به هذه الصناعة من الجودة والجمال وقد أبتكر الفاطميون لأنفسهم طرازا خاصا فى الخط الذى نقشوه على النسيج الفاطمى، فعملوا على تصغير حجم الحروف.

وملأ الفراغ الواقع بين الحروف بوحدات زخرفية كما بدآوا فى أستخدام الخط النسخى المستدير على المنسوجات لأول مرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البحريه المصرية في العصر الفاطمي

أولا: البحرية الفاطميةفي مصر والشام في عصر القوة: (من المعز لدين الله الي المستنصر بالله)

(١)

السيادة الفاطمية علي حوض البحر المتوسط كله

يسجل إستيلاء الفاطميين على مصر والشام فيما بين عامى ٣٥٨ هـ و ٣٦٥ بداية عهد جديد فى تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، وأصبحت فيه سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط الشرقية من أنطاكية إلى غزه، والجنوبية من غزه شرقا إلى مصب وادى ملويه بالمغرب الأوسط غربا، ملكا للفاطميين. وكان من الطبيعى أن يهتم الفاطميون بالدفاع البرى والبحرى عن هده السواحل الشامية المصرية المغربية المترامية الأطراف من خطر الغزو البيزنطى من جهة، وخطر القرامطة على مصر من جهة ثانية، أو عن سواحل البحر الأحمر خوفا على مراكب الكارم من القراصنة (١). ولذلك وجه المعز لدين الله الفاطمى عنايته لتدعيم الأسطول الفاطمى وتنظيمه على نحو يتسق والأوضاع السياسية الجديدة، على الرغم من أنه كان قد نقل أسطوله من قواعده المغربية إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس وعسقلان وطرابلس وصيدا وصور، ولم يترك فى المغرب

(١) ولذلك السبب وضعوا أسطولا فى عيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها، وكانت عدة هذا الاسطول خمسة مراكب، تناقصت فيما بعد الى ثلاث وكان والى قوص يتولى هذا الأسطول(القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٥٢).

إلا عددا قليلا من السفن لمعاونة نوابه الزيريين في حماية سواحل المغربيين الأدنى والأوسط من الخطر الأموى فى الأندلس (١)، وفى نفس الوقت لمتابعة السياسة التى رسمها الأئمة الفاطميون لمواصلة الجهاد فى صقلية وجنوب إيطاليا.

وقد ترتب على إنتقال الفاطميين إلى مصر، أن أصبحت الدولة الفاطمية تنقسم إلى قسمين: قسم مشرقى يضم الشام ومصر، وقسم مغربى ويشتمل بدوره على ثلاثة ولايات منفصلة: ولاية طرابلس وسرت ثم ولاية الزيريين الصنهاجيين بالمغربين الأدنى والأوسط، واخيرا ولاية صقلية التى أنحصرت فى أسرة بنى أبى الحسين الكلبيين (٢).

أما الشام ومصر، فقد أصبحتا ترتبطان لأول مرة فى تاريخها الاسلامى فى وحدة سياسية شاملة على الرغم مما تعرض له الفاطميون من دسائس أعدائهم فى العراق وفى بلاد الشام نفسها (٣)، ثم أن الشام كانت فى أعتبار الأئمة الفاطميين أرض جهاد ، لإتصال حدودها الشمالية بأراضى البيزنطيين، بالإضافة إلى كثرة ثغورها البحرية المعرضة للغارات البحرية البيزنطية (٤).

---

(١) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ٣١٢.

(٢) النويرى، نهاية الارب فى فنون الادب، ج ٢٢ ص ١٣٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم الصلات التاريخية بين الشام ومصر فى العصر الإسلامى، مجلة العلوم، العدد الخامس، مايو ١٩٦٤ ص ١ - ١٠، عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، ص ١٢٣.

(٤) من المعروف ان الامبراطور البيزنطى حنا ترمسكيس معروف فى المصادر العربية بابن الشمشقيق، عزم منذ ان تولى العرش على القيام بحملة صليبية واسعة النطاق ضد المسلمين فى الشام (سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ٦٤ - عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبى: الامبراطور يوحنا تزمسكس وسياسته الشرقية، الإسكندرية ١٩٦٦ ص ٩٠ - ٩٦)، سالكا فى ذلك نفس السبيل الذى سلكه سلفه الإمبراطورية نقفور فوقاس، فاستغل فرصة ما كان يعانيه الفاطميون من متاعب فى الشام من جانب الحسن بن احمد القرمطى، وابى منصور الفتكين (-)

وأما البلاد اللوبية المتدة ما بين مصر وأفريقية، فقد أنقسمت في العصر الفاطمي

إلي قسمين :

١ - قسم شرقي: يمتد ما بين حدود مصر الغربية إلى برقة، ويشتمل على أقليمي لوبية ومراقية، وكان هذا القسم، كشأنه في العصور الإسلامية السابقة على العصر الفاطمي، عملا من أعمال مصر، وجزءا اقليمياً مقسما لها. وظل هذا القسم الشرقي خاضعا للفاطميين في مصر حتى سنة ٣٩٦ هـ عندما أنتزعة منها - خلال عام واحد - ثائر أندلسي يقال له الوليد بن هشام الأموي، ويعرف بابي ركوة، ولم يلبث هذا

(+) التركي، وتحركت قواته لغرو سلاد الشام في سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م)، فافتتح حمص وبعلبك، ودخلت دمشق في طاعته. ثم زحف حنوبا نحو الساحل، فوصل الى بلدة صيدا، حيث هادنه واليها ابن الشيخ على مال (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤) ثم استولى على قيسارية، وأفتتح بيروت عنوة، آفتتح مدينة جبيل الواقعة في شمالها، فيمابين طرابلس وبيروت. ولكن قواته المرهقة لم تستطع أن تقتحم أسوار طرابلس التي في حماية الأسطول الفاطمي، فإضطر الإمبرطور إلى رفع الحصار عن طرابلس، ورحل بقواته إلى أنطاكية (محمد جمال سرور) دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣١ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ح أ، ص ٦٦ - السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٥٥ وما يليها) كذلك قام الأمبرطور بسيل الثاني بغزو بلاد الشام في سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م)، فنزل بحلب، وزحف منها إلى شيزر التي استسلمت له بسهولة (ابن القلانسي - ص ٤٣ - أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ح ٤ ص ١٢١. ثم حاصر حمص وأفتتحها عنوة وأفتتح رفنية، ومن هناك زحف تجاه طرابلس، فحاصرها أكثر من اربعين يوما. ولكنه اخفق في أفتتاحها أمام مقاومة أهلها، ووصول المدد إليها عن طريق البحر، وإضطر اخيرا إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى بلاده. ثم قام في سنة ٣٨٩ هـ بحملة ثانية لقيت نفس مصير الحملة السابقه، واضطر ه المرة إلى الرحيل من طرابلس في ٥ المحرم سنه ٣٩ هـ إلى أنطاكية (يحيى بن سعيد الأنطاكي صله كتاب سعيد بن بطريق، بيروت ٩ ١٩ ص ١٨٤ ابو الفداء، المختصر ج ٤ ص ٢٠ ، أسد رستم، الروم والعرب، بيروت +١٩٥٦ ح ٢ ص ٥٦ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ١٦٩)

الإقليم أن عاد بعد مقتل أبى ركوة إلى تبعيته المباشرة لمصر.

٢ - وقسم غربي: يمد بين برقة وقابس، ويضم مدينتى سرت، وطرابلس،، وأقليم أجدابية الواقع جنوبى سرت، وقد أصبح هذا القسم ولاية جديدة مستقلة عن أفريقية أسندت إلى عبد الله بن يخلف الكتامى، منذ أن عزم المعز لدين الله على الانتقال من أفريقيه إلى مصر، ثم أنضافت هذه الولاية فى سنة ٣٦٧ هـ إلى ولاية أفريقية، التى كان المعز قد أسندها فى سنة ٣٦٢ هـ إلى يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى (١) .

وظلت هذه الولاية الطرابلسية تابعة لأعقاب بلكين إلى أن خرجت مدينة طرابلس الغرب على باديس بن المنصور، وأتخذها فلفل بن سعد، حفيد خزرون الزناتي، منذ سنة ٣٩٥ هـ مركزا لإمارة زناتية فى قلب ليبيا. ثم عادت طرابلس ولاية تابعة لباديس بعد وفاة فلفل مدة ثلاث سنوات عادت بعدها إلى الإنفصال عن أفريقية والدخول فى طاعة بنى خزرون الزناتيين. وقد أهتم بنو خزرون - وعلى الأخص خليفة بن وروا بن فلفل- فى طرابلس بأنشاء أسطول قوى لأمارته، الأمر الذى نبه الزيريين فى إفريقية الى ضرورة العودة بدورهم الى الاهتمام بالبحرية والتطلع إلى الجهاد البحرى الذى عرفوا به (٢).

أما المغربان الادنى (ويعرف بأفريقية، ونعنى به الأقليم التونسى) والأوسط (ويضم تقريبا الأراضى التى تشغلها حاليا الجمهورية الجزائرية)، فقد احتفظا بإستقلالهما كولاية قائمة بذاتها مع الإبقاء على صلات الولاء مع أئمة الفاطميين فى القاهرة، وإنحصرت هذه الولاية فى بيت بلكين بن زيرى أبن مناد الصنهاجي وذلك منذ أن غادر

---

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ٣٢٩ - سعد زغلول، فترة حاسمة، ص ٢٢ - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٦٤٣.

(٢) سعد زغلول، ص ٣٥ وما يليها.

المعز لدين الله اللفاطمى أرض المغرب الى مصر، بعد أن فصل عنها ولاية صقلية التى أسندها إلى بنى أبى الحسين الكبيين، وولاية طرابلس وسرت التى اسندها الى عبد الله بن يخلف الكتامى. ثم انفصل المغرب الأوسط عن امارة بنى زيرى(١٠١٧ م)، وبمقتضاه إنقسمت الدولة الزيرية إلى دولتين: الأولى دولة بنى المنصور أبن بلكين، والثانية دولة بنى حماد بن بلكين (١). وكان حماد، مؤسس الدولة الحمادية، قد صرح منذ بداية إستقلال بالمغرب الأوسط فى ٤٠٥ هـ بنبذ الطاعة للفاطميين والدعوة للعباسيين (٢)، أما بنو زيرى فلم يعلنوا إنفصالهم السياسى والروحى عن الخلافة الفاطمية بمصر إلا فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) فى إمارة المعز بن باديس (٣)، وحذا أهل برقة حذو المعز أبن باديس، فدعوا للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى سنة ٤٤٣هـ (٤).

والواقع أن كلا من الولايات المغربية الثلاث: طرابلس وأفريقية وصقلية، أحست منذ اليوم الذى أنتقل فيه مركز الحكم الفاطمى إلى القاهرة، بحاجتها الماسة إلى السفن، وكان أبو الفتوح بلكين أول من تنبه من امراء بنى زيرى إلى حاجة بلاده إلى اسطول قوى بعد أن سحب الفاطميون أسطولهم الكبير معهم إلى القسم الشرقى من البحر المتوسط(٥)، لمواجهة الغزو القرمطى. ففى ذى الحجة من سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) عهد الى واليه

---

(١) ابن الخطيب، كتاب اعمال الأعلام القسم المغربى، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، ص ٧٦ - السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٦٥٢.

(٢) أبن خلدون، كتاب العبر، ج ٦ ص ٣٥١.

(٣) المغرب الكبير، ص ٦٥٣ - ٦٦٥.

(٤) أبن عذارى، ج ١، ص ٤١٦

(٥) ذكر المقريزى أن الأسطول الفاطمى قدم فى رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) من المغرب وسار الى الشام، فأسر وغنم (اتعاظ الحنفا، ص ١٣١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الله بن محمد الكاتب بأنشاء أسطول بالمهدية وتزويده بالرجال والعتاد، فشرع عبد الله في حشد البحريين من كل البلاد مستخدما في ذلك العنف، والزج بمن أمتنع عن ذلك في سجون القيروان (١). وفي عهد الأمير باديس زاد إهتمام الزيريين بدعم القوة البحرية، فقد زار سواحل إفريقية في عامي ٣٨٦، ٣٨٧ هـ كالمهدية وسوسة وسردانية وعندما وصل إلى المهدية لعبت المراكب بين يديه، ورمى النفاطون بالنفط (٢).

ومنذ أن بدأ المعز بن باديس يفكر جديا في إعلان إنفصال بلاده السياسي والروحي عن الدولة الفاطمية، تضاعف إهتمام الدولة الزيرية بشئون البحر، لإخماد ثورات بني خزرون في طرابلس التي اصبحت في ظل خليفة بن وروا قوة بحرية يخشى بأسها (٣)، ومواجهة الحملات البيزنطية التي سيرها بسيل الثاني إلى صقلية وقلورية لوضع حد لغارات الزيريين.

إما طرابلس فقد أصبحت في الفترة التي خضعت فيها لحكم خليفة أبن وروا قاعدة بحرية هامة تضم عددا كبيرا من السفن، وكان لهذا التحول البحري لإمارة طرابلس أثره العميق في حمل حكام المغرب الأدنى على أصطناع سياسة بحرية، وإسترجاع المهدية لأهميتها كدار صناعة وقاعدة رئيسية للإساطيل الزيرية. وأما صقلية الإسلامية، فقد ظلت أرض جهاد، ولذلك كثرت فيها القواعد البحرية التي يوجه بنوابي الحسين منها غاراتهم المدمرة على سواحل قلورية وعلى السواحل المطلة على البحرين الإدرياتي والتيراني.

---

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ٣٢٧.

(٢) أبن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، ص ٧٤.

(٣) أرشيبالد لويس، ص ٣١٢ - سعد زغلول عبد الحميد، ص ٣٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢)
مظاهر عناية الفاطميين في مصر بالأساطيل

أهتم الفاطميون فى المغرب اهتماما خاصًا بالبحرية، وقد بلغ هذا الإهتمام ذروته فى خلافة المعز لدين الله، وأصبح للفاطميين أسطول قوى فرض سيطرته في الحوض الغربى للبحر المتوسط، ويصف الشاعر أبى هانىء الأندلسى هذا الاسطول بقوله من قصيدة يودع فيها المعز:

لك البر والبحر العظيم عبابه ... فسيان اعمار تخاض وبيد
أما والجوارى المنشآت التى سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما تزجى القباب على المها ... ولكن من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يروم كتائب ... مسمومة تحدو بها وجنود
وما راع ملك الروم إلا أطلاعها ... فتنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيرة ... له بأرقات جمه ورعود
مواخر فى طامى العباب كأنه ... لعزمك بأس أو لكفك جود

أعيان يقال لهم القواد وأحد هم قائد، وتصل جامكية كل منهم الى عشرين دينارا، ثم الى خمسة عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دينارين وهى اقلها، ولهم أقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيها من النطروق فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار(١).

وقد بلغ عدد مراكب الأسطول الفاطمي فى خلافة المعز ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية ما بين شوانى و مسطحات وحمالات ومراكب نيلية،

---

(١) المقريزى، الخطط، ح ٢ ص ٣٧٨، ج ٣ ص ١٠٨، ١٠٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإنتهى الاسطول المصرى فى أواخر عصر الدولة الفاطمية إلى ثمانين شونة (أى شينيا) وعشر مسطحات، وعشر حمالات (١)، وقيل ٧٥ شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالات (٢).

(أ) إنشاء ديوان الجهاد أو العمائر:

أهتم الفاطميون أهتماما خاصا بالاسطول بحكم اضطرارهم الى غزو الأراضى البيزنطيه ومقاتله سفن الروم فى البحر، بالإضافة إلى رغبتهم فى تيسير الإتصال البحرى بين سواحل مصر والشام من جهة والمغرب وصقلية من جهة ثانية، فخصصوا للأسطول ديوانا عرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر، كان مقرة دار صناعة الأنشاء بمصر(٣). ويختص هذا الديوان بإنشاء مراكب الأسطول وحمل وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب وزجالها. وذكر المقريزى نقلا عن أبى الطويران"الخدمة فى ديوان الجهاد أو العمائر للأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية، وكانت تزيد على خمسين عشاريا، ويليها عشرون ديماسا، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها(٤)، ولكل منها رئيس ونواتى (٥)، لا يبرحون، ينفق فيهم من مال هذا

---

(١) نفس المصدر، ج ٣ ٣٧٨.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٢ ص ٥١٩.

(٣) صبح الأعشى، ج ص ٤٩٢ - أتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة)، ص ٦١ ب.

(٤) راجع تفاصيل الاحتفال بكسر الخليج أو فتحه فى القسم الرابع من الفصل الرابع. ومن المعروف ان الخليفة كان له عدد من العشاريات ترسو فى حوض خاص بساحل المقس(ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٥) وكانت هذة العشاريات مخصصة للاحتفالات أو لنزه الخليفة البحرية (المقريزى، ج ٢ ص ٣٦٥)

(٥) نواتى جمع نوتى وهو البحار، واللفظ لاتينية الأصل مشتقة من كلمة Nauticus.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أناقت بها أعلامها وسما لها | بناء على غير العراء مشيد
إذا زفرت غيظا ترامت بمارج | كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق | وأفواهن الزافرات حديد (١)

ثم أزداد أهتمام الخليفة الفاطمى المعزبالاساطيل منذ أن أستقر فى القاهرة، حاضرته الجديدة، أما لمواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر أو لحماية سواحل دولته من أنطاكية الى الإسكندرية من غارات البيزنطيين (٢)، أو لأنه كان ينوى الدخول فى مغامرات جديدة مع البيزنطيين فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط - بعد ان ضمن التفوق الفاطمى فى النصف الغربى من هذا الحوض، وفى ذلك يقول القلقشندى "اما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور، وأعتناءهم بأمر الجهاد فكان ذلك من أهم أمورهم، وأجل ما وقع الإعتناء به عندهم. وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بأيديهم قبل ان يغلبهم عليها الفرنج (٣) "ويعبر المقريزى عن عناية المعز وبنيه بالأساطيل فى مصر بقوله:" وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله، وأنشأ المراكب الحربية، أقتدى به بنوه، وكان لهم أهتمام بأمور الجهاد وأعتناء بالأسطول، وواصلوا أنشاء المراكب بمدينة بمصر وإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها

---

(١) ابن هانىء، كتاب تبيين المعانى فى شرح ديوان ابى هانىء الأندلسى المغربى، تحقيق الدكتور زاهد على، مصر ١٣٥٢، ص ٢٣١ - ٢٣٥.

(٢) حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ص ١٠٤ .

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج ٣ ص ٥١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان، وكانت جريدة قواد الأسطول فى آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة، منهم عشرة الديوان، وبقية العشاريات (١) الدواميس برسم ولاة الأعمال المميزة، فهى تجرى لهم، ويتفق فى رؤسائها ورجالها إينما كانوا من مال هذا الديوان، وتقيم مع أحدهم مدة مقامة، واذا صرف عاد فيه، وخرج المتولى الجديد فى العشارى المرسى بالصناعة، ولايخرج إلا بتوقيع إطلاقه والإنفاق فيه، وللمشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه.

وفى هذا الديوان برسم خدمة مايجرى فى الأساطيل من قبل مقدم الأسطول، وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شئ كبير، وإذا لم يبق ارتفاقه بما يحتاج إليه أستدعى له من بيت المال مايسد خلله (٢)". وقد تجدد هذا الديوان فى وزارة رضوان بن ولخشى (٣) سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦) ومن المعروف أن الوزير وجه إهتماما خاصة لتقوية الثغور وتحصينها وهو الذى حصن عسقلان وزودها بالعدد والألات.

(ب) إنشاء دار صناعة المقس

ذكر المقريزى، نقلا عن ابن أبى طى، أن المعز لدين الله هو الذى انشاء دار الصناعة التى بالمقس وأنه إنشا بها " ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على ميناء (٤) وذكر المقريزى أيضا فى "اتعاظ الحنفا" أن المعز ركب

---

(١) جمع عشارى وهو مركب نيلى برسم نقل الغلال والأحطاب، وقد عرف فى العصر المملوكى باسم الحراقة وقد عرفت العشاريات الحليفية بالدواميس

(٢) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ١٣٨.

(٣) اتعاظ الحنفا، ص ١٣٨٧

(٤) ينسب المسبحى هذه الصناعة الى العزيز بالله بن المعز

فى شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) إلى المقس واشرب على أسطوله وقرأ عليه وعوذه، وخلفه جوهر والقاصى النعمان ووجوه أهل البلد. ثم عاد إلى قصره (١).

وكان بمصر فى العصر الفاطمى بالإضافه الى دار صناعه المقس أربع دور للصناعة (٢) منها دار للصناعه فى الإسكندرية (٣) التى كانت مقامه منذ الفتح العربى لهده المدينة، وقد أنتجت هده الدار عددا كبيرا من السفن لحساب معاوية بن أبى سفيان، والثانية دار الصناعه بدمياط التى كانت تصنع فيها وفى صناعتى مصر والإسكندرية، الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات فى العصر الفاطمى (٤)، والثالثة دار صناعة الجزيرة أو جزيرة مصر المعروفة بالروضة، وهى أول دار للصناعة أسست بفسطاط مصر. أذ أقيمت فى سنة ٥٤ (٥)، وفيها أمر الخليفة العباسى المتوكل على الله فى سنة ٢٣٩ هـ بانشاء الشوانى برسم الأسطول، وذلك بعد أن تغلب البيزنطيين على دمياط فى امارة عنبسة ابن أسحق. (٦). ويذكر المقريزى أن اهتمام هذا الخليفة بشئون الأسطول أزداد منذ تلك الغزوة زيادة كبيرة، "صار من أهم ما يعمل بمصر، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر، وإنتدب الأمراء له الرماة، فأجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرعاية وجميع أنواع المحاربة، وأنتخب له القواد العارفون بمحارية

---

(١) اتعاط الحنفاء، تحقيق الدكتور الشيال، ص ١٣٩

(٢) دكر ناصر خسرو انه كان يصنع فى الصالحية سفن كثيره حمولة كل منها مائتان خروار 'سفرنامة ص ٤١

(٣) السيد د عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى الطبعه الثانيه ص ٩ ١ ٤٩٤

(٤) ابن مماتى، كتاب قوانين الدواوين، ص ٣٤ المقريزى. الخطط ح ٢ ص ٣٧٧ ج ٣ ص ٨ ١

(٥) المقريزى، الخطط، ح ٣ ص ٨٦ ، ١١٤ السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٢ طبعه مصر ١٣٢١ هـ

(٦) نفس المصدر، ج ١ ص ٥ ١

العدو، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل لأمور الحرب، هذا والناس أذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وأقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومهانة (١). وفى نفس هذه الصناعة أعتنى الأمير أحمد بن طولون بأنشاء مائة من المراكب الحربية بالأضافة إلى العلابيات والعشاريات والحمائم والسنابيك وقوارب الخدمة (٢) وأطافها بالجزيرة المذكورة، وسد بها وجه البحر الكبير (أى البحر المتوسط)، وظلت هذه الصناعة قائمة فى موضعها هذا، إلى أن أبطلها الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد، وأنشأ بدلا منها دار للصناعة بساحل فسطاط مصر، عرفت بدار صناعة مصر، وذلك فى شعبان سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م)، وأتخذ في موضع صناعة الجزيرة بستانا عرف بالبستان المختار (٣).

ومع ذلك فقد ظلت دار صناعة الجزيرة هى ودار صناعة مصر تنتجان مراكب الأسطول حتى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله عندما أمر الوزير المأمون بن البطائحى فى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) بأن تتولى دار صناعة الجزيرة أنشاء الحربيات والشلنديات (٤).

أما الصناعة الرابعة فهى صناعة مصر التى أقامها الأمير محمد بن طغج الأخشيد فى الموضع الذى كان يعرف بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان، أمراة الأمير أحمد بن طولون، فى سنة ٣٢٥ هـ . ويرجع السبب فى أنشائها إلى

---

(١) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٠٥ .

(٢) نفس المصدر، ج ٣ ص ٨٩ - السيوطى، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) نفس المصدر، ج ص ٩٠ ، ١١٤ - السيوطى، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) الخطط، ج ٣ ص ١١٥ .

أن الأمير محمد بن طغج لما تولى أدارة مصر للمرة الثانية من قبل الخليفة الراضى فى سنة ٣٢٣ هـ بدلا من أحمد بن كيغلغ، وردت الأنباء بقدومه فى جيش عباس إلى مصر، وقدوم عدد من مراكبه بقيادة صاعد بن كلملم إلى تنيس ودمياط، فعزم أبن كيغلغ على التسليم، ولكن محمد بن على المادرائى، صاحب الخراج، اعترض على ذلك، وسير فرقة المغاربة بقيادة أبى مالك حبشى أبن أحمد السلمى طغ جيش ابن طغج من الوصول إلى الفسطاط، كما بعث على بن بدر فى المراكب لمواجهة سفن أبن طغج فى النيل، وعندما أشتبكت السفن، ونشب القتال، دارت الدائرة على بن بدر فى ١٧ شعبان سنة ٣٢٣ هـ (١)، وأقبل صاعد فى مراكبه إلى الفسطاط، بينما تقدم ابن طغج فى البر كيغلغ (٢). غير أن هذا الأخير آثر أن يستسلم إلى أن طغج حقنا لدماء المسلمين، فى حين أنف المغاربة من الدخول فى طاعته. ثم تحرك جبشى وفرقته المغربية لمحاربة ابن طغج، وزحفوا إلى الفيوم، فسار صاعد فى مراكبه إلى خليج الفيوم، وأراد أن يدور فلم تدر سفنته لضيق الخليج، فوقع فى قبضة حبشى الذى قتله وقتل عدداً من أتباع ابن طغج، وظفر بمراكبه (٣). ثم سار حبشى من الفيوم إلى الإسكندرية فى حشود جيشه، بينما سار على بن بدر ويحكم فى مراكب صاعد مارين بالفسطاط، فأرسيا بجزيرة الصناعة (جزيرة الروضة)، وركب الإخشيد فى جيشه على ساحل النيل المواجة للجزيرة، وقد عجز عن التعرض لهما فأحرق على بن بدر ويحكم ما كان بالصناعة من السفن، وحاول الإخشيد زن يتصدى لهما، ولكنهما أنحصرا إلى الإسكندرية، ثم واصلا السير منها

---

(١) الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٢٨٦ .

(٢) ابن سعيد، المغرب فى حلى، ج ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٦٠ - المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ١١٥

غربا إلى برقة (١). وأدراك محمد بن طفج يومئذ الخطأ الذى يترتب على أتخاذ دار الصناعة بداخل الجزيرة، وعبر عن إنكساره لذلك بقوله، "صناعة يحول بينها بين صاحبها الماء ليست بشئ»، وصمم منذ ذلك الحين على تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة إلى دار خديجة بنت الفتح (٢) . وقدر لدار صناعة مصر أن تتسع وتشغل أرضا فسيحة فى العصر الفاطمى، فقد قام الوزير المأمون البطائحى بالتوسعة فيها، وأضاف إليها الدار المعروفة بدار الزبيب ، وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمه الأسطول ورميه، وزودت هذه الصناعة يدهليز ممتد، صفت على جانبيه مصاطب مفروشة بالحصر العبد إليه بسطا وتأزيرا، وأتخذت أيضا ديوانا للجهاد وكان يحرم على أحد من الناس الدخول من باب هذه الصناعة راكبا، بأستثناء الخليفة والوزير فى يوم فتح الخليج، عند الأحتفال وفاء النيل، فكانا يركبان من هناك إلى المقياس (٣) .

وقد جدد العزيز بالله الفاطمى دار صناعة المقس بالبناء، ويبدو أنه أضاف إليها أضافة جديدة فى زمنه. وقامت هذه الدار بأنتاج أسطول ضخم كان يعده الخليفة العزيز بالله فى سنة ٣٨٦ هـ ليرسله إلى طرابلس بالشام، بقصد عرقلة البيزنطيين ومنعهم من التوغل من التوغل فى بلاد الشام.

وما أن أنتهى العمل من صناع هذه السفن حتى أعلنت للإقلاع، وأشحنت بالمقاتلة فى شهر ربيع الأول من تلك السنة، وفى ٢٠ من هذا لشهر نودى فى القاهرة إلا يتأخر أحد عن المسير فى الأسطول (٤). غير أن هذا الأسطول الكبير الذى كان على أهمية الإستعداد للرحيل إلى هدفه لم يلبث بعد أيام

---

(١) الكندى، ص ٢٨٧ - ابن سعيد، ص ١٦١ - أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) ابن سعيد، ص ١٦٠ - المقريزى، الخطط، ٣ ص ١١٥ - السيوطى، ح ص ٢٢٣ .

(٣) المقريزى، ج ٤ ص ١١.

(٤) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٢٩٠.

قليلة من أعداده وشحنه أن تعرض لحريق مروع، فقد شبت النار فى دار صناعة المقس فى ٢٤ ربيع الآخر فأخترقت خمس عشريات، وامتدت السنة النيران منها الى بقية سفن الأسطول، فاتت النار على جميع ما فى الاسطول من العدد والسلاح، ولم ينج من هذا الحريق إلا ست سفن فارغة (١). وآثار هذا الحريق موجة من الغضب فى نفوس البحريين، فوجهوا تهمة إحراق الأسطول الى جماعة من الروم كانوا يقيمون بدار ماتك المجاورة لدار صناعة المقس، ووثب البحريون فى سورة غضبهم، بأسلحتهم والآتهم على الروم، وأنضم إليهم جماعة من العامة، فنهبوا أمتعة الروم (٢)، وقتلوا منهم مائة وسبعة بن الرجال، طرحوا جثثهم فى الطرقات، وقبضوا على الباقين، وحبسوهم بدار صناعة المقس (٣). وقد أعترف هؤلاء الروم فى محضر من الوزير عيسى بن نسطورس ويانس الصقلبى متولى الشرطة، بأنهم أحرقوا الأسطول، ثم آمر عيسى أبن نسطورس الصناع فى دار الصناعة بأعداد عشرين مركبا فى الحال وطرح لهم الأخشاب اللازمة وبات فى الصناعة، ولم يسع الصناع إزاء الحاحة للفراغ من هذه السفن إلا أن يجدوا فى العمل ويبذلوا كل طاقتهم لاعدادها. ويبدو ان صناعة هذا العدد من السفن كان يتطلب جمع كل ما كان موجودا من الخشب فى حواصل البضاعة (٤)، فإذا ما أستنفدت طلب الصناع الكميات المعروضة للبيع فى الأسواق لدى الخشابين، فأصدر عيسى بن نسطورس إمره بإستحضار الأخشاب الموجودة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) بلغ قيمة الصريبة العامة تسعون الف دينار.

(٣) لم يكن حريق الاسطول الفاطمى فى سنة ٣٨٦ هـ اول حادث من نوعه، فان ابا المحاسن يذكر ان العزيز بالله كان قد اعد فى سنة ٣٧٧ هـ عده شوانى لغزو الروم، فأحترقت مراكبه، واتهم بحرقها اناسا (النجوم، ح ٤ ص ١٥١).

(٤) كانت حواصل البضاعة فى القاهرة تشتمل على ما لا يمكن حصره من الأخشاب والحديد وآلات الاساطيل من القنب والكتان والمنجنيقات (القلقشندى، صبح الاعشى، ج ٥٣ ص ٤٧٥).

عند التجار (١)، "فلم يدع عند أحد خشباً علم به إلا أخذه منه"وجد فى انشاء الأسطول المذكور،،، فلم يمض على حادثة الحريق المذكورة شهر ونصف حتى تم صناعة مركبين جديدين فى غاية الكبر، طرحهما الصناع بين يدى الوزير فى ٧ من جمادى الآخر. وفى غره شعبان طرحوا بين يديه أربع مراكب كبار من المنشأه نفسها(٢) غير أن هذا الأسطول الجديد لم يلبث أن تعرض لعاصفة عاتيه حطمته بالقرب من ميناء طرابلس الشام، وأسر الروم بعض رجالة (٣).

(ج) توفيرالأخشاب الأزمة لصناعة السفن:

كانت الدولة الفاطمية تهتم بتوفير الأخشاب الضرورية لصناعه السفن من الخراج وهى أشجار السنط الكثيرة التى كانت تنمو فى أعمال البهنساوية وسقط ريشين وإلا شمونين والأسيوطية والإخمومية والقوصية، كما كانت تتخذ لها حراسا يحمونها، وكانت الدولة تستغل أخشاب هذه الأشجار فى صناعة الأساطيل وتحفظها فى حواصل خاصة بالآت السفن، ولذلك السبب إرتفعت اثمان أعواد السنط حتى أن العود الواحد منها كان يصل ثمنه إلى مائه دينار وفرضت الدولة على سكان النواحى المذكورة ضريبة يقال لها رسم الخراج نظير ما كان يسمح لهم به من قطع أطرافاً أشجار السنط التى لا تصلح لعمل مراكب الأسطول، والتى كان ينفتح بها فقط فى الوقود (٤) وكان قطع أخشاب السنط وجرها إلى السواحل لصناعه

---

(١) وذكر بعض المؤرخين انه اضطر الى قلع بعض سوارى كانت تسقف دار الضرب بمصر والبيمارستان الذى كان قائما فى سوق الحمام (راجع آدم متز، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، القاهرة ١٩٤٨، ج ٢ ص ٣١٦).

(٢) المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ١٤٤.

(٣) يحيى بن سعيد الانطاكى، صلة كتاب سعيد بن بطريق، ص ١٧٨.

(٤) المقريزى، الخطط ، ١ ص ١٩٦ .

السفن يتم في شهر برموده (مايو) من كل سنة (١) ولم تكن الأخشاب المحلية تكفي وحدها لصناعه السفن اللأزمة للاسطول الفاطمي ولذلك اعتمد مصر الفاطميه على ما كان يرد اليها من اخشاب الصنوبر الصقلية او المغربية، بالإضافة الى ما كانت تحمله منه سفن البنادقه إلى الإسكندرية ولقد أحتج الأمبراطور البيزنطي على دوج البندقية لامداده المصريين بالأخشاب فأمر الدوج بوقف بيع الأخشاب التي تصلح لصناعة السفن، والإكتفاء ببيع اشجار اللبخ والسنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة اقدام، وعرضه نصف القدم (٢).

ويعدد أبن مماتي أصناف الاخشاب فيذكر منها: القنطاريات والمجاديف والنشاب والواح الصنوبر وألواح بوارينه وألواح ثلاثية، وأساقيل والواح قاطبة، والواح مشاقية، وافلاق صنوبر، وأنصاب شوح وحور، وجزم صنوبر، وحسنيات، وسهام سمر، وسكانات وشوح جنوى، وشوح صخرى وصوارى، وعيدان صنوبر مدورة، وقوادن، وقرايا وكرابيس سنديان ولاطات ومربعات قرو، ومربعات صنوبر، ومناطق ومدارى ومناريات ومطارق.(٤).

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢٥٠ وكان بآنصان عود يقال له الببج ينشر منه الواح للسفن يباع اللوح منها بخمسين دينار (المقريزى ح ص ٣٦٠).

(٢) ابن مماتي، ص ٢٤٦ - آدم متز الحضارة الاسلامية فى ٤ هـ ج ٢ ص ٣١٥ محمد ياسين الحموى، تاريخ الاسطول العربى، دمشق ١٩٤٥، ص ٢٦ - راشد محمد البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين القاهره، ١٩٤٨ ص ٢٢٤ .

(٣) أبن مماتي، ص ٣٤٦ - آدم متز، والحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمه الدكتور/ محمد عبد الهادى ابو ريدة، القاهرة ١٩٤٨ ج ص ٣١٥ - محمد ياسين الحموى، تاريخ الاسطول العربى، دمشق، ١٩٤٥، ص ٢٦ - راشد البراوى، حالة مصر الإقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة ١٦٤٨، ص ٢٢٤ ,

(٤) أبن مماتي، ص ٣٦٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)
نشاط الأسطول الفاطمي

(أ) الأسطول الفاطمي في خدمة جيوش الفاطميين في الشام ضد القرامطة

بدأ الصراع بين الفا طميين وقرامطة البحرين منذ أن إستولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق فى المحرم سنة ٥٣٩ هـ، وإمتنع الفاطميون عن دفع الإتاوة التى كان يدفعها الإخشيديين القرامطة، فعزم الحسن بن أحمد القرمطى على محاربة الفاطميين، وساعد البويهيون (١)، والحمدانيون بالأموال والسلاح حتى يتهيأ له الوقوف أمام التوسع الفاطمى فى الشام، ونجح القرمطى فى إعداد جيش ضخم لمحاربة الفاطميين فى الشام ومصر، اشتركت فيه قوة إخشيدية وكافورية، وفريق من العرب العقيليين، وزحف القرمطى بهذا الجيش الى دمشق، وإشتبك جيشه مع القوات الفاطمية فى موضع قريب من دمشق يقال له الدكة، وإنتهت الموقعة بهزيمة الفاطميين ومصرع قائدهم جعفر، وأستولى القرامطة على دمشق (٢)، وولوا عليها ظالم بن موهوب العقيلى. ومن دمشق واصل القرامطة زحفهم نحو الجنوب وإستولوا على الرملة، ثم حاصروا يافا حصارا شديدا، وضيقوا على من بها، فسير جوهر من مصر أسطولا مكونا من ١٥ سفينة تحمل الإمدادات والميرة لقواته المحصورين بيافا، ولكن القرامطة طوقوا هذة السفن، وإستولوا عليها، ولم ينج من مراكب جوهر سوى مركبان غنمها الروم (٣). ثم زحف القرامطة إلى مصر، فإستولوا على الفرما ثم القلزم،

---

(١) أبن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ص١.

(٢) المقريزى، أتعاظ الحنفا، ح١ص ١٢٧ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ح ٤ ص٥٨ - محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧ ص١٢٥.

(٣) أبن الاثير، الكامل فى التاريخ، مصر ١٣٥٣هـ ج ٧ ص ٤٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتوغلوا بعد ذلك فى الارض المصرية، فى أوائل عام ٣٦١ هـ، وإستولوا على عين شمس، وإشرفت طلائعهم على القاهرة، وعندئذ تأهب جوهر لدفعهم عن البلاد، وحفر لذلك خندقا عميقا حولها، ونصب لهذا الخندق بابين من الحديد، (١) ثم وزع السلاح على المغاربة والمصريين وتمكن المصريون والمغاربة من الوقوف في وجه القرامطة فى معركة دارت فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ على أبواب القاهرة، (٢) فانهزم القرامطة، ورحلوا إلى الإحساء.

وفى هذه الأثناء وصل الأسطول الفاطمى من بلاد البرية التى كان يخوضها الجيش الفاطمي هناك بقيادة سعادة بن حيان، (٣) وتمكن الفاطميون بفضل هذا الإسطول من أسترداد يافا فى اواخر سنة ٣٦١هـ. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف السفن الحربية الفاطمية عن الإقلاع من تنيس ودمياط والإسكندرية إلى صور طرابلس لحفظ حصون الشام والدفاع عنها. (٤)

ومن المعروف أن أقلاع المراكب في البحر كان يبدأ فى شهر برمهات من كل سنة، ويقابل هذا الشهر شهر أبريل، وفى هذا الشهر تجرى هذه المراكب"فى البحر المالح من الأعمال المصرية والمغربية والروسية، وفيه الإهتمام بتركيز الأجناد بالشغور المحروسة ومراكب الأساطيل لحفظها. (٥) ويستمر نشاط السفن الحربية فى البحر حتى حلول فصل الشتاء، فتأوى السفن الى قواعدها، ويتوقف نشاطها طوال هذا الفصل. فعندما طال حصار القرمطي وافتكين التركى لجوهر الصقلي وعسكره فى شتاء سنة ٣٦٥هـ

---

(١) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص١٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٠.

(٣) نفس المصدر، ص ١٣١.

(٤) نفس المصدر، (النسخة المخطوطة) ص ٧٧ ب.

(٥) ابن مماتي، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق الدكتور عزيز سوريال، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بشغر عسقلان، وأحتاج الى الميرة والأقوات، لم يتمكن الأسطول الفاطمى من حملها إليه فى البحر من مصر وغيرها، وإضطر العسكر إلى أكل الميته.(١) ويذكر المقريزى أن بدر الجمالى عندما استنجد به المستنصر بالله خرج من عكا فى شهر كانون وهى فترة من السنة لا يمكن أن يركب فيها فى البحر، وحذره أصحابه من ركوب البحر فى تلك الأونة وخوفوه من مغبة ذلك، ولكنه غامر وأقلع بمائة سفينة (٢).

(ب) اشتراك الأسطول الفاطمي في أخماد الثورات في مصر والشام

أقترن غزو القرامطة للشام الجنوبى ومصر بقيادة الثورات فى بعض نواحى مصر ضد الفاطميين كثورة أهل تنيس وثورة أهل الصعيد، ففى المحرم سنة ٣٦١ هـ شق أهل تنيس الطاعة على الفاطميين، ووثبوا على واليهم وسودوا (٣)، فلما تمكن جوهر من ايقاع الهزيمة بالقرامطة سير ابا محمد الحسن بن عمار إلى تنيس لإخماد الثورة فنجح أبن عمار فى استنزال المدينة.(٤) أما الصعيد فقد خرج فيه عبد العزيز بن إبراهيم الكلابى. وهو كما يبدو من اسمه عربى من بنى كلاب الدين استقروا ببلاد الفيوم بعد الفتح (٥)، وكان هذا الثائر قد دعا لبنى العباس، وسود، فبعث اليه جوهر الصقلى عسكراً بريا بقيادة أزرق، كما يسيّر فى النيل أربعين مركبا يقودها بشارة النوبى. ونجحت الجيوش الفاطمية فى أخماد الثورة والقبض على عبد

---

(١) ابن القلانسى، ص١٧ - ابن الاثير، ج ٧ص٦٣، ٦٤ - المقريزى، اتعاظ الحنفا ص٢٤١.

(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ص١٠٧ أ - الخطط، ج٢ص٢٠٨.

(٣) اى رفعوا الاعلام السود شعار العباسيين.

(٤) اتعاظ الحنفا، ص ١٣٠

(٥) المقريزى، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق ابراهيم رمزى، القاهرة ١٩١٦ ص٣٦

العزيز بن نعيم الكلابى، وادخل به فى قفص مغلولا، وطيف به وبمن معه (١).

وأخطر الثورات التى واجهها الفاطميون وأشترك اسطولهم فى اخمادها ثورة الملاح المعروف بالعلاقة فى مدينة صور سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م) فى خلافة الحاكم بأمر الله، ففى هذه السنة شق أهل صور عصا الطاعة على الخليفة الحاكم، وأمروا عليهم غلاما من البحرية يقال له العلاقة، ووثبوا على ممثلى الخليفة من المغاربة فقتلوهم، عندئذ أرسل القائد جيش بن الصمصامة والى الشام جيشا بقيادة ابى عبد الله الحسن بن ناصر الدولة وياقوت الخادم، وإنضم إلى هذا الجيش جماعة من عبيد الشرا لمنازلة صور واخماد حركة العلاقة، وفى نفس الوقت أرسل الخليفة إليها أسطولا مكونا من عشرين مركبا من الحربية المشحونة بالرجال، وكتب ابن الصمصامة إلى على أبن حيدرة والى طرابلس يأمره بالمسيرة إليه فى أسطوله، كما أرسل إلى أبن شيخ والى صيدا بأمره بالخروج فى أسطوله الى صور، وطوق الجيش الفاطمى مدينة صور من البربينما أحدقت الأساطيل الفاطمية على منائها من البحر، فاضطرا العلاقة إلى مكاتبة الأمبراطور بسيل الثانى يستنصره على الفاطميين، فلم يتردد الامبراطور فى نصرته مادام ذلك يعتبر جزاء من صمم أهدافه لكسر شوكة الفاطمين فى الشام والسير على الخط الذى رسمه نقفور فوقاس وحناتز مسكس للسيطرة على الشام والأراضى المسيحية المقدسة. فأنفذ الى العلاقة عدة مراكب فى البحر مشحونة بالرجال المقاتلة، واشتبكت هذه المراكب مع مراكب المسلمين فى معركة عنيفة، أسفرت عن هزيمة البيزنطيين، وتمكن المسلمون من الظفر بمركب من مراكبهم قتلوا من فيه من البحريين، وعددهم ١٥٠ رجلا، وانهزمت بقية المراكب، فضعفت روح المقاومة عند أهل صور، وفقدوا الأمل فى وصول أمدادات بيزنطية آخرى، ولم تعد

---

(٣) اتعاظ الحنفا، ص ١٣١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهم طاقة أو جلد على مواصلة الصمود أمام الحصار البرى والبحرى، وإنتهى الأمر بسقوط صور فى أيدى الفاطميين، وأمتنع العلاقة وطائفة من أتباعه في بعض الأبراج، ولكنهم لم يلبثوا أن أستسلموا بالأمان، فقبض عليهم، وسيق مع أصحابه إلى القاهرة حيث شهر بهم، وسلخ العلاقة حيا ثم صلب، وقتل أصحابه (١).

(ج) المعارك البحرية ضد البيزنطين

كان لزاما على الدولة الفاطمية بعد أن مدت نفوذها على بلاد الشام أن تتأهب لموجهة الخطر البيزنطى الذى كان يهدد سواحل الشام ومصر، فعندما قام الأمبراطور البيزنطى حنا تزمسكيس بغزو الشام فى ٣٦٥ هـ، وأفتتح معظم بلاد الشام الشمالية زحف جنوبا بحذاء الساحل إلى صيدا، فهادنه واليها أبو الفتح بن الشيخ على مال بذله له (٢)، فرحل الى قيسارية واتجه بعد ذلك الى بيروت وجبيل فافتتحهما، واخيرا وصلت قواته إلى طرابلس، ولكنه لم ينجح فى الإستيلاء عليها لمناعة اسوارها وحصانة الدفاع عنها، وإشتبكت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمى مع القوات البيزنطية فى قتال عنيف إنتهى بهزيمة نكراء أصيب بها البيزنطيون، واضطر الأمبراطور فى نهاية الأمر إلى رفع الحصار عنها بعد أن تاكد لديه أستحالة النيل من دفاعها وأقتحم أسوارها (٣).

وفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣م) وقعت فى بحر الإسكندرية معركة بحرية بين الاسطول الفاطمى فى مصر والأسطول البيزنطى إنتهت بأسر سبعين من

---

(١) ابن القلانسى ص ٥٠، ٥١ - أبن الأثير، ج ٧ حوادث سنة ٣٨٧ - المقريزى، أتعاظ الحنفا، (مخطوطة) ص ٥٣ أ.

(٢) ابن القلانسى، ص ٥٦.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٥٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجال البحر البيزنطي. ثم وردت مراكب البيزنطيين الى الإسكندرية، فتصدى لها الأسطول الفاطمي في البحر، وقوة عسكرية من البر، أرغما السفن البيزنطية على الفرار بدون قتال، فطاردتها قطع الأسطول المصرى الفاطمي، وأنضمت إليها ١٨ مركبا مشحونة بالسلاح والمقاتلة، وعادت السفن المصرية فى جمادى الاولى من سنة ٣٨٤ هـ إلى قواعدها، ووصل غزاة البحر إلى القاهرة يحملون مائة أسير، وأحتفلت مصر يوم وصولهم احتفالا رائعا، فزينت القاهرة ومصر أعظم زينة، وركب العزيز وأبنه منصور، وشقا الشوارع ثم ركب فى عشاري ومعه العشاريات سائرة إلى المقس، ثم ركب من المقس إلى القصر، فكان يوما عظيما لم ير بمصر مثله، وقال فيه الشعراء".(١)

ويبدو ان الأسطول الفاطمي فى مصر أقلع مرة آخرى لغزو السواحل البيزنطية فى سنة ٣٨٦ هـ، فقد ذكر المقريزى ان غزاة البحر عادوا فى هـ ه السنة بمائتين وعشرين أسيرا طيف بهم فى شوارع القاهرة.(٢). سنة ٧٨٣ هـ أرسل الأمبراطور باسيل الثانى عددا من السفن البيزنطية في البحر إلى ثغر صور لمساعدة العلاقة الثائر على الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، فتصدى لها الأسطول المصرى الذى سيره الحاكم المصور بالإضافة الى اسطولى صيدا وطرابلس، وإشتركت السفن الفاطمية مع السفن البيزنطية فى معركة بحرية عنيفة دارت فيها الدائرة على السفن البيزنطية على النحو الذى اشرت اليه فيما سبق.

وعندما حاصرت القوات البيزنطية مدينة طرابلس الشام فى سنة ٣٨٩ هـ برا وبحرا، إصطدمت السفن البيزنطية المحاصرة للمدينة من البحر ببعض

---

(١) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ح ص ٢٨٢.

(٢) المقريرى، المصدر السابق، ص ٢٩٠.

السفن المصرية في مياه تلك المدينة وبين القتال في البر وفي البحر في سهل المحرة سنة ٣٩ هـ ٩٩٩١ م[1] وانتهى بهزيمة البيزنطيين، وعدول الامبراطور بسيل عن متابعة حصاره لطرابلس ،

ثم ساد بين الفاطميين والبيزنطيين منذ طليعة القرن الخامس الهجري، سلام كان تقطعه بين الحين والحين نكث من الجانب البيزنطي، وعودة البيزنطيين الى مهاجمة جزر بحر الأرخبيل والسواحل الاسلامية، وظل الأمر كذلك إلى أن نزل الصليبيين ببلاد الشام

(د) دور اساطيل طرابلس وصيدا في العصر الفاطمي

كان لطرابلس في العصر الفاطمي اسطول حربي يدافع عنها من البحر، وقد تمكن هذا الاسطول بقيادة علي بن حيدرة من التغلب على أسطول بيزنطي كان في طريقة الى صور لمساعدة ثوارها بزعامة العلاقة على الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٣٨٧ هـ.

وكان لهذا الأسطول الطرابلسي الفضل الأعظم في القضاء على ثورة العلاقة. ولما أستقل بنو عمار بطرابلس بتعزيز اسطول طرابلس، وقد لعب هذا الأسطول دورا هاما في فترة الحصار الصليبي على طرابلس، فقد أشتبك هذا الأسطول مع أسطول للبيزنطيين كان يزود الصلبيين بالأقوات، في قتال عنيف انتهى بانتصار الأسطول الطرابلسي وإستيلائه على قطعة بحرية بيزنطية [2] ويبدو أن هذا الأسطول الطرابلسي تعرض لخسارة فادحة عندما تدخل الجنود في حصار طرابلس، فغرقت معظم قطعة، وأصبحت السفن الباقية عاجزة عن مقاومة الحصار الصليبي. غير أن بعض هذه السفن تمكنت

---

[1] يحيى بن سعيد: صلة تاريخ سعيد بن بطريق ص ٨٤

[2] طرابلس ... ص ٣٩٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أختراق الحصار البحرى الصليبى وإتجهت إلى مصر لإلتماس معونتها والدخول فى طاعتها ، فسير إليهم الأفضل شاهنشاه شرف الدولة بن أبى الطيب ليتولى أمرهم وزوده بالغلة والأقوات والسلاح. ونستدل من ذلك على أن الإتصال البحرى بين مصر وطرابلس كان جاريا فى العصر.

أما صيدا فكان اسطولها الحربى الخاص، وهو الأسطول الذى اشترك فى الحصار البحرى الذى فرضه الفاطميون على صور(١). ويبدوا أن هذا الأسطول تعرض لكارثة بعد سنة ٤٩٥ (٢) هـ أبان مرحلة الحصار الصليبى لصيدا ، بحيث أعتمد اهل صيدا فى الدفاع عنهم على الأساطيل الفاطمية القادمة من مصر، وقد أنقذ الأسطول الفاطمى صيدا مرة فى سنة ٥٠١ (٣) هـ ولكنه لم يستطع أن ينقذها فى المرة الثانية بسبب أحكام الصليبيين الحصار حولها، وعجز عن امدادها بما كانت تحتاج اليه (٤).

---

(١) ابن القلانسى، ص ٥١.

(٢) فى هده السنة ارسلت كل من صيدا وصور اثنى عشر عرابا وحمالة ضخمة تحمل الاحناد والالات لقذف النار اليونانية إلى عكا لإستنفادها من الحصار الصليبى، وتمكنت هذه للسفن من تدمير سفن الصليبيين وآلاتهم (راجع دراسة فى تاريخ مدينة صيدا ص ٩٤).

(٣) ابن القلانسى ص , ١٦٢

(٤) دراسة فى تاريخ مدينة صيدا ، ص ١٠١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا. البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر الضعف

(من المستنصر بالله الي نهاية الدولة الفاطمية)

(١)

تقلص النفوذ الفاطمي في بلاد الشام

منذ عصر المستنصر بالله

(أ) خرج الفاطميين عن معظم قواعدها البحرية في الشام

نجح الفاطميين فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى فى فرض سيطرتهم الشاملة على بلاد الشام وذلك بعد أن عقد مع الأمبراطور البيزنطى بسيل الثانى هدنة تستغرق عشر سنوات، وقضى على حركة بنى جراح الطائيين فى فلسطين وعلى سلطان الحمدانيين فى حلب. غير ان هذه السيطرة لم تلبث أن داخليها الوهن فى خلافة الظاهر لأعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ)، فقد تمكن بنو مرداس الكلابيين من من تأسيس إمارة لهم فى حلب، إضطر الخليفة الفاطمى إلى محاربتهم حينا ومسالمتهم حينا آخر، الأمر الذى أتاح الفرصة لنشر الفوضى وأشاعة الإضطراب فى هذا القسم الشمالى من بلاد الشام، ويساعد على هذا الاضطراب ظهور الاتراك السلاجقة على مسرح الأحداث فى بلاد الشام، وتكمنهم منذ سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) من اقتطاع عدد كبير من مدن الشام، ومع ذلك فقد ظل الفاطميون يحتفظون حتى تلك السنة بمعظم قواعدهم الساحلية هناك. وفى هذا الوقت الذى بدأ سلطان الفاطميين على الشام يتزعزع، تمكن القاضى ابو طالب الحسين بن عمارمن

أعلان إستقلاله بطرابلس في سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م)(١)، وتعتبر هذه السنة سنة نكبة على الدولة الفاطمية، اذا اعلنت دمشق وصور وأكثر مدن فلسطين أستقلالها في هذا التاريخ (٢)، فصور أستقل بها القاضي ابن عقيل، وطرابلس استقل بها القاضي ابو طالب الحسين بن عمار، في حين استولى ابن حمدان على الرملة والساحل، ولم يبقى لا مير الجيوش بدر الجمالي الذي قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمي على عكا وسواحل الشام سوى عكا وصيدا(٣).

وقد عمل بدر الجمالي (٤) على استرجاع بعض السواحل الشامية، فنزل في سنة ٤٦٢ ه على ثغر صور، وحاصر عين الدولة أبن أبي عقيل قاضي المدينة المتغلب عليها وشدد حصاره على المدينة، ولكنه اضطر الى رفع الحصار عنها عندما قدم الأمير قرلو مقدم الأتراك في بلاد الشام بعسكر

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٧.

(٢) Wiet,Une inscription d'un prıce de Tripolı de dynastie des Banuammar, m'emorı-alii. Basaet,paris 1928 p .280

(٣) اس القلانسي، ص٩٧.

(٤) هو امير الجيوش ابو النجم بدر الجمالي المستنصري، وكان مملوكا ارمنيا لجمال الدولة بن عمار ولذلك السبب نسب اليه، ثم أخذ يتدرج في الرتب العلية والمناصب الرفيعة إلى أن تولى بلاد الشام وتقلد امارة دمشق من قبل المستنصر بالله مرتين الأولى في ربيع الآخر سنة ٤٥٥ هـ والثانية في شعبان سنة ٤٥٨، وفي هذه المرة ثار عليه اهل دمشق فرحل عنها إلى مصر، فقلده المستنصر ولاية عكا، ثم أستدعاه الخليفة عندما فسدت الأحوال في مصر اثناء الشدة العظمى، فلبى طلبه وركب البحر من عكا في فصل الشتاء بمائة مركب، ووصل الى تنيس ودمياط في سنة ٤٦٦ (ابن منجب الصيرفي الأشارة الى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤ ص ٥٧ - المقريزي، أتعاظ الحنفا ص ١٠٧ أ - الخطط، ج ٢ ص ١٢٠٩ وما أن دخل حتى أستبد بالبلاد وتحكم في شئونها وألقى إليه المستنصر كل مقاليد، فضبطها أحسن ضبط، وصلحت بقدومه احوال البلاد المصرية وعمرت بعد خرابها وترقى امير الجيوش في سنة ٤٨٧ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كشيف لنصرة قاضي صور، وأغار بهذا العسكر على صيدا، وحاصر المدينة، فسار بدر الجمالي لا ستنقاذها، وبعد ان تمكن من ابعاد الخطر عنها عاود الكرة على صور المرة الثانية، واقام يحاصرها برا وبحرا مدة سنة ولكنها أستعصت عليه فرحل عنها.(١)

ولم يلبث بدر أن لبى طلب الخليفة، فقدم الى مصر بعد ان فسدت احوالها وإجتاحتها الفتن، وأستعصي عليه العلاج. وفي هذه الاثناء هاجم أتسز التركماني مصر بتحريض من أبن يلدكز الذى كان قد لجأ إليه بعد أن قتل بدر الجمالي أباه في سنة ٤٦٦ هـ. وكان أتسز قد إستولى على دمشق سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) وقطع الخطبة العلوية، وزحف بعد ذلك الى مصر وتوغل في أراضيها، وأقتربت قواته من القاهرة. وكان بدر الجمالي قد هيأ المركب والسفن بعد هزيمة المصريين على يد أتسز في جمادى الآخر سنة ٤٦٩ هـ، للأقلاع إلى الإسكندرية حفظا لها في حالة إذا ما تغلب جيش أتسز على الجيوش المصرية في الموقعة الفاصلة، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد أنهزم أتسز على ايدى المصريين في رجب سنة ٤٦٩ هـ، وتراجع مهزوما عن مصر إلى دمشق (٢).

وترتب على أنتصار الفاطميين على السلاجقة عودة بعض مدن الشام إلى أعلان ولائها للفاطميين، وعلى هذا النحو عزم بدر الجمالي على إسترجاع دمشق، فسير إليها عسكرا بقيادة نصر الدولة وحاصرها، فأضطر أتسز إلى طلب النجدة بين تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، فقدم تتش لنجدته، وعندما أقتربت جيوشه من دمشق بادر الجيش الفاطمي بوقف الحصار والرحيل إلى مصر.

وهكذا لم تأت سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) حتى كانت الدولة الفاطمية قد

---

(٣) ابن القلانسي، ص ٩٨.

(٢) ابن القلانسي، ص ١١٠ حاشية ٢.

فقدت سلطانها من معظم سواحل الشام، ويزاول سلطان الفاطميين عن صيدا وعكا وطرابلس وعرقة وجبيل وبيروت، إنحصرت قواعد الفاطميين البحرية في الشام في عسقلان وجدها التي أصبحت المركز الرئيسي الذى ولى تخرج منه الأساطيل لغزو سواحل الشام. ومع ذلك فأن الأفضل شاهنشاه الذى ولى الوزارة بعد وفاه أبيه بدر الجمالي، حاول أستعاده النفوذ الفاطمي على بلاد الشام مستغلا الصراع القائم بين دقاق ورضوان ولدى تاج الدولة تتش، وتمكن في سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م)، من إرسال الأساطيل المصرية إلى الساحل وإنزال قواته في صور، ونجح في أفتتاحها عنوة [١] كما نجح في شعبان سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) في الإستيلاء على بيت المقدس بالأمان بعد أن تغلب على أيلغازى وسقمان أبنى أرتق [٢]، وترك على ولايتها أمير يقال له أفتخار الدولة [٣]. وفي نفس الوقت ظلت بيت المقدس خاضعة للفاطميين إلى أن دخلها الصليبيون عنوة في شعبان سنة ٤٩٢ هـ.

(ب) عسقلان آخر قاعدة بحرية للفاطميين في الشام

بينما كانت أنباء الزحف الصليبي على سواحل الشام تصل تباعا إلى السلطات الفاطمية في القاهرة، وبينما كانت أنتصارات الصليبيين تتوالى على المسلمين بحيث تمكنوا في أمد قصير من الإستيلاء على أنطاكية ومعرة النعمان وكفر طاب وحصن الأكراد، وحاصرت قواتهم عرقة وطرابلس وصيدا

---

(١) ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٤ ص ١٠٢.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزهرة، ح ٥ ص ١٥٩

(٣) المقريزى، أتعاظ الحنفا، ص ١٣٣ أ. هناك من المؤرخين من يقدم استرداد الفاطميين لبيت المقدس سنتين، فيحددون سنة ٤٨٩ هـ لذلك (راجع ابو الفدا، ج ٤ ص ٦٤).

(٤) ابن الأثير، ج ٨ ص ١٨٩– أبو المحاسن، ح ٥ ص ١٥٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصـور وعكا، كـان المسئولون في الدولة الفاطمية ينظرون إلى هذه الإنتصارات الصليبية على أنها لا تهمهم في شئ، ولذلك لم يتحرك هؤلاء المسئولون ولم يقوموا بعمل حاسم ضد الصليبيين وتيسأل أبو المحاسن عن سبب سقوت الأفضل على ذلك بقوله: "ولم ينهض الأفضل بأخراج عساكر عصر وما أدرى كما كان السبب في عدم أخراجه مع قدرته على المال والرجال (١). ويبدو أن الدولة الفاطمية كانت تنظر منذ البداية إلى الصليبيين على أنهم حلفاء لهم ضد السلاجقة، خصوم الفاطميين سياسيا ومذهبيا، ولذلك تلكأوى في مواجهتهم، فلما حاصر الصليبيين بيت المقدس وأقتحموا أسوارها في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ بعد حصار دام أكثر من أربعين يوما، وإرتكبوا فيها المذابح الرهيبة (٢)، لم يسكت الأفضل أكثر مما سكت، وعزم على السير لإسترجاع بيت المقدس التى أعتبر سقوطها في أيدى الصليبيين أعتداء صارخا موجها إلى الدولة الفاطمية. (٣).

ففي أوائل رمضان سنة ٤٩٢ هـ خرج الأفضل في عشرون الفا من عسكر مصر إلى عسقلان بقصد أسترداد بيت المقدس، ونزل بظاهر عسقلان في ١٤ رمضان منتظرا وصول الأسطول الفاطمي في البحر والنجدات البرية التى وعده بها عرب فلسطين، ولكنه بهذا الإنتظار أخطأ خطأ فاحشاً أذ ترك للصليبيين فرصة بادرته بالهجوم وإنزال الهزيمة به. وإنهزم العسكر المصرى إلى داخل عسقلان، وأضطرا الأفضل إلى العودة إلى القاهرة عن طريق البحر (٤).

---

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٤٧ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨ . حوادث ٤٩١ هـ ، ص ١٨٩ - النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩ .

(٣) Rousset, Historire des Croisades, Paris, 1957 , P. 104 .

(٤) ابن القلانسي، ص ١٣٧ . النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٠ .

(٥) المقريزي، الخطط، ج ٢ ص ١٦٥ - النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥٠ - سعيد عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأصبحت عسقلان القاعدة الرئيسية للفاطميين لخروج الغزاه فى الأساطيل إلى السواحل الشمالية والثغور التى يحاصرها الصليبيون ، لأمدادها بالسلاح والقوات وكان الأفضل يجهز العساكر كل عام ويبعثها لمحاربة الصليبيين برا وبحرا (١) ، ويبدو أنه تمكن من أسترجاع عكا فى سنة ٤٩٤ هـ وأقام عليها والياً من قبله، هو المعروف بزهر الدوله الجيوشى (٢)، بدليل أن هذا الوالى سيقاوم الصليبيين مقاومة شديدة عندما يقومون فى سنة ٤٩٧ هـ بحصارها برا وبحرا ، ويضطر أخيرا إلى الخروج عنها بعد أن يعجز عن حمايتها كذلك نعتقد أن الأفضل إسترجع مدينة صور، وأقام عليها واليا يقال له عز الملك أنوشتكين الأفضلى. (٤)

وفى سنة ٤٩٣ هـ سير الأفضل جيشا من مصر بقيادة سعد الدولة القواس، فالتقى مع الفرنج فى عسقلان، وأمتد القتال، فقتل، وصبر المصريون وثبتوا وحملوا على الصليبيين فهزموهم إلى قيسارية (٥)، وقبل إلي يافا (٦) وفى سنة ٤٩٦ هـ تمكن شرف المعالى بن الأفضل فى إسترداد مدينة الرملة (٧).

ثم شغل الأفضل فى بداية عصر الآمر بأحكام الله بتصريف شئون الدولة عن الدفاع عن السواحل الشامية، فأخذ الصليبيون يستولون عليها مدينة بعد مدينة، ففى سنة ٤٩٤ هـ سقطت حيفا وأرسوف وقيسارية، وفى ٤٩٥ هـ أنطرطوس، وفى سنة ٤٩٧ هـ أستولى الصليبيون على عكا قهرا بعد أن

---

(١) أبن منحب الصيرفى، الأشارة إلى من نال الوزارة، ص ، ٦١

(٢) أبن الأثير، ج ٨ص ٢٢١

(٣) نفس المصدر، ص ، ٢٢١

(٤) أبن القلانسى، ص ١٨٢

(٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج ٥، ص ١٥٢

(٦) أبن القلانسى، ص ١٤٠ .

(٧) ابن الأثير، ج ص، ٢١٨

حاصروها من البحر فى أكثر من تسعين مركبا ومن البر بجيوش كثيفة. وفى سنة ٥٠٢ هـ أستولى على طرابلس وجبله، وفى العام التالى سقطت بيروت وجبيل وبانياس، وفى سنة ٥٠٤ هـ سقطت صدا.

أما عسقلان فظلت تجاهد الصليبيين حتى سقطت بدورها فى سنة ٥٤٨ هـ بعد حصار أحكمه الصليبيون عليها من البر والبحر دام سبعة أشهر.

جهود الأسطول الفاطمي في
في استنقاذ الثغور الشامية من الغزو الصليبي

(أ) غارة الأسطول المصري (١) علي يافا في سنة ٤٩٧ هـ

على الرغم من خروج السواحل الشامية من طاعة الفاطميين منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى، وقيام دويلات مستقلة فى دمشق وطرابلس وصور وصيدا، فأن الأفضل شاهنشاه لم يكن يتردد فى بذل العون لها بالميرة والأقوات عندما كان ولاتها يستنصرون به من حصار الصليبيين لها برا وبحرا. ففى أول رمضان سنة ٤٩٦ هـ خرجت العساكر المصرية فى البر إلى الشام، وأقلع الأسطول المصرى فى البحر بقيادة شرف المعالى أبن الأفضل نفسه، فوصل الأسطول إلى يافا فى آخر شهر شوال، وأقام فى مياهها أياما، تيسر له خلالها أن يمدها بالميرة والغلال، فصلحت أحوال المدينة (٢)، ثم عاد ولد الأفضل إلى مصر بعد أن قدم على الأسطول رجلا يقال له القاضى ابن قادوس، وعلى العسكر قائدا يعرف بتاج العجم. ويبدو أن الصليبيين هاجموا يافا بعد رحيل الأسطول المصرى عنها، فكان على أبن قادوس أن يتوجه بأسطوله إليها ليقتحم الحصار الصليبى على المدينة من البحر بينما يتوجه تاج العجم من البر (٣). فمضى أبن قادوس بأسطوله إلى

---

(١) يحمع المؤرخين على تسمية الأسطول الفاطمى فى مصر بالأسطول المصرى استناد على أن الفاطمين كانوا أصحاب مصر وعلى أن مركزهم ومقر ملكهم ودعوتهم وعلى أنهم أندمجوا في الحياة المصرية (راجع ابن القلانسى، وأبو شامة، وابن الأثير، والمقريزى) ولهذا السبب أطلق بعض المؤرخين أمثال المقريزى وأبو شامة على خلفائهم أسم الخلفاء المصريين كما سموها بدولة المصريين والدولة المصرية (راجع أبو شامة، كتاب الروضتين ص ٥٦١، ٥٦٦، مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٦٠).

(٢) ابن القلانسى، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ح ٨ص ، ٢١٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يافا ، وأقام عليها عشرون يوما ، لم تصل خلالها العساكر المصرية لمساعدته من البر، الأمر الذى أدى إلى سقوط يافا فى أيدى الصليبيين، فبلغ ذلك إلى الوزير الأفضل،

فأمر بالقبض على تاج العجم الذى أتهم بالتقصير والأهمال، وأرسل رجلا يسمى جمال الملك جعله مقدما على العساكر فى عسقلان.

(ب) الأسطول المصري يزود طرابلس بالأقوات والميرة:

طمع ريموند دى سان جيل كونت دى تولوز، وأحد زعماء الحملة الصليبية، فى أمارة طرابلس الغنية التى كان يتولى أمارتها فى الفترة الحرجة من تاريخ الشام الأمير فخر الملك أبو على عمار بن الحسين بن قندس بن عمار الطائى (٤٩٢ - ٥٠٢ هـ)،فعزم على أفتتاحها وأتخذها مركزا لكونتية صليبية. ففى سنة ٤٩٥ هـ سار فى جمع قليل من رجاله لا يتجاوز ثلثمائة رجل لمحاصرتها(١)، ولكنها أمتنعت عليه بسبب توافد النجدات إليها من دمشق وحمص، فأنسحب إلى أنطرطوس، وأرجا فتحها إلى فرصة مواتية تتوافر لديه فيها القوة والسلاح، وظل رموند مقيما فى انطرطوس فى الفترة ما بين عامى ٤٩٥، ٤٩٧ هـ، ولكنه لم يكتف خلالها عن شن الغارات عليها ومهاجمتها ، غير أن طرابلس كانت من الحصانة والمنعة إلى حد أنها لم تكن تتأثر بهذه الغارات أو حتى لحصار يرى طويل الأمد،

ما دامت سفنها تزودها من البحر بما كانت تحتاج إليه من مؤن وأقوات، وكان فخر الملك يرسل أتباعه فى المراكب للأغارة على سواحل الصليبيين (٢) ففى سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) قام أسطول طرابلس بالأشتباك مع السفن البيزنطية التى سيرها الأمبرطور الكسيوس كومنين لنجده وليم جوردان،

---

(١) ابن الأثير، حوادث ٤٩٥ هـ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج (ص ٣٥٦.

(٢) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإنتهت المعركة بهزيمة البيزنطيين، وتمكن أسطول طرابلس من الإستيلاء على قطعة بيزنطية (١).

ولما أشتد حصار الصليبيين لطرابلس فى سنة ٥٠٠ هـ، وطال ترقب الأمير فخر الملك لوصول الإمدادات من بغداد، وتأزم الموقف في طرابلس، عزم الأمير على السير بنفسه إلى بغداد، فإستناب على طرابلس أبن عمه أبا المناقب بن عمار مع جملة من وجوه رجاله رأسهم سعد الدولة فتان ابن الأعز (٢) وقيل ابن الأعسر (٣)، ورتب معه الأجناد برا وبحرا(٤)، ثم رحل إلى بغداد. ولكن أبن عمه أبا المناقب أستغل فرصة غيابه من طرابلس، وأعلن خروجه عليه، وقتل سعد الدولة، فقبض عليه الأهالي، ونادوا بشعار الأفضل بن بدر الدين الجمالي بمصر، وأرسل أهل الأفضل بمصر يلتمسون منه أنفاذ والي يصل إليهم فى البحر، معه الغلة والميرة فى المراكب ليسلموا إليه المدينة، فجهز إليهم الأفضل جيشا فى البحر، وقدم عليهم تاج العجم من أكبر مماليكه، ثم بلغه أن تاج العجم ينوى أعلان عصيانه عليه فى طرابلس، فأمر بالقبض عليه، وأرسل إلى طرابلس الأمير شرف الدولة بدر ابن أبى الطيب الدمشقي واليا من قبله، ومعه الغلة والأقوات، فما كاد شرف الدولة يصل إلى طرابلس حتى أمر بالقبض على بنى فخر الملك بن عمار وحريمه وأتباعه، وجرد قصره من الذخائر والأموال والألات والتحف وسير الجميع إلى مصر عن طريق البحر(٥).

ثم رأى أهل طرابلس ما نفرهم منه، فصبروا على تحمله، أذ لم تكن لهم

---

(١) ابن الأثير، ج ٨ ص ٢٣٥

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٨ ص ٧٧

(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٩

(٤) ابن القلانسى، ص ١٦٠ - ابن الأثير، ٨ ص ٢٥٠

(٥) نفس المصدر، ص ١٦١ - ابن الأثير، ص ٢٥١ - نص ابن ميسر فى كتاب Recueil des Bistoines des Croisaddest , III,p. 468، القريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١١٥ أ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجاء أمام الحصار الصليبى سوى نجدات المصريين (١).

(ج) الأسطول المصري يدافع عن صيدا في سنة ٥٠١ هـ

لم يتردد الفاطميون فى نجدة ثغر صيدا عندما هاجمه بلدوين صاحب مملكة بيت المقدس فى عساكره، فحاصروه برا وبحرا فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م)، ونصبوا الأبراج الخشبية على السور، فأرسل الأفضل أسطولا للدفاع عن صيدا وحمايتها، وتمكنت سفن هذا الأسطول من التغلب على مراكب الجنوية وعسكر الصليبيين، وظل الأسطول المصرى يقوم بواجبه من الدفاع عن الثغر إلى أن أتصل بهم وصول العسكر الدمشقى (٢)، لحماية صيدا والذود عنها، فرحل الأسطول المصرى قافلا إلى مصر.

(د) الأسطول المصري يصل إلي طرابلس متأخرا بعد سقوطها في سنة ٥٠٢ هـ

عندما أشتد الحصار البرى حول طرابلس للحشود الصليبية المؤلفة من قوات تنكريد صاحب أنطاكية، وبلدوين ملك بيت المقدس، وبرترام بن ريموند الصنجيلى، والحصار البحرى الذى يمارسه الأسطولان البروفنسى والجنوى، بحيث تمكن الصليبيون من قطع الإتصال عنها تماما من البر والبحر، أستمات أهل المدينة فى الدفاع عنها. غير أن تضامن الصليبيون فيما بينهم، وتضييقهم الخناق على أهل المدينة من البر والبحر وأستخدامهم الأبراج فى مهاجمة الأسوار تمهيدا لإقتحامها، كل ذلك دفع أهل طرابلس إلى الإستنجاد بمصر وطلب العون من الوزير الأفضل شاهنشاه فأرسلوا إليه

---

(١) ابن الفرات، ج ٨ ص ٧٨.

(٢) اس القلانسى، ص ١٦٢ أس الأثير، ج ٨ ص ٢٥١ - المقريزى، أتعاظ الحنفا ص ١١٦ أ.

رسلهم يلتمسون منه أن يزودهم بالميرة والسلاح والرجال، وأقاموا ينتظرون ورود السفن المصرية.

ومر وقت طويل منذ أن أستصرخ أهل طرابلس الفاطميين فى مصر دون أن تصل إليهم الأمدادات والأقوات، حتى نفذت المؤن وعدمت الأقوات وتضاءل أمل القوم فى الصمود وقشرت مقاومتهم للأعداء. وأخيرا تمكن الصليبيون من دخول طرابلس بالسيف فى ١١ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) . ولو أن الحكومة الفاطمية أتخذت وقتئذ أجزاءً سريعا حاسما لتموين طرابلس ونجدتها ، لكان من الممكن أطالة أمد المقاومة فى داخل طرابلس ضد العدو المحاصر، ولكن أستهتار الأفضل بأنجاد طرابلس وتلكأه فى إرسال المؤن كان من العوامل الرئيسية التى أدت إلى سقوط المدينة. ونستنتج من تعليل ابن الأثير لتأخير وصول الأسطول بأن المسئولين فى القاهرة "فرغوا منه ومن زمن البحث عليه، وأختلفوا فيه أكثر من سنة، وسار، فردته الريح، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضى الله أمراً كان مفعولا (١)" . ومعنى هذا أن الأجراءات الخاصة لجمع قطع الأسطول المصرى الذى أعده الأفضل لأنجاد طرابلس من الموانئ المصرية أستغرقت زمنا طويلا وأن خلافا عميقاً نشب بين قواد الأفضل فيمن يتولى قيادته، ومن المعروف أن مثل هذا الخلاف الذى حدث من قبل تاج العجم وأبن قادوس فى عسقلان، وإنتهى بالقبض على تاج العجم. ونستنتج من نص أبن الأثير أن الخلاف دام ما يقرب من سنة، وأن ريحاً مضادة لسير الأسطول أعاقته عن الوصول إلى المدينة فى الوقت المناسب، فلم يصل إلى مياه

---

(١) ابن الأثير، ح ٨ ص ، ٢٥٩ ونطالع مثل هذا النص فى. ابن القلانسى، ص ١٦٣ - ابن الجورى، كتاب مرآه الزمان، ح ٨ ص ١٧ - أبو الفداء، ح ٤ ص ١٤٣ -المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١١٦ أ. ولكن أبو المحاسن يعلل تأخر وصول الأسطول المصرى بأنه كلما "سار نحو البلد رده إلأفرنج الف مصر" (أبو المحاسن، ج ٥، ص ١٧٩).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طرابلس ألا بعد أن سقطت طرابلس وجبلة فى أيدى الصليبيين. ويشير أبن القلانسى إلى وصول هذا الأسطول عقب سقوط طرابلس بقوله: "ووصل عقب ذلك الأسطول المصرى، ولم يكن خرج المصرين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما فى المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله، ووصل إلى صور فى يوم الثامن من فتح طرابلس، وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها، وأقام بالساحل مدة، وفرقت الغلة فى جهاتها، وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت، وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الأفرنج، ولم يكن الأسطول المقام فأقلع عائدا عند أستقامة الريح إلى مصر[1]".

وهكذا كان تباطؤ مصر فى إرسال الأسطول وتأخره فى الوصول إلى طرابلس قبل أن تسقط فى أيدى الصليبيين سببا فى توجهه إلى ساحل صور بعد سقوط طرابلس بثمانية أيام، وهو أمر أن يدل على شئ فأنما يدل على إستهانة المسئولين فى مصر الفاطمية بالدفاع عن السواحل الشامية، وأستهتارهم بالموقف. وعلى الرغم من تمسك أهل صيدا وصور وبيروت ببقاء هذا الأسطول فى مياه ثغورهم ·حماية لهم من غزو صليبى وشيك،فأن قادة الأسطول المصرى أسرعوا بالعودة إلى مصر.

ويندد أبو المحاسن بعدم أكتراث أهل مصر بالفرنج، ويصور هذا اللامبالاة فى الدفاع عن طرابلس بثلاث أمور:

١ - تقاعسهم عن المسير مدة أطول .

٢ - ضعف العسكر الذى أرسلوه مع الأسطول.

---

(١) ابن القلانسى، ص ١٦٤ - المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص١١٦ أ.

٣ - عدم خروج الأفضل بنفسه للدفاع عن طرابلس (١).

ويورد أبن الفرات رواية تتضمن سخرية لاذعة للموقف المتخاذل الذى وقفه المسئوولون في مصر يومئذ أزاء أنجاد طرابلس فيقول : "وحكى أن السبب فى طرابلس أنه لما ضايقها الفرنج كتب من بها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها ، ويسألون الميرة، وأقاموا منتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة، فبينما هم فى ذلك، إذا بمركب قد أقبل فما مسكوا أن فمه نجده، فطلع منه رسول وقال: قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح للخدمة، وقد أمر بإرسالها إليه، وإرسلوه إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للمطهى، فعند ذلك أهيبوا من نصره، وضعفت قواهم، وخارت نفوسهم، وذلوا، وملكها الفرنج فى التاريخ المذكور." وعلى الرغم من وضوح عامل الاختلاق فى هذه الرواية، فأنها تعبر عن حقيقة لاشك فيها، وهى إستهتار المسؤولون فى مصر الفاطمية بالدفاع البحرى عن سواحل الشام مع قدرتهم على ذلك.

(هـ) إشتراك الأسطول المصري في الدفاع عن بيروت وصيدا قبل سقوطهما في سنتي ٥٠٣هـ، ٥٠٤هـ

كان سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين قبل أن يصل الاسطول المصرى إليها لامدادها بالمؤن والقوات والسلاح درسا قاسيا تلقاه المصرين، ولذلك لم تكد الاخبار تصل الى الافضل بزحف الصليبيين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس، وبرترام بن صنجيل وجوسلين صاحب تل باشر، نحو بيروت، وأحكامهم الحصار عليها من البحر والبر، وأستعدادهم لدخولها الأبراج المنصوبة وإستبسال أهلها فى الدفاع عنها والصمود أمام حصارشديد القسوة، لم يتردد فى إرسال قسم من أساطيله لإنجادها والإسهام فى الدفاع

---

(٢) أبو المحاسن، ج ٥ ص ١٧٩ .

(١) ابن الفرات، ج ٨ ص ١٨٩.

عنها. فجهز تسعة عشر مركبا حربية مزودة بالميرة والسلاح والرجال، ووصلت هذه السفن سالمة الى بيروت، وتغلبت على مراكب الصليبيين، وإستولت على بعضها، ثم أفرغ البحريون شحنة تلك السفن من الأقوات والمؤن والعددوالسلاح، فقويت نفوس أهل بيروت، واشتدت عزائمهم، وبدأوا يشدون هجماتهم على قوات الصليبيين المحيطة بالمدينة، وعندئذ إستنجد بلدوين بالجنوية الذين طالما سخروا سفنهم فى خدمة الحركة الصليبية، فتقدم من سفنهم فى هذه المرة أربعون مركبا مشحونة بالمقاتلة، ونصبوا عليها مائه منجنيق، وأخذوا يمطرون المدبنة التسعة بقذائف الحجارة المدمرة، ولكن أهل المدينة تفانوا فى الدفاع عنها، وقاتل البحريون بعنف فى يوم الجمعة ٢١ من شوال وإستبسلوا فى الدفاع البحرى، عن بيروت، واستشهد فى المعركة مقدم الأسطول المصرى وعدد كبير من رجاله. ويشهد ابن القلانسى بضراوة المقاومة الإسلامية فيقول: "ولم ير الافرنج فيما تقدم وتأخر اشد من حرب هذا اليوم (١)." ولكن المعركة تحدد مصيرها أمام ضخامة الحشود الصليبية، فإنهزم المسلمون ودخل الصليبيون المدينة قهرا.

وفى آخر سنة ٥٠٣ هـ أقلع اسطول مصرى إلى صور ليقيم فى قاعدتها لقصد الدفاع عنها، وأتفق فى ربيع الآخر سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م) ان قدم إلى ساحل الشام أكثر من ستين مركبا مشحونه بالرجال للغزو ضد المسلمون والحج إلى بست المقدس، فإستغل بلدوين هذه الفرصة لفتح صيدا، ونزل عليها بقواته برا، وحاصرها الأسطول الصليبى بحرا، ورأى مقدم الأسطول المصرى فى مهاجمة هذا الأسطول الكبير مغامرة خطرة قد تنتهى بكارثة للمسلمين، فآثر البقاء فى صور خوفا من أن تتعرض وحدات أسطوله للتدمير فلما يئس أهالى صيدا من قدوم النجدة، خافوا أن يصيبهم ما اصاب أهل بيروت من قبل، فخاطبوا الصليبيين فى تسليم بلدهم بالأمان، فدخلها الفرنج بعد حصار دام ٤٧ يوما.(٢)

---

(١) أبن القلانسى، ص ١٦٨ - المقريزى أتعاظ الحنفا، ص ١١٦ أ.

(٢) أبن القلانسى، ص ١٧١ - أبن الأثير، ج ٨ ص ٢٦٠ = أتعاظ الحنفا، ١١٦ أ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(و) الأسطول المصري يساعد صور علي الصمود أمام القوي الصليبية حتي سنة ٥١٨ هـ

بعد أن إستولى الصليبيون على صيدا زحفوا إلى صور، وحاصروها فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م)، فتصدى لهم ظهر الدين طغتكين، وقطع الجسر الذى كان يعبر عليه بين صيدا وصور، وأحرق عشرين مركبا كانت ترسوفى مياه صيدا، وأصدر إلى أهل صورالكتب يدعوهم فيها إلى المصابرة على الأفرنج والجد فى إقتتالهم. وأمام مقاومة أهل صور العتيده، وإستماتتهم فى الدفاع عن بلدهم، إضطر الصليبيون الى فك الحصار عنها.(١)

وفى سنة ٥٠٦ هـ تجددت مخاوف أهل صور من عودة الفرنج إلى محاصرتهم، فأجمعوا بالأتفاق مع عز الملك أنوشتكين الأفضلي، والى صور من قبل الأفضل، على تسليمها الى ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق بحكم ما بذله فى العام السابق من جهود فى سبيل الدفاع عن صور، ولم يتردد ظهر الدين من جهته فى قبول طلبهم، فأمر سيف الدين مسعود، والبه على بانياس، وتاج الملوك بورى، نائبه فى دمشق، بأن يتسلمها صور، وأرسل ظهير الدين اليها فرقة من الأتراك لتدعيم الدفاع عنها، كما أرسل إلى أهلها الأقوات والمؤن من دمشق، وطيب نفوس أهلها. ولكن ظهير الدين بتبديله الإدارة الفاطمية بادارة تركية، لم تنتزع صور من مصر، بل أبقى على تبعيتها لها، وترك الدعوة والسكة على ماكان عليه لصاحب مصر، ولم يغير للفاطمين أى رسم من رسومهم، وكتب ظهير الدين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر يبرر له تصرفه، برغبته الخالصة فى الأبقاء على صور بلدة إسلامية عن طريق تقويتها بالرجال، وأبلغة قائلا بأن بلدوين" قد جمع وحشد للنزول على صور، وأن أهلها استنجدوا بى عليه، والتمسوا منى دفعة عنهم، فبادرت بأنهاض من اثق بشهامته لحمايتها والمراماة دونها إليه،

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

وحصلوا فيها" ثم أضاف بأنه على أتم أستعداد لأجلاء قواته واخراج نوابه عنها ومتى وصل إليها من مصر من يتولى امرها والذب عنها وحمايتها، ثم أوصى الأفضل فى نفس هذا الكتاب بقوله:" وانا أرجو أن لا يهمل امرها، وأنفاذ الأسطول بالغلة اليها، والتقوية لها." (١)

اقام رسول طغتكين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر حتى ذى الحجة من سنة ٥٠٦، وفى فترة أقامته بالقاهرة تمكن من تصوير الوضع فى صور على حقيقتة للأفضل، موضحا له ما يتهددها من أخطار من جانب الصليبيين، ودور طغتكين فى الدفاع عنها، وذكر له ماعرضه عليه طغتكين من التطوع للدفاع عن صور إلى أن يقوم هو أى الأفضل بأنفاذ اسطوله اليها. فأعاد الأفضل الرسول بكتاب رد فيه على طغتكين ردا حسنا، وعبرله عن شكره ما فعله، وأستصوب رأى طغتكين فيما أعتمده" ثم أسرع تجهيز الأسطول المصرى وشحنه" بالغلة والميرة ومال النفقة فى الأجناد العسكرية وما يباع الرعية من الغلات" (٢)

وفى أول سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) أقلع الاسطول من مصر بالغلات والرجال متجها إلى صور، وتولى قيادة هذا الأسطول متولى طرابلس السابق قبيل استيلاء الصليبيين عليها وهو الأمير شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى، ووصل الأسطول إلى صور سالما فى آخر صفر سنة ٥٠٧هـ، وبوصوله إلى صور أنزاله الشحنات رخصت الأسعار فى المدينة، وأستقام أمرها، وحسن حالها، وعلى هذا النحو أفسد تصرف طغتكين الحكيم ووصول الأسطول المصرى إلى صور خطط الصليبيين، وأبعد خطرهم عنها، وأرسل مقدم الأسطول شرف الدولة بدر بن ابى الطيب هدية الأفضل إلى ظهير الدين طغتكين،وتتألف من الخلع الفاخرة الجليلة برسمه ورسم ولده تاج

(١) أبن القلانسى، ص ١٨٢ - المقريزى، أتعاظ الحنفا ص ١١٧ أ.

(٢) ابن القلانسى، ص ١٨٨ - المقريزى، أتعاظ الحنفا ص ١١٧ ب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملوك بورى وخواصهما ، ويرسم سيف الدولة مسعود نائب ظهير الدين فى ولاية صور."واقام الأسطول المصرى فى مياه صور فترة من الوقت إلى أن أستقامت له الرياح، ثم اقلع عنها فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول من السنة. ثم أن بلدوين ملك بيت المقدس بعث إلى الأمير مسعود والى صور يلتمس منه المهادنة والموادعة لحسم أسباب النزاع بين الجانبين، فأجابه مسعود إلى ذلك، وأنعقدت الهدنة بينهما ، وأستقلت أحوال صور ، وأمنت الوافدين عليها من التجار والمسافرين من جميع الأقطار.(١)

وظل الأمر كذلك فى حياة الأفضل الذى لم يكن يضن عليها بمساعداته بإعتبارها آخر ثغور الشام التابعة للفاطميين، ولو أن العمر طال بالأفضل لكان فى إمكان صور أن تصمد فترة أطول، غير أنه اغتيل فى ليلة عيد الفطر من سنة ٥١٥ هـ (١١٢١٢م).

فخلفه فى الوزارة المأمون أبو عبد الله محمد بن أبى شجاع فاتك البطائحى الذى كان - رغم شجاعته - اقل دراية بشئون السياسة من الأفضل، بدليل أن مصر خسرت مدينة صور بسبب سؤ تصرفه، وتفصيل ذلك أنه ما كاد يتولى الوزارة ويستبد بأمور البلاد جتى عزم على إزالة نفوذ طغتكين من صور والأطاحة بولاية مسعود الذى كان يتولاها من قبل طغتكين، ففى بداية سنة ٥١٦ هـ أرسل المأمون الأسطول المصرى إلى ثغر صور وقد شحنه بالرجالة وطائفة من العساكر (٢) كما شحنه بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف أردب وأقوات كثيرة. فلما وصل الأسطول إلى صور ، خرج واليها سيف الدولة مسعود لأستقبال مقدم الأسطول، فطلب منه النزول بسفينة، فأستجاب مسعود لرغبته، وما كاد ينزل بمركب مقدم الأسطول حتى أمر هذا بإعتقاله، وصدر الأمر على الفور إلى العساكر بالنزول فى المدينة والسيطرة عليها ، ثم أقلع الأسطول إلى ميناء صور حاملا الأمير مسعود إلى مصر، فلما وصل إلى القاهرة، بولغ فى أكرامه، وأنزل

---

(١) ابن القلانسى، ص ١١٨.

(٢) ابن القلانسى، ص ٢٠٧

في دار، وأطلق له مايحتاج إليه (١)، ثم اعيد إلى دمشق بعد ذلك (٢). ويعلل ابن القلانسي هذا التصرف من جانب السلطات المصرية بأن أهل صور شكوا مرات عديدة إلى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل بما كان يعتمده مسعود مع الرعية من مخالفتهم والأضرار بهم، ويعلق أبن القلانسي على عزل مسعود عن ولاية صور بقوله:"وكانت عاقبة خروجه منها وسؤ التدبير فيها خروجها (بقصد صور) إلى الأفرنج وحصولها في ملكتهم."(٣)

ولما علم الصليبيون بالإنقلاب الذى تم في صور، تحركت اطماعهم في الإستيلاء عليها من جديد، وشرعوا في الأعداد لفتحها والتأهب للنزول عليها واحكام الحصار حولها، وأدرك والي صور الجديد عجزه عن دفعهم لقلة مالديه من الجند والميرة، فأرسل إلى الآمر بأحكام الله يطلعة على جلية الأمر، فأقتضى الرأى أن ترد مصر ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين لتولي حمايتها والذب عنها على ما جرى رسمه فيها مع إحتفاظ مصر بحق الأشراف وفرض سلطانها عليها، وأصدر الآمر منشور ولاية صور بأسم طغتكين، ولم يتردد طغتّكين في قبول الأمر الواقع، من تقبل مسئولية الدفاع عنها، ولكنه ندب لتوليها جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهم، فساءت حالتها، وأنتهز الصليبيون هذه الفرصة، ونزلوا بظاهرها في ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ، وأحكموا الحصار حولها حتى عدمت بها الميرة والأقوات، فأرسل طغتكين إلى مصر بطلب أرسال المعونة إليها، ولكن مصر لم تتحرك لنجدتها.

ومضت الأيام دون أن أتصل أساطيل مصر بالمعونة المرتقبة، فضعفت نفوس أهلها، ،قرروا تسليمها للصليبيون، ،تم ذلك في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ (١١٣٤م) (٤)، وبسقوط صور تلاشي نفوذ الفاطميين في مصر نهائيا على بلاد الشام.

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٧ - أتعاظ الحنفا، ١٦٢ ب.

(٢) أبن الأثير ج ٨ ص ٣١٥.

(٣) أبن القلانسي، ص٢٠٧ - أبن الاثير، ج ٨ ص ٣١٥.

(٤) أبن القلانسي، ص ٢١١ - أبن الأثير، ج ٨ ص ٣٩٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)
جهاد الأسطول المصري ضد الصليبيين
حتي نهاية الدولة الفاطمية

(أ) في عصر الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ)

بلغ الأسطول المصرى فى عصر الآمر بأحكام الله درجة كبيرة من القوة على الرغم من حالة الضعف السياسى التى وصلت إليها مصر. وقد تعددت ميادين النشاط البحرى الحربى فى خلافة الآمر: فى سنة ٥١٧ هـ بلغ المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أباتراب حيدرة والى الإسكندرية والأعمال البحرية نبأ نزول الروم والبنادقة فى أكثر من عشرين مركبا على الإسكندرية، فبادر إليها بسفن أسطول الإسكندرية، فلما شاهدها الأعداء أقلعوا دون قتال، وظفر المصريون بعدة قطع للأعداء (١). وذكر المقريزى نقلا عن أبن المأمون، أنه وصلت رسل ظهير الدين طغكتين صاحب دمشق وأفسنقر صاحب حلب فى المحرم سنة ٥١٧ هـ إلى والى الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمى والوزير المأمون، وأنهما مثلا أمام الخليفة بالقصر وقدما إليه كتبا بعثها كل من طغتيتن وأقسنقر يستنصران فيها الخليفة ويحثانه على نصره الإسلام وتجهيز العساكر والأساطيل إلى السواحل حتى لا تتواصل أمدادات الصليبيين، ويبدو أن هذه الكتب أثرت فى نفس الأمر تأثيرا عنيفا دفعة إلى المبادرة بالعمل، فإشتعل حماسه، وأشتد عزمه على تلبية ندائها وأمر بتجهيز الجيوش والأساطيل الثانية لإنتصار الأساطيل الرئيسة فى الغزو، ثم اختار حسام الملك البونى ليكون مقدما على هذه الأساطيل،

---

(١) أتعاظا الحنفا، ص ١٢٦ ب - تاريخ الإسكندرية ، وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٢٠٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلع عليـه، وأمر بأن ينزل الصناعـتين بمصر الجـزيرة ويتـفق فى أربعين شينيا ، ويكمل نفقاتها وعددها ، ويحمل العسكر عليها ،

كما أمر بأن يصحبه عشرون اميرا وعدد من الأطباء والمؤذنين والقراء والحجاب، وأفرد لكل من هؤلاء عملا يقوم به، وأوصى بأن يجتمع العسكر والعربان للعرض فى عسقلان قبل أن يقلع منها الاسطول إلى السـواحل، ويذكر المقريزى أن الخليفة" جهز المال والخلع المذهبات، والأطواق، والسيوف، والمناطق، والخيل بالمراكب الحلى الشقال، وغير ذلك من التجميلات وخلع على الرسل واطلق لهم التغيير، وسلطت اليهم الكتب والتذاكر وتوجهوا صحبة العسكر."(١) ثم ركب الخليفة الأمر إلى باب الفتوح، وجلس بالمنظرة، وهناك استدعى الأمير حسام الملك وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة، وطوقه بطوق من الذهب، وقلده ،منطقة بمثل ذلك.وقام الوزير المأمون البطائحى بتسليم الأموال وخزائن الكسوة إلى الأمير حسام الملك، ثم ركب الخليفة الى جامع المقس، وجلس بالمنظرة، وإستدعى مقدم الأسطول وخلع عليه، وأنحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة إلى البحر الملح.

والظاهر أن هذا الأسطول الثانى أشتبك مع اسطول البنادقة فى معركة بحرية دارت بالقرب من سواحل الشام وإنتهت بهزيمة الأسطول المصرى، وتمكن البنادقة من الظفر بعدة قطع، وإضطرت بقية السفن المصرية إلى العودة إلى مصر.(٢) ولكن الأسطول المصرى الرئيسى لم يلبث أن عاد مظفرا فى شعبان من سنة ٥١٧ هـ بمن فيه من البحريين سالمين، وقد غنموا شينيين من شوانى الصليبيين وبطسة كبرى، وأسروا عددا من الرجال والنساء، وأحتفل الخليفة بعودة الأسطول من الغزو بما جرت به العادة، وأصطفت العساكر بالعدد والاسلحة، فخلع الخليفة على زمام (٣) الاسطول والرؤساء.(٤)

---

(١) المقريزى، الخطط، ح٢ص ٣٧٦ .

(٢) أبن القلانسى، ص١٠٩ – أبن الاثير، ح ٨ ص ٣١٤ .

(٣) المقصود بزمام الأسطول قائد الاسطول (صبح الاعشى، ح٣ص٤٨٢).

(٤) المقريزى، أتعاظ الحنفا، ص١٢٨ ب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ب) في عهد الظافر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٤٩هـ)

وتلت ذلك فترة مضطربة شغل فيها المصريون عن الجهاد البحرى بمصرع الآمر بأحكام الله فى سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩م) على أيدى جماعة من النزارية وخلافة الحافظ لدين الله من بعده، وما تبع ذلك من أحداث خطيرة أدت إلى انتشار الفوضى والأضطراب فى داخل البلاد فترة طويلة لم تنته بوفاة الحافظ لدين الله فى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) أستمرت فى خلافة أبنه الظافر بأمر الله حتى مصرعه فى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) على يدى نصر بن عباس. واتسم عهد الظافر بظهور الخلل فى أجهزة الدولة لحداثة سن الخليفة وأشتغاله باللهو(١)، ولأشتداد النزاع بين الوزيرين أبن مصال وأبن سلار واستعانة كل منهما بفريق من العسكر على زميله. ولذلك أهمل المسئوولون وقتئذ فى مصر الدفاع عسقلان التى لم تلبث ان سقطت فى أيدى الصليبيين فى سنة ٥٤٨ هـ بعد ان حوصرت عدة مرات، وكان المصريون يمدونها بالرجال والذخائر، ولذلك طال أمد مقاومتها. ويروى أبن القلانسى أن العادل أبن سلار "جلس للأنفاق فى رجال الأسطول ليجهزه فى البحر ألف ناحية عسقلان بالميرة لتقوية من بها على النازلين عليها من الأفرنج والمضايقين لها، وهو فى الجمع الكثير والجم الغفير، بالمال والرجال والغلال، وإشراف أهلها على الخطر.(٢)" ويضيف أبن القلانسى أن أسطول مصر وصل ألف عسقلان قبل سقوطها فى أيدى الصليبيين، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال-والغلال، وظفروا بعدة وافرة من مراكب الفرنج فى البحر، وهم على حالهم فى محاصرتهم ومضايقتها، والزحف بالبرج إليهم. وأستمر ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهدموه، وهجموا على البلد، وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة

---

(١) النجوم الزاهرة، ج٥ص. ٢٨٨

(٢) ابن القلانسى، ص. ٣١٩

والغلبة إلى طلب الأمان، فأجيبوا اليه، وخرج من امكنه الخروج فى البر والبحر إلى ناحية مصر عيرها."[1]

وينبغى ان نشير بالرغم من ذلك الى حقيقة لابد من ذكرها وهى ان الأسطول المصرى قام بواجبه فى مدافعة الفرنج وحماية المدينة من البحر وتخفيف حدة الحصار البحرى خير قيام، وأن غزاة الأسطول المصرى بذلوا أقصى ما يستطعون بذله فى الدفاع عن عسقلان وأمدادها بالأقوات والميرة. كما ينبغى أيضا أن نذكر مرة أخرى أن هذا الأسطول أبدى قبل سقوط عسقلان بسنتين نشاطاً بحريا لم تشهد السواحل الشامية له نظيرا من قبل.

فعندما أغار الصليبيون فى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) على الفرما ونهبوها وأحرقوها وأخربوا دورها [2] جهز الوزير العادل أبن سلار المراكب الحربية بالرجال والعدد، وسيرها فى ربيع الأول إلى ثغور الساحل الشامى. ويذكر أبن القلانسى أن الأسطول المصرى وصل إلى ثغور الساحل فى غاية من القوة وكثر العدد والعدة، كما ذكر أن عدة مراكبه بلغت سبعين مركبا حربية مشحونه بالرجال، وعندما أقترب هذا الأسطول من يافا من ثغور الصليبيين أغار على الساحل، فقتل رجاله وأسروا عدداً كبيراً من عسكر الصليبيين، وأستولوا على عدة قطع من مراكب الروم والفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن الظفر به، ثم قصد الأسطول المصرى بعد هذه الغارة إلى ثغر عكا، ففعل غزاته مثلما فعلوه فى يافا ووقع فى أيديهم عدد من المراكب البحرية الفرنجية، وقتلوا من حجاج الفرنجة وغيرهم خلقا كثيرا [3]، ثم أنقذوا ما أمكنهم أنقاذه من الغنائم إلى مصر، ثم أغار الأسطول المصرى « على ثغور صيدا وبيروت وطرابلس، وأبلى غزاة البحر المصريون بلاء حسناء، وفعلوه

---

(١) نفس المصدر، ص٣٢١ - ابو شامة، الروضتين فى اخبار الدولتين، ح١ص ٢٢٤ - ابن الاثير، ح٩حوادث ٥٤٨ - الدهبى، العبر فى خبر من عبر، ح ٤ ص ١٩ - ويجعل ابو المحاسن تاريخ سقوط عسقلان فى سنة ٥٤٥ هـ (النجوم الـزاهـرة، ح٥ ص ٢١٩).

(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٤٤ ب.

(٣) أ. القلانسى، ٣١٥ - الروضتين، ح ١ص٢٠٢ - أتعاظ الحنفا، ص١٤٤ب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى هذه الثغور مثلما فعلوه فى يافا وعكا. ثم عادت قطع الأسطول المصرى غانمة مظفرة بعد أن بلغت النفقة عليها ثلثمائة ألف دينار (١).

(ج) في عصر الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٤هـ)

عاود الأسطول المصرى الفاطمى نشاطه البرى فى غزوة السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين منذ سنة ٥٥٠هـ، ففى هذه السنة أقلع الأسطول المصرى والى سواحل الشام الجنوبية، وأغار على ميناء صور، وذلك ردا على غارة قام بها الصقليون على مدينة تنيس فى غفلة من أهلها فى جمادى الأول سنة ٥٤٩هـ، وتفصيل غارة الأسطول كما رواها أبن القلانسى وابو شامة ان مقدم الأجناد من جيش الوزير الصالح طلائع بن رزيك أختار مقدما مشهورا بالشهامة والصرامة والبسالة وحسن السياسة، "إرتضى لتولية الأسطول المصرى مقدما من البحرية شديد البأس، بصيرا بأشغال البحر، فأختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وأنهضهم فى عدة من المراكب الأسطولية، وأقلع فى البحر لكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها، ثم قصد ميناء صور، وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة، فيها رجال كثيرة ومال كثير وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها، وأستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم احرقها، وعاد عنها فى البحر، فظفر بمراكب حجاج الأفرنج وقتل وأسر وأنتهب، وعاد منكفئا الى مصر بالغنائم والاسرى (٢).

وفى سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧ م) سير الصالح طلائع المراكب الحربية المصرية إلى بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج، وأسرت منهم أعداد كبيرة، وغنمت غنائم لا حصر لها. ثم سير الأسطول الى عكا، فتمكن البحريون المصريون-

---

(١) أتعاظ الحنفا، ص ١٤٤ ب.

(٢) أبن القلانسي، ص ٣٣١ - الروضتين، ج ١ ص ٢٤٩ .

بعد قتال عنيف - من أسر نحو سبعمائة من الصليبيين، وعاد الأسطول إلى قواعده في مصر في شهر رمضان (١). وفي نفس السنة تكسرت عدة مراكب صليبية تحمل حجاجا على ساحل الإسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر السكندري (٢).

ثم نشطت الأساطيل المصرية في سنة ٥٥٣ هـ نشاطا كبيرا بفضل تشجيع الصالح طلائع، أعظم وزراء الدولة الفاطمية، الذي لم يتوان في مدة توليه الوزارة عن مغازاة الفرنج، وتسيير الجيوش لقتالهم في البر والبحر، وكان يرسل البعوث الحربية على السواحل الجنوبية لبلاد الشام في كل سنة (٤)، ،كثيرا ما تعددت غزوات الأسطول المصري في السنة الواحدة: ففي أوائل ربيع الأول سنة ٥٥٣ هـ أغارت طائفة كبيرة من العساكر المصرية على غزة وعسقلان وأعمالها، وكان يظاهرهم الغزاة في البحر، وأشتبك المصريون مع الصليبيين في عدة معارك أنتصر فيها المصريون، وظفر مقدم الغزاة في البحر بعدة مراكب مشحونة بالأفرنج، وأسر منهم عددا كبيرا، وعاد ظافراً إلى مصر (٥). وفي ٢٣ ربيع الآخر من نفس السنة سار الأسطول المصري الرئيسي إلى تنيس، ثم أقلع منها في الثامن من شعبان لغزو سواحل الصليبيين. وفي ٢٦ من ربيع الأخر قدم أسطول الإسكندرية من أحدى غزواته على السواحل الصليبية ، وقد أمتلات أيدي الغزاة المصريين بالغنائم(٦). ،في الخامس من شعبان سير الصالح طلائع خمس شواني

---

(١) أبى القلانسى، ص ٣٣٢ - الروصتيين، ح ١ ص ٢٥٣ .

(٢) أتعاظ الحنفا، ص ١٤٩ أ .

(٣ بعس المصدر.

(٤) الخطط، ج٣ص ٢٦٢ .

(٥) أبى القلانسى ٢ص ٣٥١ - الروضتين، ج١ص ٢٨٨،

(٦) أتعاظ الحنفا، ص١٤٩ أ .

(٧) نفس المصـــــدر، ص ١٤٩ أ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للإغارة على سواحل الشام المحتلة،

وأستطاعت هذه الشواني الخمسة أن تظفر بعدة سفن صليبية، وعادت في ٢٢ من رمضان وقد غنمت غنائم كثيرة، واسرت عددا كبيرا من الصليبيين (١).

وفي السنة التالية أقلع الأسطول المصري في جمادي الأول إلى سواحل الشام تلبية لدعوة نور الدين محمود بن زنكي أتابك حلب، ومساندة له (٥) في تخريب السواحل الشامية المختلفة.

ولم يزل الأسطول المصري على مثل هذه الحالة من النشاط البحري وغزو السواحل الشامية المختلفة حتى كانت أيام شاور بن مجير السعدي الذي تولى الوزارة بعد مقتل الصالح طلائع في رمضان سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م). وفي وزراته إضطربت الأحوال الداخلية مع مصر، وتدخل النوريون حينا والصليبيون حينا آخر، إلى إن كانت سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) عندما دخل عموري ملك بيت المقدس الأراضي المصرية، ونزل بلبيس وأستولى عليها عنوة، ثم زحف إلى القاهرة فأمر شاور بأحراق الفسطاط. وأحراق مراكب الأسطول، لتعويق تقدم الصليبين إلى القاهرة فأحترقت السفن التي كانت ترابط بصناعة مصر، وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحري، ولم يبق لها سوى الأساطيبل الراسية بالثغور البحرية في الإسكندرية ودمياط وتنس وعذاب.

---

(١) نفس المصدر، ص١٤٩ أ .

(٢) الخطط، ج ٣ ص ١٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثا : التنظيمات البحرية في العصر الفاطمي

(١)

موظفو ديوان العمائر ومراتب البحريين

ذكرنا فيما سبق أن ديوان العمائر كان مقره دار صناعة الأنشاء بمصر التى كانت تقع على الساحل القديم من مصر الفسطاط بالقرب من المنظرة الخلافية المعروفة بمنظرة الصناعة التى أنشأها الوزير المأمون البطائحى. وكان من أختصاصات ديوان العمائر الأشراف على صناعة الأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها، ومنه كان ينفق على رؤساء المراكب ورجال الأسطول من النواتي (١). وكانت المراكب السلطانية المذكورة تضم ما يزيد على خمسين عشاريا وعشرين ديماسا، من بينها عشرة عشاريات كانت مخصصة لركوب الخليفة الفاطمى فى مواسم الأحتفالات بوفاء النيل كتخليق عمود المقياس وفتح الخليج، أما بقية العشاريات والدواميس فكانت برسم ولاة الأعمال المميزة، فى حين كان للمشارفين بالأعمال عشاريات أخرى دون عشاريات الخليفة وولاة الأعمال، وكان الديوان المذكوريضم عددا كبيرا من الحواصل لعمارة المراكب (٢)، فى كل حاصل منها نفر من الصناع من مختلف المهن كالنجارين والحدادين والقلفاطيين والمزرقين، ويتولى الديوان الإنفاق على أنشاء السفن، فإذا لم يف إرتفاقة بما تحتاج إليه هذه السفن أستدعى له مزيد من المال من بيت المال لسد النقص.

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣٧٧ - صبح الاغش، ٣ ص ٤٩٢ .

(٢) نفس المصدر - عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ح ١ ص ٢٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن موظفي الديوان:

١ - **رئيس العشاريات والنواتي:** كان يتولى كل عشاري أو ديماس من عشاريات ود واميس الديوان رئيس ونواتي ينفق فيهم من مال هذا الديوان.

٢ - **نائبا مقدم الأسطول:** وكانا يتوليان خدمة ما يجرى في الأساطيل.

أما فيما يتعلق بمراتب البحريين، فقد ذكر المقريزى أن جريدة قواد الأسطول في أواخر عصر الدولة الفاطمية كانت تزيد على خمسة آلاف مدونة من البحريين ونعنى بهم النواتية، بتقديمهم عشرة أعيان يقال لهم قواد تصل جامكية أكبرهم إلى عشرون دينار، بينما لا تقل لإقلهم شأنا عن دينارين، وكان يختار من بين هؤلاء القواد العشرة قائد يتميز منهم ويرتفع عنهم يسمى رئيس الأسطول. وكان هذا الرئيس هو الذى يقلع بالغزاة ويصحبته مقدم الأسطول وفانوس تهتدى به المراكب الأخرى، وبه كان مقتدى سائر قواد الأسطول، فمقلعون بأقلاعه ويرسون بأرسائه (١). أما مقدم الأسطول فكان يشترط فى أختياره أن يكون ما بين أعيان أمراء الدولة وأن يكون أقواهم جأشا، وكان يعرف بزمام الأسطول (٢).

وإلى جانب هؤلاء القواد الكبار كان يتولى دعوة الغزاة لتسلم النفقة قبيل الخروج للغزو فى البحر عدد من العرفاء يقال لهم النقباء، عددهم عشرون، تقتصر مهمتهم على أستدعاء الغزاة من دورهم (٣).

وكان الخليفة عندما يتولى توزيع النفقة قبيل تحرك الأسطول للغزو يمنح مقدم الأسطول مائة دينار، ورئيس الأسطول عشرون دينارا.

---

(١) المقريزى، الخطط ٢ ص٣٧٨، ج ٣ص ١٠٩ .

(٢) المقريزى، أتعاظ الحنفا، ص ١٢٨ ب - صبح الاعشى، ج ٣ ص٥١٩ .

(٣) المقريزى، الخطط، ج٣ص١٠٩ .

وكان نواتية الأسطول المعرفين بالبحريين أو الأسطولية (١) موضع أحترام الناس وتبجيلهم فكان يقال المجاهدون فى سبيل الله، والغزاة ففى أعداء الله، ويتبرك الناس بدعائهم (٢) . ومن المعروف أن العدد الأعظم من هؤلاء البحريين كانوا مغاربة، وقد عرف المغاربة بمهارتهم فى قيادة السفن والملاحة فى البحر منذ عصر مبكرة، وذاعت شهرتهم فى الجهاد البحرى فى العصر الأيوبى، وأشترك البحريون المغاربة فى مهاجمة مراكب الصليبيين عند عيذاب (٣)، فقد أستعان الحاجب حسام الدين لؤلؤ بجماعة من انجاد المغاربة البحريين فى مراكب عمرت من مصر والإسكندرية فى مهاجمة مراكب الفرنج وحرقها واسر من (٤) بها وأصبح البحريين المغاربة في عصر المماليك البحرية مكانة خاصة، وكان يلبغا الخاصكي يقدرهم، ويعتبرهم فرسان البحر،(٥) وكان بكثر من قياد المغارية على المراكب. وكان رئيس دار الصناعة بالاسكندرية، ابراهيم التازى، مغربيا، عرف ببطولته فى الجهاد ضد الصليبيين، وقد ذكر النويرى معلقا على بطولته بأن الفرنج ليس بقهرهم سوى المغارية، ذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الاندلس، بعرفون طرق حربهم وطعنهم فى بروبحر، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغارية جمعا كبيرا بجوامك مرتبة، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها، كانوا مخربوا كثيرة، وصارت الفرنج معهم فى جزيرة (٦)". وكان البحريون في العصر الفاطمى وماتلاه من عصور يشتغلون في سفن الاسطول أما بالتجديف او بنشر

---

(١) المقريرى، الخطط، ج٣ص ١١١ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) ابن جبير، الرحلة، تحقيق وليم رايت، ص٥٩ . وذكر ابن سعيد ان الاساطيل كانت وقفا على المعارية لمعرفتهم بعاناة الحرب والبحر (المقريرى، نفح الطب ج ٣ص ١١١).

(٤) المقريرى،السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الاول القسم الاول، القاهرة ١٩٥٦ ص٧٦ .

(٥) النويرى السكندرى، الالمام بما قضت به الاحكام، نسخة مصورة من مخطوطة الهند، ص١١٦ ب .

(٦) نفس المصدر ص ٢٧٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقلوع أو توجيه الدفة او مراقبة البحر، فكان منهم المجدفون وناشروا القلوع على القرايا، والنواضير، وكان منهم طائفة مقاتلة أما بالأنفاط ويعرفون بقاذفي اللهب أو زراقي النار، وبالعرادات والمجانيق، وكان منهم رماة السهام والكربون أو بالكلاليب، والراجعون بالرجام والسالبون بالأساليب (١).

(٢)
قطع الأسطول الفاطمي الحربي والمدني

يقسم المقريزي السفن إلي نوعين:

١ - **الحربية**: وهي سفن الأسطول التي تصنع خصيصا لغزو العدو، وكانت تشحن بالسلاح والأت الحرب والمقاتلة، فتمر من ثغر الإسكندرية وثغر ودمياط وتنيس والفرما في مصر ومن ثغر طرابلس وثغر صيدا وثغر صور في الشام إلى جهاد أعداء الدولة من البيزنطيين والفرنج.

٢ - **النيلية**: وهي أما سفن تجارية تنشأ لحمل الغلال والأحطاب وغيرها، ونقل هذه البضائع في النيل، صاعدة إلى أعلى الصعيد، أو منحدرة إلى أسفل الأرض (٢)، أو سفن تخصص للأحتفالات بتخليق عمود للمقاس وكسر الخليج ولنزه الخلفاء الفاطميين، كالعشاريات اللطاف، التي لها السماويات، والعشاريات الخاص الكبار (٣).

ويمكننا أن نصف إلى هذين النوعين نوعا ثالثا مخصصا للملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، لنقل تجارة الكارم او لنقل الحجاج ما بين عيذاب وجدة.

(١) العماد الأصفهاني، ص ١٦٠ .

(٢) المقريزي، الخطط، ح ٣ص ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر، الخطط، ح٢ص ٣٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت السفن المصرية فى العصر الفاطمى « سواء الحربية منها أو المدينة، تصنع فى دار صناعة الجزيرة، فأنكر الوزير المأمون البطائحى ذلك، وقصر صناعة المراكب التجارية النيلية الحاملة للغلات والأحطاب بصناعة مصرية، حين واصلت دار صناعة الجزيرة والمقس والإسكندرية ودمياط انشاء السفن الحربية كالشوانى والشلنديات والمسطحات (١) ويذكر ناصر خسرو، الرحالة الفارسى الذى زار مصر فى العصر الفاطمى، أنه كانت تصنع فى مدينة الصالحية سفن تجارية لنقل البضائع إلى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين. (٢)

وقد تعددت أنواع قطع الأسطول الحربي الفاطمي، وأهم هذه القطع ما يلي:

١ - **الشواني الحربي:** (جمع شينى أو شونة)، وكانت أهم قطع الأسطول الفاطمى، وكانت تعرف أيضا بالأغربة أو الغربان (جمع غراب) لأنها كانت تطلى بالقار وكانت لها قلوع بيضاء فى ذلك تشبه الغربان، ويعبر أبن الأبار عن ذلك التشابه بينها وبين الغربان فى قوله:

يا حبذا من بنات الماء سابحة	تطفو لما شب أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غربانا بأجنحة الـ	حمائم البيض للأشراك ترزؤه
من كل أدهم لا يلفى به جرب	فما لراكبه بالقار ينهنوءه
بدعى غرابا وللفتحاء سرعته	وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤه

والشينى مركب كبير طويل، يمتاز بأنه نجدى بماية وأربعين مجدانا، (٣)

---

(١) المقريزى، الخطط، ج٣٧٧ح ٣ص ١٠٨

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٤١

(٣) عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين . ورسومهم فى مصر ح ١ ص ٢٢٢ .

(٤) المقرى، نفح الطيب، ح ٥ ص ٢٠٠

(٥) ابن مماتى، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

ويحمل المقاتلة والجدافين. وكان مزوذا بأبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم، وقد وصف ابن حمديس الصقلي الشواني الحربية وابراجها التي يقذف النفاطون منها النفط الأبيض على العدوة فقال مخاطبا الأمير الحسن ابن علي من أمراء بني زيرى في المغرب الأدنى:

أنشأت شواني طائرة | وبنيت على ماء مدنا
ترمي ببروج أن ظهرت | لعدة محرقةٌ بطنا
وبنفط أبيض تحسبه | ماء ويه وتذكى السكنا (١).

ووصف الشاعر الأسواني المصرى أبو علي الحسن المهذب بن الزبير أنتصار الأسطول المصرى على الأسطول الصليبي في طرابلس الشام، في أيام الصالح طلائع بن رزيك، فقال:

ولقد أتى الأسطول حسن غزاينا
لم يأت في حين من الأحيان
أجيب إلي بها شواني أصبحت
من فتكها ولها العداة شواني
شبهن بالغربان في ألوانها
وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقَرتَها عَدَدُ القتال فقد غدت
فيها القنا عوضا عن الأشطان

فأتَتكَ مُوقرةً بسبي بينه
أسراُهم مغلوبةُ الأذقان (٢)

(١) ديوان ابن حمد يس ، تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٠ ص ٥١٣ .

(٢) محمد كامل حسن، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، القاهرة. ١٩٥٩ ص ١٧٦ - محمد زغلول سلام، الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي - الإسكندرية ١٩٥٩ص ٣٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ - الحرائق: (جمع حراقة) : وهى مراكب حربية يعبر أسمها عن وظيفتها فى أحراق سفن العدو بالنفط (١)، تلى الشوانى فى الأهمية. وقد استكثر الفاطميون من هذه السفن إذ ورثوه عن الأغالبة (٢). وأستخدموه فى غزو قلورية وفي حروبهم البحرية ضد البيزنطيين . وكان يجدى فيها بما بقرب من مائه مجداف (٣) ، وقد وصفها الشاعر الأندلسى أبو عبد الله أبن الحداد فقال:

ذات هدب من المجاديف حاك   هدب بال لدمعه إسعاد
حم فوقها من البيض نار   كل من أرسلت عليه رماد (٤)

٣ - الحرابي أو الحربيات: (جمع حربية): وهى نوع من الشوانى ولكنها أصغر منها حجما، وتمتاز هذه المراكب عن الشوانى بسرعتها وخفة حركتها، وكان هذا النوع من المراكب يصنع فى العصر الفاطمى بمصر فى دار صناعة الروضة (٥)، وكانت من أهم قطع الأسطول الأندلسى (٦). وقد وصفها الشاعر ابن حمد يس بقوله:

يخوضون بحرا كل حين اليهم   ببحر يكون الموج فيه فوارسا
وحربية ترمى بمحرق نقطها   فنغشى سعوط الموت فيها المعاطسا
تراهن فى حمر اللبود وصفوها   كمثل بنات الزنج زفت عرائسا
إذا عثنت فيها التناصر خلتها   تفتح للبركان عنها منافسا (٧)

---

(١) العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقق الأستاذمحمد صبيح القاهرة ١٩٦٥ .
(٢) ابن عذارى، ج ل ص ١٣٧ .
(٣) ابن مماتى، قوانين الدواوين ص ٣٤١ .
(٤) المقرى، نفح الطيب، ج ٥ ص ١٩٨
(٥) المقريزى،و الخطط ج ٢ ص ٣٧٧ ، ج ٣ ص ١١٥
(٦) العذرى، ص ٨١ -الأدريسى،

وقال أبن حمد يس أيضا يصف حربية تقذف النفط على سفن الأعدا ، سنة ٥١٢ هـ :

رأوا حربية ترمي بنفـــط	لأخماد النفوس له أستــعار
كأن المهل في الأنبوب منه	إلى شي الوجوه له ابتــــدار
كأن منافس البركان فيــها	لاهوال الجحيم بها أعتبــــار
نحاس بنيرى منه شــواظـ	لأرواح العلوج به بـــوار (١)

٤ - **الطرائد : (جمع طريدة)** : وهي سفن كانت مخصصة لحمل الخيل، وتتسع الطريدة الواحدة لحمل أربعين فارسا . وكانت (٢) تفتح عادة من الخلف حتى تيسر للخيل أن تصعد إلى ظهرها أو تنزل منها إلى اليابسة. كذلك كانت تستخدم لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح، كما كانت تستخدم لأنتقال الناس (٣).

٥ - **الشلنديات : (جمع شلندي)** ثم خففت إلى صندل) : وهي سفن كبيرة الحجم عظيمة الجرم، شديدة الأتساع، وكانت تستخدم لنقل المؤن والسلع، وكان هذا النوع من السفن معروفا عند البيزنطيين . يتميز الشلندى بأنه مركب مسطح من أعلى ليمكن الغزاة والمقاتلة من مقاتلة أعدائهم من ظهرها، بينما يجدف الجدافون تحتهم، والشلنديات بهذا السطح تشبه المسطحات (٤)، وأعتقد أنها كانت تسمى في الأندلس بالأجفان الغزوية أو الغزوانية. ويقترن (٥) أسم الشلنديات مع الشواني ،المسطحات في مصر

---

(١) ديوان أبن حمد يس، ص ٢٣٩ - سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلاميه القاهره ١٩٦٧ ص ٢٣٣

(٢) ابن مماتي، ص ٣٣٩ - العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٣٤

(٣) أبن واصل، مفرج الكروب، مخطوطة، نسخة مصورة محفوظة بمكتبه جامعه الإسكندريه برقم ٦٤ ص ٤٢٤

(٤) ابن مماتي، ص ٣٤

(٥) ابن عذاري، ج ٤ ص ٣٩٣ الحلل الموشيه، طبعة تونس ١٣٢٩هـ ص ٩٩

الفاطمية، وقد ذكر المقريزى أنها كانت تصنع فى دار الصناعة بالروضة.(١).

٦ - **المسطحات: (جمع مسطح)** : وهى مراكب ضخمة مسطحة كانت تحمل الأسلحة للأسطول، وكانت تعرف فى الأندلس بالمراكب الحمالة (٢) .

٧ - **البطس: (جمع بطسة)** : وهى مراكب كبيرة الحجم كانت تتكون من عدة طوابق، وكانت تزود بعدد كبير من القلوع يصل أحيانا إلى أربعين قلعا(٣) ، وكانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة (٤)، كما كانت تستخدم فى نقل جموع كبيرة من المحاربين (٥)، قد يصل عددهم إلى سبعمائة (٦).

٨ - **المركب المسمي بالغيطاني والمركب المسمي بالعجزي:** هما مركبان عظيما الحجم، صنعا بدار صناعة مصر، كانا يحملان عددا كبيرا من الركاب وأموالا طائلة (٧) .

وقد وصلت الينا أسماء مراكب أخرى عرفت فى المغرب، فى عصر الأغالبة، وعرفها الفاطميون بحكم نشأة دولتهم فى المغرب، وبحكم أنتقال تراث البحرية الأغلبية اليهم.

ومن هذه المراكب النواشي، (٨) والفتاش (٩) كذلك وصلت إلينا أسماء مراكب كانت معروفة فى مصر الأيوبية، ومن المعتقد ان لها تقاليد فاطمة:

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ١٠٨ .

(٢) الادريسى، نزهة المشتاق ص ١٧٩

(٣) عبد المنعم ماجد نظم الفاطميين ص ٢٢٢

(٤) الفتح القسى، ص ٣٤٠ .

(٥) المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٣ - فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٧١ .

(٦) أبن شداد، النوادر السلطانة، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤ ص٤٩ حاشية ١ .

(٧) أبن القطان، قطعة من نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود على مكى، ص٢٣٣ .

(٨) الأدريسى، ص ١١٢ .

(٩) العذرى، ص ٨١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثل الأعزاري (١)، وهو مركب صغير لحمل الأزواد، والمركوش (٢)، وهو مركب صغير لنقل مياه الشرب، وكانت سعته لا تقل عن مائة أردب، وذكر ناصر خسرو أن بعكا في عصر المستنصر بالله كانت تصنع مراكب تسمى جودى (٣) أما المراكب التجارية فمنها الشوانى (جمع شونة)، وكانت تتخذ لحمل الغلال إذ تشتمل على أهراء ومخازن لحفظ الغلال وصهاريج لحفظ مياة الشرب (٤)، ومنها المراكب السفرية الخاصة بنقل الركاب والأنتقال من بلد إلى أخر (٥).

أما السفن النيلية فأهمها العشاريات (جمع عشارى) التى كانت تعرف في العصر المملوكى بالحراقات، وكانت تتخذ اما لنقل السلطانية والأحطاب، أو لنزه الخلفاء كبار القوم، أو لركوب الخلفاء فى أيام تخليق عمود المقياس ،فتح الخليج (٦)، وكان عدد عشاريات الخلفاء يزيد على الخمسين عشاريا.

والعشاريات نوعان:

اللطاف: وهى المراكب الصغيرة ويقال لها السماويات، لأنها مكشوفة للسماء، والخاص للكبار، وكان عددها ست عشاريات هى: الذهبى، والفضى، والأحمر، والأصفر، واللازوردى، والصقلى، وكانت هذه العشاريات تكسى باللمنور الدبيقى الملونة وتعلق بروؤسها وأعناقها الأهلة وقلائد الخرز. وكان لأم الخليفة المستنصر عشارى يعرف بالفضى يزدان رواقه بفضة تصل قيمتها إلى ١٣٠ الف درهم، وكان للخليفة ٣٦ عشاريا برسم

---

(١) ابن مماتى، ص ٣٤٠ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) ناصر خسرو، ص ١٨ .

(٤) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

(٥) الأدريسى، ص ١٩٣ - ابن مماتى، ص ٢٤٧ .

(٦) المقريزى، ج ٢ ص ٣٧٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النزه البحرية. وكان العشارى الذى يركبه الخليفة يوم فتح الخليج يشتمل على بيت مثمن من عاج وأبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامة رجل، وباعلاه قبة من خشب محكم الصناعة، وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب (١). وكان للأفضل شاهشناه عشاريات موكبية يركبها فى انتقالاته عندما كان يمضى إلى الروضة بحرى جزيرة الروضة (٢). وكانت العشاريات الخلافية تعرف أيضا بالدواميس.

ويذكر المقريزى أنه كانت تتمتع بدار صناعة الجزيرة فى زمن أبن طولون العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابك وقوارب الخدمة (٣)،وكلها مراكب نيلية. ويضيف ابن سعيد اليها نوعا يقال له الطيارة (٤).

أما النوع الثالث من السفن، فهو الذى كان فى ينتقل فى البحر الأحمر بسواحل بحر جدة مابين أيلة وعيذاب أو ما ببين عيذاب أو البحر الحبشى وهى سفن كانت تسمى الجلاب أو الجلبات (جمع جلبة). ويذكر ابن جبير أنه لم يمكن"يستعمل فيها مسمار البتة، أنما هى مخيطة بأمراس من. القنبار وهو قشر جوز النار جيل يدرسونه إلى أن يتخبط، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل،فأذا فرغوا من أنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع التقوش وهوأحسنها،... ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر، ولذلك لايصرفون فيه المراكب المسمارى.

---

(١) المقريرى، ح ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٦٥ .

(٤) نفس المصدر، ص ٣٦٧

(٥) أتعاظ الحنفا، ص ١٢١ . ب.

(٦) المقريزى، ج ٣ ص ٨٩

(٧) أبن سعيد، المعرب فى حلى المغرب، ج ١ ص ٨ .

مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل" (١) . ويعلل المسعودى عدم أستخدام المراكب المسمارى فى البحر الأحمر بأن ماء البحر الحبشى لا يثبت فيه الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديدفترق المسامير فى البحر وتضعف، فأتخذت السفن المذكورة من ألواح الساج المثقبة والمحنطة بليف النار جيل بدلا من المسمارية، ثم طلبت بالشحوم والنورة (٢). والظاهر أن السبب فى أتخاذ هذا النوع من المراكب فى البحر الأحمر يرجع إلى كثرة الشعاب المرجانية، ولا يخفى أن الجلاب نوع من السفن شديد المرونة أمام مصادمات الشعاب المرجانية، فضلا عن أستطاعتها الإرساء على الشاطئ فوق الزبد الكثيف وتحمل صدمات الأمواج على السواحل الرملية (٣). هذا بالإضافة إلى ندرة الحديد وغلو ثمنه (٤)، ورسوخ تقاليد وعادات البحريين فى هذا البحر.

---

(١) أبن جبير، ص، ٧٠.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، طبعة محى الدين عبد الحميد، ج١ص١٥٣ .

(٣) فتحى عثمان، ج٢ص ٣٦٥ - سعاد ماهر ص ١٩٦

(٤) جورج فاصلو حوراني، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمة الدكتور يعقوب بكر، ص ٢٥٧ .

وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القتبار المذكور، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل" (١) .
ويعلل المسعودى عدم أستخدام المراكب المسمارى فى البحر الأحمر بأن ماء البحر الحبشى لا يثبت فيه الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديدفترق المسامير فى البحر وتضعف، فأتخذت السفن المذكورة من ألواح الساج المثقبة والمحنطة بليف النار جيل بدلا من المسمارية، ثم طلبت بالشحوم والنورة (٢).
والظاهر أن السبب فى أتخاذ هذا النوع من المراكب فى البحر الأحمر يرجع إلى كثرة الشعاب المرجانية، ولا يخفى أن الجلاب نوع من السفن شديد المرونة أمام مصادمات الشعاب المرجانية، فضلا عن أستطاعتها الإرساء على الشاطئ فوق الزبد الكثيف وتحمل صدمات الأمواج على السواحل الرملية (٣). هذا بالإضافة إلى ندرة الحديد وغلو ثمنه (٤)، ورسوخ تقاليد وعادات البحريين فى هذا البحر.

---

(١) أبى حسير، ص، ٧٠.
(٢) المسعودى، مروج الذهب، طبعة محى الدين عبد الحميد، ج١ص١٥٣ .
(٣) فتحى عثمان، ج٢ص ٣٦٥ - سعاد ماهر ص ١٩٦ .
(٤) جورج فاننلو حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمة الدكتور يعقوب بكر، ص ٢٥٧ .

(٣)
الأسلحة والأت القتال البحري والأزواد

كـان البـحـريـون المقـاتلة يـتـسلحـون بأنواع مـخـتلفـة من الأسلحـة **نذكر منها ما يلي:**

اللتوت والدبابيس والمستوفيات: وهي عمد من الحديد، لها رؤوس مستطيلة الشكل مضرسة، مصنوعة أيضا من الحديد (١)، وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير، ولكن خرزتها تكون في هذه الحالة من الحديد، وتلبس في المقبض، وقد تضرس تدويرة الخرزة او تسنن (٢). أما الدبابيس فلا تختلف عن اللتوت الا في رؤوسها، فهي مدورة مضرسة (٣) وأما المستوفيات فهي عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين، وله مقبض (٤) مستديرة، وتستخدم هذه الأسلحة في تهشيم الخوذات المعدنية.

السيوف والرماح والفؤوس. السيوف انواع، منها الصماصم (٥) المصقولة، ومنها السيوف المحدبة، وكانت السيوف من اهم اسلحة البحريين. أما الرماح فأنواع كثيرة منها الرمـــاح القنا، ومنها القنطاريات المدهونة المذهبة،

---

(١) المقريرى، الحطط، ج ٢ ص ٣١٧ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، ص ٦٥ .

(٢) مرضى بن على الطرطوسي تبصره أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية، بالمشهد الفرنسي بدمشق، ج ١٢ سنة ٤٧ ،١٩٤٨، بيروت، ١٩٤٨ ص١١٧ .

(٣) المقريرى، ج٢ص ٣١٧ .

(٤) نفس المصدر، ص ٣١٧ .

(٥) الصماصم جمع صمصم وصمصامة وهو السيف القطع علو السيف الصارم الذى لا ينثنى (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٧ طبعة بيروت ١٩٥٦ - ص٣٤٧ Dozy Supplement aux dictionnaires arabes t.l. pp.- 8844.

وهى الرمـاح القـصـيـرة ومنهـا المزاريق والفـريجـيـات والضـوارى والصـبـريرات (١) ، وهى الرمـاح الطويلة المخـصـصـة للطعن. أمـا الفـؤس فسلاح له رأس نصف مستدير مبطط حاد النصل، ومقبضه خشبى مستدير وأحيانا يتخذ من الحديد، وتسمى الفاس أحيانا بلطة اوطبر (٢).

الأقواس والنشاب . الأقـواس الآت لقـذف النشـاب ذات النصـول مـثلثـة الأركان، وهى أنواع. منها قسي الزيار المصنوعة من خشب السنديان، وهى أشد القسى رميا وأعظمها جرما وأنكاها سهما ، وتنصب عادة على الأبراج ومـا يشـابهـهـا ، ومنهـا القـوس العـقـار والجرخ، وهمـا دون الزيار فى القـوة ، ويجذب وترهما بلولب، ومنها قسى الرجّل وتوتر بدفع الرجلين لها. وتصنع عـادة من خـشـب التـخش (٣) ، ومنهـا قس لرمى قـوارير النفط، وتصنع من خشب الصنوبر (٤).

الكلاليب والباسليقات. الكلاليب نوع من الخطاطيف الحـديدية كـان يستخدمها البحريون للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدها ، والعبور إليها عن طريق ألواح خشـبـيـة أو سـلالم من الحـبال لمقاتلة مـلاحـيـها (٥). فقد أستعمل أهل صور الكلاليب عندما حاصرهم الأفرنج فى سنة ٥٠٥ هـ، وتفصيل ذلك أنه أشتد حصار الفرنج لصور وألصاقهم الكبش والأبراج.على « أسوارها ، صنع رجل من مقدمى البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس، كلاليب من الحديد لإمساك الكبش الصليبية من جانب رؤوسها ، فكان يربط هذه الكلاليب بحبـال ويقـذفـهـا على الكبش بجـذبهـا ، فـتـمـيـل الابراج

---

(١) مرضى بن على، ص ١١٢، ١١٣.

(٢) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الاسلام، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٩.

(٣) مرضى بن على، ص ١١٠ - المقريزى، ج ٢ ص ٢٦٨.

(٤) نفس المصدر، ص ١١١.

(٥) فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٧٥.

وتنكسر(١) أما الباسليقات فسلاسل تنتهى عند رؤوسها برمانة من الحديد كانت تستخدم فى القتال على سطح السفن (٢).

ومن آلات القتال البحري مما تتزود به السفن الحربية.

التوابيت: (جمع تابوت). وهى صناديق مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصوارى، يصعد إليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضعونها فى مخلاة تعلق الى جانب التابوت، ويرمون بها الأعداء، ثم يحتمون فى التوابيت. وقد يحملون معهم قوارير يرمى النفط أو جرار النورة فى مراكب العدو، فتعمى الرجال بغبارها (٣).

النفط البحري: وهو نفط خاص بإحراق المراكب، ويجهز من قطران وكبريت ومواد أخري مختلطة شديدة الإلتهاب، ولا تنطفىء النيران التى تنشأ من قذف هذا النفط بملامسة الماء (٤)، ويطلق النفط من آلة من النحاس أو الحديد تعرف بالنقاطة. وكثيرا ما قذف النفاطون النفط بالسهام والنشاب وأحيانا بالمنجنيق (٥).

---

(١) أس القلانسى، ص ١٧٩.

(٢) فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٣) فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٧٤.

(٤) مرصى بن على، ص ١٢٣. ويعبر بالبيت الاتى لأبن حمديس الصقلى عن هذا المعنى.

وما للماء بالاطفال حكم عليه لدى الوقود والاستدار

(ديوان أبن حمديس، ص ٢٣٩).

(٥) مرضى بن على، ص ١٢٢ - عثمان، ج ٢ ص ٣٧٢.

المجانيق والعرادات: هي آلات لقذف الأحجار الضخمة المضرسة الى موضع على الكفة ثم تقذف إلى الأهداف بواسطة الشد على القوالب.وقد تستخدم المجانيق والعرادات لقذف النفط أو جرار الزيت المغلى أو القلفونية (١). والعرادات آلة تشبه المجنيق ولكنها دونه فى الحجم، وتستخدم كذلك لرش الحجارة والسهام وقدور النفط (٢).

ويتسلح البحريون عند نشوب القتال فى البحر بالدروع المسهلة والزرديات ذات المغافر الملثمة (٣)، والكزاغندات المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج، والجواشن المبطنة المذهبة (٤). ويقى البحريون أنفسهم من سهام الأعداء وسيوفهم بالتراس الوقية، وهى أنواع من حيث الشكل، فمنها المدور الواسع التدوير والبيض، وكذلك تختلف التراس من حيث مادة الصنع فمنها المصنوع من الحديد أو الخشب المكسو بالجلود المغطاة بالدهن والأصباغ. وقد تكون التراس من جلود اللمط. وتسمى التراس المدورة الطوارق ويصل أرتفاعها إلى إرتفاع قامة الرجل، وهى مستديرة الشكل من أعلى ومدببة من أسفل، وقد تكون هذه التراس مبتورة من أدنى وتسمى فى هذه الحالة بالجنويات (٥).

وفى أيام السلم يلبس النواتية الشقق الإسكندرانى والكلوتات والمناديل والسواسى والفوط الحرير(٦).

---

(١) اس القلانسى، ص ١٨٠.

(٢) فتحى عثمان، ج ٢ ص ٣٧٤.

(٣) المقريزى، ح ٢ ص ٣٢٩

(٤) المقريرى، ج ٢ ص ٢٨٧.

(٥) مرضى س على، ص ١١٤.

(٦) المقريرى، ح ٢ ص ٢٦٠، ٢٨١.

ومن الشائع أن يشحن الأسطول قبل اقلاعه بكل ما يحتاج إليه البحريون والغزاة من الميرة والأزواد، فمن الأهراء السلطانية كانت تخرج جرايات رجال الأسطول وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول (١). كذلك كانت توسق المراكب بأنواع الفواكة والخضروات والبقول لغذاء البحريين، كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمترى والتين والجوز والحمص والباقلا والثوم والبصل والجبن والأسماك وما إلى ذلك (٢). كذلك كانت تخصص لحمل المياة الأزمة للشرب مراكب صغيرة يقال لها المركوش سبق أن بحثنا عنها. وكثيرا ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنو لخدمة الغزاة في البحر كما حدث عندما خرجت أساطيل مصر الثانية فى سنة ٥١٧ هـ لنصرة طغتكين صاحب دمشق (٣).

---

(١) نفس المصدر، ح ٢ ص ٣٤٨.

(٢) أبن حير، ص ٣١٤.

(٣) المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مظاهر الاحتفال بخروج الاسطول المصري للغزو

(أ) الأحتفال بتوزيع النفقة علي الغزاة

كان من أهم الأحتفالات الفاطمية الأحتفال بخروج الأساطيل للغزو إلى بلاد الساحل وكان هذا الأحتفال يتم على مرحلتين: الأولى توزيع النفقة على الغزاة، والثانية المودعة أو توديع الغزاة. ففى المرحلة الأولى كان يطلب الى النقباء استدعاء الغزاة الذين يعيشون بمصر والقاهرة أو يعيشون بخارجها، للتجمع، فإذا ما أجتمعوا أبلغ النقباء مقدم الأسطول، فيبلغ ذلك بدوره إلى الوزير فيقوم الوزير بمطالعة الخليفة بأمر اجتماعهم، وعندئذ يقرر يوما للنفقة على الغزاة. ويجلس الخليفة فى ذلك اليوم، ويجلس الوزير فى موضعه المخصص له، ويأتى صاحب ديوان الجيش: وهما المستوفى أى أمير الجيش، وكاتب الجيش، فيجلس الأول من داخل عتبة المجلس، بينما يجلس كاتب الجيش بالقرب منه من وراء العتبة فى قاعة الدار على حصر مفروشة، ثم يحضر الوزانون بيت المال، وتجهز انطاع لصب الدراهم عليها، ثم يدخل الغزاه مائة مائة ويصطفون بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة، ويتولى مستوفى الجيش استدعائهم من أوراق سجلت فيها أسماؤهم واحد واحدا، فإذا نودى على الواحد منهم، عبر من الجانب الذى كان واقفاً فيه إلى الجانب الآخر الخالى، وعندما يستكمل المستوفى النداء على عشرة منهم، يزن الوزانون لهم النفقة. وهى خمسة دنانير لكل واحد، قيمة كل دينار ٣٦ درهما، فيتسلمها النقيب، ويكتب بأسمه وبتوقيعه، فإذا ما تم توزيع النفقة على هذا النحو، يركب الوزير من بين يدى الخليفة، وبنفس ذلك الجمع، ثم تحمل إلى الوزير من القصر مائدة يقال لها "غداء الوزير"، وتتكرر النفقة بمثل هذا الأحتفال عدة أيام متوالية أو متفرقة (١).

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣٧٧ - ج ٣ ص ١٠٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ب) المودعة

بعد أن تتكامل النفقة على الغزاة، وتتجهز المراكب، وتتهيأ القلاع، يركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة، حيث يجلس الخليفة بمنظرة المقس الواقعة لصق جامع المقس على ساحل النيل من الجهة البحرية، وهى منظرة أقيمت خصيصا لنزول الخليفة عند تجهيز الاسطول لغزو الفرنج (١)، برسم وداع الغزاة أو لقائهم عند عودتهم مظفرين من الغزو(٢) . وعندما يجلس الخليفة فى مجلسه يقبل القواد بالمراكب من صناعة مصر إلى ساحل المقس "للحركات في البحرين بين يديه، وهى مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيفات، فيرمى بها(٣)، وتنحدر المراكب وتقلع، وتفعل سائر ما نفعله عند لقاء العدو، ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدى الخليفة، فيودعهما، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة، ويعطى للمقدم مائة دينار، والرئيس عشرين دينارا، وينحدر الأسطول إلى دمياط، ومن هناك يخرج إلى بحر الملح، فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية (٤)".

وجرت العادة فى العصر الفاطمى أنه اذا غنم الأسطول مركبا من مراكب العدو بما فيه، لا يتعرض الخليفة إلى شيء منه سوى الأسرى والسلاح، فأنها تؤول اليه، وما عدا ذلك من المال والثياب وغيرها يصبح غنيمة لغزاة الأسطول، لا يشاركهم فيها أحد.

ويذكر المقريزى أنه أتفق مرة أن قدم على الأسطول أمير يقال له سيف الملك الجمل. فظفر فى غزوته ببطسة عظيمة كانت تحمل ألفا وخمسمائة من

---

(١) المقريرى ٥ ج ٢ ص ٣٧٢.

(٢) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٠٩.

(٣) كان الرؤساء يلعبون بالسفن فى النيل تجاه الجامع وما وراء الخليج من جهته الغربية، فيقومون بمناوات أشبه بشيء بالقتال الذى يدور بينهم وبين أعدائهم

(٤) المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٣، ج ٣ ص ١١٠.

الرجال والنسـاء، فقتل البحريون المصريون منهم نحوا من مائة وعشرين رجلا أثناء القتال، فقدم هذا الأمير إلى القاهرة وبصحبتة الأسرى، ففرح الخليفة بقدومه، وأحتفل بذلك احتفالا عظيما، ومن المعروف أن الخليفة كان يتوجه يوم عودة الغزاة ومعهم الغنائم والأسرى إلى منظرة المقس، فيجلس هناك للقاء الأسطول، ثم يعود إلى القصر بعد أن ينتهى مراسيم اللقاء، ويجلس فى أحدى مناظر القصر لمشاهدة موكب الأسرى عند مرورهم بأدنى المنظرة من جانب البر، وكان الأسرى يركبون على ظهور الجمال كل أثنين على جمل ظهرا لظهر وجرت العادة أن ينزل الأسرى فى المناخ المجاور للقصر، فيضاف الرجال منهم إلى فيه من الأسرى، أما النساء فكانوا يمضون بهن إلى القصر بعد ان يمنح الوزير طائفة منهن، وتوزع الباقيات على الجهات والأقارب يستمد مونهن ويربونهن حتى يتقن الصنائع. أما صغار الأسرى من الصبية فيدفعون بهم إلى الأستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرمايه ويعرفون لذلك بالترابى (١)، أو صبيان الحجر(٢)، لأنهم كانوا يقيمون فى رعاية الأستاذين فى حجرة تقع داخل باب النصرفى معزل عن القصر، وعندما يكبر هؤلاء الصبيان يصبحون من صبيان خاص الخليفة.

وكان من يشكّوّن فى نواياه من الأسرى يوقعون به، فى حين كانوا يضربون عنق من لا ينتفعون به من شيوخ الأسرى فى موضع يقال له "بئر المنامة" فى خربة قريبة من مصر الفسطاط، ولم يؤثر قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت اسيرا من الفرنج بمال ولا بأسير مثله (٣).

---

١) المقريزى، ح ٢ ص ٣٧٣، ح ٣ ص ١١

٢) القلقشندى ح ٣ ص ٤٧٧

٣) المقريزى ح ٢ ص ٣٧٣ ح ص ١١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى هذا النحو من رسم الأحتمالات بخروج الأساطيل للغزو يذكر المقريزى أنه عندما وردت كتب طغتكين صاحب دمشق واقسنقر صاحب حلب الى الخليفة الآمر بأحكام الله فى سنة ٥١٧ هـ، تحثه على غزو الفرنج بالعساكر المنصورة والأساطيل المظفرة، ركب الخليفة الآمر الى الدار المأمونية واتم النفقة على الفرسان، ثم توجه ألى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة فى أعلاه وأستدعى مقدم الأسطول (١) الثانى، وخلع عليه (٢)، ثم أمره بأن ينزل الصناعتين بمصر والجزيرة، وبعد أربعين شينيا، يستكمل الإنفاق على عددها، ويتوجه بها صحبة العساكر، وأتفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبنه فظلت النفقة فى الفارس والراجل، وفى الأمراء السائرين، وفى الأطباء والمؤذنين، والقراء وندب من الحجاب عدة، وجعل لكل منهم خدمة، فمنهم من يتولى، خزانة الخيام، وسير معه من حاصل الخزائن برسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة خيم، ومنهم حاجب على خزائن السلاح (٣). ثم ركب الخليفة الآمر بأحكام الله إلى باب الفتوح، وأستعرض وهو جالس بالمنظرة المعدة له خارج هذا الباب العسكر المتوجه إلى الشام، وأستقدم قائد الجيش وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة، وطوقه بطوق ذهب، وقلده ومنطقه مثل ذلك ثم ركب الخليفة إلى الجامع بالمقس، وجلس بالمنظرة، وأستدعى مقدم الأسطول، وخلع عليه، وإنحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة والآلات والأسلحة (٤).

---

(١) ذكر المقريزى فى موضع آخر من كتابة المواعظ أن السبب فى احضار مقدم الأساطيل الثانية أن الأساطيل الرئيسية كانت قد توجهت للغزو (المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣٧٦).

(٢) المقريزى، ج ٢ ص ٣٧٣.

(٣) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٣٧٦.

(٤) نفس المصدر، ج ٢ ص ٣٧٣، ٣٧٦

رابعا : البحرية التجارية في العصر الفاطمي

(١)

طرق التجارة البحرية

(١) الطريق البحري

خصصت الدولة الفاطمية فى مصر التجارة البحرية مع اقطار البحرين المتوسط والأحمر والتجارة الهندية بجانب كبير من عنايتها، وكان لذلك أعظم الأثر التقدم فى الإقتصادى والأزدهار الحضارى الذين أحرزتها مصر فى هذا العصر، وهو حقيقة تشهد بها ما كانت تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأمتعة والسلاح والتوابل والأدم وغيرها من خزائن الدولة الفاطمية عما مما نوه به المقريزى فى خططه (١)، والرحالة الفارسي ناصر خُسرو فى رحلته (٢).

ويبدو أن طرق الإتصال البحرى بين مصر والبلاد التى تتعامل معها كان يتم عن طريق خطوط ملاحية تربط مصر بالشام والقسطنطنية وجزيرتى قبرص وأقريطش من جهة، أو تربطها ببلاد المغرب والأندلس وجزيرة صقلية من جهة ثانية، أو بالحجاز واليمن عبر البحر الأحمر من جهة ثالثة. وكانت السفن التجارية تبحر من ثغور تنيس ودمياط والإسكندرية إلى عسقلان وسواحل الشام، أو تقع من الإسكندرية وطرابلس الشام (٣)، إلى صقلية

---

(١) المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٧٦.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٣٧ - ٦٤، زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين القاهرة ، ١٩٣٧

(٣) ذكر ناصر خسرو أن أمير طرابلس العصر الفاطمى كانت له سفن تسافر منها بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة (سفر نامه، ص ٦٣)

والمغرب والأندلس ويبدو أن مدينة الإسكندرية كانت أكثر أتصالا فى البحر بموانى المغرب والأندلس من غيرها من ثغور مصر الشمالية، بحكم موقعها فى الشمال الغربى من ما ذكره ناصر خسرو إذ يقول. "أن بحر الإسكندرية كان يمتد حتى القيروان (١)، وكانت السفن القادمة من المغرب تسير بحذاء الساحل المغربى والليبى، وترسو بشغور تونس وبرقة إلى أن تصل إلى الإسكندرية، ثم تبحر منها إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس، ثم سواحل الشام كعسقلان وقيسارية ويافا وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية.(٢) أما ثغرا دمياط وتنيس فتجد كانا يرتبطان فيما يظهر أرتباطا وثيقا بثغور الشام، بحكم قربهما منها.

وكانت السلع القادمة من المغرب والأندلس وصقلية وأوربا عبر البحر المتوسط، تصل إلى ميناء الإسكندرية، ومنه تنقل إلى الفسطاط عبر خليج الإسكندرية المتفرع من فرع رشيد. أشتغل النيل الذى سهل الأتصال بين موانى مصر الشمالية وبين مدن الصعيد حتى أسوان. اما بالنسبة لتجارة التوابل، فقد كانت تسلك طريقين. طريقا برية، وطريقا بحرية. أما الطريق البرية فكانت تمتد ما بين البصرة وسواحل الشام عبر بغداد ودمشق وأما الطريق البحرية فكانت تمتذ ما بين إيلة والإسكندرية عبر الفسطاط. غير أن تجارة التوابل لم تلبث ان تحولت إلى الطريق البحرية عبر البحر الأحمر (عيذاب - الإسكندرية) منذ أن قلب فتح بيزنطة لكل من اقريطيش وقبرص الأوضاع البحرية فى شرق البحر المتوسط فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، وأزداد ذلك الإنقلاب بعد أن تمركز الصليبيون على سواحل الشام فى نهاية القرن الخامس الهجرى، بحيث أصبح الأتصال بين الموانى المصرية وعسقلان أخر منفذ شامى تابع للفاطميين (حتى سنة ٥٤٨

---

(١) نفس المصدر، ص ٤٤.

(٢) البكرى، ص ٨٥، ٨٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هـ) محفوفا بالأخطار، بسبب تعرضه للقرصنة الصليبية (١). وأصبحت الإسكندرية منذ ذلك الحين أهم قاعدة فى مصر لتجارة التوابل بالنسبة لدول أوروبا (٢)، وكانت السلع الواردة عليها سواء من المغرب الإسلامى أو من الأندلس أو من المدن الايطالية، تصل إلى مينائها، ثم تحمل على ظهور الأبل، وتخرج من الباب القبلى المعروف بباب السدرة أو البهار ثم تنقل بالسفن فى خليج الإسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط، بينما كانت أحمال التوابل من البهار والفلفل والقرفة وغيرها تصل عبر البحر الأحمر إلى عيذاب، ثم تنقل فى القوافل والبهار والفلفل والقرفة وغيرها تصل عبر البحر الأحمر إلى عيذاب، ثم تنقل فى القوافل البرية إلى قوص أو أسوان، ومن هناك تحمل فى النيل على سفن الشحن النيلية لينتهى بها المطاف فى خزانة التوابل بالقاهرة، وكان يصدر منها الى الإسكندرية الكميات المراد تصديرها إلى أوربا عن طريق خليج الإسكندرية، ولعل دلك كان من الأسباب التى حملت الخليفة الحاكم بأمر الله على تطهير ترعة الخليج من الرواسب الطينية فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م)، فقد ذكر المقريزى أن الخليفة أطلق فى هذه السنة لحفر الخليج مبلغا قدرة خمسة آلاف دينار، أنفقها كلها فى حفر الخليج كله.(٣) ولم يعد يلبث هذا الخليج أن طمرته الرواسب الطينية من جديد فى عهد المستنصر بالله، ولم يعد صالحا إلا فى زمن الفيضان. وقد ظل هذا الخليج وسيلة الإتصال النهرى بين الإسكندرية والقاهرة فى العصور الإسلامية التالية إلا فى الأوقات التى ينظم فيها هذا الخليج بالرمال

---

(١) راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة، ١٩٤٨ ص ٢٤٢.

(٢) حسين مؤنس، اثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية فى البحر الأبيض المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول مايو ١٩٥١، ص ٥١.

(٣) المقريزى، الخطط، ج ١ ص ٣٠٠

أو الرواسب الطينية، ولذلك حرص سلاطين المماليك البحرية بوجه خاص على تطهيره وإعاده حفره (١). ويذكر أبن مماتى أن المراكب كانت تسير بخليج الإسكندرية وتحمل اليها الشب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك من الإصناف، كما تحمل من الإسكندرية الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب وذلك فى شهر مسرى الموافق لشهر آب (اغسطس) حيث ترتفع مياه النيل، ويمتلى خليج الإسكندرية بالماء (٢). ويشير أبن سعيد المغربى الى انه عندما وصل إلى الإسكندرية قادما من أفريقية، ركب فى الخليج إلى النيل ثم سار فى النيل حتى وصل إلى منية السيرج التى تقع فى شمال القاهرة (٣)، كذلك يشير فى موضع آخر إلى ما كان يرد فى زمانه على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى (٤).

وكانت توابل الهند قبل العصر الفاطمى تصل إلى الإسكندرية عن طريق إيلة او القلزم - الفرما (٥)، فقد كانت السفن التى تتولى نقل التوابل من جزز الهند الشرقية إلى مصر تضطر بسبب الشعب المرجانية إلى أن تسير نهارا، ملتزمة السير بحذاء الساحل حتى لا تتعرض للغرق، ثم أصبحت عيذاب منذ العصر الفاطمى المركز الرئسى لتجارة الهند واليمن والحبشة.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها، ص ٢٨٢، ٢٩٢ وما يليها

(٢) ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٢٥٧.

(٣) ابن سعيد، المغرب حلى المغرب، ج ١ ص ٥.

(٤) نفس المصدر، ص ١١.

(٥) يذكر المسعودى أن المسافة ما بين الفرما إلى القلزم مسيرة ليلة، يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة ببحر الروم (البحر المتوسط) وبحر الصين (المحيط الهندى) من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاوية والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المأكل والمشاربْ والملابس، فجميع البلدان تحمل اليها وتفرغ فيها. (المسعودى، التنبية والإشراف، مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥ ص ٢٠)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويذكرالمقريزى أن "أحمال البهار والقرفة ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها (أى بصحراء عيذاب) والقفول صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها، فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم وأيابهم زيادة على مائتى سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائه إلى أعوام بضع وستين وستمائه، وذلك منذ كانت الشدة العظمى فى ايام الخليفة المستنصر بالله ابى تميم معد بن الظاهر، وإنقطاع الحج فى البر إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البند قدارى الكعبة، وعمل لها مفتاحا ثم أخرج قافلة الحاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة، فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء، أستمرت بضائع التجار تعمل من عيذاب إلى قوص، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائه. غير أن القلقشندى يخالف المقريزى فى تاريخ أبطال طريق عيذاب - قوص، فيذكر أن ذلك حدث فى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) عندما عاد السفر فى إلبحر الأحمر من الطور إلى اليمن، وأبطل بعيذاب. وكانت التوابل تنقل على هذا النحو من عيذاب إلى قوص حيث تحمل فى السفن النيلية إلى أن تصل إلى ساحل الفسطاط، فتنقل إلى خزانة التوابل الفاطمية أو فندت الكارم.

ويبدو أن مراكب الكارم كانت تتعرض فيما بين عيذاب وسواكن لسطو

---

(١) المقريزى، الخطط، ح ١ ص ٣٥٦.

(٢) ذكر ابن حسير نفس المعنى فقال. "ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقى بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذه السبيل أما لأعياء الأبل الحاملة لها او غير ذلك من الأعزار. وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الافات على كثرة المار عليها من أطوار الناس"

(أبن حبير، الرحلة،ص ٦٧، ٦٨)

(٣) المقريزى، ح ٣ ص ٣٥٧.

(٤) القلقشندى، ح ٣ ص ٤٦٥.

(٥) نفس المصدر، ج ٣ ص ٤٦٤.

القراصنة واللصوص، ولذلك أهتم الفاطميون بتخصيص أسطول يرابط في عيذاب، تمهمته "ان يتلقى الى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بحزائر بحر القلزم وهناك يتعرضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم وكانت عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ثم صارت إلى ثلاث. وكان والي قوص هو المتولي لأمر هذا لأسطول، وربما تولاه أمير الباب (١). ومن أمثلة حوادث القرصنة في بحر القلزم ما رواه المقريزى في أتعاظ الحنفا ،إذ يشير في احداث سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) إلى أن التجار القادمين إلى القاهرة من عيذب شكوا الى الوزير الأفضل شاهنشاه من خروج قاسم بن هاشم صاحب مكة عليهم في مراكب، فقطعت عليهم الطريق، "وأخذ جميع ما كان معهم، فغضب الأفضل وقال. صاحب مكة أخذ تجارا من بلادى أنا أسير إليه... بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة (٢). ثم كتب إلى اشراف مكة يعلمهم بما فعله أميرها وأقسم لهم مهددا بمنع التجار والحجاج من قصد مكة حتى يقوم أمير مكة برد ما نهبه من اموال التجار المصريين. ثم كتب إلى والى قوص وامره بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه إلى عيذاب ويمنع أى تاجر مصرى من ركوب الجلاب القادمة من مكة، وأن يفحص الشوانى والحراريق الموجودة بالساحل بعيذاب ويصلح ما يحتاج منها إلى مرمة أو أصلاح، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية ثم أمر المستخدمين بصناعة مصر ان يقدموا خمسة حراريق لتسير إلى الحجاز. فلما تلقى قلة رسالة الأفضل وشهدوا مقاطعة التجار المصريين لأسواق الحجاز عظم عليهم الأمر، وبادروا بأرسال رسول إلى الأفضل، أستقبله المسؤولون في القاهرة أستقبالاً فاتراً، ورأى الرسول الجد والأهتمام بأمر الأساطيل، وتجهيز العساكر إلى أمير مكة،

---

(١) القلقشندى، ج ٣ ص ٥٢٠

(٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المحطوطة) ص ١١٨ أ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالتزم بأحضار جميع أموال التجار، وسأل التوقف عن ذلك حتى يعود بالبضائع والأموال، فأجيب إلى ذلك. ثم عاد الرسول إلى القاهرة ويصحبته جميع ما أخذه أمير مكة من التجار من البضائع والأموال.(١)

وكانت الرحلات التجارية فى البحر المتوسط إلى صقلية والمغرب والأندلس تتم فى مواسم معينة، فكانت السفن التجارية تبحر سواء من طرابلس الشام أو دمياط أو الإسكندرية إلى هذه البلاد فى قوافل، تحرسها فى العادة سفينة حربية او أكثر لمواجهة القراصنة الذين يعترضون هذه السفن فى البحر، ومنعهم من الإعتداء عليها. وكانت الرحلات أما سنوية أو نصف سنوية، (٢) بمعنى أن السفن لا ترحل إلى هذه الأقطار إلا مرة فى كل سنة أو فى كل ستة أشهر، ويبدو أن نظام هذه الرحلات كأن له أتصال كبير بمواسم هروب الرياح أو بمواعيد الأنواء، فقد ذكر أبن جبير أن "الريح الشرقية لا تهب فيهما (أى فى جهات الساحل الجنوبى الشرقى من البحر المتوسط) إلا فى فصلى الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا هذين الفصلين، والسفر فى الفصل الربيعى من نصف إبريل، وفيه تتحرك" الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايو وأكثر بحسب ما يقضى الله تعالى به. والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية، وأنما هى عندهم خلسة من الزمان، قد تكون خمسة عشر يوما وأكثر وأقل وما سوى ذلك من الزمان، فالرياح فيه تختلف والريح الغربية أكثرها دواما، فالمسافرون إلى المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين إنتظاره وعد صادق. (٣)

---

(١) اتعاظ الحنفا، ص١١٨ أ.

(٢) را شد البراوى، ص٢٦٦

(٣) ابن جبير، ص ٣١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ب) الطريق النهري

يعتبر النيل الشريان الحيوى للتجارة الداخلية والخارجية فى مصر، إذ يربط بين مختلف مدنها وقراها، ففيه تسير المراكب الصغيرة والكبيرة حاملة المنتجات الزراعية من أقصى الصعيد إلى أسفل الأرض مارة بالفسطاط وساحل المقس، وفى الفسطاط تصل الحاصلات المراد تصديرها إلى الإسكندرية عن طريق خليج الإسكندرية المتفرع من فرع رشيد قبالة فوة (١) أو إلى تسير عن طريق خليج يخرج من فرع دمياط ويصب فى بحيرة المنزلة (٢) وفى النيل كانت تسير المراكب الحاملة للغلات السلطانية والإحطاب وغيرها" (٣) والعشاريات التى عرفت فى العصر المملوكى بالحراقات. وقد وصف كاتب مصرى فى القرن الثامن الهجرى (فى سنة ٧٦٣ هـ) الملاحة فى النيل فى رسالة كتبها إلى أخيه بمصز قال فيها: "ولا تنسى الجوارى المنشأت فى البحر كالأعلام، التى تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام، وأعجابها بغربانها البحرية وحراقاتها الحربية، وشوانيها، وهول مبانيها، وجلال شكلها وجمال مغانيها. تبدو موشاة بالنضار الاحمر، منقشة باللون الأفخر فهى كالأرقم المنمر، أو كمتلون الثمر أو الطاوس الذكر، أو الناووس لبنى الأصفر، معمرة ببأس الحديد والأحجار، ومحمولة على سيح الماء التيار، مشحونة بالرجال، منصورة عند القتال، مصونة بالمجن والنبال تبرز

---

(١) أس مماتى، ص٢٢١ - القلقشندى، ح٣ص ٣٠١ - المقريزى الخطط ج١ص. ١٢٦

(٢) راشد البراوى، ص ٢٨٢.

(٣) مثل ذلك التسب الرى كان يستحرح من صحراء صعيد مصر والواحات، فيحمل إلى ساحل قوص وأخيم والبهنسا إلى الإسكندرية، وكان الشب من بين السع التى تحتكرها الدولة العاطمية ولا يتصرف فى شىء منها سوى الديوان (ابن مماتى، ص٣٢٨) كذلك النطرون المستحرج من الفاقوسية والطرانة من بين منتجات مصر التى تحتكرها الدولة (نفس المصدر) ص٢٣٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدكرة بالآية النوحية، وتضمن أحراز الهمة العلية الفتحية، حصون أمنع من أعز قلاع، نظير إذا فتح لها جناح القلاع، فتسبق وفد الريح عند الإسراع، وتفوق سرعة السحاب عند الإتساع، فهن مع العقبان فى النيق حوم، وهن مع البنيان فى البحر حوم، لو أقسم من رآها، ولو قال مشاهد معناها، أن الله نفخ فيها الروح فأحياها، لبّر في يمينه التي أقسم وترها، وكم من مركب لحسنة معجب، وكم من سفن قوى أمين، وحضارى جليل، وعشارى طويل، ومسمارى طويل جميل، وتسترلوى عكاوى، وككة، (١) ودرمونة، ومعدية مكينة، وسلور دقيق، وشختور رشيق، وقرقور رقيق، وزورق ذى زوارين، وطريدة بخيل الطراد معمورة، وهماء بحمل الجياد والأجناد مشهورة . . . . . (٢).

وكان النيل بالإضافة إلى أتخاذه طريقا ملاحيا فى داخل البلاد، يتخذه الناس فى العصر الفاطمى وماتلاه للنزه والفرجة، فكان الناس يركبون العشاريات والقوارب لمتعة النظر إلى الماء والخضرة، من ذلك ما انشده الأمير تميم أبن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى:

يوم لنا بالنيل مختصر ... ولكل يوم لذاذه قصر

والسفن تجرى كالخيول بنا ... صوراً، وجيس الماء منحدر

وفيه انشد الكاتب الكبير أبن فضل الله العمرى:

والنيل فى تياره المنـ ... ـصب مهتز الصفاح

وبه السفائن كالجبـ ... ـال تخول أمثال القداح

---

(١) ورد اللفظ فى هذا النص (لكه). وهو تحريف لكلمة (ككة)، نوع من مراكب الصعيد كبير. راجع فى صحة الاسم: (القلقشندى، صبح الاعشى، ج ٩، ص ٢٣٥).

(٢) المقريزى، الخطط، ج ٢ص ١٩٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فركبت فن صهواتـــــها		دهماء ساكنة الجمـــــاح
حراقة تجرى على اســـ		ـم الله الماء القـــــــراح

ويبدو أن أهل الخدعة والفساد، وذوى البطالة كانوا يركبون فى خليج مصر ويصطحبون معهم النساء الماجنات وبأيديهن المزاهر يضربن بها و كانوا كثير منهم يتظاهرون بالمنكرات كأحتساء الخمر، ولذلك أمر الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠١ هـ بمنع الناس من الركوب فى القوراب فى الخليج الى القاهرة، وشدد فى المنع، وأمر بسد ابواب القاهرة التى يتطرق منها إلى الخليج.

(٢)
مراكز التجارة الداخلية في مصر والشام

كان من الطبيعى أن تعتمد المدن الصناعة المصرية والشامية التى يعوزها الأنتاج الزراعى على التجارة، باعتبارها الحرفة الرئيسية لسكانها، وكانت تجارة مصر والشام الداخلية تتركز فى عدد من المدن أهمها الفسطاط التى ذكر المقدسى أنها "مصر، وناسخ بغداد، ومفخرة الإسلام، ومتجر الأنام، وأجل من مدينة السلام، خزانة المغرب، ومطرح المشرق، وعامر الموسم، ليس فى الأمصال آهل منه، كثير الآجلة) والمشايخ، عجيب المتاجر والخصائص، وحسن الأسواق والمعايش، إلى حماماته المنتهى، ولقيا سيره لباقة ودهاء، ولبس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعة، ولا أحسن تحملا من أهله، ولا أثر مراتب من ساحله . . . ." ويلى الفسطاط فى الأهمية كقاعدة تجارية فى مصر مدينة الإسكندرية وتنيس ودمياط وعيذاب والقلزم فى مصر، وطرابلس وصيدا وصور وبعض المدن الداخلية فى الشام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفسطاط

كانت الفساط مستودعا للتجارة الداخلية ومركزا رئيسيا للتجارة الخارجية، لوقوعها على النيل فى موضع متوسط بين الوجهين البحرى والقبلى، ولإتصالها بثغور مصر الشمالية ومدن الصعيد الجنوبية عن طريق النيل، ولأتصالها عمرانيا بالقاهرة مقر الخلفاء الفاطميين، ولقيام الصناعة فى الفسطاط وتعدد مرافقها "ويعبر المقريزى عن أهمية الفسطاط من الناحية الإقتصادية، وأثر ذلك فى رخص أسعارها عن أسعار القاهرة، فيقول: "والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط، فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس ينافس ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة". ويفسر ذلك الأعداد الهائلة من السفن التجارية التى كانت ترسوا بساحل الفسطاط حاملة المتاجر إليها من مختلف موانى مصر من شمال النيل ومن جنوبه. وقد ذهل المقدسى عندما لاحظ هذه الظاهرة، فعبر عن دهشته كثرة المراكب بقوله: "وكنت يوما أمضى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة فقال لى رجل منهم: من أين أنت؟ : قلت: من بيت المقدس. قال: بلد كبير، أعلمت يا سيد أعزك بالله أن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان ههنا مدينة". وفى موضع آخر يقول:" يجئ ابدا اليه (أى إلى الفسطاط) ثمرات الشام والمغرب، وتسير الرفاق اليه من العراق والمشرق، ويقطع إليه مراكب الجزيرة والروم". أما أبن سعيد، فعلى الرغم من تعبيره عن سخطه بسبب قذارة ساحل الفسطاط، وضيق ساحتة، وتكدر تربتة، يعترف بأنه "كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من أقطار النيل، ولئن قلت أنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فانى أقول حقا". ويقول فى موضع آخر :" وأما مايرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى

والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف، مجمع ذلك لا القاهرة، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد" وعندما ترسو المراكب الواصلة اليها بأصناف الغلات سواء بساحلها أو بساحل المقس، يقوم الحمالون بحمل ذلك الى الاهراء السلطانية التى يقوم فى عدة أماكن بالقاهرة، وكانت تحتوى على ٣٠٠ ألف أردب من الغلات أو أكثر من ذلك، ولها الحماة من الأمراء والمشارفون من العدول. ويذكر المقريزى أن ساحل المقس كان به ميدان الغلة، اذا كان موضعا للغلال فى العصر الفاطمى، وكانت المراكب تقف من جامع المقس إلى منية السيرج أولاً، ويصبح عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة (وغيرها ما يستر الساحل كله).

ولم يتضعضع مركز الفسطاط التجارى كثيرا بعد الشدة العظمى مع ماعانته بسبب الصراع بين طوائف الجند فى زمن الخليفة المستنصر بالله، وتعدد المكوس التى فرضتها الدولة الفاطمية على عمليات البيع والشراء إلى حد يشكو منها المقدسى، ويعبر عن ذلك بقوله:" وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط ساحل النيل".

الإسكندرية

تألقت الإسكندرية فى العصر الفاطمى وإستعادت أزدهارها القديم، وأصبحت بحق الثغر التجارى الأول الذى تمد اليه السفن التجارية محملة بسلع الشرق والمغرب، وكانت محطا رئيسياً للسفن التجارية القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر. ومنها توسق السفن الحاملة منتجات مصر كالشب والنطرون والمنسوجات الدبيقية والتونسية والإسكندرانية بالإضافة إلى التوابل التى تصل إليها من الفسطاط. وكان يجلب من الإسكندرية الفواكه بالسفن إلى الفسطاط، كما كان يجلب منها النسيج السكندرى المشهور والتحف الزجاجية التى أشتهرت بصناعتها فى العصر الفاطمى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنيس

كانت تنيس مركزا تجاريا هاما، لكونها أهم مناطق صناعة النسيج فى مصر، فقد عرفت بصناعة" رفيع الثياب من الدبيقى والشروب والمصبغات من الحلل التنيسية التى ليس فى جمع الارض ما يدانيها فى الحسن والقيمة، وربما بلغ الثوب من ثيابها إذا كان مدهبا الف دينار ونحو ذلك، ومالم يكن فيه ذهب المائة أو المائتين ونحوه". وذكر المقريزى أنها مدينة كبيرة أهلها مياسير وأكثرهم حاكه، وبها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا، وكان يصنع فيها الخليفة الفاطمى ثوب يقال له البدنة "لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتن، وينسخ باقية بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار، وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو بغير ذهب مائه دينار عينا، وكان التجار يركبون السفن من تنيس إلى الفرما.

قوص

تعتبر قوص أهم مركز تجارى نهرى فى مصر لوقوعها عند نهاية طريق القوافل الممتد ما بين عيذاب و النيل، ولكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة، لأنها كما يقول أبن جبير" مخطر للجميع، ومحط للرجال، ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة ،والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم، ومنها يجوزون من صحراء عيذاب."

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دمياط

كانت دمياط مركزا رئيسيا فى مصر لصناعة النسيج وقد ساعد على رواج هذه الصناعة وفرة الكتان بمنطقتها ومنطقة شرق الدلتا، وأصبحت المدن الصغيرة المحيطة بها مثل شطا ودبيق وتونة وبورة ودميرة تختص بأنتاج نوع من المنتجات ينسب إليها، وأكتسبت هذه المنسوجات شهرة عالمية، ففى شطا كانت الثياب الشتوية فيها كانت تنتج القباطى التى تتخد كسوة للكعبة، وفى دبيق تتمج الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة، والدبيقى المذهب، والعمائم الشرب المذهبة، وهى عمائم تحمل رقوما منسوجة بالذهب، يبلغ ثمن العمامة منها ٥٠٠ دينار سوق الحرير والغزل، وقد أستحدثت هذه العمائم وغيرها فى زمن العزيز بالله سنة ٣٦٥هـ. وفى تونة يعمل طراز تنيس، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا.

القلزم

كانت القلزم فرضة بمصر والشام، فمنها كانت تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن، كانت القلزم قبل العصر الفاطمى على أتصال بالفرما فقد ذكر ابن خرداذبة أن "الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية وإنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسنيوف، ويركبون من فتحة فى البحر الغربى، "فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، وبينهما خمسة وعشرون فرسخا يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند ومن الصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعون

إلى القلزم، "وقد أضمحل شأن القلزم منذ أن تحولت التجارة إلى عيذاب ولذلك أعفى الحاكم بأمر الله أهل إلقلزم مما كان يؤخذ منهم من مكوس المراكب، تشجيعا للتجار على قصدها.

وأمتازت بعض مدن مصر بنشاط كبر لوقوعها وسط مناطق زراعية وصناعة هامة، أو لوقوعها على طريق المتاجر المنقولة فى النيل الى الثغور الشمالية لمصر أو إلى الفسطاط، ومن أمثال هذه المدن فوه التى تقع على الطريق المائى الهام بين ساحل البحر المتوسط والفسطاط، قريبا من مخرج خليج الإسكندرية، ومنفلوط الواقعة على النيل والتى يصعد إليها التجار فى المراكب النيلية لإستجلاب قمحها إلى الفسطاط والقاهرة، وكان معروفا بطبيعة ورزانة حباته.

طرابلس

كان لنشأة طرابلس فى السهل الواقع على مصب نهر أبى على أثر كبير فى أشتغال طائفة من سكانها بالزراعة وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة بها، وتعرف أحيانا بالموج، وأنما كانت تمتد على ضفتى نهر أبى على وعلى سفح الجبال القريبة منها. وقد أشتهرت طرابلس فى العصر الفاطمى بزراعة قصب السكر، والنخيل، والفواكة أمثال النارنج والترنج والموز والليمون، وكان يحمل من طرابلس إلى مصر فى زمن الحاكم بأمر الله الفواكه اليابسة والرطبة. ويصف الأدريسى محاصيلها الزراعية فى عصره بقوله:" ولها رساتق وأكوار وضياع جليلة، وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشئ الكثير"، وقد ترتب على ثروة طرابلس الزراعية قيام عدة صناعات أختصت بها طرابلس فى العصر الفاطمى، ومن الزيتون كان يستخرج الزيت فى المعاصر، ومن

الزيتون صنع الصابون الذى أختصت طرابلس بصناعته، ومن قصب السكر

كان يصنع الطرابلسي الذى ذاعت شهرته العصور الوسطى وإلى جانب هذه الصناعات فاقت طرابلس غيرها من مدن الشام فى صناعة الورق، وصناعة المنسوجات الحريرية.

وكان من الطبيعى أن تصبح طرابلس فى العصر الفاطمى مركزا هاما للتجارة فى الشام لعاملين: الأول ميناؤها الواسع الذى يمكن أن يتسع لعدد كبير من السفن، والثانى قيام حرفتى الزراعة والصناعة بها وبأعمالها مما يترتب عليه ضرورة تصريف منتجاتها الى الخارج، ولقد ظهرت طرابلس منذ أن خضعت لمصر الفاطمية كمدينة تجارية من الطراز الأول وهو أمر تؤيده أقوال الرحالة والمؤرخين العرب: كناصر خسرو ويشيد بذكر أسواقها وخاناتها، ويمتدح صناعة الورق فيها، ويعظم ثروتها الزراعية كما أنه يشير إلى أتخاذها قاعدة تجارية فى البحر المتوسط المتوسط إليها السفن من مختلف الأقطار للتجارة + والأدريسى يؤكد أنها" مدينة عظيمة، والوارد والصادر اليها كثير"، كما يذكر أنها" معقل من معاقل الشام مقصود إليها بالامتعة وضروب الاحمال وصنوف التجارات". وكانت السفن التجارية الإسلامية والفرنجية منذ العصر الفاطمى تصل مابين مصر والشام عن طريق ميناء طرابلس، فقد أمر العزيز بالله بإرسال الميرة من غلات مصر لنجدة منجوتكن، فوصلت إلى طرابلس، ومنها على ظهور الأبل الى أفامية. وعندما حاصرها الصليبيون برا وبحرا وقلت بها الأقوات وصلت اليها السفن الفاطمية من مصر تحمل الغلة والميرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صور وصيدا وبيروت

ذاعت شهرة صور وصيدا منذ أقدم العصور فى صناعة الزجاج والخزف، وظلت صور تحتفظ فى العصر الإسلامى بهذه الشهرة، فكان يعمل بها الزجاج المحكم والفخار، وذكر المقدسى أن صور كانت تصدر السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات. أما صيدا فكانت أكثر أهمية فى مجال التجارة البحرية من صور، وعلى الرغم من قصر فترة الإستقرار التى نعمت بها صيدا فى العصر الفاطمى بسبب تصارع القوى الإسلامية المختلفة، وتنازع الولاة على السلطان، فانها بلغت ذروة إزدهارها فى هذا العصر. ونستدل من وصف ناصر خسرو لصيدا فى سنة ٤٣٨ هـ على أنها كانت تعتمد فى ثروتها الآقتصاديه على قصب السكر والفاكهة، كما تستدل أيضا من وصفه لسوق صيدا وبهائة وحسن منظره على أزدهار التجارة الصيداوية وهو أمر طبيعى بأعتبارها ثغرا بحريا يرتبط أرتباطا وثيقا بموانئ الشام الآخرى وموانى مصر. ويشير أبن العديم الحلبى إلى أن السفن المصرية كانت تخرج من تنيس ومن الإسكندرية الى طرابلس الشام وصور. أما بيروت فكانت فى العصر الفاطمى الأول مركزا هاما للتجارة، وكانت تجارات البحر علبها واردة وصادرة.

المدن الداخلية في الشام

تقتصر هنا على ذكر ثلاث من هذه المدن كانت مراكز تجارية هامة بين الجوف السورى والسواحل، هى بيروت ودمشق وحلب.

أما بعلبك فتقع على حافة سهل مرتفع فسيح من جهته الشمالية بين سلسلتى جبال لبنان الشرقية والغربية، يعرف بسهل البقاع أخصب سهول الشام ، على مسافة تبعد عن دمشق بنحو ٣١ ميلا، ويبلغ إرتفاع هذا السهل البعلبكى نحو ١١٥٠ مترا فوق مستوى سطح البحر. وتعتمد بساتين المدينة ومزارعها التى تلتف حولها

على نبع غزير المياة يسمى رأس العين. وكانت بعلبك أهم مدن البقاع من الناحية الإقتصادية بحكم وقوعها على الطريق التجارى بين صور والشرق، وكانت لهذا السبب محطا للقوافل التجارية بين البلاد الشرقية والسواحل. وقد إزدهرت بعلبك فى العصر الفاطمى، فكانت على حد قول ابن حوقل "مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة، يمنة الخصب والرخص، وهى قرية قريبة من مدينة بيروت على ساحل بحر الروم، وهى فرضتها وساحلها "وذكر المقدسى أن بها المزارع والأعناب، كما ذكر من تجارتها الملابن (جمع ملبن) ، وظلت بعلبك تحتفظ بشهرتها فى أنتاج الكروم والأعناب حتى عصر المماليك. ويشير القزوينى إلى أن الميرة كانت تنتقل من بعلبك إلى جميع بلاد الشام ويلخص بأقوات خبراتها ومنتجاتها بقوله:"وبعلبك دبس، وجبن وزيت ولبن ليس فى الدنيا مثلها، بضرب فيها المثل". وإلى جانب.مدينة بعلبك فى الداخل كانت مدينتا دمشق وحلب تشغلان من حيث التجارة الداخلية مركزا ممتازا، أما دمشق، مصر الشام، فتقع على إرتفاع يصل إلى ٦٩٠ مترا فوق مستوى سطح البحر، عند السفوح الشرقية لسلسلة جبال لبنان، وفى بداية السهول الفسيحة الممتدة إلى الشرق والشمال الشرقى حتى الفرات، وإلى الجنوب حتى قلب جزيرة العرب، وحظيت دمشق ذلك السبب ولقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر، بمركز إقتصادى هام لقيامه بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب، وكانت بالإضافة إلى ذلك سوف لمنطقة زراعية ومركزا صناعيا هاما، وأهم ما أختصت به دمشق صناعة المنسوجات الحريرية والديباج الغربى الذى نسب إليها، وصناعة الأوانى الزجاجية المنزلة بالمينا وصناعة الورق، هذا إلى صناعة معدنية كالحلى والأسلحة وصناعة الأثاث.

أما حلب فتقع في مفترق الطرق التجارية الكبرى في شمال الشام، وعلى حدود البادية وقد أزدهرت في العصر الفاطمي، وكانت على حق قول الحسن بن أحمد المهلبي في كتاب المسالك والممالك الذي وضعه الخليفة الفاطمي العزيز بالله، مدينة جليلة، عامرة آهلة، حسنة المنازل، وبها من الكور والضياع ما بجمع سائر الغلات النفسية، وكان أقليمها الممتد ما بين معرة مصرين إلى جبل السماق غنيا بالتين والزبيب والفستق والحبة الخضراء، وتحمل إلى مصر والعراق وتجهز إلى كل بلد.

ويذكر القزويني أنه كان يزرع في أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخان والكروم والمشمش والتفاح والتين، وفي موضع آخر يقول: "ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا أجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى من الطرائف العجبة والآلات اللطيفة، تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا. ويشير الأصطخري إلى أن بالتنات وهو حصن يقع قريباً من حلب على ساحل البحر "مجمع لخشب الصنوبر، الذي ينقل إلى الشامات والى مصر والثغور".

وكانت حلب تحصل المكوس عما يمر من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق وإليها كان يفد التجار من جميع الأقطار المذكورة للتجارة، فكانت على هذا النحو باب المشرق والمغرب، ولهذا كثرت بها السلع الشرقية والرومية وغيرها، فأبن الشحنة يذكر أن من خصائصها "نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وانواع الفراء من السمور والوشق والفنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر، والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الأجناس، فأنه قد يتفق أنه يباع فيها في يوم واحد مالا يباع في غيرها في شهر كل ذلك بأطيب ثمن وأرغبه، مثلا إذا أحضر الى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لأتباع في شهر، وعلى هذا فقس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)
التجارة البحرية الخارجية

(أ) مع المدن الإيطالية والدولة البيزنطية

أقترن قيام الدولة الفاطمية في مصر بقيام حكومات مركزية فى أوربا سعت إلى أقرار الأوضاع الإقتصادية فيها عن طريق أستئناف التبادل التجارى مع دول قارتى أفريقيا وآسيا، ويعبر عن هذا الأتجاة الجديد الزيادة المحسوسة فى عدد الحجاج الأوروبيين الوافدين إلى بيت المقدس، ولا تخفى أثر هذة الرحلات عبر الشام ومصر فى زيادة معرفة العالم الأوربى بإقتصاديات الشرق الأدنى الإسلامى ، ولعل ذلك يفسر إلى حد كبير العامل الاقتصادى الذى كان مستتراً وراء المظهر الدينى للحركة الصليبية، التى كان يمكنها أن تحقق لأوربا المسيحية السيطرة على سواحل الليفا نتى والتحكم بالتالى فى الطرق التجارية البرية إلى الشرق الأقصى الغنى بتوابله وسلعه ، مما كانت تحتاج إلية الدول الأوربية ، وقد تجلت الدوافع الأستعمارية على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصدر ثراء عربى للمشتغلين بها ، وغلبت الصفة التجارية البحتة على الجالية الصليبية التى لم يكن الباعث الدينى يعنيها إلا بالقدر الذى يكفل لها تحقيق مصالحها.

وكانت المدن الإيطالية قد عقدت مع مصر الإسلامية منذ أيام الطولونيين علاقات تجارية ، إذ كان من الطبيعى أن تسعى هذه المدن الإيطالية البحرية إلى تدعيم علاقاتها التجارية مع مصر بإعتبا ر أن الطريق التجارى الذى يمر بها أفضل بكثير من الطريق البرى الذى يخترق بلاد الجزيرة والشام لسرعته ولرخص تكاليف النقل فيه ، ولم تلبث القوى البحرية لهذه المدن أن نازعت القوى البحرية الإسلامية فى غرب البحر المتوسط، ولم يحل عام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤٠٦ هـ(١٠١٥ م) حتى صارت بيزة وجنوة قوتين بحريتين عظيمتين، بينما أستطاعت البندقية التى تركزت بحريتها في التجارة والنقل لا فى احتراف القرصنة ان تبنى لنفسها فى أواخر القرن الرابع الهجرى قوة بحرية، أخذت تزداد على مر الأيام. وكانت أما لفى الواقعة على الساحل الغربى ايطاليا المنافس الأول لتجارة البندقية فى بيزنطة والعالم الإسلامى، وتوقفت علاقاتها التجارية مع مصر الفاطمية. وكان أهتمام امالفى موجها بوجه خاص إلى نقل المنسوجات الحريرية التى تصنع فى دبيق من قرى دمياط الى سوق روما، وأصبح لها فنادق بالإسكندرية، وعلى الرغم من خضوع أمالفى سياسيا للنورمان منذ سنة ١٠٧٢ م، فقد ظل تجارها يتعاملون مع مصر الفاطمية.

اما جنوة فكانت بحريتها قد بلغت درجة كبيرة من القوة منذ عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وأتسعت علاقتها مع مصر منذ النصف الثانى من القرن الخامس، بعد ان تحررت من سلطان البيزنطيين واصبحت حرة التصرف فى اتباع سياسة اقتصادية تتفق مصالحها دون أى اعتبار آخر، وكان الجنويون يشترون غلات مصر كالعنب والنطرون والسكر ويبيعونه إلى تجار الروم.

كذلك اهتمت بيزة بتمكين علاقاتها التجارية مع الخلفاء الفاطميين، منذ ان تحولت الى النشاط البحرى فى أواخر القرن الخامس الهجرى، فأرسلت سفيرا إلى الخليفة الفاطمي الظافر فى سنة ٥٤٩ (١١٥٤ م)، لتصفية الرواسب المتخلفة عن حادثة أعتداء جماعة من البيزية على المسلمين بالقتل، ومحاولة إسترضاء مصر عن طريق تعهدها بعدم تقديم أى مساعدة للصليبيين فى الشام أو غيرهم من أعداء مصر

أما البندقية فكانت ترتبط منذ قيام الدولة العباسية بعلاقات تجارية مع

السواحل الإسلامية، اذ كانت رغم ولائها للبيزنطيين، ورغم القيود البيزنطية، التى فرضت عليها، تشتغل بتصدير الرقيق والخشب لمصر والشام ولم ترضخ لتحريم الإمبراطور البيزنطى ليو الخامس اشتغالها بالتجارة مع البلاد الإسلامية،بدليل ان سفنها إستطاعت فى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م)، أن تنقل رفات القديس مرقص من الإسكندرية. وظلت البندقية تمد مصر بالحديد والسلاح والأخشاب اللازمة لصناعة السفن إلى أن إصدار الإمبراطور حنا تزمسكس عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) قراراً حرم عليهم فيه نقل هذه المواد الى البلاد الإسلامية، ومع ذلك، فلم تتقيد حكومة البندقية بهذه السياسة، وفضل رؤساؤها على تدعيم علاقتهم التجارية مع مصر.

ونلاحظ أن الإساطيل الإيطالية لعبت دورا سياسيا ذا وجهين، فبينما كان الإيطاليون يرتبطون مع مصر اقتصاديا، نراهم يسهمون فى أنجاح الحركة الصليبية منذ حملتها الأولى على بلاد الشام، فبفضل العون والمساعدات البحرية التى قدمها الجنوية والبندقية والبيزية للصليبين، تمكن هؤلاء من السيطرة على المدن الساحلية فى الشام وفى مقابل ذلك ظفر الإيطاليون فى الثغور الشامية التى خضعت للصليبيين.بأمتيازات كثيرة، وأنشأوا فيها الوكالات التجارية للأشراف على شئون التجارة ونقل الحجاج.

أما فيما يتعلق بالبيزنطيين، فقد سعوا الى تمكين علاقاتهم التجارية مع مصر بعد أن تحسنت العلاقات السياسية بين بيزنطة والقاهرة منذ سنة ٤١٧ هـ (١٠٧٨ م)، فقد كانت بيزنطة فى حاجة الى النسيج الذى يصنع فى تنيس، فى مقابل الغلال والفراء، ويذكر ناصر خسرو أن "سلطان الروم (يقصد الإمبراطور البيزنطى) كان قد أوفد رسولاً ليعرض على السلطان مصر أن يعطية مائة مدينة على أن يأخذ تنيس، فلم يقبل السلطان وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون" ويشير ناصر خسرو إلى أنه كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترابط حول تنيس ألف سفينة، منها ما كان خاصا بالتجار، ومنها ما كان للسلطان، وأن الرحلة من تنيس إلى القسطنطينية كانت عشرين يوما" وكان بالقاهرة حى لتجار البيزنطيين يعرف بحارة الروم،

وهي حارتان:

حارة الروم السفلى، وحارة الروم العليا التى عرفت فى العصر المملوكى بالجوانية، كما كان فى القسطنطينية عدد من تجار مصر جاء ذكرهم فى جملة من ذكرهم بنيامين التطيلى من الجاليات الإسلامية.

ومن مظاهر إقبال بيزنطة على التجارة الإسلامية وسعيها الى إجتذابها الى القسطنطينية أنها أقامت وكالتين بالعاصمة، أحدهما لتجار الحرير الفاخر، والثانية لتجار التوابل والعطور.

(ب) مع الأقطار الإسلامية

١ - المغرب الإسلامي

كان من الطبيعى أن تعمل الدولة الفاطمية فى مصر على تدعيم علاقاتها التجارية بحرا مع بني زيرى الصنهاجيين، نوابها فى المغربين الأدنى والأوسط، من جهة، ومع صقلية من جهة ثانية، ومع الأندلس فى عصرى الطوائف المرابطين من جهة ثالثة. وكانت الطريق الممتد بحذاء الساحل من الإسكندرية إلى سوسة هى آمن الطرق البحرية التى كانت تسلكها السفن التجارية المصرية أو الزيرية أو الصقلية، وحتى الأندلسية، وذلك منذ أن سيطرت بيزنطة على كل من جزيرتى إقريطش وقبرص. ويذكر أبو عبيد الله البكرى أن المهدية كانت مرفقا لسفن الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها، وكانت السفن تحمل من ليبيا والمغرب منتجات هذه البلاد التى عرفت بها كزيت الزيتون من المهدية وبرقة وسفاقس وقابس،

وكالفستق الذى كان يحمل من قفصة وشط الجريد إلى مصر، والثياب والعمائم السوسية، والثياب الحريرية من قابس، وجلود النمور والبقر التى كانت تصل من أوجلة الى برقة، ثم تتجهز بها المراكب القادمة من الإسكندرية وجلود اللمط وقرونة، والصوف والتبر من تكرور وغانة وأودغست، والقطران وجلود الدباغ من برقة وقصر طلمينة بليبيا.

ومن الأندلس كان يصدر الزيت من اشبيلية إلى الإسكندرية، والزئبق من قرطبة، والموشي من المرية وما لقة، والبسط التنتلية من مرسية، والتين الطلقى من مالقة. ومن صقلية كان يصل الى مصر الكتان الرقيق والثياب المنقوشة القيمة من السفن، وخشب السفن من جفلوذ وشنت ماركو، والحديد من مسينى وبلرم.

٢ - المشرق الإسلامي

لم تنقطع الصلات التجارية بين مصر والعراق فى العصر الفاطمى على الرغم من الخلافات السياسية والمذهبة بين الخلافتين العباسية والفاطمية، فقد كانت تصل الى مصر من العراق الجبرير الأزرق التسترى القرقوبى بالذهب والمنسوج المعروف بالعتابى الذى إختصت به بغداد، والنسيج المعروف بالموصلى الذى أشتهرت الموصل بصناعته، كما كانت تصل إليها كيزان البلور البغدادى. وكان تجار العراق يفدون الى مصر لشراء ما يلزمهم من المنسوجات الصوفية التى اشتهرت أسيوط بصناعتها، وعن طريق هؤلاء التجار وصلت هذه المنسوجات الى بلاد العجم، وعرفت هناك باسم الصوف المصرى. كذلك كان هؤلاء التجار يقبلون على شحن سفنهم بكميات من الشروب المصنوعة بتنيس، والأردية الملونة، ويذكر المقريزى أن الحمل من النسيج التنسى كان يبلغ بعد سنة ٣٦٠ هـ"من عشرين من ألف ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق"، وقد أنشىء لتجار العراق والشام فى القاهرة فى سنة ٥١٦ هـ وكالة عرفت بإسم دار الوكالة الأميرية.

ومن الشام كانت ترد إلى مصر الفواكة النادرة والصابون النابلسى والطرابلسى والأوانى النحاسية التى اشتهرت دمشق بصناعتها، والورق الذى أختصت به دمشق وطرابلس والمنسوجات الحريرية من طرابلس ودمشق، بينما كان يصل إلى الشام الشب والنطرون والكتان والشرب والدبيقى والدمياطى من مصر. كذلك كانت مصر تصدر إلى الشام ما كان تصنعة الفسطاط من الانطاع المستحسنة والشروب الدمياط والكمرانات وخرائط الجلد والسيور، ومن اليمن كانت تصل الى مصر سواء إلى عيذاب أو إيلة أو القلزم السفن موسوقة بالزيت، والطيوب والبخور واللبان، والأحجار الكريمة كالعقيق الذى يكثر في جبل شبام، والجزع، ودم الأخوين، والعنبر من عدن والبحر الأحمر الجنوبي وساحل الشحر، واللؤلؤ من عدن وعمان وقطر وهجر والأدم والإنطاع من صنعاء وجرش وصعده وزبيد. ويذكر المقدسى أن اليمن" معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق فالى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والسماسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والإسكندروس والصبر والحديد والرصاص الخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك، وتزيد عدن بالعنبر والشراب والصرف والحبش والخدم وجلود النمور ومالوا استقصيناه طال الكتاب وبتجارات الصين تضرب الأمثال"وكانت لالىء البحرين وعقيق اليمن يستخدمان لترصيع الحلى فى الفسطاط، وكان عاج زنجبار يستخدم فى صناعة العلب العاجية والمقابض. ويذكر ناصر خسرو أنه " رأى أنياب الفيل أحضرت من زنجبار وكان كثير منها يزيد على مائتى من، كما أحضرت جلد بقر من الحبشة يشبة جلد النمر ويعملون منه النعال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ج) مع الصين وبلاد ما وراء النهر

العلاقة بين الصين والمسلمين علاقة قديمة تبدأ منذ أيام الدولة الأموية، ومن المعروف أن الإسلام دخل الى الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحرى الذى كانت تسلكه السفن التجارية، ويبدأ من البصرة حيث تقلع المراكب حاملة البضائع من الأبلة فرضة البصرة إلى الصين مارة بعمان ومسقط والبحرين وهرمز بخليج فارس، ثم ترسو السفن فى ملابار وسيلان ومابد وسومطرة وجاوة وتنكين. وكانت أهم مدن الصين المفتوحة لتجارة العرب كانتون المعروفة فى المصادر العربية بإسم فانقوا أعظم مراكز التجارة فى الهند الصينية.وكان يصل الى عدن من الصين الحديد والمسك والكافور والفخار والكافور والدار صيني وغيرها، ولذلك عرفت بدهليز الصين. وقد أعجب المسلمون بالتحدى السنة الصينة، وخاصة الخزف الصين، فقلدوه فى العصر الفاطمى، وحاول الخزاف المشهور سعد ومن حذا حذوه من تلاميذه أن يصبغوا نوعا من الخزف ذى الزخارف المحفور تحت الدهان، فكانوا يقلدون به خزف سونج الصينى.

وقد بلغت شهرة مصر فى صناعة النسيج إلى بلاد ما وراء النهر، فقلدت الثياب الدبيقية بنواحى خوارزم، كما قلدت الثياب الأشمونية فى بخارى، وعرفت هناك بإسم ثياب اشمونى. ويبدو أن مصر كانت تصدر من منتجاتها زيت الفجل الذى كان يحمل إلى العراق وغيرها، والعسل النحل الذى كان يفتخر به على أعمال الدنيا، ودهن البلسان، ودهن الخروع. وكانت مصر أيضا من بين الأقطار المصدرة للشب، وشبتها تعرف بالشب الواحى، ويفوق الشب اليمانى، كذلك كان يصدر منها فى العصر الفاطمى البز الأبيض الدبيقى ووشى الإسكندرية، وإنطاع الصعيد، وستور البهنسا، ونطوع الخز الأخميمة بالإضافة إلى الكتان الذى كان يحمل الى سائر العالم، والزمرد والسكر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسكندرية في العصر الفاطمي

(١)

أحداث الإسكندرية في العصر الفاطمي

تألفت الإسكندرية فى العصر الفاطمى، وأستعادت أزدهارها القديم، وأصبحت مركزا سياسيا هاما، شاركت فى كثير من الأحداث السياسية التى حفل بها العصر الفاطمى، فكان أهل الإسكندرية بحكم تطرفها عن الدلتا المصرية، وعزلتها عن بقية مدن مصر، وإتصالها بالطرق المؤدية إلى برقة وافريقية، وغلبة العناصر المغربية فيها، يميلون الى المعارضة وكانوا قبل وصول الفاطميين على أتصال بهم فلما قدم الفاطميين حن أهالى الإسكندرية إلى الإنفصال، وأيدوا كل حركة تهدف الى ذلك،

ومن هذه الحركات ما يلي.

١ - حركة ناصر الدولة بن حمدان (٤٥٦ - ٤٦٥)

أستبد أبو محمد ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان بأمور المستنصر، وزادت مطالبته بالأموال حتى استوعبها، وأخرج جميع ما فى القصرمن ثياب وأثاث، وباعها بالثمن، وحالف الأتراك سرا على المستنصر، وأفرج عن أمراء عرب الشام الذين كانوا فى سجن المستنصر بعد أن أتفق معهم على الفتك ببدر الجمالى وانقسم عسكر مصر إلى قسمين متعاديين. وفى ٤٥٩ تتبع ناصر الدولة بن حمدان العبيد الذين كانت أم المستنصر قد استكثرت منهم فى الصعيد والإسكندرية، فرأى ان يبدأ بمحاربة عبيد الإسكندرية فسار إليها وإلتقى معهم فى موضع يعرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالكوم فقتل منهم نحو ألف وتحصن الباقين داخل أسوار الإسكندرية، فحاصرهم فيها مدة، وألح فى مقاتلتهم حتى سألوه الأمان، فأخرجهم منها وأقام فيها من يثق به. وأمتد أمر ناصر الدولة بعد ذلك، وأستبد بسلطة البلاد. فعزم المستنصر على وضع حد لهذا الإستبداد، وبادر بحشد قواته من المغاربة وبعض الأتراك بقيادة الدكز الملقب بأسد الدولة، شيخ الأتراك والمقدم عليها، وأشتبك مع قوات أبن حمدان بالباب الجديد فى القاهرة، وأسفرت المعركة عن هزيمة ابن حمدان وفراره إلى الإسكندرية فى سنة ٤٦١ حيث نزل فى حي من أحياء عرب البحرية وهم بنو سنبس الذين حلوا محمل بنى قرة الذين إنسحبوا إلى الصعيد.

. نزل أبن حمدان فى بنى سنبس بالبحيرة، وأستجار بهم، وتزوج منهم، من هناك أخذ يشن غاراته على أعمال مصر، ويهزم جيوش المستنصر التى يسيرها لقتاله بالبحيرة الجيش بعد الآخر، وكان ناصر الدولة عند فراره إلى الإسكندرية فى صفر سنة ٤٦١ قد أصطحب معه طائفة من اللواتيين، الذين نهبوا ما تبقى من خزانة الكتب الفاطمية ونقلوها فى خليج الاسكندرية، بينما أخذ عبيدهم جلودها برسم عمل مايلبسونه فى أرجلهم، وأحرقوا ورقها، بالإضافة إلى ماأستولى عليه عماد الدولة أبو الفضل بن المخيرق بالإسكندرية، وأنتقل بعد مقتله الى بلاد المغرب. وما زال أمر أبن حمدان يشتد وخطره يستفحل حتى أنتهى به الأمر إلى أن حاصر القاهرة، وقطع الميرة والاقوات عليها، ونهب أكثر الوجه البحر، وقطع منه الخطبة للمستنصر، ودعا للقائم بأمر الله الخليفة العباسى فى الإسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحرى، وفى ذلك يقول المقريزى " وقطع خطبة المستنصر من الوجه البحرى وكتب إلى الخليفة القاسم ببغداد يسأله أن يجهز إليه الخلع والأولوية السود، فاضمحل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدر المستنصر وتلاش أمره وتعاظمت الشدائد على مصر"

وهكذا ضعف المستنصر عن مواجهة ابن حمدان، فأسلم له قياده فى نهاية الأمر، وساءت الأمور فى مصر فى ذلك الحين الى أقصى حد من تزايد الغلاء وقلة الأقوات وهلاك عدد كبير من السكان. وظل الحال على هذا السوء إلى أن أختلف أبن حمدان مع الدكز فأنقلب عليه وقتله فى سنة ٤٦٥ هـ. وتتبع أقاربه وذويه بالقتل، وأستبد الدكز، به فأضطر المستنصر إلى أستدعاء الأمير بدر الجمالي من عكا، فقدم الى مصر فى سنة ٤٦٧، وقبض على الدكز وقتله، ثم أخذ يصلح ما أفسده ناصر الدولة بن حمدان والدكز، فخرج إلى الإسكندرية، وحاصرها اياما، ثم أستولى عليها عنوة، وقتل جماعة من الثوار فيها من طائفة العسكر الملحيين وأتباعهم، وأصلح ما أفسده ناصر الدولة فيها، وسلمها إلى القاضى أبن المخيرق.

ويبدو آن أبن المخيرق القاضى لم يرضى بما أسنده إليه بدر الجمالى، فطمع فى أكثر من ذلك، فلم يلبث أن أعلن الثورة فى الإسكندرية فى سنة ٤٦٨هـ، فأضطر أمير الجيوش بدر الجمالي الى التوجه إلى الإسكندرية، وقبض على قاضيها على جماعة من فقهائها وأعيانها وأخذ منهم أموالا عظيمة.

ب - حركة الأوحد بن بدر الجمالي سنة ٤٧٧.

لم يمضى على أخطار ابن المخيرق عشر سنوات حتى عادت الإسكندرية من جديد تفتح أبوابها للثوار والعصاة الخارجين على السلطة المركزية، ففى سنة ٤٧٧ أعلن الأوحد أبو الحسن على الملقب بمظفر الدولة، الأبن الأكبر لأمير الجيوش بدر الجمالى، الثورة على أبيه، وأنضم إليه جماعة من العسكر والعربان، وتحصن بالإسكندرية، وكان أبوه قد ولاه عليها، فأرسل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليه بدر أبا الفرج المغربى ولاطفه فأخفق فى حملة على الطاعه، فاضطر بدر الجمالى إلى الخروج اليه لإخماد حركته ونزل على أبوابها وحاصرها شهرا، وألح على الأوحد بالقتال "حتى طلب أهلها الأمان وفتحوا له الباب، فدخلها وأخذ ابنه أسيرا". ويذكر أنه "ألح عليه بالقتال حتى أدخل البلد وأخذ أبنه قهرا"، ثم عاقب بدر الجمالى أهل الاسكندرية الذين أيدوا حركة الأوحد بأن فرض عليهم جميعا مسلمين وقبط مائة وعشرين دينار حملت إليه، جدد بها بناء جامع العطارين بالإسكندرية، وذكر المقريزى أنه نزل الى الإسكندرية وقد ثار جماعة مع ولده الأوحد، " فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة الى أنه أخذها عنوة، وقتل جماعة من كان بها، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة".

وجامع العطارين المذكور كان فى الأصل كنيسة تعرف بأسم القديس اثناثيوس أقيم عليها بعد الفتح مسجد صغير، وكانت عوامل الوهن والشيخوخة قد ظهرت على المسجد فى بداية العصر الفاطمى، فتهدمت أجزاء منه، وتهاوت بعض سقفة، وأصيب بأضرار جسيمة، وعندما قدم أمير الجيش بدر الجمالى إلى الإسكندرية وشاهد هذا الجامع مهدماً، أمر بتجديد بنائه وأنفق على بنائه الأموال التى أخذها من آهل الإسكندرية، وأقام فيه صلاة الجمع، وأستمر مسجدا جامعا إلى أن زالت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الذى أمر ببناء جامع العطارين وتاريخ تعمير جامع العطارين مسجل فى لوحة تاريخية بالمسجد.

ج - نوبة الاسكندرية في المستنصر ٤٨٨ هـ

وفى الإسكندرية أيضا قامت النوبة السكندرية المعروفة بالحركة النزارية بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله فى ١٨ ذى الحجة سنة ٤٨٧. وتفصيل

الموضوع أنه كانت بين شاهنشاه بن بدر الجمالى - وكان وزير للمستنصر - وأبى منصور نزار، الابن الاكبر للمستنصر، نفرة لامور منها أنه خرج يوما،

فاذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو راكب، فصاح به نزار "إنزل يا أرمنى النحس"، فحقدها ومنها كل منهم يكره الآخر، ومنها أن الأفضل كان يعارض نزار فى أيام أبيه، ويستخف به، ويبطش بغلمانه، فلما مات المستنصر خافه فأجلس ابا القاسم أحمد، الأبن الاصغر للمستنصر، فى الخلافة، ولقبه بالمستعلى بالله وسير إلى الأمير عبد الله والأمير أسماعيل، أولاد المستنصر، فجاؤا إليه واستاءو من جلوس الأصغر على سريرا الخلافة، وشق عليهم ذلك فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض بين يديه، فرضخوا لذلك مرغمين، وبايعوه، ثم أمتنعوا فيما بينهم عن ذلك، وأدعى كل منهم أن أباه قد وعده بالخلافة وتظاهر نزار بأنه يحتفظ بخط أبيه بولاية العهد له، فمضى مسرعا لإحضاره، ثم توجه من فوره إلى الإسكندرية يصحبه أخوه عبد الله ومحمود أبن مصال اللكى، أحد الأمراء الذين أقنعهم نزار بالإنضمام إليه فى مقابل أن يكافأه بالوزارة والتقدمة على الجيش مكان الأفضل.

وكان يتولى الإسكندرية فى هذه الأونة الأمير ناصر الدولة أفتكين التركى، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى، فدخلا عليه ليلاً، وساعدهما قاضى الإسكندرية جلال الدولة على بن أحمد بن عمار، وأنهيا إلى أفتكين بما تأمر عليه الأفضل، وتراميا عليه، وأطمعه نزار بأن يتخذه وزيرا بدلا من الأفضل، وأمام هذا الإغراء لم يسمح أفتكين إلا أن يبايع نزار بأن يتخذ وزيرا بدلا من الأفضل، وأمام هذا الاغراء لم يسمع أفتكين الا أن يبايع نز بالامامة، كما بايعه أهل الاسكندرية، وتلقب نزار بالمصطفى لدين الله. فلما أعلم الافضل بذلك أخذ يتأهب لمحاربتهم، وخرج فى آخر المحرم سنة ١٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هـ على رأس عساكره إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين، "فخرجا اليه ف في عدة كبيرة وحارباه، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما يريد القاهرة، فنهب نزار بمن معه من العرب اكثر بلاد الوجه البحرى "وقوى أمر نزار وافتكين، وأجتذبا بهذا الإنتصار كثيرا من العرب المقيمين بنواحى الإسكندرية، وأستفحل خطر نزار، فإستولى على الوجه البحرى. وقد دفع ذلك الأفضل الى معاودة الكرة لقمع حركة نزار، التى أصبحت تشكل خطرا على مركز المستعلى بالله، فجهز جيشا للمرة الثانية لمحاربة نزار، ودس إلى زعماء العرب، ووجوه أصحاب نزار، يدعوهم الى التخلى عنه، وأستمالهم بما حمله إليهم كثير من الأموال وما وعدهم به من الأقطاعات وغيرها، ونجح فى خطته، اذا نضم إليه كثير من عرب البحيرة، ولما أستكمل أعداد جيشه زحف الى المدينة، فنزل الأفضل عليها وحاصرها حصارا شديدا، ونصب عليها المجانيق، والح عليها بالقتال، ومنع عنها الميرة، وضرب أسوار المدينة بالاحجار واللهب، ولم يكتف بذلك بل كاتب أنصار نزار، يعينهم بالوعود، فلما أشتد الحصار، وضاق على أهل الإسكندرية الأمر، جمع أبن مصال ماله، وهرب إلى جهة المغرب فى ثلاثين إلى برقة، وذلك فى ذى الحجة من هذه السنة، ففت ذلك فى عهد نزار، وفترت همته، وضعفت نفسه، وأيقن بالهزيمة. وفى نفس الوقت شدد الأفضل الحصار، وتكاثرت جموعة، فبعث إليه نزار وأفتكين يسألان الأمان، فامنها، ودخل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين وسيرهما إلى مصر، ولكن الأفضل لم يف بعهد أمانه، فقد تخلص منهما،

---

(١) الكندى، ص ٢٨٧ - ابن سعيد، ص ١٦١ - أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) ابن سعيد، ص ١٦٠ - المقريزى، الخطط، ٣ ص ١١٥ - السيوطى، ح ص ٢٢٣ .

فقتل نزار وأفتكين. ويذكر المؤرخون في مقتل نزار أن الأفضل سلم نزار لأهل القصر من أصحاب المستعلي، وأنه بني عليه حائط ومات. وقيل قتل بالإسكندرية. وقيل أنه أستبقاه حتى مات في الاعتقال، وهو أمر مستبعد لخوفه من ابن مصال فأنه مضى إلى بلده لك برقة ،ثم بعث إليه الأفضل بالأمان، فقدم عليه وعفا عنه الأفضل وأكرمه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢)
أهمية الإسكندرية كقاعدة بحرية للفاطميين

ظلت الإسكندرية دار صناعة بحرية تصنع فيها الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات في العصر الفاطمي، وقاعدة بحرية هامة يخرج منها الأسطول السكندرى للغزو، ومركزا رئيسيا للمحط والأقلاع، ترسو فيه سفن المغرب التجارية والمدينة التى تحمل طلاب العلم والحجاج والأندلسيين الوافدين إلى المشرق طلبا للعلم أو لأداء فريضة الحج.

فمن حيث البحرية الحربية نلاحظ أن الفاطميين أهتموا أهتماما خاصا بالأسطول بحكم أضطرارهم إلى غزو الأرضى البيزنطية ومقاتلة سفن الروم فى البحر، بالإضافة إلى رغبتهم فى تيسير الأتصال البحرى بين سواحل مصر والشام التى تعرضت منذ طليعة القرن السادس الهجرى لغزو الصليبيين، فخصصوا للأسطول ديوانا يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر، وكان مقره صناعة الأنشاء بمصر، وأنشأوا إلى جانب دور صناعة الإسكندرية ودمياط وتنيس دار للصناعة بمصر (المقس) لإنشاء الشوانى، واضاف إليها الموضع الذى كانت تشغله دار الزبيب، كما أنشأوا على الساحل القديم بالفسطاط منظرة تعرف بمنظرة الصناعة.

أما فيما يختص بالبحرية التجارية والمدنية، فقد شغلت الإسكندرية مكانا بارزا بين المدن التجارية الهامة فى حوض البحر المتوسط فى العصر الفاطمى، فكانت أهم مركز فى مصر والشام لتجارة البهار بالنسبة لدول أوربا. وكانت السلع تصل إلى مينائها، ثم تحمل على ظهور الأبل وتخرج من باب البهار تم تنتقل بالسفن فى خليج الإسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط والعكس بعكس ذلك، ولعل هذا كان سببا فى أهتمام الفاطميين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بتطهير ترعة الخليج من الرواسب الطينية، فمن المعروف أن خليج الإسكندرية أنقطع جريان مياهه عنها قبل سنة ٣٣٢ هـ، إذا ردم جميعه، وصار شرب أهل الإسكندرية من الآبار، ونفهم من هذا أن خليج الإسكندرية ظهر في تلك السنة، ولكنه لم يلبث أن تجمعت فيه الرواسب الطينية الى حد ان مياهه توقفت من جديد عن الجريان، فأطلق الحاكم بإمر الله أبا منصور بن العزيز لحفره في سنة ٤٠٤ هـ مبلغا قدره آلاف دينار أنفقها في حفر الخليج كله."

ثم طمر هذا الخليج مرة ثانية بالرواسب الطينية في عهد الخليفة المستنصر بالله، فقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو إن ماء الشرب في الإسكندرية من المطر.

وكانت علاقة مصر قد توقفت في العصر العباسي مع البندقية التي نهضت خلال القرن الثالث الهجري، فنشطت أساطيلها في نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ومصر والشام وأستطاع البنادقة فيما يقرب من سنة ٧١٣هـ (٨٢٨م) آن ينقلوا رفات القديس مرقس من الإسكندرية إلى البندقية، وعلى هذه الرفات أقيمت كنيسة سان ماركو الحالية.

وفي العصر الفاطمي تألقت مدينة الاسكندرية، وأستعادت ازدهارها القديم، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر، وثغرها التجاري الإول الذي تغد اليه السفن التجارية حاملة سلع الشرق والغرب، لذلك نافست بغداد في الزعامة التجارية، كما أنها أصبحت محطا رئيسيا للسفن القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر وكان لبعد بلاد المغرب وأنقطاعها عن المشرق الإسلامي، مركز الحضارة الإسلامية ومهدها، وأحتكاكها بالعالم الأوروبي أثر كبير في تطلع أهل المغرب والأندلس للرحلة إلى الشام ومصر

والعراق، لتلقى العلم على شيوخ العصر فى المراكز الثقافية المختلفة بهذه الأقطار، كما دفع تطرف بلاد المغرب والأندلس عن دار الخلافة العلماء والأدباء المشارقة الدين ضاق المشرق بمواهبهم إلى الراحلة الى تلك البلاد وأستيطانها، أما التماسا للعلم فى مختلف مراكزه، ورغبة فى تحصيله على شيوخة فى تلك المراكز العلمية، أو سعيا للتجارة، أو رغبة فى أداء فريضة الحج . ولقد عقد المقرى فى كتابه "نفح الطيب" بابين كبيرين أفردهما لذكر الوافدين على الأندلس من المشرق والى المشرق من الأندلس. وهكذا إلتحم المشرق بالمغرب علميا وإقتصاديا وفنيا عن طريق الرحلات البحرية.

وكان لتعدد الرحلات البحرية التجارية، والمدنية، أثر كبير فى حذق البحريين المسلمين لطرق الملاحة فى البحر المتوسط، فقد كانت السفن تنتقل بصفة مستمرة بين ثغور المغرب وبرقة مثل قصر طلميتة وطرابلس وسوسة والمهدية وتونس وبين الاسكندرية ودمياط وتنيس وطرابلس الشام وغيرها، أو بين المرية ومالقة وإشبيلية وبين الإسكندرية وغيرها من مرافق الشام ومصر، تحمل إلى المغرب سلع المشرق.

وكانت معظم السفن التجارية القادمة من المغرب تسير بحذاء الساحل الإفريقي، وترسو بثغور تونس وبرقة حتى تصل إلى الإسكندرية، ومنها تخرج إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس، وسواحل الشام. وذكر ناصر خسرو أن بحر الإسكندرية يمتد حتى القيروان، ولعل ذلك يوضح لنا السبب فى بداية تأصل التقاليد المغربية فى جميع مناحى الحياة السكندرية أدبية ومادية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)
منشآت الفاطميين في الإسكندرية

ينعكس الإنتكاس الإقتصادى الذى أصابته الاسكندرية فى العصر الفاطمى فيما أنشئ فى هذا العصر بها من منشآت متعددة الأغراض: حربية ومدنية ودينية،

وفيما يلي أستعراض موجز لأهم المنشآت:

أ - المنشآت الحربية:

رأينا فيما يلى سبق كيف تخرب سور الإسكندرية وفتحت فيه ثغرات واسعة بعد أن تعرض لقذائف مناجيق عمرو بن العاص، ولا نستبعد أن تكون هذه الثغرات قد أزدادت بمرور الزمن أتساعا إلى أن رممت ترميما مؤقتا فى أواخر القرن الثانى وقبل نزول الأندلسيين ببر الإسكندرية. غير أن ما تعرضت له الإسكندرية أبان فتنة الصوفية والأندلسيين واللخميين من حصار لها والأسوارها عدة مرات يدعونا إلى الإعتقاد بان هذه الأسوار تخربت من جديد، بدليل أنها تعرضت لقذائف المنجنيقات، وقد أصيب الجروى بشظية حجر أثناء حصاره لها مدة سبعة أشهر، وتوفى فى صفر سنة ٢٠٥ هـ. ثم حوطت الإسكندرية بسور جديد فى العصر الطولونى، ونرجع أن يكون هذا السور الجديد قد تم أنشاؤه فى إمارة أحمد بن طولون، وقد خرجت من السور الجديد مناطق مهجورة، وانحسر لذلك عمران الإسكندرية وإنكمشت رقعتها بصورة واضحة. أما أحجار السور القديم فيغلب على الظن أنها أستخدمت فى بناء السور الجديد أو فى بنيان العمائر الدينية والمدنية وهو امر كان شائعا فى تاريخ العمارة الإسلامية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا شك أن بنيان سور الإسكندرية تأثر تأثيرا شديدا بالحركات التورية والفتن التى نشبت فى الإسكندرية الى العصر الفاطمى: فمن حركة ناصر الدولة بن حمدان، وقيام بدر الجمالى باستنزال الشوار بها، إلى حركة الأوحد ابن بدر الجمالى، الى نوبة الإسكندرية أو الحركه النزارية بها. وفى هذه الحركة الأخيرة أستخدم الأفضل لإخمادها المناجيق، وألح فى القتال، وضرب الأسوار واللهب على النحو الذى ذكرناه حتى أستسلم له نزار وأفتكين. ثم حظيت مدينة الإسكندرية بوال من انشط ولاتها وأكثرها ولعا بالبنيان، وكلفا بالإصلاح، وذلك هو المؤتمن، سلطان الملوك نظام الدين، أبو تراب حيدرة الذى لم يتردد فى إصلاح هذه الأسوار وتجديد ماتهدم منها البنيان، ويذكر المقريزى فى أتعاظ الحنفا، انه فى سنة ٥١٧ هـ، وهى السنة التى تولى فيها المؤتمن ولاية الإسكندرية والأعمال البحرية، جددت عمارة سور الإسكندرية.

وإلى أبى الإشبال ضرغام، أحد أمراء الإسكندرية، ينسب بناء برج عرف ببرج ضرغام عند باب البحر سنة ٥٥٧، والظاهر أن هذا البرج كان المقصود به تمكين الدفاع فى موضع من أكثر المواضع تعرضاً لظروف العدو ونزوله، ولا نستبعد أن يكون هذا البرج قد أدى خدمة كبيرة للدفاع السكندرى ايام حصار الفرنج وشاور لصلاح الدين فى سنة ٥٦٣ هـ، وفى حملة وليم الثانى صاحب صقلية على الإسكندرية فى سنة ٥٦٩. وقد أحرق هذا البرج فى غزوة القبارصة سنة ٧٦٧.

ويبدو أنه أستعيض عن هذا البرج فى عصر المماليك الشراكسة ببرج قايتباى الذى أقيم على أساس منار الإسكندرية

(ب) المنشآت المدنية:

عمرت الإسكندرية في العصر الفاطمي بالمباني الفخمة والقصور السابقة، والرياض النضرة والدور الجليلة ، ولا عجب في ذلك لأنه عصر شاع فيه نوع من الترف، واستمتع القوم من أعيان المدينة وتجارها بحياة رغدة مترفة، فأقبلوا على التأنق، وولعوا بالإنشاء، ويسجل شعراء الإسكندرية في هذه الفترة بأشعارهم تصويرا رائعا لبعض هذه القصور والمعاهد: فهذا ابو الفتح نصر الله بن مخلوف اللخمي السكندري المعروف بأبن قلاقس، أحد شعراء الإسكندرية العظام(ت ٥٦٧ هـ) في العصر الفاطمي يصف قصر خليفة، وهو قصر كان مقاماً في منطقة الرمل بظاهرالإسكندرية من الجهة الشرقية، وكان قصرا راسخ البنيان، عظيم الإرتفاع، قد "رسا بناؤه وسما، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما.. وحبته الرياض بما أئتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها، والرمل بفنائه قد نثر تبره في زبرجد كرومه" ومن أشهر قصور الإسكندرية في زمن الفاطميين قصر قاضيها مكين الدولة أبي طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد.

وإلى جانب هذا النوع من المنشآت نضيف مؤسسة علمية لها أهميتها في هذا العصر وهي المدرسة فلقد شهدت الإسكندرية في العصر الفاطمي ظهور مدرستين سنيتين وذلك قبل أن ينتشر نظام المدارس السنية في مصر في عصر الدولة الأيوبية، وأقدم هاتين المدرستين المدرسة العوفية التي أسسها الوزير رضوان بن ولخشي في ثغر الإسكندرية في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) في خلافة الحافظ لدين الله ، وتولى التدريس فيها الفقية أبو الظاهر بن عوف شيخ المالكية بالثغر، وكانت تقع بشارع المحجة. أما المدرسة الثانية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهى المدرسة السلفية التى أسسها والى الإسكندرية على بن السلار فى سنة ٥٤٤ هـ أثناء ولايته الإسكندرية وقدم للتدريس فيها الحافظ ابا الطاهر أحمد بن محمد السلفى

(ج) المنشآت الدينية

وأعنى بها المساجد والأربطة والزوايا والأضرحة، وللأسف الشديد لم تزودنا المصادر العربية إلا بأسماء ثلاثة مساجد أحدهما مسجد جامع العطارين والآخران مسجدان صغيران، وبضريح واحد للطرطوشى.

١ - جامع العطارين:

تحدثنا فيما سبق عن جامع العطارين عندما تعرضنا لذكر ثورة الأوحد بن أمير الجيوش بدر الجمالى بالإسكندرية فى سنة ٤٧٧. وأشرنا إلى أن أمير الجيوش فرض على أهل الإسكندرية مبلغا قدره مائة وعشرين ألف دينار، جدد بها بناء جامع العطارين المذكور، وسجل ذلك فى اللوحة الرخامية المثبتة بأدنى المئذنة ، و نصها : "بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشن إلا الله"، مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، أبو النجم بدر المستنصرى عند حلول ركابه بثغر الإسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابا، فرأى بحسن ولائه ودينه، تجديده زلفا إلى الله تعالى وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وأربعة مائة. وقد عرف هذا الجامع بجامع العطارين لوقوعه بالقرب من سوق العطارين، وبالجامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى الذى تولى تجديده وعمارته، وبأنشاء جامع العطارين أصبح للإسكندرية مسجدان جامعان: الجامع الغربى، وهو الجامع العتيق، الذى اسسه عمرو أبن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العاص وعرف بجامع الألف عمود، والجامع الشرقي، الجديد، ويذكر النويري السكندري أن بانية"من الشيعة الذين يقولون في آذانهم حي على خير العمل، فدام ذلك في الآذان بالجامع المذكور إلى أن انفرطت دولة العبيديين من الشيعيين، وأقبلت دولة السنيين، فابطلوا منه ما كانت الشيعة تقوله في أذانهم، ثم بطلت الخطبة والجمعة منه وإستمرت بالجامع الغربي مدة سنتين، فلم يزل كذلك إلى أن ولي قضاء الإسكندرية فخر الدين أحمد بن مسكين الشافعي عوضا عن المالكية لأمور يطول شرحها، وذلك في دولة السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، فأقام الخطبة والجمعة، فإستمرت به إلى الآن".

وقد تعرض جامع العطارين لبعض الأضرار، ففي ١١ من ذي القعدة سنة ٧٧٢ هـ سقط عمود من أعمدته تكسر الى قطع، ولم يحدث بسقوطه أي ضرر، وكان ناظره اذا ذاك قاضي القضاة جمال الدين ابن شمس الدين سبط التنيسي، فأنتزع قاضي القضاة كمال الدين عمودا من الجانب البحري من الجامع ووضعه مكان العمود بسرعة، وفي المحرم سنة ٧٧٣ هـ رمم الجامع الشرقي أو الجيوش وكسي بالبياض.

وكان لجامع الجيوشي في صحنه روضة خضراء، وفيه يقول النويري:

حوض روضة خضراء في وسط صحنه   فأصبح ذاك الروض ريان مترعا

ومن المعروف أن غرس الصحن بالرياض كان تقليدا متبعا في مساجد المغرب والأندلس منذ أن أسس عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة سنة ١٦٩ هـ، وعهد الى عبد الله بن صعصعة بن سلام، صاحب الصلاة بالمسجد، بأن يغرس صحنه بالأشجار.

ويبدو أن هذا الجامع لم يلق العناية الكافية في أواخر عصر المماليك وبداية العصر العثماني فتصدعت جدرانه، وتهاوت

سقفه، ووصل إلينا فى أوائل القرن العشرين خربا مهدما ، فأمر عباس حلمي بتجديد عمارته فى سنة ١٩٠١ ولم يتبق للأسف من عمارته الأولى ما يدل عليه سوى البقعة التى أسس عليها واللوحة التذكارية.

٢ - مسجد الطرطوشي :

صاحب هذا الجامع هو الفقية أبو بكر بن الوليد بن محمد خلف أبن سليمان بن ايوب الفهرى الطرطوشي الأندلسى نزيل الإسكندرية المعروف بأبن رندقة، وكان الطرطوشى، أثناء توديعه للوزير المأمون أبن البطائحى، بعد إنتهاء زيارته له، الزيارة التى أهداه فيها مصنفه سراج الملوك"سنة ٥١٦ ، قد أفضى اليه بما عزم من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فلقي هذا الإقتراح إهتماما خاصا عند الوزير، وكتب الى إبن حديد قاضى الإسكندرية بمرافقة الفقيه الطرطوشي الى موضع يتخيره، وأن يبالغ فى إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة من مال ديوانه ومن مال الدولة."ومضى الطرطوشي الى الإسكندرية، فبنى المسجد المذكور على باب البحرمن خارج السور سنة ٥١٦ هـ، وقد ضاعت معالم هذا المسجد من الوقت الحاضر وإن كان على مبارك باشا قد أثبت أنه كان متخربا فى أيامه، وإنه أصلح فى سنة ١٨٥٣ على يدى السيد إبراهيم مورو، وأن والدة الخديوى إسماعيل أتمت تجديده. ولكن الظاهر أن على مبارك كان يقصد ضريح الطرطوشي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ - مسجد المؤتمن:

من المعـروف أن المؤتمن سلطان الملوك، نظام الدين أبا تراب حـيـدرة تولى أعمال الإسكندرية فى غرة سنة ٥١٧ هـ، ولذلك فإن المسجد الذى بناه بشغر الإسكندرية لم يبن من قبل هذا التاريخ كما يذكر بعض الباحثين وإنما أقيم على حد قـول المقريزى عند مقام المؤتمن بالشغر أى بعد سنة ٥١٧ هـ إقامه بالمحجة العظمى.

٤ - ضريح الطرطوشي:

أقيم فى الطرف من الغربى من الإسكندرية، قـبالة البـاب الأخضـر من داخل السـور وهو البـاب الشـمالى الغربى من أبوابهـا، وكـانت هذه المنطقـة تشـغلهـا جـبـانة تعرف بجـبـانة وعلة ذكـرنا أن الحـافظ السـلفى دفن فـيـهـا. ونشاهد أثار هذا الضريح اليوم بالقرب من نهاية شارع الباب الأخضر بمنطقة الجمرك، لصق مسـجد صغـير. ويتكون الضريح من ستة أساطين، ترتكز عقودها على عـمودين مرتكزين، تاجاها من الطراز الكورنثى، ويبدو أنهمـا من بناء قـديم. ويربط بين العقود بعضـها ببعض أوتار خشبية. أما المحراب فـجـوفـة مـحـفـورة فى الجـدار القـبلى، ووجـهـه على شكل عـقـد من الطراز الفاطمى.

ونود أن نصحح بهذه المناسبة خطئا كثيرا ما وقع فيه الباحثون، وهو أن ضريح الطرطوشى أقيم فى موضع آخر غيـر مسجد الطرطوشى، فـبينمـا الضريح يقوم بالقرب من الباب الأخضر فى قبالتـه، نجد مسجد الطرطوشى كان مقاما خارج باب البحر، ولكن الباحثين يخلطون بين المسجد والضريح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآثار الفاطمية في دير سانت كاترين بطور سيناء

ذكر ياقوت فى معجم البلدان ان طور سينا هو أسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام، ونودى فيه (١) بعد خروجه من مصر بنى إسرائيل. وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم بإسم "طور سينين" (٢)، والطور فى اللغة العربية الجبل الذى يكسوه الشجر، ولا يقال للجبل الأجرد طور (٣)، وسينين شجر، وأحدتها سينينية (٤) ويقع طور سيناء فى صحراء التيه وايله (٥)، ويعرف طور سيناء أيضا بأسم جبل حوريب، ويتميز بقممه المرتفعة، ومنها جبل موسى الذى إرتفاعه ٢٢٤٤ مترا، وجبل سنت كاترين، ويبلغ إرتفاعة ٢٤٤٦ مترا، وجبل سربالى، ويصل إرتفاعة إلى ٢٠٥٧ مترا. وكانت سيناء فى العصور القديمة معبرا للجيوش التى غزت مصر فى العصر القديم، كما سلحتها جيوش مصر فى هذا العصر القديم لإستخراج الذهب والنحاس والفيروز. وبأعلى جبل موسى، سمع موسى صوت الله من العليقة المشتعلة يبعثه رسولا إلى قومه، وإلى سينا لجأت وفود النصارى الذين تعرضوا لإضطهاد الرومان الوثنيين لهم قبل أعتراف الرومان بالمسيحية كدين من أديان الإمبرطورية، وعكفوا فى المناطق المجاورة لجبل موسى على التعبد.

ويقوم دير سانت كاترين فى واد يعرف باسم الدير أو وادى شعيب (٦)، وتحيط به أكثر جبال طور سينا إرتفاعا. ودير سانت كاترين من أقدم الأديرة فى العالم، فلقد أمر الإمبرطور البيزنطى جستينيان بالشروع فى تأسيسه فى سنة ٥٤٢ م. لحماية الرهبان المنقطعين للتعبد هناك من غارات البدو (٧)، واختار لبناء هذا الدير موضع مقدس يقال له العليقة، وهو الموضع الذى ناجى فيه موسى ربه (٨). وقد تم بناء أسوار الديرفى سنة ٥٥٧م أى فى عام الثلاثين من حكم جستنيان (٩). ويغلب على الظن أن كنيسة الدير "البازيليكية" قد تم بناؤها فيما بين عامى ٥٦١ ، وهو عام وفاة الإمبرطورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثيودورا، وسنة ٥٦٥ م وهو تاريخ وفاة الإمبرطور جستنيان. وتشغل البازيكلية وسط الدير تقريبا، وتشغل على ثلاثة أفنية، الفناء الأوسط منها إتساعه ضعف إتساع كل من الفنائين الجانبيين. وسمي الدير بدير سانت كاترين نسبة إلى القديسة كاترين التى أستشهدت فى الإسكندرية، ونقلها الملائكة - وفقا لما تواتر عند الرهبان - إلى أعلى جبل سانت كاترين ثم دفنت رفاتها فى بازيلكية الدير. ودير سانت كاترين من أقدم أديرة العالم ومن أشهرها لأنه أقيم فى موضع به عدد كبير من الأماكن المقدسة التى ورد ذكرها فى العهد القديم. ويتخذ سياج الدير شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع يبلغ طول الجهة الشمالية الشرقية منه ٨٧ مترا، والجانب الشمالى الغربى ٧٥ مترا، والجانب الجنوبى الغربى ٨٤ مترا، والجانب الجنوبى الشرقى ٧٠ مترا. ولقد تعرض هذا السور لأضرار جسيمة بسبب الزلازل، خاصة الزلزال الذى حدث فى ٣٠ أبريل سنة ١٣١٢ والذى كان السبب فى هدم السور من الجهة الشمالية والشرقية وهدم البرجين وغرف الرهبان والسور الجنوبى الغربى الحالى هو السور الوحيد الذى وصل إلينا فى حالته القديمة بأستثناء جزئه العلوى. أما السور الشمالى الشرقى، فقد تعرض لأعمال الترميم، أذ أعيد بناؤه، فى سنة ١٣١٢م ثم تهدم قسم منه فى أواخر القرن الثامن عشر، فبعث الجنرال كليبر من القاهرة عددا من البنائين يبلغ ٤٦ بناء لإعادة بنائه بصخر الجرانيت على النظام الرومانى. ثم أصلح السور مرة ثالثة في عهد الأسقف قسطنطيوس فى سنة ١٨٣٨ (١٠). والدير يضم عددا كبيرا من الأبنية، منهامخازن للغلال، ومطاحن، معاصر، وغرف للنزلاء، وغرف للرهبان، ومطابخ، وصالات وبستان. وأهم ما يحتوية الدير كنيسة التجلي وبعض المصليات الكنسية والمسجد والمكتبة. ولقد تعرض دير سانت كاترين منذ بناؤه لهجمات البدو، ولذلك حرص العرب منذ أن أفتتحوا مصر على تأمين أهل الدير، ورعاية الرهبان، وشملهم بالحماية، وأصبح الدير منذ ذلك الحين موضع إحترام ولاة مصر وخاصة فى العصر الفاطمى. ففى

هذا العصر لم يكف هذا الخلفاء الفاطميون عن إصدار المنشورات الخاصة بحماية أصحاب الدير من إعتداءات البدو، وبسط رعايتهم على رهبانه مما كان يقصدهم به الولاة من الأجحاف، وأعفاء أصحاب الدير من الضرائب، وأعتماد أسقف الدير ورهبانه بالمعونة والمراقدة، وتسهيل مطالبه، والمبالغة في إعزاز جانبه. وأقدم هذه الوثائق المحفوظة بمكتبة الدير خمس وثائق ملفوفة ترجع إلى عصر الدولة الفاطمية. أحداها صادر في ذي الحجة سنة ٥٢٤ هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ١١٣٠) من أبي علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش، وزير الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمي، والثانية والثالثة صادرتان من أبي المظفر بهرام الحافظي سنة ٥٢٩ هـ، والرابعة صادرة من الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمي على يدي الملك الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك في سنة ٥٥١ هـ، والخامسة صادرة من الوزير الملك الصالح طلائع سنة ٥٥٣ هـ (١١).

وفي العصر الأيوبي تمكن صلاح الدين يوسف بن أيوب من أفتتاح في سنة ٥٦٦ هـ، وأتخذها مركزا إستراتيجيا ليتحكم في الطريق ما بين مصر والشام والحجاز، وكانت إيلة من حصون الكرك الهامة، وتقع على رأس خليج العقبة، في أول الشام. وأقام صلاح الدين في سيناء عدة مراكز حصينة في المنطقة الفاصلة بين مصر ومملكة اللاتين ببيت المقدس، الممتدة إلى حدود مصر في صحراء النقب، وأهم هذه القلاع قلعة تعرف بقلعة الجندي في قلب سينا، في طريق أيلة، لا تزال آثارها ظاهرة حتى اليوم، وقلعة أيلة بجزيرة فرعون (١٢). ولقد أقام صلاح الدين بزيارة قلعة أيلة في سنة ٥٧٠ هـ قبل أن يسير إلى الشام لحصار حلب وقد زارها للوقوف على هذه التحصينات السينائية ومدى صلاحيتها.

ولاشك أن صلاح الدين جدد ما كان يقوم به الخلفاء الفاطميون من رعاية الرهبان المنقطعين للعبادة في دير سانت كاترين، وتابعه في ذلك أخوة الملك العادل سيف الدين أبو بكر من بعده، ولدينا وثيقة صادرة منه إلى رهبان الدير، هدد فيها من يتعرض للرهبان بضرر أو أذى بأشد العقاب، وفى وثيقة أخرى نراه يأمر صاحب قلعة إيلة بالأمتثال لما جاء في منشوره. وفى نهاية هذا المقال ضميمة بثلاثة امثلة في المنشورات والمراسيم.

هذا الإهتمام الكبير من جانب الخلفاء الفاطميين بدير سانت كاترين ينعكس في بناء جامع بالدير يصلى فيه جماعات العرب الذين يسكنون فى نواحي الدير، ويتولون حماية أصحابه الرهبان من غارات البدو، وفى بناء عدد من المساجد بجبل مناجاة موسى وجبل دير فاران وحصن الساحل عند أيلة.

ولقد تبقى اليوم مسجد الدير بمئذنة ومنبره وكرسيه، ،كلها ترجع إلى العصر الفاطمي. كما تبقى بالبازيلكية باب من الخشب من العصر الفاطمى، وبعض آثار أخرى إسلامية سنذكرها عند دراستنا للآثار والتأثيرات الإسلامية فى البازيليكية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسجد دير سانت كاترين

نستطيع بفضل النقش الكتابى المسجل على كرسى المسجد إرجاع تاريخ منابر مسجد الدير إلى ما بين عامى ٤٩٥، ٥٠٠ م (١١٠١ - ١١٠٦ م). أقيم هذا المسجد فى خلافة الآمر بأحكام الله الفاطمى، وتم بناؤه بنظر الأمير أبى المنصور أنوشتكين الآمرى (١٣)، وقد قام الأستاذ الدكتور أحمد فكرى بدراسة علمية منظمة لذلك. ولذلك فأننى أقتصر هنا على التعريف بهذا المسجد، ووصفه وصفا ظاهريا من واقع مشاهدتى له.

يرتفع بناء المسجد إلى ما يقرب من سبعة أمتار عن الجدار الشمالى الغربى من السور الدائر بالدير، ويبعد المسجد ما يقرب من ستة أمتار عن واجهة البازيليكية، وهو بناء ساذج بسيط للغاية، أرضيته من لوحات حجرية متراصة، وتكسو جدران الجامع كله بما فى ذلك المئذنة، طبقة من الجير الأبيض. ويشغل المسجد مساحة من الأرض مستطيلة الشكل، ويبلغ طوله نحو عشرة أمتار، وعرضة سبعة أمتار (١٤)، وينفتح مدخل المسجد قبالة المحراب، أى أن هذا المدخل يقع فى محور المسجد. ويتألف هذا المسجد الصغير من ستة اساطين (١٥) موزعة على صفين موازيين لجدار القبلة، والعقود نصف دائرية مطولة، ارتفاعها فوى مستوى سطح الارض نحو ٢٥٧٨ متراً. وهى عقود اربعة عمودية على جدار القبلة، يخترقها فى الوسط ثلاث عقود موازية لجدار القبلة. والمسجد على هذا النحو ينقسم الى ثلاث بلاطات واسكوبين، ويعلو رأس كل من هذه العقود الثلاثة الموازية لجدار القبلة نافذة مربعة الشكل تنفتح فى الجدار الذى يصل العقود بالأسقف، وهو جدار عاطل من الزخرفة. ويعلو العقدين العموديين على جدار القبلة فى الأسكوب الأول نافذتان مربعتا الشكل، وترتفع العقود على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دعيمتين مصلبتين Cruciformes تتوسطان المسجد، تنبت من كل منهما مباشرة دون توسيط الحدائر impostes أربعة عقود، ثلاثة منها تستند على جدران المسجد، والعقد الرابع مشترك بين الدعيمتين. المحراب جوفة نصف دائرية تتوسط جدار القبلة، وتلصق بثلثها الأدنى ثلاث حلبات الوسطى منها لوحة من الألبستر إرتفاعها يبلغ مترا، وكان تؤلف فيما مضى غطاء لمذبح بيزنطى لكنيسة قديمة مهدمة لعلها كانت تقوم في الوضع الذى يشغله المسجد اليوم (١٦)، ثم أعيد أستخدمها في المسجد (١٧)، ويحف بهذه اللوحة إلى اليمين واليسار فسيفساء من الرخام أقل ارتفاعاً من اللوحة الوسطى، وتؤلف الفسيفساء تكوينات هندسية متشابكة من دوائر ونجوم. وعقد المحراب فاطمي الطراز، يستند على أفريز خشبي ممتد على طول جدار القبلة ولا يقوم هذا العقد على دعائم أو أعمدة على نحو ما هو متبع في المساجد بوجه عام، ويكتنف فتحة المحراب شرقاً وغرباً فيما بين العقود الفاصلة محرابان ثانويان، على النحو الشائع في المنشآت الدينية في العصر الفاطمي من مساجد وأضرحة". ويعلو كل محراب منهما عقد من نفس طراز العقود الفاطمية المكسرة من أعلى، وتتشعع من أعلى الطائفة قنوات تمتد إلى محيط العقد مؤلفة من ١٣ فصا في الجوفة اليمنى من المحراب، و١١ فصا في الجوفة اليسرى منه.

وأهم ما في هذا المسجد من الناحية التاريخية والأثرية المنبر، ويبلغ طوله ٢٤٧ مترا، وإرتفاعه حتى أعلى جانبيه ٧٤٠ مترا، إرتفاع بابه ٢٦٢ مترا، ويبلغ عرض المنبر من ظهره فيما بين جانبيه ٦٣، مترا، ويحتفظ المنبر بمعظم حشوائه الزخرفية، ويدخل المنبر على شكل عقد نصف دائرى مدبب الرأس، ويحيط أطار مستطيل الشكل، وتزدان بنيقتا العقد بزخارف من التوريقات (Arabesques) أهم عناصرها المراوح النخيلية والفروع النباتية. المنحنية، تتفرع منها أوراق سعفوفة وملتفة في تناسق وإنسجام. ويعلو العقد فراغ

مستطيل الشكل كانت تشغله اللوحة التى تسجل صنعه، وهى لوحة من الخشب تتضمن كتابة بالخط الكوفى الفاطمى الذى تلتوى فيه نهاية السيقان فى شكل زخرفى جميل، وتشمل اللوحة على ستة أسطر من الكتابة حفرت فيها الحروف حفرا غائرا، بحيث تبدو بارزة، ويبلغ طول اللوحة نحو ٣٠ سم وعرضها نحو ٨٠ سم. ونص النقش الكتابى ما يلى. (بسم الله الرحمن الرحيم. لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، بيده الخير وهو على كل شئ قدير نصر من الله وفتح قريب. لعبد الله ووليه أبى على المنصور الأمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وإبنائه المنتظرين (١٨). أمر بإنشاء هذا المنبر السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش (١٩)، سيف الأسلام، ناصر الأمام، كافل قضاة المسلمين،، وهادى دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه (٢٠) عند الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المسلمين، وأدام قدرته، وأعلاء كلمته، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة خمس مائة.أتق بالله).

ويتكون المنبر من سبع درجات ينتصب على جانبيهما مسندان أن مشرجبان بخشب الخرط، والدرج الأخير منها بأعلى المنبر على شكل كرسى، جوانبه الثلاث من الداخل مزينة بحشوات مستطيلة تملؤها زخارف من التوريقات، ويغطى جانبى المنبر حشوات خشبية نحتت فيها زخارف نباتية نحتا غائرا. وعدد حشوات جانبى كرسى المنر من أعلاه حتى الأرض تسعة صفوف أفقية، الصف الأعلى حشوة واحد مزدوجة، ويليه من أدنى صف من ثلاث حشوات. أثنتان كبيرتان تتوسطها حشوة صغيرة. وتنتظم بفقيه حشوات جانبى كرسى المنبرعلى نظام الصفوف الحجرية فى البناء. أما الحشوات الجانيبة للمنبر ببقية درجاته، فمعظمها صفوف من حشوات منتظمة الوضع، وللمسجد كرسى للمصحف من الخشب على شكل هرم ناقص إذ تميل قوائمه الأربع نحو الخارج، بحيث تتجه رؤوسها نحو الداخل

كلما إرتفعت فبينما يصل طول كل جانب من فى ادناه إلى ٤٨ سم يصل فى أعلاه إلى ٢٤ سم، ويبلغ إرتفاع قوائم الكرسى دون أحتساب رؤوسها وقواعدها نحو ٤٦ سم. وتمتد الكتابة الكوفية المزينه بفروع نباتية على شريطين فى جميع جوانب الكرسى، فالشريط الأعلى يبدأ بالبسمله، وينتهى بعبارة (موسى عليه السلام)، ثم يبدأ النص بعد ذلك فى الشريط الثانى الأدنى، على الجانب الذى يلى الجانب السابق حتى ينتهى النص اخيرا بلفظه (الآمرى). هذا وقد حفر ما حول الكتاب بحيث ظهرت الكتابه بارزة، وفيما نشاهد جمال الخط الكوفى الذى يرجع إلى نفس الفترة التى كتبت فيها اللوحة التأسيسية، وتمتزج الكتابات هنا بتوريقات نباتية من مراوح تخيلية ملتوية أو ملفوفة ونلاحظ أن طريقة الكتابة فى هذا الكرسى لا تختلف عن طريقة الكتابة فى لوحة المنبر، اللهم إلا من التوريقات التى تزدان بها حروف الكتابة فى الكرسى،

والنص الكتابى كما يلى.

(بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمل هذا الشمع والكراسى المباركة والجامع الذى بالدير الأعلى والثلاث مساجد فوق مناجاة موسى عليه السلام) وتكمله النص فى الشريط الادنى وهو كمايلى. (والجامع الذى فوق جبل دير فاران الجديدة التى بحصن (٢١) الساحل الأمير الموفق المنتخب منير الدولة وفارسها أبى المنصور أنوشتكين الأمرى ومئذنة المسجد من الطرز الفاطمى، ولاتختلف فى مظهرها عن المأذن الفاطمية فى مصر وخاصة مئذنة ضريح الجيوش التى يرجع بناؤها إلى سنة ٤٧٢ هـ (٢٣)، وتتألف من برج قاعدته مستطيلة الشكل (٣٢٥٠ x ٣ مترا مربعا)، وينتهى من أعلى بشرفة، ثم يعلوه آخر أقل إرتفاعا وأصغر حجما، ينتهى بقبة ويصل إرتفاع البرج مابين ٧و٨ أمتار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التأثيرات الإسلامية في كنيسة الدير

وكنسية الدير تضم بعض عناصر فنية ذات تأثيرات إسلامية واضحة المعالم تتمثل في الأبواب الخشبية وفى عقدين توامين بالجدار الأيسر من مصلى سان جاك، وشمعدانين من الطراز الإسلامى محفوظين فى مصلى سان أتيين، وبلاطات من الفسيفساء بأرضية البازيليكية وباب الكنيسة يرجع تاريخه إلى العصر الفاطمى أيضا، لأن زخارفه من الأسلوب الشائع فى هذا العصر، وهى تشبه إلى حد كبير الزخارف النهائية التى تكسو حشوات المنبر ويتألف باب الكنيسة من مصراعين إرتفاعا كل منهما ١٠ ، ٣ مترا، وعرضه ٨٧و٥ مترا، ويشتمل كل مصراع منهما على خمس لوحات كل لوحة منها تماثل نظيرتها فى المصراع الأخر من حيث التكوين الزخرفى. واللوحة الوسطى فى المصراع الأيسر مربعة الشكل تتوسطة حشوى على شكل صليب تنقسم كل فرع من فروعة الأربعة رأسين على شكل حرف m فيتألف منها ما يشبه نجمة ذات ثمانية رؤوس، تتصل بها فى أركان المربع حشوات على شكل مسدسات عددها أربعة ويشغل وسط جوانب المربع على شكل أصناف المسدسات. وتمتلئ كل هذه الحشوات بزخرفه من التوريقات بينها رسوم محفورة حفرا غائرا تمثل المسيح واقفا فى وسط اللوحة وحوله ملائكة وقدسيين على رؤوسهم هالات، فى أوضاع مختلفة، أما اللوحة الوسطى فى المصراع الأيمن، فأنها تصور أيضا مناظر دينية، ففى المركز نشاهد قديساً على رأسه هالة، أمام مذبح تعلوه فى قبته، وعنصر الزخرفة وأسلوب تمثيل الاشخاص يؤكد أن هذا الباب صنع وزخرف فى العصر الفاطمى وأنه يرجع الى بداية القرن الحادى عشر الميلادى (٧٤) (الخامس الهجرى)، وأن كان لا يضارع فى الدقة روائع فى النحت فى الخشب فى العصر الفاطمى. وإلى أعلى وإسفل كل من اللوحتيين المذكورتين لوحتان تتوسط كل منها حشوة على شكل صليب بداخله زخارف نباتية، ويعلو

جوانبه أفاريز قوامها حشوات صغيرة مملوءة بالتوريقات، من نفس نوع زخارف حشوات منبر المسجد وبأعلى كل من المصراعين وبأدناه حشوتان متماثلتان، قوام زخارفهما معين أوسط، أى مربع قائم على رأسه، وبداخله زخرفة نباتية ويحف بكل منه حشو على شكل تزخر بالتوريقات. وينتهى الفناء الأيسر من البازيلكية بباب يفضى إلى مصلى، ويقع إلى يساره باب من الخشب كله حشوات من الخشب المطعم بالعاج، تتوسطه حشوة مركزية نجمية الشكل، تتفرع من رؤوسها خطوط متقاطعة متداخله تؤلف أشكالا هندسية في غاية الروعة ،والجمال. والباب يشبه الأبواب الخشبية الشائعة في عصرى المماليك البحرية والشراكسة. وبمصلى سان جاك نافذتان تؤأمتان عقداهما نصف دائريين، ويحيط بالنافذة اليمنى زخارف نافذة من النجوم مثمنة الرؤوس، بينما يحيط بالنافذة اليسرى عقود صغيرة متصلة يدور بأعلاها جميعا أفريز يتخذ شكل العقد. ويغلب على الظن أن النافذتين المذكورتين بزخارفها ترجعان الى العصر الأموى. وفى مصلى سان اتين شمعدانان من النحاس يرى رايينو انهما صنعا بالموصل فى القرن ١٢ أو١٣ الميلادي، ونرى أنهما أحدث بكثير من هذا التاريخ وأعتقد من الزخارف النباتية والكتابة التى تكسو ساقيها أنهما من عصر المماليك الشراكسة، وأنها صنعا فى أواخر القرن ١٥م. وقد طالع رايينو الكتابة المنقوشة عليها وأوردها فى كتابة ولكنه اخطأ فى قرائتها. والشمعدان يتألف من ساق وسطى مثمنة الشكل يزدان فى كل جانب من أعلى ومن أسفل بجامة مستديرة بها زخرفة نباتية، ثم جامتان مسدستان، وتتحول هذه الساق المثنة من أعلى ومن أسفل إلى شكل أسطوانين، ويحف بهما من الطرفين الاعلى والأدنى شريط من الكتابة الكوفية المزهرة، وصف من الزخرفة النهائية من أوراق الزنبق ثم ينتهى الشمعدان بعد ذلك من أسفل إلى قاعدة على شكل قرص تتناوب فيه أقواس مستديرة ويقوم الشمعدان على ثلاث أرجل من الأقواس البارزة وتقرأ فى النقوش الكتابة عبارة (بركة كاملة. نعمة شاملة)

متتكررة. وتزادن أرضية الفناء الأوسط بالبازيليكى بفسيفساء ملونة غاية فى الروعة والجمال من عصر دولة المماليك البحرية، تشكل تكوينات هندسية الشكل من مسحات وأشكال نجمية ومربعات ودوائر وخطوط معقوفة. ولقد أعجب هذه الأرضية حجاج الدير فى القرن ١٥ م وقارنها باسيل بو زيناكوف (١٥٥٨ - ١٥٦١) بزخارف الفسيفساء الشائعة فى دمشق ٢٠٠ ولقد جدد فسيفساء هذه الأرضية الأسقف أناستاسيوس فيما بين سنتى ١٥٨٣-١٥٩٢ ثم أعيد أصلاحها مرة ثانية فى سنة ١٧١٤ على يد أثاناسيوس من رئيس أساقفة طورسينا وسجل ذلك فى لوحة من الرخام تحت ضريح سانت كاترين، ونصها. (جدد بلاط هذه الكنيسة المقدسة اثاناسيوس رئيس اساقفة طورسيناء. وهو عمل المعلم نصر الله الشاغورى الدمشقى وكان التمام يوم عيد الرسل سنة ١٧١٥ مسيحية). وبالكنيسة وبسائر أنحاء الدير كثير من النقوش العربية محفور على الحجر او الرخام والفسيسفاء كما أن بكثير من الايقونات المقدسة كتابات عربية نخص بالذكر منها ايقونتين محفوظتين بداخل الكنيسة. الأولى كانت تزين مصلى موسى اما الثانية فكانت محفوظة فى مصلى النبى ايلياس على جبل موسى أيضا والكتابة فى كلتيها بالخط الكوفى التى تنهى سيقانه بتوريقات نباتية واغلب الظن أنهما من القرن الحادى عشر. ونص النقش الكتابى بالايقونة الأولى. (ياناظر الله أعلى منك مغفرة . . لأصطفان الذى صور محاسنكا) ونص الكتابة بالايقونة الثانية. (أسفح لمن ... اصطفان ... أيليا غفران ما اجترما) وأصطفان المذكور اصله من أيلياء (القدس) وورد أسمه فى تقريونانى (أسطفان بن مارثيربوس) وهو المهندس الذى قام ببناء الكنيسة ويبدو انه كان بجانب وظيفته كمهندس مصور بارعا فهو الذى صور هاتين الأيقونتين ونبذه رقم (١٠) صادرة من الأمام الفائز بنصر الله سنة ٥٥١هـ يقصده به الولاده من الأجحاف ويعتمدون به من الحيف والأعتساب ويلتمسون من جهته من رسم أحدثوه وهو عشرة دنانير ... فأن ذلك قد

قضى له ولمن منعه من الرهبان بالأضرار وأجحف به وبهم التمادي عليه والأصرار، أنكرنا ذلك على معتمديه، وذممناه من قصد قاصديه وخرج أمرنا بأيداع هذا المنشور الأمر بإزالة هذا الرسم، وتعفيته، والمنع من التماسه من هذا الأسقف والحذر من تناوله من جهته، واعتماده بالرعاية والملاحظة، والمعوانة والمرافدة والمبالغة في أعزاز جانبه ، وتسهيل مطالبه، والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه مغرما وأخرامه على العوامر المرضية، والأوضاع المختاره، فمن قرأة أو قرئ عليه من كافة الأمراء الولاة بالحمون الطورية آدام الله عزهم فليعمل بالممثل فيه، وليفعل ما يوحيه حلمه، ويقضيه الجيوش سيف الإسلام، غياث الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين أبو الغارات طلائع الغازي، وتصمينه أنه لما كان من شيمنا إزالة المحرمات، وتعفيه آثارها والمنع من الأستمرار عليها، وتأكيد انكارها، ورعاية ما تحتوى عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة، وأعتمادهم بمنا تسبغ عليه ملابس الحنو والرحمة، يتساوى في عدلنا الصغير والكبير، ويشملهم من حسن نظرنا مايسهل عليهم من المطالب كل مستصعب عسير، وأنهى إلى حضرتنا أستضرار ارطومة أسقف طورسينا مما بنصر الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه المنتظرين، السيد الاجل، الملك الصالح، ناصر الامة، كاشف الغمة، أمير (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد الله على نعمه منشور يقدم بكتبه من مولانا وسيدنا الامام الفائز وليحذر من تجافيه. في شهر ربيع الاخر سنة احدى وخمسين وخمسمائه.

الحمد الله وحده وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا. حسبى الله ونعم الوكيل).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش :-

(١) ياقوت، معجم البلدان، مادة طورسينا، مجلد٤، طبعة بيروت ص ٤٨ .
(٢) القرآن الكريم، سورة التين.
(٣) ياقوت معجم البلدان، مادة طور، مجلد٤، ص٤٧.
(٤) نفس المرجع ص٤٨ .
(٥) ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ ص٦٩
(٦) Willam Farid Bassili, Sinai and st. Catherine monastery, Cairo, 1957,P.11.

سامي شنودة، الصور المقدسة بدير القديسة كاترين بشبه جزيرة سيناء، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية عدد ١٤٠، الاسكندرية ١٩٦٠،ص١٩٢ .

(٧) عندما تعرض رهبان سينا لهجمات البدو المقيمين بسينا عليهم، أرسلوا وفدا من القساوسة. تيودوسيوس وبروكوبيوس ونجوميوس وسابا وأنطونيوس للتوجه إلى الإمبراطور جستنيان، وشكوا إليه ما يلاقونه من هجوم البدو عليهم ورجوه أن يعمل على ،حمايتهم فأمر جستيان بأن يبنى لهم برج يقيمون فيه، وأرسل جاورجيوس إلى تاوضروس، نائباً فى مصر، يأمره بأرسال المهندسين والبنائين من هناك إلى سينا لأقامة دير لهؤلاء الرهبان" وشرع المهندسون فى البناء بموضع العليقة. وبعد أن تم بناء الدير أرسل اليهم جستنيان عددا كبيرا من الأسرات المقيمة فى منطقة البحر الأسود واسرات اخرى من مصر للإقامة قريبا من الدير لحماية الرهبان(أنظر وثيقة رقم ٦٩٢ بمكتبه دير سانت كاترين).
(٨) مخطوطة رقم ٦٩٢ بمكتبة الدير.
(٩) M.H.L. Rabino, Le Monaster alesainte, (atherine du

Mont - sinai,Lecarie, 1938 P.11.

(١٠) أنظر التفصيلات في المرجع السابق ص ١١ - ١٦، ووصف البازيليكية في الصفحات من ١٨٠ الى٢٨ .

(١١) ارجع إلى الوثائق الملفوفة بمكتبة الدير أرقام من ٦ الى ١٤ .

(١٢) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، القاهرة ١٩٦٠. ص ١١٧ - ١٢٤٠ .

(١٣) هو أمير الجيوش أبو منصور أنوشتكين التزبرى، نائب المستنصر بالله في الشام، وقد سمى بالتزبرى او الدزبرى نسبة إلى القائد تزبر بن الديلمى (أنظر ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، طبعة بيروت ١٩٠٨، ص ٨٣ - أبن الاثير، الكامل فى التاريخ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ج ٨ ص ٣٢ - جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى على الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، القاهرة ١٩٥٩، ص ٥٦ وما يليها).

Rabion, op.Cit. P.39 (١٤)

(١٥) الأساطين جمع اسطوان، والاسطوان فى العمارة الإسلامية قطاع من الأروقة محصورة بين اربعة أعمدة.

Rabino,op. Cit. P.39(١٦)

(١٧) هناك كتابات مسجلة بالحبر الأحمر على محراب المسجد منها كتابة بالخط الثلث على الجانب الأيمن من جوفة المحراب نصها. (هو حسبى ومعينى ومغيثى فى مفتنى ومشهدى. حضر فى هذا الجامع المقدس المبارك العبد الفقير المعترف بالذنب والتقصير، الراجى رحمة ربنا القدير، محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد الله، الحقير غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات أمين آمين ولمن قال أمين ، وصحبته الفقراء إلى

الله سبحانه وتعالى مزهد بن عبد الله، وكيران بن عبد الله، ومفتاح بن عبد الله، حرر فى ثامن وعشرين من رمضان المعظم قدره سنة ٩٢٥ حامدا ومصليا ومسلما ومحسبلا ومحوقلا). وهناك كتابة بالخط النسخى بأعلى الجزء الأوسط من المحراب ، نصبها. (بسم الله الرحمن الرحيم. رب آتنا فى الدنيا حسنة وفى الأخرة حسنّة، وقنا عذاب النار وأودع فى المكان المبارك شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ورضى الله عن أبى بكر وعمر وعثمان وعمر وعلى، وعن جميع أصحاب رسول الله عليهم أجمعين كتبه الفقير ولى أبن نقيا الآغا الطور المبارك وعلى طائفة الطور وأخوانه المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات أنك سميع قريب مجيب الدعوات. العبد الفقير إلى الله تعالى سليم بن محمد الخطيب الطور، عبدى بن قدرى طويجى باشى إبراهيم بن محمود بلوك باشى، عبد الله بن محمود بلوك شى، عنبر بن عبد الله المهتر باشى، وأحمد التواب، وبابا سفر يوسف بن عثمان، وريمان بن عبد الله تابع آغا حسن بن نصوح ،ساير المسلمين أجمعين. الواقع تحريرا فى ١٨ شهر رجب المرجب سنة أحدى وعشرين بعد الألف).

وفى الجزء الأوسط من جوفة المحراب كتابة الخط النسخى، نصها.

(بسم الله الرحمن الرحيم يا فتاح يا عليم أودعت فى هذا المكان المبارك شهادة أن اله اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، كتبه رضوان الهوارى بن على الرافعى، ءان الله له أبن ما ولى بوجهه وغفر له ولولديه جميع الذنوب والخطايا والأثام، وهلك أعداه بحق النبى المصطفى خير الأنام. حضر فى هذا المكان المبارك وكتبه فى أربعة عشر جمادى الأول سنة ثمانية وسبعين بعد الألف ١٧٥٨ م يا دايم يا دايم يا دايم).

(١٨) ذكرها رابينو المنتصرين.

(١٩) هكذا قراها رابينوا أمير الحرمين.

(٢٠) هكذا مكتوبة وقراها رابينو شاهنشاه، وشاهنشاه هذا أبو القاسم محمد شاهنشاه أبن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله وابنه المستعلي بالله ثم الإمر بأحكام الله، إلى أن قتل سنة ٥١٥ هـ (أرجع إلى. أبن خلدون كتاب العبر، طبعة بيروت، ١٩٥٨، ج ٤، ص ١٣٨ وكذلك Encyclopeadia of Islam مادة الأفضل). (New edition)

(٢١) ذكرها رابينو (بحصر).

(٢٢) قرأها رابينو (الأميرى).

(٢٣) السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، نظرة عامة عن أصلها وتطورها القاهرة ١٩٥٩، ص ١٩ وما يليها.

(٢٤) Rabino, Cit. p. 18

Rabino, op. cit, p. 22

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثيقة

الهداية الآمرية في أبطال الدعوي النزارية

(من كتاب مجموعة الوثائق الفاطمية)

تبدأ هذه الوثيقة كالعادة بالحمد، ثم تنتهي بالصلاة على محمد، وعلى عليّ "وصيه ووارث مقامه"، وعلى الأئمة من ذريتهما "الذين أحتووا بهذا بهدايتهم من الحكمة زماما، وأزاحوا بأنوارهم من الضلالة ظلاما".

وهذه الوثيقة تعتبر من أهم الوثائق التى وصلتنا عن العصر الفاطمى لأنهما تلقى أضواء كثيرة على أول انقسام مذهبى وسياسى أصاب الدولة الفاطمية وهو الإنقسام الذى حدث بعد موت الخليفة المستنصر، وأدى إلى أبعاد أبنه الأكبر نزار عن الخلافة وتولية الأبن الأصغر أبى القاسم أحمد (المستعلى بالله)

وأنقسمت تبعا لذلك الشيعة الإسماعيلية إلي فرقتين:

الإسماعيلية النزارية التى نجح دعاتها فى أقامة ملك لهم فى الموت ثم فى الشام وقد لعبوا دورا خطيرا فى التاريخ الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس.

والإسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية في مصر.

وقد ناصب النزارية الفواطم فى مصر العداء، ولم يلق الخلفاء الفاطميون -منذ عهد المستعلى أعداء أشد قسوة من النزارية بحيث نستطيع أن نقول أن تاريخ الحركة الإسماعيلية بوجه عام، وتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر بوجه خاص، كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذى عرفناه لو أن الإسماعلية النزارية (الحشيشية) اتحدوا مع الفاطميين فى مصر بدلا من أنتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم والأضرار بهم.

والخلاف بين الفرقتين يتصل أتصالا وثيقا بصميم المذهب ومبادئه الأساسية، وقد أشرنا من قبل إلى أن نظرية الأمامة هي عند الشيعة بمثابة الركن الركين والعنصر الأساسي من مذهبهم، بحيث أعتبر من لا أمام له خارجا ومارقا عن الدين، والأمامة فى معتقدهم تنتقل بالوراثة من الأب إلى

- الأبن من نسل على أبن أبى طالب - وذلك لأن للأمامة صفات ومميزات خاصة وعلوم لدنية تلقاها الأمام الأول علىّ عن محمد عليه السلام، وهذه الصفات والعلوم يستودعها كل أمام الأمام اللاحق له.

ومن الشروط الهامة لصحة الأمامة عند الشيعة الإسماعيلية الوصية أو "النص) إي أن ينص الأمام السابق على الأمام اللاحق من أولاده، فهم يعتبرون "النص" بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الأمام السابق، ولذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الأمامة، ويشترط فى النص عندهم أن يصدر عن الأمام وقت نقلته أى عند موته، بمعنى أنه إذا صدر عن الأمام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فأنه لا يؤخذ إلا بالنص الأخير الذى صدر عنه وقت نقلته وإنتقاله إلى الدار الآخرة، لأنه فى رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة.

وهذه الموضوعات جميعا هى موضوع مناقشة في الوثيقة الهداية الآمرية" لأنها جميعا أثيرت عند موت المستنصر، وظلت تثار بعد هذا وخاصة فى عهد الخليفة الآمر ابن المستعلى. والحقيقة أن أبعاد نزار وتولية المستعلى يعتبر أنقلابا واضح المعالم قام به الوزير الافضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد المستنصر، فقد كان نزار - عند موت ابيه المستنصر - رجلا مكتمل الرجوله - ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل - أثناء حياة المستنصر علاقات طيبة، بل لقد كانت على العكس علاقات يشوبها الكرة المتبادل ، يشير إلى هذا المقريزى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقوله : "وقوم يذكرون أن المستنصركان قد أجلس أبنه أبا المنصور نزار لأنه اكبر اولاده، وجعل إليه ولايه العهد من بعده، فلما قربت وفاته أراد أن يأخذ له البيعه على رجال الدولة، فتقاقد له الأفضل ودافع حتى مات، ولذلك انه كانت بينه وبين نزار مباينه، وكان في نفس كل منهما ضغينه من الاخر، لأمور منها:

أن نزار خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر، فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب، فصاح به: أنزل يا أرمنى النحس، فحقدها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما للآخر.

ومنها أن الأفضل كان يغار من نزار في أمور بأيام حياة أبيه، ويرد شفاعاته، ويضع من قدره، ولا يرفع رأيا لأحد من غلمانه وحواجيه، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر، فلما عزم المستنصر على أخذ البيعه لنزار أجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشية، وخوفهم من نزار، وحذرهم من مبايتعه، وأشار عليهم بولاية أخية أحمد، فأنه صغير لا يخاف منه، ويؤمن جانبه، فرضوا بذلك وتقرر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكى - من قرية يقال لها لك برقه - فأنه لم يوافق، لأنه كان قد وعده نزار بأن يوليه الوزارة لتقدمه على الجيوش مكان الأفضل، فلما أطلع على ماقرره الأفضل من ولاية من ولاية أبى القسم أحمد مع الأمراء وأنهم قد وافقوه على ترك مبايعه نزار طالعه بجميع ذلك الخ"

وكان من العسير إلى وقت قريب فهم هذا الانقسام السياسى المذهبى وآثاره التاريخية فهما واضحا، لأن المعلومات التى تقدمها المراجع التاريخية كانت فى معظمها غامضة غير واضحة، كما أنها تمثل - فى نفس الوقت - وجهة النظر العادية آى وجهة النظر السنية، لأن بعض المؤرخين الذين نستطيع أستشارتهم والذين تتدوال كتبهم بين أيدى الباحثين هم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤرخون سنيون.

وفى السنوات الأخيرة بدأت المؤلفات الأسماعيلية - النزارية منها والمستعلية - لحسن الحظ - تلقى أضواء جديدة على تاريخ هذا النزاع، وأهم من هذا كله فتقدم للباحثين وجهة النظر الأخرى، وجهة نظرالفريق الأصلى صاحب النزاع.

أما آراء الفرقة النزارية فأن الفضل الأكبر فى معرفتها يرجع إلى بعض المنشورات التى قام على أخراجها ونشرها أخيرا المستشرق الروسى الاستاذ (أيشابوف Wivnow) وأما وجهة النصر المستعلية، أو بمعنى أدق الرأى الرسمى للحكومة المستعلية فى مصر فيظهر جليا واضحا فى هذه الوثيقة الرسمية موضوع دراستنا، والموسومة بإسم "الهداية الآمرية فهى سجل رسمى صادر عن الخليفة الفاطمى العاشر الأمر بأحكام الله -
أبن المستعلى - تنفيذ أدعاءات الفرقة النزارية، وقد قام بنشر هذه الرسالة لأول مرة الأستاذ على فيظى سفير الهند السابق فى مصر.

والوثيقة - يقدم تاريخها والأدلة المبنية بها - وتقدم أضافات قيمة للباحث في تاريخ النزاع بين النزارية والمستعلية وأسبابه ونشأته، وخاصة للمراحل الأولى من هذا النزاع، لأن الوثيقة كتبت بعد مضى عشرين سنة فقط من نشأة هذا الانقسام السياسى المذهبى.

وقد كان للنزارية براهين كثيرة يدللون بها على صحة أمامه نزار، ويبدو من هذه الوثيقة والوثيقة التى تليها أنهم دأبوا - وخاصة بعد أقامة ملك لهم فى ألموت - على نشر هذه البراهين والدعوة لها بوساطة دعائهم للتشكيك فى صحة امامة المستعلى، وبالتالى فى صحة أمامه الامام القائم

وقتذاك وهو الآمر باحكام الله، ولهذا نرى أن منهج كاتب هذه الرسالة يتلخص في عرض البراهين التي يسوقها النزارية دليلا دليلاً ثم تفنيدها والرد عليها بالادلة الأخرى التي يعتقد في صحتها المستعلية ويؤمنون بها.

وكاتب السجل يناقش في أوله الفكرة الأساسية، فكرة الإمامة، ويهاجم الذين يجحدون أئمة دينهم ويتخذون أئمة ضلال، وكذلك من "صد عن حدود الله، وتأول على الولاية، وتحكم في الإمامة"، وهؤلاء .. في نظره - يقال لهم : أهبطوا من مرتبة الإيمان الخاصة إلى رتبة الغواية العامة وهم - لهذا - باؤا بغضب من الله حين فارقوا رحمته التي هي عصمة أمام الزمان، ثم هو ينتقل بعد ذلك إلى الهدف الأساسي، فيعرف بهؤلاء الذين وصفهم بالأوصاف السابقة ويقول هم:" قوم قالوا بإمامه نزار دون دليل واضح هداهم، ولا نص جلي قادهم إلى ذلك وأداهم."

ويبدأ كاتب السجل بمناقشة الأسلوب الصحيح لتعيين الإمام وبين أفضليه النص على الأختيار، فيقول:
"ومعلوم أنه لا طريق الى تثبيت الإمامة إلا بالنص والاختيار وقد أجمع جميع من ينسب إلى الدعوة الهادية على النص في تاتمامه وفساد الإختيار وذلك أن الأختيار لا يصح إلا بحصول شرائط في التخير والمتخير."

ثم يذكر هذه الشرائط ويدلل على صعوبة توفرها، وينتقل إلى البرهنة على أفضليه النص.

ويشترط في النص عنده أن يقرره الإمام في وقت أنفصاله ودقيقة انتقاله، وإذا كان هناك نص سابق للنص الصادر وقت النقلة فلا يؤخذ به، لأن الإمام قد يضطر أثناء حياته إلى النص على أشياء يقتضيها الحال أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سياسة الدولة، تث يعدل عنها بنص ونصوص أخرى، فالمعوّل عليه هو النص وقت النقلة لأنه آخر نص، يجب أى نص سابق ويلغيه وينسخه وعلى حد قول السجل: "ولا يعتمد فى ذلك إلا على ما يقرره (الإمام) فى وقت أنفصاله، ودقيقة انتقاله، والا فقد ينص على أشياء تقتضيها الحكمة فى وقت وتوحيها السياسة فى حالة، ثم ينسخها فى مقام آخر، وكل ذلك بحسب الأصلح فى أرشاد الخلق على قدر منازلهم وطبقاتهم فعيون الخفاش لا تثبت لضوء النهار فضلاً عن ان تثبت لضوء الشمس الذى يبهر أعين النظار."

فإذا أنتهى صاحب السجل من شرح فكرة الإمامة وبيان أنها لا تصح بالإختيار وانما بالنص، وأن النص المعتمد هو الصادر وقت النقلة، أنتقل بعد ذلك إلى الناحية التطبيقية فأكد صحة أمامة المستعلى وأن المستنصر لم يوصى لأحد غيره " فأنه أشار إليه ونص عليه، وأقعده فى دقيقة إنتقاله مقعده "وأبان أن نزارا فعل ما فعل لأنه" "لحقه من الحسد ما لحق أخوة يوسف".

والكاتب يأتى بعد هذا ببراهين كثيرة، يسوقها واحدا بعد الأخر، للدلالة على أن المستنصر أوصى للمستعلى ونص عليه فى مناسبات كثيرة، وأدلته تعتمد على أسس ثلاثة:

الأقوال والروايات التى تروى عن المستنصر ويؤكدها بروايات وأقوال أخرى روتها أخت نزار شقيقته وقت كتابة هذا السجل - أى فى عهد الآمر - وأدلة تعتمد على الأحداث والسوابق التاريخية فى العصر الفاطمى.

وأدلة تعتمد على مبادئ المذهب.

الأدلة المعتمدة على الأقوال والروايات التي تروي عن المستنصر:

- أن المستنصر لمَ يكنَّ بل أفصح بالنصَّ على المستعلى، وبالغ فى الأشارة بالأمانة اليه، وذلك أنه لما علم بما يكون من الخلاف فى أمره والفقة فيه سماه بأسم النبى، وكناه بكنيته، ليجعله رمزا خفيا "يعلمه العارف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخبير، ويفهمه الناقد البصير".

- أنه لما بشّر بميلاده، فى محضر من خاصته وأولاده قالوا: "ليهنك يا أمير المؤمنين الأمير"، فقال بل قولوا: "ليهنك الأمام"، ولم يعتمد هذا مع أحد من سائر أولاده.
- أنه لما تزوج المستعلى من أبنه أمير الجيوش بدر الجمالى أقعدة أبوه المستنصر.- يوم عقد النكاح - على يمينه، وأقعد سائر أولاده على يساره.
- أن المستنصر فى ذلك اليوم - يوم الزواج - نعت المستعلى بولى عهد المؤمنين ولم ينعت ولديه الأخرين - يعنى عبد الله ونزارا - إلا بولى عهد المسلمين "وبين ولاية عهد المومنين وولاية المسلمين كما يقول السجل" - "ميزة لا تخفى على أحد وحقيقة لا ينكرها إلا ذو بغى وحسد، ثم لم يكتف بهذا حتى كرر هذا النعت فى عدة مواضع من كتاب الصداق، وكتب علامته الشريفة بيده الطاهرة فوقه: "صح، والحمد لله رب العالمين"، وأشهد عليه من أعيان الشهود العدلين جماعة بعضهم فى قيد الحياة إلى وقتنا هذا " (ويقصد فى السجل)، ويؤكد الأمر - بأعتباره كاتب هذا السجل - هذه الحقيقة وكتاب الصداق موجود عندنا لا يقدر بشر دفع أعلامة ولا نقص أحكامة".

- لما تشاجر ولد المستنصر - عبد الله ونزار- فى الأمامة بين يديه، قال لهما: لا تشاجرا ولا تنازعا، فليس واحد منكما بصاحب هذا الأمر، وأنما صاحبه ها هنا أشار بيده إلى ظهره الطاهر، "وكان مولانا المستعلى حينئذ لم يحمل بعد، ،هذا كان فى يوم مشهود ومقام غير خفق ولا مجحود".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- لما حضرت المستنصر النقلة إلى الدار الأخرة، وحانت دقيقة الأنتقال "وهو الوقت الذى يعول فيه على النص أشار إليه (أى إلى المستعلى) ونص مصرحا عليه، وأمر من حضر بطاعته، وعرفهم ما خصه الله به من وراثة رتبته ومقامة ودرجته، فأذعن الجميع طائعين، وبادورا بشعاره معترفين، ولم يخالف فى ذلك أحد من المخالفين والموالفين إلا نزارا وشرذمة من الغلمان لم يعتقوا بعد، ولا فوض إليهم التصرف فى الأموال، فضلا عن التحكم فى الأمامة".

ثم يؤكد السجل هذه الأقوال والروايات بأقوال أخرى أوردتهما أخت نزار شقيقته فى أعترافها الذى أدلت به أمام كبار رجال الدولة قبل كتابة هذا السجل بأيام.

"وأعترفت به متبرعة، وأدت الأمانه معلنة، وأقسمت لمن حضر أن مولانا المستنصر بالله أمير المؤمنين صرح فى عدة مواطن بأن مولانا الأمام المستعلى بالله هو صاحب هذا الأمر بعده ووارث أمامته ومقامة".

وأيدت اعترافها بالأدلة التالية:

- أن أخاها نزار خرج وهو معترف بمقاطعته لله فيما فعل، ومن الحسد حمله على ما لجج فيه وتوغل.

- وأن نزار دخل عليهم يوم نكاح المستعلى بالله على بنت أمير الجيوش وقال لها: "ما يئست من الخلافة إلا فى يومى هذا، فأن مولانا المستنصر بالله نعت أخى أحمد بولى عهد المؤمنين، وأقعده، على يمينه وأقعدنى وسائر أولاده على يساره".

يشير السجل بعد ذلك إلى أن هذه السيدة قد تبرات علنا من أمامة أخيها نزارا، وأوجبت اللعنة على من يقول بها فى أعلان وإسرار،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

"وذلك أن الله أراد أن يطهرها قبل موتها من دنس العصيان، وأن يختم لها بخاتمة أهل الإيمان، وأن تستوجب برضى أمامها عليها أتم الزلفة والرضوان".

ويذكر السجل أن أولاد نزار الباقين حذوا حذوها في الأعتراف بالحسن لأهله، والتبرأ مما فرط من نزار وسلف من سوء فعله".

أما الأدلة المعتمدة علي الأحداث والسوابق التاريخية فتتلخص فيما يأتى:

- أن النبى عليه السلام قال: "كائن في أمتى ما كان فى بنى إسرائيل حذوا النعل بالنعل والقذة بالقذة"، وأعتمادا على هذا يرى كاتب السجل أ ن المستنصر بالله يشبه في دوره ومنزلته النبى سليمان فى دوره ومنزلته من بنى إسرائيل، فالمستنصر هو سليمان هذه الأمة لأنه واقع الرتبة والعدد من أئمة دوره موقع سليمان في الرتبة والعدد من أئمة دوره، وأن المستنصر أوتى ملكا لم يوت مثله أحد من آبائه طولا وتمكينا - كما أوتى سليمان - أو كما يقول النص: "سخرت له الريح والشياطين كما سخرت لسليمان"، ويفسر تسخير الريح للمستنصر بأنه تأييده، فى كل مقام". ويفسر تسخير الشياطين له بانه "إنقياد المارقين له والمخالفين لأمره ونهيه"، كنا نفسر قوله تعالى: "وما كفر سليمان" بقوله "أن كفر مولانا المستنصر بالله ولا جحد حقيقة علمه فى معلى الأمام من بعده، بل عقد الأمامة لمولانا المستعلى بالله فى يوم النكاح على رؤوس الأشهاد، ونص عليه فى دقيقة إنتقاله".

- ويمضى كاتب السجل فى المقارنة بين المستنصر وسليمان، فيقارن أيضا بين ما حدث بين ولدى المستنصر: المستعلى ونزار، وما حدث بين ولدى سليمان: ليختبئون ويربعون "ومما يعضد هذا التأويل ما ورد فى أسفار بنى إسرائيل من أن سليمان نص بالأمامة على ولده رحبعون،

كما نص مولانا المستنصر بالله على مولانا المستعلي بالله فحمده المسمى يربعون فخرج عليه، وأتبعه جماعة من أضلهم بمكره، وأستهواهم بسحره، وغير لهم نصوص الدين، وأزالهم عن الصراط الواضح المبين، كما فعل نزار فى خروجه على مولانا المستعلي وكانت الدعوة على نزار وأصحابه، وكانت العاقبة لأبن سليمان صاحب الحق كما كانت العاقبة لمولانا المستعلي بالله أمير المؤمنين".

- ويناقس كاتب السجل الحجج التى يوردها النزارية للبرهنة على صحة أمامة نزار، وخاصة القول بأن المستنصر دعا نزار بولى عهد المسلمين، ويستشهد الكاتب لتنفيذ هذه الحجة بسابقة تاريخية فى العصر الفاطمى نفسه، هى وصية الحكم لأبن عمه عبد الرحيم بن الياس بولاية العهد أثناء حياته، وأن كانت الأمامة قد تحققت لأبنه الظاهر لأعزاز دين الله بعد وفاته، ويمضى الكاتب فى تنفيذ هذه الحجة بجميع تفاصيلها وفروعها، فيقول:
"فأن قال قائل فيما تقدم من تقليد عبد الرحيم ان مولانا الحاكم بأمر الله أنما فعل ذلك لأنه لم يولد له ولد، فلما ولد له مولانا الظاهر لأعزاز دين الله صح الأمر له وإرتفع عن ذلك، قائل أن مولانا الحاكم بأمر الله لم يغب عن مكنون علمه أن مولانا الظاهر لأعزاز دين الله سيولد له، كما لم يخف على مولانا المستنصر بالله بأنه سيولد له مولانا المستعلي بالله، ولا فرق بين الأجنبى وبين الولد الذى ليس بأمام فى هذا، والحجة كما قدمنا على سياقها عليهم لا لهم؛.
- ويشير كاتب السجل بعد ذلك إلى شبهة أخرى يوردها النزارية وهى لم دعا المستنصر نزارا بولى عهد المسلمين مع أنه يعلم أنه لن يكون أماما، أو على حد قول السجل: "ما الحكمة فى تقديم الأمام لولى عهد المسلمين من ليس مخلفا فيه الأمامة ".

وجوابه على هذا السؤال أن الإمام إنما بفعل هذا لحكمة يراها تخفى على عقول الناس، والناس فى رأيه متفاضلون فى رتب التعليم، متفاوتون في منازل الهداية .

"وقد تقتضى المصلحة الحاضرة والمنفعة الأمنية بوجوده من السياسة وضروب من الأختيار والأمتحان، أن يشار إلى الناس بشئ والغرض سواه، ويصرح لهم بأمر وليس المقصود أياه".

ثم يشرح الحكمة الكامنة فى ان يولى المستنصر عهد المسلمين لولديه نزار وعبد الله لأنه مع علمه بأن الإمامة ستكون للمستعلى فيقول "وأنما فعل هذا مولانا المستنصر بالله لأنه لما تضمن من مكنون علمه أن الإمام انما يولد في طرف عمره، وعلم ان قلوب الضعفاء ربما توحشت أن لم تكن تسكن إلى شئ يشغلها في أوقات توحشها، وليس لهم من الصبر على أنتظار الوقت المعين، وظهور الشخص المبين، ما للأقوياء المهتدين الواثقين بعصمه المؤيدين، شغل نفوسهم بشئ يداوى به ضعفهم وقلة صبرهم، ثم لم يترك ذلك مهلا ولا أرسله سدى، بل قربة بتقليد عبد الله ليشعر كل ذى لب حاضر وحظ من التوفيق ووافر ان الأول منسوخ بالتانى، والتانى كا لاول، فاقتضى ذلك صحة تالث، وهذه نكته لا يعلم تأويلها الا الراسخون فى العالم، والمخصوصون بالذكاء والفهم، وهذا - معنى قوله تعالى :"ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها،" ولا خلاف بين أهل التأويل أن الاية مثل الاملم" الخ ...

بعد هذا التحليل لمحتويات الوثيقة كان لابد من تحديد تاريخ كتابها، وإسم كاتب الأنشاء الذى كتبها، فهي خلو منها، كما أن الناشر الأول لهذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوثيقة - صحف علي فيظي - لم يعن بتوضيح هاتين الناحيتين على الرغم من أهميتها ، وقد أستطعت بعد الرجوع الى المخطوطة: الكاملة لكتاب اتعاظ الحنفا أن أجلو ما يكتنف هاتين: النقطتين من غموض.

أشار المقريزى فى حوادث سنة ٥١٦هـ من هذا الكتاب نقلا عن تاريخ أبن ميسر - إلى نشاط الطائفة النزارية فى الموت والى نشاط أتباعها فى مصر، تم أشار بعد هذا إلى ان المأمون البطائحى وزير الأمر قد بدل جهودا ضخمة لتتبع عيون النزارية وأتباعها الذين يأتون متخفين الى مصر وينتشرون فى أنحائها لإشاعه الفوضى وبلبله الأفكار وإغتيال كبار رجال الدوله، فلما قبض عليهم قال للخليفه الامر:

" وقد كشف الغطاء وفعلت مالا يقدر أحد على فعله وأما القصر فما لى فيه حيله".

وكان يقصد بهذا التلميح أخت نزار شقيقه التى كانت لا تزال تقيم فى القصر الفاطمى بالقاهرة حتى ذلك الحين.

يقول المقريزى ـ نقلا ابن ميسر ـ:

"فلما بلغ أخت نزار ذلك حضرت الى الخليفه الامر لتبرى نفسها ، ورغبت فى أن تخرج للناس لتقول ما سمعته من والده وشاهدته ليكون قولها حجه على من يدعى لاخيها ما ليس له، فآستحسن الأمر ذلك منها ، وأحضر المآمون، وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلى، وأنفقوا على يوم يجتمعون فيه، فلما كان فى شوال عمل المجلس المذكور.

وقد قوبلت رغبتها بالترحاب وعقد أجتماع عام حضره كبار رجال الدوله ،وأبن ميسر (والمقريزى نقلا عنه) يرويان بالتقبل أخبار هذا الأجتماع العام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى عقد فى شوال سنة ٩١٦ (١١٢٢م) وقد حضر هذا الأجتماع عدد من الأشراف ورجال الدين والدولة من بينهم: أبو الحسن على بن أسامة - كاتب الدست. وولى الدولة بلو البركات بن عبد الحقيق - داعى الدعاة - ، وأبى محمد بن آدام - متولى دار العلم بالقاهرة - وأبو الريا بن مختار - فقيه الإسماعيلية - ورفيقه أيو الفخر، والشريف أبن عقيل، وشيوخ الشرفاء، وقاضى القضاة وأولاد المستنصر وجماعة من بنى عم الخليفة.

وأدلت أخت نزار - وراء ستار - للمجتمعين بأعترافها الذى تنكر فيه أمامه شقيقها وتؤكد فيه أحقيه المستعلى، مستعينة بالحجج والبراهين التى سبقت الأشارة إليها عند تلخيص الوثيقة.

ويذكر أبن ميسر والمقريزى أن المجتمعين كتبوا - بعد سماع هذا الأعتراف - محضرا بهذا الحجج والبراهين، وأنهم أضافوا إليها حججا وبراهين أخرى وصلوا إليها بعد مناقشة الموضوع من جميع نواحيه، ومناقشة الحجج التى يدلى بها النزارية، وجميع هذه الحجج والبراهين الجديدة يمكن أن نضيفها إلى النوع الثالث م فالأدلة الواردة فى الهداية الآمرية، وهى الأدلة التى قلنا أنها تعتمد على الأحداث والسوابق التاريخية، وفيما يلى موجز لهذه الأدلة التاريخية الجديدة التى أتبعت فى المحضر:

- أن ما تدعيه النزارية من أن المدة ضربت فى عهد المستنصر وعليها أسم نزار غير صحيح وأن الدينار المسمى بالدينار المنقوط الذى يحمل أسم نزار أنما ضرب فى عهد الخليفة العزيز بالله، وقد سبه عليهم الآمر أو ارادوا التمويه على الناس لأن الخليفة بالله أسمه نزارا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويسير المحضر مع ادعاء النزارية هذا خطوة أخرى، فيقول أنه لو صح مع هذا قولهم في شأن هذا الدينار لما كان فيه حجة بأمامة نزار فالسوابق التاريخية في هذا العصر الفاطمي تنفى هذه الحجة.

ومن هذه السوابق أن الخليفة الحاكم بأمر الله سبق أن أمر بضرب السكة وعليها أسم بعض بنى عمه (يقصد أن عمه وولى عهده عبد - الرحيم بن الياس) ولم ينهض هذا حجة لتولية الأمامة بعد ذلك.

ومنها أن الوزير اليازورى سبق أن سأل الخليفة المستنصر أن يكتب أسمه على السكة فوافق وضربت السكة فعلا لمدة شهور وعليها أسم اليازورى، تم بطل أستعمالها وأمر المستنصر أن لا يسيطر هذا فى السيَّر.

ومن الحجج التى أدلى بها كاتبوا المحضر أيضا أن المستنصر لما جرت على دولته الشدائد سير أولاده إلى مراكز الدفاع الهامة، فأرسل أبنه عبد الله إلى عكا - حيث كان يتولى قيادة الجيش أمير الجيوش بدر الجمالى - وأرسل أبنه أبا القاسم (والد الحافظ الذى سيتولى الخلافة فيما بعد) إلى عسقلان وأرسل نزار إلى تغر دمياط وراعى فى هذا أن يكون الأبن الأعلى مكانة هو الأقرب إلى العاصمة ولهذا لم يسمح للمستعلى بالخروج من قصره خوفا على حياته ولأنه كان يؤهله للخلافة من بعده.

والحجة الأخيرة من الحجج التى وردت فى هذا المحضر أن نزار ألا يلعب المستعلى بالخلافة فعلا بعد وفاة المستنصر.

وبالمقارنه بين سجل "الهداية الآمرية" ومن نص أبن ميسر والمقريزى يتضح أن هذا السجل هو الذى أمر بكتابته فى نهاية هذا الإجتماع الذى أدلت فيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخت نزار بشهادتها والذى نوقش فيه الموضوع بأكمله والذى كتب فيه المحضر المشار اليه ولهذا نرى مطمئنين أن الهداية الآمرية كتبت فى شوال سنة ٥٧١ هـ(١١٢٢م).

أما كاتب السجل فهو كاتب الأنشاء فى ذلك الحين.
أبن الصيرفى - وقد نص ابن الميسر فى تاريخه على هذا صراحة، فقد قال بعد أن ختم حديثة عن هذا الأجتماع.
"وأمر المأمون أبن الصيرفى بأنشاء سجل يقرأ على منبر يتضح لك وأنقض المجلس.

وقال المقريزى أيضا

وأحضر الشيخ أبو القسم بن الصيرفى وأمر بكتب سجل يقرأ على رؤوس الأشهاد وتفرع منه النسخ إلى البلاد بمعنى ما ذكر من نفس نزار عن الأمامة".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

0220217